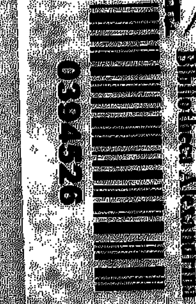
الألف كتاب (الثانى)

الفلسفة وقضايا العصر

جمعها: جون. ر. بورر
ميلتون جولدينجر

ترجمة: د. أحمد حمدى محمود

الجزء الثالث





الألف كتاب (الثانى)

١٠٢

الفلسفة وقضايا العصر

الجزء الثالث

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

محمود عبده

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

مراد نسيم

الفلسفة وقضايا العصر

مقالات وأبحاث

جمعها: جون . ر . بورر
ميلتون جولدينجر

ترجمة: د. أحمد حمدى محمود

الجزء الثالث



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩١

الاخراج الفنى : ماجدة السيد

• خامسًا

المعرفة والعلم

مقدمة الفصل

الجميع ينشدون المعرفة ، ويعجبون بها ، بل ويبجلونها ، وعلى الرغم مما يبدو في هذا القول من مظهر دارج مسلم به ، الا أنه لا يخلو يقينا من اللبس ، وهذا يفسر بغير شك لماذا يعتقد الكثيرون فى صدق هذا القول • فالمعرفة بوصفها شيئا ننشده ، وباعتبارها قيمة ، فانها توحى بشيئين بعيدى الاختلاف : أولا ـ المعرفة كغاية خيرة أو كغاية فى ذاتها مستقلة عن أى نفع يمكن أن نسخر من أجله • ثانيا ـ المعرفة كوسيلة ضرورية لضمان تحقيق أية قيمة أخرى • ونحن نصف أولئك الذين يهبون أنفسهم للسعى المنزه عن الغرض وراء المعرفة ، والذين يمارسون الفكر بتحرر « بالمفكرين » وبالمنظرين (العلماء النظريين) • وتبعا لذلك ، رأى الفلاسفة أنفسهم تقليديا قمما للثقافة ومرجعا أسمى للعلماء النظريين • كما نظر الآخرون اليهم كذلك • وثمة خرافة تاريخية تقول أن أول فيلسوف معروف لنا هو طاليس من مليتوس فى آسيا الصـــغرى (حوالى ٥٨٥ ق٠م) قد تأثر بلوم أقرانه المواطنين وقولهم أنه رجل معرفة ولكنه انسان فقير أيضا (فهل يصح بعد ذلك ما يقال عن وجود أية قيمة للمعرفة) • ومن ثم فانه استخدم معرفته فى التنبؤ ، واستطاع

ان يعرف أن الغلة القادمة للزيتون ستكون وفيرة • واحتفظ بالنتائج التى أمكنه معرفتها لنفسه ، مثلما يحدث فى حالات عتاولة رجال الأعمال • ثم قام طاليس بشراء كل محصول الزيتون الموجود فى البلاد ، واحتكره لنفسه • وعندما ظهر المحصول الوفير لدرجة غير عادية فى الوقت المناسب ، قام طاليس بتاجير مزرعة الزيتون التى يملكها لقاء اجر مرتفع . وربح قدرا كبيرا من المال بفضل معرفته كيف يسيطر على السوق • فالفلاسفة قادرون على كسب مال وفير ـ لو أرادوا ـ هكذا قال طاليس • ولكنهم يختارون الفقر ، لأنهم يؤثرون المعرفة فوق كل شىء آخر حتى الثراء • وليس من شك أن طاليس لم يلتحق بأية مدرسة من المدارس التى يتخرج منها رجال الأعمال • ولو فعل ذلك ، لكان بمقدوره أن يحصل على الدرجات النهائية فى جميع دراساته •

★★★

ورفض سقراط قبول أى مال مقابل تعاليمه ، لأنه كان لا يرضى أن يصبح عالة ماليا على أحد (فلا عجب اذا رأينـــــاه يحتقر أهل السياسة) • لقد كان سقراط عزوفا عن الثراء . فهل تحقق الثروة أى نفع غير استثارة الحواس ، وامتاعها ، مما يؤدى الى تبديد طاقتنا العقلانية ، وتشريد ذهننا ، وابعاده عن البحث عن الحقيقة ، ومن هنا رفض التوقف عن طرح الأسئلة كثمن لحياته وحريته ، وحكم عليه بالموت ، فشرب السم الى أن مات • لقد أصبح سقراط رمزا للبحث الدؤوب الجســور عن المعرفة ، رغم اعتراضـــات الأغلبية الجاهلة ، ولقد اعلن الاله أبولون أن سقراط هو أحكم انسان فى اليونان • واستطاع أرسطو ، أعظم الفلاســفة تاثيرا فى العالم الغربى ، وأول عالم بيولوجى عظيم أن يتخيل المصير الأسمى ، الذى يتوقعه للانسان ، باعتباره الحيوان الأوحد الذى يملك العقـــل • وتعد المهمة الكاملة لهذا العقـــل ، اذا لم يتعرض لأى تعويق هى المعرفة البحتة لذاتها • وعندما يعرف الانســـان فانه يقترب من الآلهة • ولو كانت هناك آلهة ، ستكون المعرفة هى المهمة الوحيدة المتواءمة ومكانتها السامية • وستغدو المهام العملية كجبر كســور العظام أو احصاء عدد ارغفة العيش والأسماك مهـــاما لا ترقى الى مســـتوى الآلهة • وفى القرن السابع عشر ، ســاوى الفيلسوف اسبينوزا بين الله والطبيعة • وعلى ضوء عشقه الذهنى لله ، بين كيف يؤدى عرفان الحقيقة الثابتة التى لا تتغير لذاتها الى الكشف عما فى

جميع مشاعر التقوى الدينية التقليدية مما هو أعظم وانفس من ذات المرء ، وكيف تؤدى المعرفة لذاتها الى اشباع التطلعات الدينية العريقة التى تهدف الى الانتصار على شراهة الزمان ، والاهتداء الى سلام راسخ لا يتزعزع ٠٠ وهكذا يساعد البحث عن المعرفة كخير قصى على ترديد الأصداء الدينية الكونية ٠ لقد كان عشاق المعرفة لذاتها يتنقلون من مكان لآخر فى مشية وقور ٠ سواء كانوا يرتدون معاطف العلماء البيضاء ، التى يرتدونها فى المعامل ، أو يرتدون التوجا ٠ وفى عصرنا الحالى ، أصبح ألبرت أينشتين رمزا للفيلسوف العالم ومحب المعرفة الخالصة ، وصاحب النظريات الملهم ٠ انه اينشتين بجبهته العريضة ، وتجاعيد وجهه وشعره الأبيض المنساب الذى يذكرنا بقائد الأوركسترا السيمفونى ، أو بغيره من الفنانين ، بوميض عينيه البراقتين اللتين تعكسان الكون من خلاليهما ٠

★★★

على أن السعى وراء المعرفة لذاتها لا يحظى بتأييد أكثر من حفنة صغيرة من الأمريكان وشعوب البلاد الأخرى ٠ وتقدر الأغلبية العظمى المعرفة فى صورتها التقنية ، أى كوسيلة لمعرفة كيف تدار الأشياء ، وكوسيلة ضرورية لتحقيق قيم أعظم أهمية ، مثل الاثارة والترفيه ٠ ومنذ قرن أو يزيد ، كتب نبى يهودى بعد أن قرأ الفلسفة الاغريقية والفلسفة الجرمانية أن الفلاسفة حتى فى عصره قد قنعوا بفهم العالم ، وان كانت المهمة الحقة للفلسفة هى تغيير العالم ٠ ويقر أغلب الأمريكان والمحدثون من أبناء شتى أنحاء العالم ما قاله كارل ماركس ٠ وتقدر الأغلبية العظمى من المعاصرين ، رجالا ونساء ، المعرفة كقوة والمعرفة كتكنولوجيا ، أى كنوع من السحر الفعال ، وككورنوكوميا يتدفق منها سيل فياض من الثراء ، وما يصحب ذلك من جاه وترف ٠ وباستثناء أقلية صغيرة من المفكرين ، فان أغلب المعاصرين يعرفون تماما ماذا يريدون ؟ ٠ انهم ينشدون الثراء والقوة والترف ٠ وفى اعتقادهم ، تتركز المشكلة على كيفية حصولهم على قدر وفير من الثراء والقوة والترف ، وما يترتب على ذلك من آثار ٠ وما يقال عن ان ثمن هذه الأشياء قد تحقق على حساب تلوث البيئة ، وما أصاب البحيرات والقنوات من تعكر وأوصاب وازهاق لروح الفطريات وتدهور للحياة البشرية ، قد استطعنا حتى الآن قبول ثمنه بقلب راض ، واذا قيل أن هذا الثمن قد يزداد فحشا ، بل وقد تكون له آثار مهلكة ، فان جوابنا

سيكون ايمانا بأن دواء أوصاب التكنولوجيا هو هو المزيد من التكنولوجيا ، والمزيد من النهوض بها ٠

ولما اثبت العلم قدرته الخصيبة على انتاج هذه الخيرات ، وقدرته على التخلص شيئا فشيئا من جميع الآثار الجانبية غير المرغوبة ، سمح له بالارتقاء الى أن بلغ مستواه الحالى ٠ اذ يعد العلم ، وبخاصة فى جانبه النظرى كسعى وراء المعرفة لذاتها واحدا من أهم الوسائل المخربة التى اخترعها الانسان ٠ فلا عجب اذا ثارت الاعتراضات على شخصيات مثل كوبرنيك وجاليليو وداروين وأينشتين وفرويد ، وصوروا كسحب قاتمة تدمدم بأصوات راعدة ، وتتوهج مثل البرق فى السماء ٠٠ انهم يرمزون الى حقيقة مقلقة ، بعد أن أثبت العلم لنا دائما أن العالم والبشر شيئان يختلفان عما يعتقده أغلب الناس عنهما ، ومن ثم رأت الاغلبية وجوب خضوع المعرفة البحتة الى قيم أخرى ، ان ملايين من الأمريكان يقودون سياراتهم ، ويرفضون فى الوقت نفسه ما يقال عن أن الانسان من الثدييات ٠ ان السعى وراء المعرفة أمر نفيس شريطة أن تتوافق مهمته هى والأمن القومى ٠ ولا جدال أن علينا جميعا أن نتثبت من نظرياتنا بعد القيام بجملة محاولات ٠ غير أن هذا لم يحل دون تصورنا أن أوساط الأمريكان يتفوقون على أى أجنبى فى جميع الأنحاء ٠

كلا ، اننا اذا قلنا أن أغلبية البشر ، رجالا ونساء على استعداد لتحمل العلم ، والاعجاب به ، وتعظيمه ، فان علينا أن نراعى أنهم لا يفعلون ذلك بدون قيد أو شرط ، فهم يرون وجوب اقتصار دور العلم ، على العمل كوسيلة ضرورية لتحقيق غايات لا علمية مرغوبة ، وعندما يخفق العلم عن التزويد بالوسائل الضرورية ، فان الناس يتجهون الى أنواع أخرى من « المعرفة » ، خلاف المعرفة العلمية ٠ فهل ينظر علم النفس بمعناه العلمى الحق نظرة ارتياب الى المدركات الخارجة عن نطاق الحس ٠ وهل يتشكك فيما يقال عن وصول رسائل من العم المحبوب ماكس الذى فارق الحياة منذ سنوات عديدة ؟ ٠ لو صح ذلك ، فان علم النفس العلمى سيوصف بانه دوجماطيقى ومادى ومحصور الأفق ، ولا يزيد فى أفضل الأحوال عن معرفة جزئية ٠ واذا عجز علم الفلك عن أن يخبرنا هل سننعم بالسعادة اليوم ، أم أننا سنشعر بالتعاسة ، فان التنجيم سيفلح فيما أخفق فيه علم الفلك ٠ واذا أقام العلم بعض الصعوبات التى تصعب اعتقادنا فى وجود اله ، فان أفئدتنا ستعرفنا بانه

موجود ، واذا أخفق فى البرهنة بطريقة مقنعة ، بأن واجبنا أن نحب بعضنا البعض ، وأن يتوقف كل منا عن الشعور ببغض أخيه الانسان ، فان البصيرة الغيبية قادرة على أن تفعل ذلك •

ان ما فى المعرفة من نقائض وغوامض كفاية فى ذاتها وكوسيلة لتحقيق قيم أخرى ، هو الأصل الذى نبت منه التأمل الفلسفى فى المعرفة والعلم ، ومن هنا يدرس الفلاسفة ويناقشون ما يطلقون عليه مصطلح الابستمولوجيا ، أى البحث عن أصل المعرفة وطبيعتها ومنهجها وحدودها ••• ويشعر الفلاسفة بالاندهاش ، وكثيرا ما يتساءلون حول مسائل مثل : ما هى طبيعة المعرفة ؟ • وما هى المعايير التى تفرق بين المعرفة الحقة والمادة الدالة على الزيف والتدليس ؟ وهل ترجع جميع المعارف الى تجارب حسية ، أم أن عقلنا قادر على ادراك وجوب اتصاف قضايا معينة بالصدق بغض النظر عن التجربة الحسية ؟ وما هو العلم ؟ وما هو المنهج العلمى ؟ وهل هناك منهج علمى ؟ وهل تعد جميع المعارف جديرة بأن يكون مصدرها هو العلم ، والعلم وحده ؟ وهل هناك أشياء يعجز العلم عن الاهتداء اليها ؟ •• واذا غالينا فى التطرف فاننا نتساءل هل بمقدورنا أن نعرف أى شىء على الاطلاق ، أم أن المسألة لا تزيد عن كونها ظنوننا وآراء متقلبة ، وأن ما ندعوه « بالمعرفة » لا يزيد عن هذه الأوهام ، أو ربما بعض الهواجس المتفق عليها ؟ •

لن نفلح فى محاولة البحث عن شىء ما مالم نتشكك فى الاعتقاد بأننا نعرف كل شىء • واكتفى سقراط بالزعم بأنه يعرف أنه لا يعرف • ان مثل هذا التشكك فى حقيقة ما يزعم بأنه معروف يسمى بالشك الفلسفى ، ومن المقدور تحويله الى شك منهجى ، ودفعه الى ما هو أبعد مما فعل سقراط • ولقد عمد بعض الفلاسفة الى استشمال الشك ، بحيث يضم كل شىء ، فقالوا بأنه لا شىء موجود ، أو أنه اذا وجد أى شىء ، فانه بغير الاستطاعة معرفته • أو اذا أمكن معرفة أى شىء ، فمن المستحيل تعريفه للآخرين • ويتعين لكى يكتسب الشك الصفة الفلسفية أن يستند الى حجج ومبررات • تأمل الزعم بأنه ليس فى وسعنا أن نتعلم أى شىء جديد • ان هذه النتيجة قد ترتبت على القضية القائلة بأننا غير قادرين على الاهتداء الى أى شىء مالم نعرف أولا ما الذى نبحث عنه • فمالم نعرف ما الذى نبحث عنه ، فاننا سنعجز عن معرفته عندما نهتدى اليه • ومن هنا ، فاننا غير قادرين على الاهتداء الى غير

ما نعرفه بالفعل ، أو ليس بمقدورنا أن نتعلم ما لا نعرفه . ولا ينصح الطلبة بالالتجاء الى هذه الحجة عندما يجيبون على أسئلة الامتحان ! . فاذا أضفنا الى الحجة ما يلاحظ على كون جميع البشر قد ولدوا جهلاء ، فاننا سنستخلص النتيجة القائلة بان لا احد قادر على تعلم أى شيء . غير أنك قد تزعم أنك قد تعلمت الكثير من الأشياء ؟ . فى هذه الحالة سيتوجب عليك أن تدحض حجة الشاك ، أو تعترف بأنك قد خدعت عندما اعتقدت أنك قد تعلمت أشياء كثيرة . ويحاجى من شك فى كل شيء ويقول بأنه ليس فى وسعنا التيقن من أن أية قضية صادقة ، لأنه يلزم فى المقام الاول أن نحصل على معايير يعتمد عليها للتمييز بين الحق والباطل ، ولكن أنى لنا أن نعرف أن بوسعنا أن نعتمد على تبرير المعايير ؟ ، فأولا — يجب أن يبرر التبرير ، وقبل ذلك فان علينا أن نبرر تبرير التبرير ، وبذلك نتراجع تراجعا لا متناهيا ، وهذا يعنى أنه لا يوجد أى معيار يفصل الحق من الباطل يمكن تبريره . وثمة أنواع عديدة لهذا النوع من الحجج . فحواسنا تخدعنا ، ومن ثم فاننا نلوذ بعقلنا لكى يخبرنا متى تخدعنا حواسنا ومتى لا تخدعنا .. ولكن قبل كل شيء ، علينا أن نعرف أولا : هل يخدعنا عقلنا أم لا يخدعنا ؟ . وهكذا نضطر الى التراجع بلا حدود أو نهاية . وأيضا ثمة بعض يرى أن علينا أن لا نصف بالصدق اى قضايا خلاف القضايا المؤيدة بالمشاهدة . ولكن ما الذى يدفعنا الى قبول المبدأ القائل بأن علينا أن لا نصف بالصدق غير القضايا المؤيدة بالمشاهدة ؟ . ثم بعد ذلك ، ما الذى يدفعنا الى قبول المبادىء الاضافية التى يستند اليها لتبرير هذا المبدأ ؟ .. وهكذا وهكذا .

★★★

وفى البداية ، قد يفترض بسذاجة أن علينا أن نبحث عن ملجأ نلوذ به من الشك بالارتماء فى أحضان الغيبيات المقدسة والاستبصارات الصوفية ، أو الرؤى التى نحصل عليها باستعمال المخدرات أو الحشيش . على أن الكثير من الكشوف الروحية والاستبصارات والرؤى تتناقض بعضها مع بعض . ولا ننسى تناقضها هى والمفهومية الدارجة Common sense والعلم ، ومن ثم فلن يستطاع تفادى سؤال التفرقة بين الحق والباطل الى الأبد . ومن هنا ينتظر الشاك صابرا عودتنا التى لا مفر منها الى موقف الشك .

ومع هذا ، الا يلاحظ وجود نفور عملى ونظرى شائع على نطاق كبير من الشك الكلى ؟ ألا يثبت الكيان الهائل للعـــلم الحديث ، وبخاصة فى تطبيقاته فى كل مكان تقريبا فى الحياة المعاصرة بكل وضوح ، أن بمقدورنا التفرقة بين الحق والباطل ، وأن بوســـعنا أن نعرف وأن نتعلم ٠

★★★

واذا استنرنا بالنور الساطع للعـــلم ، فاننـــا سنرى حجج الشاك قد بهتت وانكشفت على حقيقتها ، وظهر أنها مجرد ألاعيب لفظية ، وبراعة فى استعمال الألفاظ ٠ والحق أن حجج الشكاك ، اذا قورنت بمنجزات العلم ، فانها لا تستحق الكشف بوضوح عما فيها من مغالطات منطقية ٠ وعلى عكس ذلك ، فانه بالاســـتطاعة استبعادها ، ودرجها تحت عنوان النوادر الفلسفية ٠ وهل يمكن أن توصف بغير ذلك ؟ ٠

★★★

وفى القراءة الأولى فى هذا الجزء ، يسعى برتراند رسل لاثبات كيف استطاع الشك أن يكتسب حيوية جديدة وقوة دافعة جديدة داخل حصن العلم ذاته ، الذى يفترض أنه قد قهر هذا الشك ٠ ورسل واحد من أعظم فلاسفة العهـد الحديث ٠ وقد أمضى حياته الطويلة بأسرها باحثا عن المعرفة لذاتها ٠ اذ كان يتطلع الى الاهتداء الى الحقيقة واليقين ٠ ولكن رسل اكتشف اخفاق العلم فى التزويد بالحقائق التى لا ريب فيها التى يرنو اليها ، اذ يرتكز العلم برمته ـ فى آخر المطاف ـ على المدركات الحسية ، أى على ما نراه ونسمعه ونشمه ونتذوقه ٠ والعلم خاضع بأسره لمبدأ العلة والمعـــلول ٠ وتختلف جميع العلل عن معلولاتها ، ولولا ذلك لغدت جميع العلل هى هى معلولاتها ، ويصـــبح كل ما ندركه من ألوان وأصـــوات وروائح ٠٠ الخ ٠ معلولات ، ومن ثم فاننا لا ندرك أية علل ، وجميع العلل عبارة عن مسلمات وكيانات نســـتخلصها بالاعتمـــاد على الاستدلال الاستقرائى ٠ غير أنه فى الاستدلال الاستقرائى (أى فى محاولة استخلاص النتائج على أساس ما ندركه) لا يكون الدليل كافيا لاثبات صدق النتيجة ، وارتفاعها على الشك ٠ وقد تكون النتيجـة فى أى برهان اســـتقرائى دائما زائفـــة ٠ ولن يكون بمقدورنا اطلاقا التيقن من حقيقة أية نظريات علمية ، لو وجدت ،

ويترتب على ذلك عدم قدرة العلم على قهر الشك • ويبين من هذا أن عالم حياتنا اليومية الذى ندركه ، بما فيه من سماء زرقاء وأرض وأشجار خضراء وبيوت واناس وغروب جميل ـ يبين أن جميع هذه الأشياء مجرد وهم ، وليس باستطاعتنا اطلاقا التأكد من معرفتها • ويتفق العلم الحديث و « بروسبيرو » البطل الرقيق الشاك فى رائعة شكسبير « العاصفة » عندما قال : اننا مصنوعون من نفس المادة التى صنعت منها الأحلام •

★★★

ويتشابه رينيه ديكارت وبرتراند رسل فى بحثهما عن اليقين الفكرى • فأن تعرف شيئا ما يعنى أن لا تكون قادرا على الارتياب فى حقيقته • ومن ثم قام ديكارت بالبحث عن قضية لا يستطيع التشكك فيها • فلو أمكنه اكتشاف مثل هذه القضية ، سيكون قادرا آنئذ على فحصها لكى يعرف ما هى الخصائص التى تتصف بها ، والتى أكسبتها مناعة لا تحتمل الشك ، ان هذه الخصائص هى التى ستزود بمعيار اليقين • وبمجرد معرفتنا لهذا المعيـــار اليقينى ، ســيكون بمقدورنا أن نصنف جميع القضايا التى تتجــاوب وهـذه المعايير اليقينية ، ونفرق بينها وبين من تعجز عن ذلك ، واكتشف ديكارت عدم قدرته على ذلك ، لو اعتمد على عملية الشك ذاتها ، أى تشكك فى القضية التى يشك فيها • فلما كان الشك نوعا من التفــكير ، فبنــاء على ذلك ذكر ديــكارت أنه مادمت أفكر ، فأنا اذن موجود (Cogito ergo sum) ، فلمــاذا لم يتشكك فى هذه النتيجة ، لأنه رآها أمرا واضحا جليا • والوضوح والتمايز عند عقلنا همـا معيـار اليقين ، وما لبث أن اكتشــف قضايا أخرى مماثلة فى اكتمال وضوحها وتمايزها مثل القول بان لكل معلول علة ، والقول بأنه لا وجود لعلة أقل كمالا من معلولها •• وغير ذلك •• وأهم من ذلك فان الرياضيات واضحة ومتمايزة فى نظر عقولنا ، ومن ثم تكون الفزياء الرياضية حقيقية • ان كل ما يتعذر تناوله عن طريق الفزياء الرياضية يتعين أن يندرج فى نطاق الايمانات والظنــون الذاتية • ويلاحظ أن معيار اليقين عنــد ديكارت هو الوضــوح والتمايز أمام العقل ، وليس بالنسبة للمدركات الحسية • ويصور ديكارت صورة من العقلانية الفلسفية ، التى تعتقد أن هناك بعض قضايا باستطاعة العقل أن يعرف حقيقتها دون استعانة بالتجارب الحسية • واذا اهتدينا الى زادنا من القضايا ، التى تعرف صحتها ،

سيكون بمقدورنا بعد ذلك ـ منطقيا ـ أن نستخلص قضايا أخرى ، يتعين أن توصف بالصحة ، حتى يستطاع الاحاطة بجميع المعارف الانسانية كاملة فى نسق استنباطى رحيب واحد • وعلى هذا النحو فقط يستطاع التغلب على تهديد تيار الشك الكلى • هكذا يزعم العقلانيون •

★★★

لقد أصبحت الآن المشكلة مركزة تركيزا حادا • فهل هناك أية قضايا تخص العالم ، بالاستطاعة برهنتها بالاعتماد على مقدمات لا تحتاج الى برهان ، وباتباع خطوات بينة فى ذاتها ؟ • يرى الفلاسفة العقلانيون أن هناك مثل هذه القضايا ، وينكر الفلاسفة التجريبيون وجود مثل هذه القضايا • ويدافع « ويلاردفان أورمان كوين » و « جوزيف سيلبرت أوليان » عن الاتجاه الأساسى للمذهب التجريبى ، الذى يعتقد أن الدليل النهائى لنسق معتقداتنا فى جملته يعتمد على مشاهداتنا المباشرة • وينكر الفيلسوفان ما يقال عن أن التجريبية ستتمخض بالضرورة عن اتجاه ذاتى ، كما يزعم الشكاك والعقلانيون • وبالمقدور الحصول على مشاهدات يتفق عليها بصفة عامة ، اذا لم نر وجود هوية بين المشاهدات والأحداث الحسية ، وقمنا عوضا عن ذلك بالتركيز على الأفكار المستندة الى المشاهدة ، وما يحول أية جملة الى جملة مشاهدة Observation Sentence (وهذا مصطلح من مصطلحات المذهب التجريبى المتأثر بفلسفة اللغة) هو وجود شاهد ثان لا يتردد فى تأييد هذه المشاهدة ، عندما يوضع فى نفس الموضع ، مادام يعرف مفهوم هذه الجملة • وعلى الرغم من أن القائم بالمشاهدة فرد ، الا أن « جمل المشاهدة » مسألة عامة وبينية بين مختلف الذوات • وتعد جمل المشاهدة قريبة من العصمة •

★★★

و « المخبر كعالم » مقال كتبه ارفنج م• كوبى • وهو من المناطقة المعاصرين البارزين ، ويزودنا ببيان أحد الثقات ، عن البناء الأساسى لعملية البحث أو حل المشكلة التى أصبحنا نسميها « بالعلم » أو المنهج العلمى ، ويعرفنا بمنطقها ، ولقد أثبت العلم اثباتا متزايدا بخاصة منذ القرن السابع عشر أن العلم ليس مجرد طريقة لحل المشكلات ، لأنه يؤدى الى ما هو أكثر من اكتشاف الحقائق التى لم تعرف حتى الآن ، انه يقوم بفحص النظريات

الجديدة ، ويلهم باختراع تكنولوجيات مقتدرة ، ان العلم الحديث ظاهرة حضارية ذات أهمية هائلة متنامية • ويتأثر علم أى عصر بحضارة هذا العصر ، ثم يؤثر بدوره فى الحضارة التى أنجبته • وقد ازداد تداخل العلم ، وشـــموله ، وغدا يؤثر تأثيرا أعظم من تأثير الحضارة فيـــه ، ومن علامات ما طرأ من تغير على دور العـــلم ، وسلطانه ، الخلافات المتزايدة حول قيمة العـــلم • ويرى هنرى مارجيناو ، وهو عالم وفيلسوف ، أن العلم قد خلق فلسفة جديدة ترتب عليها تغير متصاعد فى نظرتنا الفكرية ، وتبدل فى معتقداتنا ، بما فى ذلك تصورنا لماهية المعرفة ، وكيف تكتسب ، وفوق كل شىء لقد حدث تغير فى نظرة الانسان لطبيعته •

***

ولقد تبنى سقراط موقف الشورى ، الذى يرجع الى عهد أقدم مما ظن ، عندما استحث أقرانه أبناء أثينا على معرفة أنفسهم ، وقال ان المعرفة الذاتية بالاضافة الى قيمتها فى تنبيه المرء الى افتقاره الى مثل هذه المعرفة ، هى أهم نوع من المعرفة ، انه أهم من فهم طبيعة السماء أو أسباب الاعاصير والزلازل • اذ كان سقراط مقتنعا بان طبيعة الانسان تحمل فى طياتها ـ ضمنا ـ اتجاه الأسلوب الذى يتعين عليه أتباعه فى الحياة ، وطبيعة الحياة الخيرة للانسان • ولم يختف هذا الاعتقاد بعد اختفاء جسد سقراط ، فثمة كثيرون يعتنقون هذا الاعتقاد الآن • انه يكاد يبدو كأنه واحد من المثـــل الأبدية التى سـلم بوجودها أفلاطون ، أهم تلامذة سقراط ، والأمــر بالمثل فيما يختص بصورة سقراط كشهيد من شهداء الحق : ما هى طبيعـــة البشرية ، وهل يملك الانسان طبيعة ثابتة محـــددة ، أم أن الأمر عكس ذلك ؟ وما الذى استطاع العلم الحديث قوله فى هـــذا الشأن لو كان عنده جديد يســـتحق أن يقـــال ، اجابة على هذه الأسئلة العريقة ؟ وهكذا نصل الى أول مشكلة قديمة ومعاصرة معا : الانسان فى مقابل القوت •

★★★

وتمشيا مع ما يقوله ادوارد • أو• ويلسون فهناك علم متطور للبيولوجيا الاجتماعية يدرس ، « جميع مناحى السلوك الانسانى ، بما فى ذلك تطور السلوك الاجتماعي للانسان » • ويرى ويلسون أن التطور البشرى عن طريق الانتقاء الطبيعى ، يعنى أن الانسان وليد

المصادفة والضرورة البيئية ، فنحن نملك أمخاخا لأنها تساعدنا على استمرار بقاء الجينات (المورثات) ، وتكاثرها ، وهى التى توجه تجمعاتها وتكويناتها • ويتصور ويلسون العقل البشرى كجهاز للحفاظ على البقاء والتوالد ، والعقل هو معلول المخ • والحتمية البيولوجية هى عماد النظرة الأساسية لويلسون ، الذى يرى أن البيولوجيا الاجتماعية لا تكتفى بالقول بأن هناك حدودا محتومة فى طبيعة المورثات تعمل على تحديد المسالك الانسانية الممكنة ، ولكنها قادرة أيضا على التكهن بالمورثات ذات الصفات الخاصة والمتنوعة فى الطبيعة البشرية مثل الخنق والعدوان والشذوذ الجنسى والغيرية ، والاختلافات السلوكية المميزة التى تفرق الذكور عن الاناث فى المجتمع الغربى • ولا ينكر ويلسون امكان التعلم عن غير طريق المورثات ، ولكنه يحذر من المغالاة فى تقدير ذلك • ويرفض جميع التفسيرات الدينية والأيديولوجية للسلوك البشرى ، ويرى عوضا عن ذلك أن العقل الانسانى خاضع للمورثات • فاليها ينسب خلق السلوكيات والأديان والأساطير • وله نظرة أسطورية أسمى ، قام بعرضها ، وبدت فى صورة مذهب مادى علمى مصحوبا بملحمة تطورية • وعلى الرغم من تعذر اثبات صحة المذهب المادى التطورى ، ورفعه فوق مستوى الشك ، الا أنه بالاستطاعة تقريبه من الحقيقة ، اذا أمكن انشاء العقل القادر على الحكم على الحقيقة •

★★★

وينتقد ستيوارت هامبشير ما يراه نظرية فلسفية مضمرة فى مذهب البيولوجيا الاجتماعية عند ويلسون ، يعنى ازدواجية العقل والجسم ، التى يسميها الفلاسفة epiphenomenalism (مذهب الظواهر اللاحقة) • ويرى هذا النوع من المذاهب الازدواجية أن العقل يختلف عن الجسم • ويتناسى أن الحادثات العقلية دائما معلولات لحادثات جسمانية ، ولا شىء غير ذلك ، ولا يمكن أن تكون عللا لهذه الحادثات الجسمانية • وبالمقدور التوسع فى هذا المذهب الخاص بالازدواجية وجعله يضم الحضارة (التى تدرسها العلوم الاجتماعية ، وبخاصة الأنثروبولوجيا ، والطبيعة الفزيائية ، أو النظرية الفزيائية (نطاق العلوم الفزيائية) • ويتركز تصور البيولوجيا الاجتماعية على تصور علم مفرد يفسر مهام طرفى هذه الازدواجية فى سياق « تركيبة » أشمل ، تشتمل على الناحيتين النفسية والاجتماعية بوصفهما يمثلان الذات الفاعلة والموضوع •

ويعارض هامبشير هذه النظرة ، ويعتقد أن هذه الازدواجية تمثل صورتين أو نمطين للكينونة البشرية يتعين علينا متابعتهما كل على حدة ، بحكم طبيعتنا كمفكرين نتمتع بالوعى الذاتى ، ونشعر أن لنا أجساما يحل بها الوعى • ويسعى أحد أنماط البحث ، الذى يتميز به الانسان ـ عندما يتنزه عن الغرض ـ للاهتداء الى فهم نظرى خالص للكائنات البشرية باعتبارها خاضعة لقوانين كلية للطبيعة • ويتركز النمط الآخر الذى يتميز به الانسان باعتباره صاحب دور فعال فى المجتمع ، على محاولة فهم طريقة التفكير عند الكائنات البشرية •• ومن سمات نوعنا البشرى ، القدرة على التناوب بين هذين الأسلوبين من أساليب البحث ، وتطرح البيولوجيا الاجتماعية مثلا أعلى مستحيل التحقق • فهى تتجاهل تنوع الحضارات واللغات ومختلف السياقات الاجتماعية التى يدور فيها الفكر الانسانى ، مما جعل من المتعذر تفسير الفكر الانسانى بالاعتماد على قوانين كلية ، اكتسبت صفة الكلية من كونها قد تجاهلت مثل هذا التفرق ، فمن غير المستطاع تفسير أية ظواهر بالرجوع الى ظواهر متشابهة ، أى بالرجوع الى ظواهر النمط المنطقى • ولن تفهم الأفكار الا من تواصل الأفكار ، وليس بالرجوع الى قوانين الحركة • ويرى هامبشير أنه فى غير مقدور أى عالم مادى معاصر أن يتصور العلاقة بين العقل والجسم كعلاقة مادية كما يذكر أنصار مذهب الظواهر اللاحقة epiphenomenalist اذ عليه أن يتصورها كعلاقة متوازية بين سياقين يتماثلان فى حقيقتيهما ، ويتماثلان فى ضرورتهما لأى فهم كاف لأنفسنا •



وتعرض مشكلتنا المعاصرة الثانية صراعا بين طرفين : « الغيبية » و « العقل » فهل يرتضى الانسان الخضوع دون قيد أو شرط لسلطان العلم والتكنولوجيا ، ويرفض جميع المصادر الموثوقة المتصارعة ؟ أم أن عليه أن ينظر الى الغيبيات كمصدر عرفانى ، له ثقل مماثل للعلم ، أو ربما يتفوق عليه ؟ ، أم أن الواجب أن تزدرى الغيبيات باعتبارها معرفة وهمية ، فلا ننسى أن التأمل أو التجربة الغيبية تجربة لا عرفانية ، مهما كانت قيمتها سيكلوجيا ؟ •

فاذا كان الكثير من مشكلاتنا قد تفرعت من العلم ، وبخاصة المشكلات التى ترتبت على أوجه النفع ، التى حققتها المعرفة العلمية ، والتى وضعت بين يدى اناس من غير العلماء من أمثال الساسة

والقادة العسكريين ، ألا يصح فى هذه الحالة اعتبـــار الاكثار من العلم وسيلة لعلاج أوصاب المجتمع المنحاز للروح العلمية ، أم هل يصح القول بأن مجتمعنا يعانى من الافراط فى اتباع العـــلم ؟ • ويناقش روشاك هذه المسألة ، ويقول أننـــا نعانى من افراط فى التعلق بالعلم ، بينما يرى جون باسمور أننا نعانى من نقص فى العلم •

★★★

وفى المقتطفات التى اختير لها عنوان « الغيبية والايكولوجيا : الذهن الشاعرى » ، رأى المؤرخ الأمريكى تيودور روشاك ـ وهو واحد من رواد أنصار « الاتجاه المعادى للحضارة » ، الذى يعترض على اتجاهنا العلمى التكنولوجى ، ويرى أن هذه المشـــكلات قد اتخذت الصدارة فيما يدعى بعلم الايكولوجيا ، ويراه علما مدمرا* ، ولقد استحقت الايكولوجيا صفة العلم المدمر ، لأنها ـ كما يشرح روشاك ـ قد اختلفت اختـــلافا جذريا عن العلم التقليدى • فلقـــد استبعدت الايكولوجيا ـ مختلفة عن العلم التقليدى ـ « التعميمات الرياضية » ، أو الردية المادية reductionism • وهـــدف هذا العلم الجديد ـ عوضا عن ذلك ـ الى الاهتداء الى العلاقة بين الكائنات وبيئاتهم ، والى الاعتماد على الادراك الحدسى للوحدات الكلية بدلا من تحليل هذه الوحدات الى مكوناتها • وبعبارة أخرى ، انه يســـعى الى تأمل العالم فى شموله ، بدلا من محاولة التعامل معه • ولقـــد أدى تركيز الايكولوجيا على الحدس والتأمل الى اقترابهـــا من الفن والدين ، والغيبيات بوجه عام ، وابتعادها عن العلم العقلانى • ان عاشق الفن ، والمتعبد الدينى وصاحب الرؤى الغيبية لا يســـعون للحصول على سلطان على العمل الفنى ، أو الله أو الواقع ، يساعدهم على تغيير هذه الموضوعات • ولكنهم بالأحرى يسعون الى الفناء فيها والشعور بالبهجة من جراء ذلك • ويعتقد روشاك أن هذه التأملات الاستاطيقية والدينية والنفسية تزود بنموذج أكثر كفـاية يتبعه الانسان لضبط علاقته بالبيئة فى شمولها يتفوق على الاتجاه الامبريالى التسلطى الذى يتصف بالهيمنة والكامن فى العلم التقليدى • ولقد تحول الصراع بين الغيبيات والعقل الى صراع بين القيم • وسينتهى الأمر بأية فلسفة للقوة الى تحطيم الخاضعين للقوة ، ومن يتحكمون فيها ، على حد سواء ، ويعرض الفساد والانهيار الذى حل بجميع

(★) لعله يقصد « علما مدمرا للعلم بمعناه الوضعى » •

الشعوب والبلدان البدائية ، وغزاة هذه البلاد نموذجا يرمز لذلك ، ولما يترتب من خراب بالضرورة من أثر نسبة أعظم القيم للنزعات التي تؤمن بالقوة والسيطرة ، ويبدو أن الاعتراض الرئيسي لروشاك على العلم التقليدى قد تركز على كونه يؤازر فلسفة تشجع على زيادة شعور البشر بسلطانهم وتحكمهم الشامل فى بيئتهم • وهذا يعني ـ بكل بساطة ـ أن العلم التقليدى قد حل محل الطبيعة عند هذه الشعوب البدائية « الفطرية » ، التى حاول الامبرياليون فى القرن التاسع عشر تحضيرهم ، أى تزويدهم بقبعات أنيقة وكورسيهات ، ونقل عدوى الأمراض اليهم •



لقد أراد روشاك تطهير العلم أو العقل من جميع ألوانه القومية والامبريالية ، وتحريره من عبوديته لفلسفة القوة ، التى تعد من الناحية الدارجة فلسفة نفعية ومخدرة للقيم الانسانية فى شتى أنواعها الثرية • من هذا يتضح وجوب اعادة العلم التقليدى الى حجمه الأصلى ، حتى يتوقف الناس عن تأليهه ، وعبادته عبادة الأوثان ، وأن ينظروا اليه عوضا عن ذلك نظرة أكثر واقعية وانصافا ، أى كمجرد قيمة انسانية ومهارة انسانية من بين شتى القيم والمهارات • وسيتحقق الخلاص من هذا المظهر المتشامخ للعالم ، وهذا اجراء صحى ، اذا أمكن دمجه فى العقل الشاعرى rhapsodic intellect وعندما يتحقق هذا التكامل بين العقل العلمى والعقل الشاعرى ، فان العقل سيتسع وتتعدد ملكاته • فعلينا أن نسمو ونبلغ حالة من التبصر الذى يساعد على ادراك أن هناك أنواعا مختلفة من المعارف ومن وسائل بلوغ العقلانية • فالأسطورة والغيبيات وتعابيرهما فى الفن والدين تزودنا بمعارف ذات أصداء resonant ، أى معرفة رنانة • والمعرفة بمعناها الدارج بمثابة اعتقادات صادقة ، ويستطاع صوغها فى صورة قضايا وأحكام • أما ثمارها فهى القدرة على السيطرة على الطبيعة والانسان • « والمعرفة الرنانة » معرفة مباشرة ، وتمثل التجربة الشخصية الحية ، وثمرتها هى الرؤى الشاملة ، أو التكيفات الشاملة • وهذه الرؤى الشاملة أو التكيفات الشاملة بمثابة « كل » يضم قيما شتى أو تكاملا لها • ولا ينكر روشاك قيمة المعرفة بمعناها الحرفى ، ولكنه ينكر وصفها بالقيمة الوحيدة ، أو حتى بالقيمة الأسمى • ويتماثل معها ، وربما فاقها فى الأهمية القيم التى يعرضها الفن والدين والغيبيات • وما يقرر فى نهاية الأمر لماذا لا يجب أن تعد المعرفة الأدبية القيمة الوحيدة أو

الاسمى ؟ ، ليس الرجوع الى الوقائع التقليدية ، ولكن بالرجوع المباشر الى التجربة الشخصية ، وما فيها من أبعاد ثرية ومتنوعة من القيم الانسانية ، مما جعلها جديرة باسم المعرفة الرنانة resonant knowledge • ان هذه المعرفة الرنانة تمثل تجربة القيم ، وهى ليست عبارة عن مجموعة من المعتقدات الصحيحة ، التى تفصح عن نفسها فى صورة قضايا ، لأن المعرفة « الرنانة » تتحقق بالاعتماد على التعرف ، acquaintance ، أما المعرفة بمعناها الحرفى فانها معرفة قائمة على الوصف • وبمعنى آخر ، يرى روشاك أن العلم والفن والدين والغيبيات صيغا متساوية فى قيمتها فى التعبير عن المعرفة ، والسعى نحو بلوغ العقلانية • انها جميعا وسائل للحصول على عرفانية تعزز القدرة على الانجاز Know how والحصول على قيم متنوعة ، سواء عنيت هذه القيم الحصول على السيطرة على البيئة ، أو بتحقيق الاتحاد بالبيئة عن طريق التأمل • والعقل الشاعرى (الرابسودى) هو حصيلة الجمع بين المعرفة التقليدية و « المعرفة الرنانة » ، ولسان حاله هو « هدم العلم التقليدى عن طريق الايكولوجيا » •

★★★

ويعتقد الفيلسوف جون باسمور أن « المعرفة الرنانة » ، التى أسرف روشاك فى امتداحها ، بكلام مشوش ، أشبه بالنفاية التى تحتاج الى سرعة الازالة • ويرى باسمور أن الغيبيات ـ وليس العقل ـ هى أكبر مصدر يهدد رفاهية الحضارة البشرية مستقبلا • والنتيجة الأساسية التى يدافع عنها باسمور هى أنه اذا أمكن حل المشكلات الايكولوجية ، فانها لن تحل الا عن طريق « الحلول العملية المبنية على الفكر » • ولن يتحقق ذلك بتحويل الطبيعة الى غيبيات • ولا يصح حقا وصف « العلم » الذى لا يحل مشكلات علما • ويعتقد باسمور أن الكثير من المعانى الدارجة فى قضايا الغيبيين انما ترجع الى تفسير خاطىء للعلم على أنه فى صميمه يتخذ « شكلا ذريا » ، أى أنه عاجز عن ادراك بعض حقائق هامة تتعلق بالظواهر فى صورتها « الكلية » ، أو ادراكها فى صورة نسقية ، بدلا من صورة فتات الظواهر ، التى عزلها التحليل العلمى ، بعضها عن بعض ، ومن حيث المبدأ ، لا وجود لحقائق هامة يمكن ادراكها بالاستعانة بالبصيرة الغيبية ، وليس عن طريق العلم • ولا يقتصر دور العلم على التحليل الى أجزاء ، ولكنه يهدف أيضا الى دراسة الأنساق الطبيعية أو « الوحدات الكلية » ، وما يتبعها من علائق متبادلة • أما الظن بأن

الطبيعة شيء مقدس ، لا يجوز تدنيســـه أو تغييره ، وانما علينا أن نكتفى بتأمله ، فانه مظهر من مظاهر الروح الانهزامية التى جاءنا بها محترفو الايكولوجيا ، عندما قالوا لنا اننا اذا أردنا حل مشكلاتنا الايكولوجية ، فان علينا أن نشوه الطبيعـــة حتى يكون بمقـــدورنا السيطرة عليها • نحن بحاجة الى سلطان أكبر من الطبيعة ، وليس الى سلطان أقل • والايكولوجيا عبارة عن علم ، ومن ثم فان هدفهـا هو ازالة الغوامض ، وليس تأملها أو خلقها • وتتعرض النظرة التى ترى الانسان سيدا على الطبيعة ـ وكثيرا ما يرتبـــط ذلك بالعـلم والتكنولوجيا ـ الى الكثير من التفسيرات المختلفة ، وليست كلها بأى حال دالة على الانتقاص • فمثلا هناك تفسير يرى أن الانسان « قادر على تغيير العالم ، وتحويله الى حالة متحضرة » • وهذه قدرة جديرة بالثناء ، وليس بالادانة • والقول بأن العالم ، كما هو الآن ، بعيد عن التحضر ، من الصعب قبوله كحقيقة واقعة • ويزعم باســـمور ـ باخلاص ـ أن هناك صورا من المجتمع يمكن الدفاع عنها عقلانيا ، باعتبارها أسمى وأفضل من صور أخرى • وحتى الايكولوجيـــون الغيبيون فانهم هم أيضا لا يرغبون حتما العودة الى المراحل الأولى من الحضارة ، على أقل تقدير ، عندما لا يشعرون بالاستمتاع بمعرفتهم الشـاعرية للطبيعة فى مثل هذه المراحل • ولقد خلقت النهضة الصناعية مشكلة معقدة للايكولوجيين العقلانيين • ومع هذا فلا يخفى أن الادانة ـ بالجملة ـ وبلا تمييز ، والمعارضة للمعارضة فحسب ، للنهضة الصناعية لا تعد استجابة كافية ، ولا ينتظر أن تصـــلح موقفنا • ولعلها ستسىء اليه • لقد عادت النهضة الصناعية بنتائج نافعة • ولن يساعد اهمال مثل هذه النهضة أو ايقافها علىَ غير الاتيان بنتائج مدمرة • وفى هذا النطاق ، فان « مسألة المسائل » فى نظر باسمور هى هل يمكننا تغيير ممارساتنا الاقتصادية بالقـــدر الكافى لمواجهة التحديات الايكولوجية دون زيادة فى ســــلطان الدولة ، قد يؤدى الى تحولها الى دولة شـــمولية • وعلى أية حال ، فان التأملات الغيبية لن توفق فى ازالة التلوث • وقد لا ينجح العقل فى حل هذه المشكلة أيضا ، ولكنه قادر على التزويد بالامكانية الوحيدة لتحقيق ذلك •

طبيعة المعرفة

● مذهب الشك

الشكوك الفلسفية :

[برتراند رسل (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠) أحد الفلاسفة البارزين في القرن العشرين ، ولقد ألف العديد من الكتب التي تناولت موضوعات متنوعة ، فلسفية واجتماعية · ورسل معروف للكافة بفضل مواقفه من الدين والزواج والقنبلة الذرية · ولقد منح ١٩٥٠ جائزة نوبل في الأدب] ·

···· تنبعث الفلسفة من محاولة عنيدة متفردة للاهتداء الى المعرفة الحقة · وما اعتدنا تسميته بالمعرفة في الحياة العادية تشوبه ثلاثة أوجه نقص : أولا ـ ما يكتنفها من شعور بالثقة البالغة · ثانيا ـ الغموض · ثالثا ـ التناقض الذاتي · وأول خطوة تجاه الفلسفة تستند الى الدراية بهذه العيوب ، ليس بقصد القناعة بالشك المتبلد · وانما للاستعاضة عنه بنوع منقح من المعرفة ، يتميز بالتجريب القائم على المحاولة والخطأ والدقة والتوافق الذاتي · بطبيعة الحالة ، ثمة خاصة أخرى نرغب أن تتصف بها معرفتنا ، وهي الشمول · فنحن نتمنى لو اتسع نطاق معرفتنا الى أكبر قدر مستطاع · غير أن هذه المهمة تقع على كاهل العلم ، وليس الفلسفة · ولن يغدو أي امرىء ـ بالضرورة ـ فيلسوفا أفضل لو عرف المزيد من الوقائع العلمية · فما باستطاعته أن يتعلمه من العلم ـ لو كان شغوفا بالفلسفة ـ هو المبادىء والمناهج والتطورات العامة ····

نقلا عن Outline of Philosophy تاليف Bertrand Russel

ولقد ذكرت منذ هنيهة ثلاثة عيوب تشترك فيها المعتقدات • أولها : شدة الشعور بالثقة وثانيها الغموض وأخيرا التناقض الذاتى • وتضطلع الفلسفة بمهمة تصحيح هذه العيوب بقدر ما تستطيع ، دون أن تتسبب فى القضاء قضاء مبرما على المعرفة • وكى يصبح الانسان فيلسوفا مقتدرا يتعين أن يشعر برغبة قوية للمعرفة ، بالاضافة الى قدر كبير من الحذر من الاعتقاد بأنه يعرف • ويجب أن يتمتع أيضا بمهارة منطقية ، وأن يعتاد التفكير الدقيق • وغنى عن القول ان جميع هذه الشروط تتحقق بدرجات متفاوتة ، وينتمى الغموض — بوجه خاص وبقدر ما — الى التفكير الانسانى • وبمقدورنا الاقلال منه الى غير حد • بيد اننا لن نستطيع محوه نهائيا على الاطلاق • وتبعا لذلك ، تتصف الفلسفة بأنها فعل مستمر ، وليست بالشيء الذى باستطاعتنا أن نصل فيه الى الكمال دفعة واحدة • وفى هذا المقام ، لقد عانت الفلسفة من أثر ارتباطها باللاهوت ، فالعقائد اللاهوتية ثابتة • وينظر اليها المتشددون المتزمتون على أنها غير قابلة للتغير والارتقاء ، وكثيرا ما حاول الفلاسفة بالمثل الاهتداء الى مذاهب فلسفية نهائية ، عندما لم يقنعوا بالنتائج التدريجية التقريبية التى ترضى أهل العلم • ويبدو لى أنهم قد أخطأوا فى هذا الشأن ، لأنهم تناسوا أن الفلسفة تهتدى الى نتائجها (بالقطاعى) • ولابد أن تكون هذه النتائج دقيقة ، كما هو الحال فى العلم • اذ تنتمى الحقيقة النهائية الى السماء ، وليس الى هذه الأرض وأهلها •

وثمة علاقة متبادلة بين العيوب الثلاثة التى أوردتها • وعندما نصبح على دراية بأى عيب منها ، سننساق الى التعرف على العيبين الآخرين • وسأوضح هذه العيوب الثلاثة بذكر أمثلة قليلة لها •

ولنبدأ أولا بالكلام عن ايماننا بوجود أشياء مشتركة كالمناضد والكراسى والأشجار • فنحن جميعا نشعر بالتيقن من وجود هذه الأشياء فى الحياة العادية ، وان اتصفت مبررات وثوقنا — فى الحق — بعدم كفايتها ، وتفترض المفهومية الساذجة أن هذه الأشياء توجد ، كما تظهر ، وان استحال ذلك ، لأنها لا تظهر فى صورة واحدة لأى اثنين من المشاهدين ينظران اليها فى الوقت نفسه • وعلى أية حال ، فانه من المتعذر أن يكون ذلك كذلك ، اذا كان موضوع المشاهدة شيئا مفردا ، لأنه لا يظهر على نفس النحو لجميع من يشاهدونه • ولو ارتضينا الاعتراف بأن موضوع المشاهدة ليس هو هو ما نشاهده ، فاننا سنتوقف عن الشعور بنفس الثقة فى وجود هذا الموضوع ، وهذا هو أول مظهر من مظاهر تدخل الشك • ومع هذا فسرعان ما نفيق من هذه الردة ونعترف بأن موضوع المشاهدة هو فى الحق ، كما تصفه الفيزياء • على أن الفيزياء تقول أن

المنضدة أو الكرسى فى واقع الأمر ـ عبارة عن نسق رحيب من الالكترونات والبروتونات التى تتحرك حركة سريعة بطريقة لا يصدقها عقل • وكل هذا كلام طيب • بيد أن الفزيائى يتشابه هو والانسان العادى فى اعتمادهما على الحواس فى ادراك وجود العالم الفزيائى • واذا أنت اتجهت اليه فى وقار وقلت له : « هل تتعطف وتعرفنى كفزيائى وتعرفنى ما هو الكرسى فى الحقيقة ؟ » فانك ستحصل على اجابة أحد المتعالمين ولكنك اذا قلت له بغير مقدمات : « هل يوجد كرسى هناك ؟ » فانه سيقول : « بالطبع هناك كرسى • ألا تراه ؟ » وعليك أن تجيب على الرد بالسلب ، ويتوجب أن تقول له : « بل ان ما أراه هو لطع معينة من اللون ، ولكنى لا أرى أية الكترونات وبروتونات • وأنت تقول لى أن هذه الالكترونات ، والبروتونات تمثل ما يتألف منه الكرسى ؟ وقد يرد على ذلك « نعم • ولكن ان أى عدد كبير من الالكترونات والبروتونات القريبة بعضها من بعض ستبدو شبيهة بلطع من اللون • وقد نسأل آنئذ : « ما الذى تقصده بأنها تبدو مثل ؟ وستكون لديه اجابة جاهزة مؤداها أن موجات الضوء تبدأ من الالكترونات والبروتونات (أو ما هو أكثر احتمالا : ان هذه الموجات ستعكسها من مصدر للضوء) وتصل الى العين وسيكون لها مجموعة من التأثيرات على المخروطات والتوصيلات والعصب البصرى والمخ ، وينتهى الأمر بتولد الاحساس • غير أنه لم ير قط أية عين أو عصب بصرى أو مخ ، مثلما لم ير أى كرسى • ان كل ما رآه هو لطعا من اللون التى يقول عنها انها تمثل ما تشبهه العينين ، يعنى أنه يظن ان الاحساس الذى يتوافر لك عندما ترى الكرسى (كما تعتقد) له مجموعة من العلل فى الفزياء وعلم النفس ، ، ولكنها جميعا ، كما تراءى له ، تكمن أساسا والى الأبد خارج التجربة ، ومع هذا فانه يزعم أنه بنى علمه على المشاهدة • ولا يخفى أن ثمة مشكلة هنا تواجه رجل المنطق ، انها مشكلة لا تنتمى الى الفزياء ، ولكنها تنتمى الى نوع آخر من الدراسة • وهذا هو أول مثل يبين كيف يتسبب السعى وراء الدقة فى تحطيم اليقين •

ويعتقد عالم الفزياء انه استخلص الكتروناته وبروتوناته مما يدرك • غير أن هذا الاستخلاص لا يتخذ أبدا شكل تسلسل منطقى واضح ، ولو حدث ذلك ، فانه لن يبدو مستصوبا بالقدر الكافى الذى يجعله جديرا بالكثير من الثقة • والواقع أن النقلة الكاملة من حالة الأشياء ، كما تبدو للمفهومية الدارجة (Common sense) ، الى حالة الالكترونات والبروتونات تخضع لمعتقدات معينة ، نادرا ما تكون واعية ، ولكنها موجودة عند كل انسان سوى • وليست هذه المعتقدات بالمعتقدات التى لا تخضع للتغير ، ولكنها ترتقى كأنها شجرة من الأشجار • فننحن

نعتقد أن الكرسى هو نفس الكرسى الذى يظهر لنا ، وأنه سيظل فى مكانه عندما لا ننظر اليه . غير أننا نكتشف اذا تأملنا هذه المسألة ولو بقدر ضئيل ، ان هذين الاعتقادين غير متوافقين ، فلو استمر الكرسى فى البقاء مستقلا عن رؤيتنا له ، فيتعين أن يكون شيئا آخر مختلفا عن لطع اللون التى نراها ، اذ اتضح أن هذه اللطع قد اعتمدت على مؤثرات خارجة عن الكرسى كطريقة سقوط الضوء ، وهل نرتدى منظارا أزرق اللون ·· وهكذا ·· وترغم هذه المؤثرات رجل العلم على اعتبار الكرسى « الحقيقى » هو علة (أو جزء لا غنى عنه من علة) أحاسيسنا عندما نرى الكرسى · وهكذا نكون خاضعين لعملية عليه كاعتقاد قبلى ، بدونها لن يكون لدينا مبرر لازعم بأن هناك أى كرسى « حقيقى » على الاطلاق · وأيضا فان لدينا رغبة تسوقنا الى الشعور باستمرار بقاء الأشياء ، وترتب على ذلك ادخالنا لفكرة الجوهر . فنحن نرى أن الكرسى الحق « جوهر » ، أو مجموعة من الجواهر التى تتصف باستمرار بقائها ، وبالقدرة على احداث الاحساسات · ويشترك هذا الاعتقاد الميتافيزيقى بطريقة لا واعية الى حد ما فى عملية الاستدلال من الأحاسيس الى الالكترونات والبروتونات · ويتعين على الفيلسوف أن يجذب مثل هذه المعتقدات الى ضوء النهار ، ويرى عل ستستمر فى البقاء · وغالبا ما يبين أنها تموت بمجرد تعرضها لهذا الضوء ·

ولنعكف بعد ذلك على بحث نقطة أخرى · ان أى دليل على وجود قانون فيزيائى ، أو أى قانون يصح نسبته الى الفيزياء ، يتضمن دائما عنصرين : أحدهما مستمد من الذاكرة ، والآخر مستمد من شهادة الآخرين · فعلينا أن نعتمد على ما نتذكر أننا شاهدناه فى مناسبات سابقة ، وعلى ما يقول الآخرون انهم شاهدوه · وعند بداية ظهور العلم ، كان بالاستطاعة أحيانا الاستغناء عن شهادة الآخرين · ولكن سرعان ما أصبح كل استقصاء علمى يتجه الى انشاء صرحه على نتائج سبق التيقن منها ، وأن يعتمد بالتبعية على ما سجله الآخرون · والحق أنه بدون الرجوع الى شهادة الآخرين ، سيتعذر علينا الوثوق فى وجود الموضوعات الفزيائية · وأحيانا يعانى بعض الناس من الهلاوس ، بمعنى أنهم يعتقدون أنهم يدركون موضوعات فيزيائية ، ولكنهم يعجزون عن توثيق معتقداتهم بالرجوع الى شهادة الآخرين · وفى مثل هذه الحالات ، فاننا نقرر وقوعهم فى الخطأ · ان التشابه بين مدركات الناس مختلفين فى مواقف متماثلة هو الذى يدفعنا الى الوثوق فى وجود عملية علية خارجية وراء مدركاتنا · ولولا ذلك ، — وأيا كان نوع ما لدينا من معتقدات ساذجة عن الموضوعات الخارجية ، — فانها كانت ستتلاشى وتتبدد منذ أمد بعيد ، وهكذا يكون للذاكرة وشهادة الآخرين دور

ضرورى فى العلم ، وعلى الرغم من ذلك ، فان كل عامل من هذين العاملين يتعرض للنقد من الشاك • وحتى اذا نجحنا نوعا فى مواجهة انتقاداته ، فاننا سنضطر اذا اتصفنا بالعقلانية الى تخفيف ثقتنا الكاملة فى معتقداتنا الأصلية ، عما كانت عليه فيما سبق • ومرة أخرى ، سيضعف تيقننا بعد ازدياد دقتنا •

وتنقلنا الذاكرة وشهادة الآخرين ، كليهما ، الى نطاق علم النفس • ولن أحاول فى هذه المرحلة مناقشة أى منهما ، ولن أتجاوز النقطة التى يبدو واضحا فيها وجود مشكلات فلسفية حقة تحتاج الى حل • وسأبدأ بالذاكرة •

والذاكرة كلمة ذات العديد من المعانى ، والمعنى الذى يهمنى فى هذا المقام هو « استعادة الأحداث السابقة » • ويسود الظن بأن هذه الناحية معرضة للخطأ ، مما يدفع صاحب التجربة الى تدوين نتائج تجربته بأقصى سرعة ممكنة • فهو يعتبر الاستدلال من الكلمات التى سجلت كتابة عن الأحداث الماضية أقل احتمالا للخطأ من المعتقدات المباشرة التى تتألف منها الذاكرة ، ولكن أحيانا يتحتم مرور ثوان معدودة بين المشاهدة وتسجيل المعلومات ، اللهم الا اذا كان التسجيل مبتورا ، ويحتاج آنئذ للذاكرة لتعزيزه وتفسيره • وهكذا فلا مفر أمامنا من الاحتياج الى الوثوق فى الذاكرة الى حد ما • وفضلا عن ذلك ، فبغير وجود الذاكرة ، فانه لن يخطر ببالنا تفسير ما دون عن أحداث ماضية ، لأننا سنكون فى هذه الحالة غير معترفين بوجود أى ماض • على أنه بصرف النظر عن الحجج التى تساق لاثبات عدم عصمة الذاكرة ، فثمة عامل هزيل واحد قد يلح الشاك فى ذكره ، فقد يقول ان التذكر الذى يحدث الآن ليس قادرا ــ فيما يحتمل ــ على اثبات أن ما يتذكر قد حدث فى وقت آخر • فلربما كان العالم لم يظهر للوجود الا منذ خمس دقائق لا غير ، ويحتمل أن يكون آنئذ مشحونا بالمثل بمتذكرات مضللة تماما • وقد ساق منافسو داروين من أمثال والتر ادموند جوسه حجة مماثلة تماما ضد التطور • وقالوا ان العالم قد خلق ٤٠٠٤ ق٠م ، كاملا بغير حفريات ، ثم حشرت هذه الحفريات لاختبار ايماننا ، أى أن العالم قد خلق بغتة ، ولكنه خلق على نحو يجعله يبدو وكأنه شىء متطور • وليس ثمة استحالة منطقية تدحض مثل هذا الزعم • وبالمثل ليس هناك استحالة منطقية تمنع صدق النظرة القائلة بأن العالم قد خلق منذ خمس دقائق فقط كاملا ومزودا بالمتذكرات والسجلات • وقد تبدو هذه الفرضية غير محتملة ، ولكنها لا تقبل الرفض منطقيا •

وأذا تغاضيينا عن هذه الحجة ، التى قد تبدو وهمية ، فان هناك أسبابا نتعلق بالتفاصيل وراء شعورنا بعدم الثقة فى الذاكرة الى حد ما • فليس من شك أنه لا وجود لأى تأكيد مباشر للاعتقاد فى أى حادث مضى ، لأننا غير قادرين على استرجاع أحداث الماضى • وبمقدورنا الاهتداء الى تأييد غير مباشر اذا رجعنا الى ما يكشفه الآخرون والى السجلات المعاصرة ، ولكن ربما كان هذا القدر واهنا ، كما يحدث مثلا فى حالة وجود تقرير مختزل لمحادثة أو حديث دار فى ذلك الزمان • وحتى اذا كان الأمر كذلك ، فاننا لن نستطيع الاستغناء عن الحاجة الى امتداد الذاكرة فترة أطول من الزمان • واذا افترضنا أن حوارا خياليا ما قد اخترع بقصد تجريم أحد الناس ، فانه سيتعين علينا آنئذ أن نعتمد على متذكرات أحد الشهود لاثبات ناحية الاختلاق فى هذا الحوار عند عرضه على احدى المحاكم • وكل الذكريات التى مضت عليها فترة طويلة من الزمان عرضة للخطأ • ويبين هذا من الأخطاء التى تكتشف بلا انقطاع فى كتب السير الذاتية • ولو تصفح أحدنا بعض الرسائل التى كتبها منذ سنوات بمقدوره أن يتحقق من الطريقة التى زيفت بها ذاكرته الأحداث الماضية • لهذا السبب ، واستنادا على حقيقة عدم قدرتنا على التحرر من الاعتماد على الذاكرة فى تكوين معرفتنا ، فقد رئى بصفة أساسية ان الاكتفاء بالرجوع الى ما مضى لن يحقق أية معرفة أكيدة •••

وربما أثارت ناحية شهادة الآخرين مشكلات أكثر حماقة • وما يزيد من اتصافها بالحماقة هو حقيقة اشتراك شهادة الآخرين فى انشاء معرفتنا بالفزياء ، كما يحتاج الى الفزياء أيضا فى تأكيد مدى وثوقنا فى شهادة الآخرين ، وفضلا عن ذلك ، فان شهادة الآخرين هى مصدر اثارة جميع المشكلات المرتبطة بعلاقة العقل بالمادة ، ولقد أنشأ بعض عظماء الفلاسفة ــ كلايبنتز على سبيل المثال ــ أنساقا ، اذا اعترفنا بحقيقتها لن تكون هناك أية حاجة للرجوع الى شهادة الآخرين ، وان كان هؤلاء الفلاسفة قد قبلوا أشياء كثيرة على أنها حقائق ، رغم عدم امكان معرفتها بدون هذه الشهادات • ولست أعتقد أن الفلسفة قد استوفت حق هذه المشكلة من البحث • غير أن ذكر بعض كلمات قليلة قد يكون كافيا ــ فيما أعتقد ــ لبيان مدى خطورتها •

ومن أجل ما نهدف اليه ، بمقدورنا أن نعرف « الشهادة » بأنها أصوات تسمع أو أشكال ترى ، على غرار الأصوات التى يجهر بها أو الحروف التى نخطها لنقل أى حكم من الأحكام اعتقادا منا بأن السامع أو المشاهد سيتجاوب مع ما يرغبه صاحب الحكم ، ولنذكر مثلا مشخصا • قد أسأل جندى الشرطة عن أحد العناوين ، وربما قال لى : « رابع شارع

على اليمين ، ثم ثالث شارع على الشمال » هذا يعنى اننى قد سمعت الأصوات الصادرة منه ، وربما أرى أن بوسعى أن أفسر ما يعنيه من حركة شفتيه • وبناء على ذلك ، فانى أفترض أن لديه عقلا يتشابه وعقلى نوعا ، وأنه قد تفوه بهذه الكلمات قاصدا نقل بعض المعلومات مثلما كنت سأفعل فى الموقف نفسه • وفى الحياة العادية ، لا ينظر الى هذه النواحى على أنها استدلال بالمعنى الصحيح للكلمة • انها اعتقاد يخامرنا فى الوقت المناسب ، غير أننا اذا تعرضنا لأى تحد ، فاننا سنضطر الى استعاضة الاستدلال بالاعتقاد التلقائى • وبازدياد فحصنا للاستدلال ، يزداد اهتزاز ثقتنا فيه •

وما يجرى من استدلال يمر بخطوتين : احداهما فيزيائية ، والأخرى سيكلوجية • والاستدلال الفيزيائى من النوع الذى بحثناه منذ هنيهة ، ننتقل فيه من الاحساس الى الحادثة الفزيائية • فنحن نسمع أصواتا ، ونعتقد أنها صادرة من جسم الشرطى ، ونرى أشكالا لا تتحرك ، ونفسرها على أنها حركات شفتيه مجسمة فى صورة فزيائية • وكما رأينا من قبل ان هـذا الاستدلال له ما يبرره ـ من جانب ـ أى اعتمـادا على شهادة الشهود • غير أننا الآن قد اكتشفنا أنـه من الواجب أن يجرى هـذا الاستدلال قبل أن نعثر على مبرر يدفعنا الى الاعتقاد فى وجود شىء ما مثل شهادة الشهود • ولا جدال أن هذا الاستدلال يخطىء أحيانا ، فالمخبولون يسمعون أصواتا لا يسمعها الآخرون ، وبدلا من أن ننسب اليهم القدرة الفذة على الاستماع ، فاننا نودعهم مستشفى المجاذيب • ولكن اذا استمعنا أحيانا الى جمل لم تنطلق من جسم ما ، فلماذا لا نسلم هنا أيضا بوجود حالة مماثلة للحالة السابقة ؟ • لعل مخيلتنا قد استحضرت جميع الأشياء التى نعتقد أن الآخرين قد قالوها لنا • بيد أن هذه الحالة ما هى الا جزء من المشكلة العامة لاستخلاص الموضوعات الفزيائية من الأحاسيس ، والتى رغم ما يكتنفها من صعوبات ، الا أنهـا تعد أصعب جانب من المعضلات المنطقية التى تحيط بمعنى « الشهادة » • ان أصعب جانب هو الاستدلال من جسم الشرطى الى عقله • ولم أقل هذا الكلام من باب اهانة رجال الشرطة • فلا مانع من أن أقول نفس الكلام عن الساسة ، بل والفلاسفة •

ان استدلالى لما دار فى عقل الشرطى قد يكون خاطئا بكل تأكيد • فلا يخفى أن أى صانع للتماثيل الشخصية قادر على صنع شبيه للشرطى عند المدخل الذى يقف أمامه ، ووضع جرامفون داخله ينطق من آن لآخر بعبارات تعرف الزوار الطريق الى أكثر الأقسـام طرافة فى المعرض • وبذلك سيتوفر ما يشبه الدليل على أنه على قيد الحياة ، الذى اقتنعنا

به عند اعترافنا بوجود رجال الشرطة الآخرين • ولقد اعتقد ديكارت أن الحيوانات بلا عقول ، ولكنها عبارة عن « أوتوماتا » معقدة ••• وتوسع الماديون فى القرن الثامن عشر فى تطبيق هذا المذهب ، وجعلوه ينطبق على البشر • بيد أننى لست معنيا الآن بالمذهب المادى ، لأن مشكلتى جد مختلفة • اذ يجب أن يعترف حتى الفيلسوف المادى ، أنه عندما يتكلم فانه يقصد توصيل شيء ما ، يعنى أنه يستعمل الكلمات كاشارات ، وليس كمجرد أصوات • ولربما تعذر أن نقرر على وجه الدقة ما الذى يعنيه مثل هذا القول • ولكن من الواضح أنه يعنى شيئا ما ، وأنه يصدق عما أبدينا من ملاحظات • والسؤال هو : هل نحن على يقين أنه يصح عن الملاحظات التى نسمعها مثلما يصح عن الملاحظات التى نبديها ؟ أم لعل الملاحظات التى نسمعها تتماثل وأى أصوات أخرى ، أى أنها مجرد اضطرابات لا معنى لها فى الجو ؟ والحجة الأساسية موجهة الى القياس الذى استعملناه • فلقد ذكرنا أن الملاحظات التى نسمعها شبيهة للغاية بتلك التى تصدر عنا ، ودفعنا ذلك الى الاعتقاد بأن لها عللا مماثلة • غير أنه بالرغم من تعذر استغنائنا عن قياس التمثيل كصورة من صور الاستدلال ، الا أنه لا يعد بأى حال استدلالا توكيديا • وكثيرا ما ساقنا الى شطحات • وهكذا نكون قد تركنا مرة أخرى Prima facie أمام مبرر يدعونا الى عدم التيقن والشك •

ان السؤال الخاص بما نعنيه نحن أنفسنا عندما نتكلم ينقلنى الى مشكلة أخرى هى مشكلة الاستبطان ، فلقد اعتقد فلاسفة عديدون ان الاستبطان قد حقق أعظم نتائج لا يتطرق اليها الشك فى الفلسفة برمتها • واعتقد آخرون أنه لا وجود لشيء يدعى الاستبطان • فبعد أن حاول ديكارت الشك فى كل شيء ، انتهى الى مبدأ « **أنا أفكر • اذن فأنا موجود** » ، وجعله قاعدة لباقى المعرفة • واعتقد السلوكى الدكتور واطسن على عكس ذلك ، اننا لا نفكر ، وأن ما نفعله هو الكلام فحسب • ولقد عرض الدكتور واطسن فى الحياة الفعلية الكثير من الأدلة على قيامه بالتفكير ، مثلما يفعل أى انسان آخر • ولو صح أنه ليس مقتنعا بأنه يفكر ، سيكون قد وضعنا فى موقف سيء • وعلى أية حال ، ان مجرد وجود رأى مثل الرأى الذى جاهر به صادر من فيلسوف عظيم ، يجب أن يكون كافيا لبيان أن الاستبطان ليس مسألة يقينية ، مثلما اعتقد بعض الناس ، ولكن علينا أن نفحص هذه المسألة بمزيد من التدقيق •

ان الاختلاف بين الاستبطان وما نسميه بالادراك الحسى للأشياء الخارجية ، يبدو فى نظرى مرتبطا لا بما هو أوليا فى معرفتنا ، وانما بما يحصل عليه عن طريق الاستدلال • فنحن نعتقد أحيانا أننا نرى

كرسيا • وفى حين آخر ، أننا نفكر فى الفلسفة • ونسمى الحالة الأولى الادراك الحسى لشيء خارجى • ونسمى الحالة الثانية بالاستبطان • على أننا قد اكتشفنا مبررا يدعونا الى الشك فى المدركات الحسية الخارجية بالمعنى الصريح الذى تتقبله المفهومية Common sense فمما لا يتطرق اليه الشك عند رؤية الكرسى هو « ظهور » صيغة معينة من الألوان • غير أن هذا الظهور مرتبط بى ارتباطا مماثلا بارتباطى بالكرسى • فلا أحد غيرى قادر على رؤية الصيغ التى أراها بنفس الدقة • وهكذا يكون هناك عامل ذاتى وشخصى فيما يتعلق بما نعتبره الادراك الحسى الخارجى . وان كان يتخفى وراء الامتداد المرتبح فى العالم الفزيائى • وعلى عكس ذلك ، فانى أعتقد أن الاستبطان يتضمن امتدادات غير ثابتة (مرتجة) فى العالم الذهنى ، ولو انتزعت منه هذه الامتدادات ، فانه لن يختلف كثيرا عن المدركات الحسية ، بعد أن تقتص منها امتداداتها • وكى أوضح ذلك ، سأحاول أن أبين ما نعرف أنه يحدث عندما نفكر فى الفلسفة ـ كما نقول •

افترض كنتيجة للاستبطان أنك قد اهتديت الى اعتقاد عبرت عنه بالكلمات الآتية : « انني أعتقد الآن ان العقل مختلف عن المادة » • فما الذى نعرفه الآن ــ مع استبعاد الاستدلالات جانبا ــ عن مثل هـذه الحالة ؟ أولا ــ عليك أن تستئصل كلمة « أنا » ، أى الشخص الذى يعتقد فى الاستدلال ، باعتباره ليس جزءا مما يعرف معرفة مباشرة • ثانيا ــ عليك أن تلتزم الحرص فيما يتعلق بكلمة « أعتقد » • ولست معنيا الآن بما تعنيه هذه الكلمة فى المنطق ، أو نظرية المعرفة • وانما أنا معنى بما قد تعنيه اذا استعملت لوصف تجربة مباشرة • ففى مثل هذه الحالة ، قد يبدو أنها لن تصف الا نوعا معينا من الشعور • أما فيما يختص بالمسألة التى تظن أنك تعتقدها ، يعنى « اختلاف العقل عن المادة » ، فانه من الصعب أن نقرر ما الذى يحدث عندما تظن أنك تعتقد ذلك • ولربما لم تزد عن مجرد كلمات يجهر بها ، أو مجرد رؤى تتجسم فى صور سمعية أو حركية • وقد تكون تخييلات images لما تعنيه الكلمات ، ولكن فى هذه الحالة ، فانهـا لن تكون اطـلاقا تمثلا دقيقا للمضـــمون المنطقى للمســألة • فقد تقترن عندك تخييلات مثل تخييلة لتمثال « نيوتن » ، وهو يبحر فى بحار غريبة من الفكر وحيدا ، وتخييلة أخرى لحجر يتدحرج الى سفح الجبل ، بالعبارة « يا له من اختلاف » ، أو قد تتصور الاختلاف بين شخص يكتب محاضرة ، وتنـــاول وجبة الغذاء • انك لن تقترب من الدقة المنطقية عندما تقدم على التعبير عن أفكارك فى كلمات •

ففى الاستبطان والادراك الحسى الخارجى ، نحاول أن نعبر عما نعرفه بكلمات ٠

نصل الآن مثلما حدث فى مسألة « شهادة الآخرين » الى الجانب الاجتماعى للمعرفة ٠ ان الغرض من الكلمات هو تحقيق نفس النوع من الانتشـار والذيوع للفكر ، على نفس النحـو الذى تدعيـه الأشـياء الفزيائية ٠ فبمقدور عدد من الأشخاص سماع أية كلمة منطوقة ، أو رؤية أية كلمة مكتوبة ، لأن الكلمة المنطوقة والكلمة المكتوبة حادثان فزيائيان ٠ فاذا قلت لك أن العقل مختلف عن المادة ، سيكون هناك تشابه طفيف بين الفكرة التى أحاول أن أعبر عنها ، والفكرة التى تستثار عندك ٠ ولكن ثمة شيئا مشتركا بينهما ، وهو امكان التعبير عنهما باستعمـال نفس الكلمات ٠ وبالمثل فقد تكون هناك اختلافات كبيرة بين ما أراه وما تراه عندما نشاهد نفس الكرسى ، كما نقول ٠ ومع هذا فاننا قادران على السواء على التعبير عن مدركاتنا الحسية باستعمال الكلمات نفسها ٠

وهكذا لا يكون هناك اختلاف كبير بين « الفكرة » و « المدرك الحسى» من حيث طبيعتهما ٠ فلو صحت الفزياء ، سيكون ما بينهما من اختلاف راجعـا الى الاختلافات التى ترتبط بهما ٠ فعندما أرى كرسيا ، فان الآخرين سيدركونه ادراكا حسيا مماثلا نوعا ٠ ويعتقد أن هذه المدركات مرتبطة جميعا بموجات ضوئية منبعثة من الكرسى ٠ بينما عندما أفكر فكرة ما قد لا يكون الآخرون فى حالة تفكير فى أى شىء مشابه ٠ على أن هذه الحالة تنطبق أيضا على حالات الشعور بوجع الأسنان التى لا يعترف بها عادة كحالة من الحالات التى تناسب الاستبطان ٠ ومن ثم ، وعلى الجملة ، فلا وجود ـ كما يبدو ـ لأى سبب يدعو الى اعتبار الاستبطان نوعا من المعرفة يختلف عن المعرفة عن طريق الادراك الحسى ٠٠

أما عن مسألة مدى الوثوق فى الاستبطان ، فنكرر القول بأن ثمة علاقة متوازية بينه وبين الادراك الحسى الخارجى ٠ فالمعطيات الفعلية فى الحالين ، ليست موضع لوم ، وان كان امتداد نطاقها الذى نقوم به غريزيا موضع خلاف ٠ فبدلا من القول : « اننى أعتقد أن العقل مختلف عن المادة » ، عليك أن تقول : هناك تخييلات تظهر فى علاقات مترابطة مقترنة بمشاعر معينة ٠ فلا وجود لأية كلمات لوصف الأحداث الفعلية فى جميع دقائقها ، لأن جميع الكلمات من أسماء الأعلام proper names تتسم بالعمومية ، ربما باستثناء كلمة « هذا » this ، التى تتصف بالغموض ، وعندما تترجم الأحداث الى كلمـات فانك تقوم بتعميمـات واستدلالات مثلما تفعل عندما تقول : « هنا كرسى » ٠ فلا اختلاف حيوى بين الحالين ، ففى كليهما ، ان ما هو معطى ـ فى الحق ـ شىء لا يقبل

الافصاح عنه . أما ما يقبل الصوغ فى كلمات فيتضمن استدلالات قد تكون خاطئة .

وعندما أقول أن هناك استدلالات متضمنة ، فاننى أعنى شيئا لا يتصف بالدقة ، الا اذا فسر بعناية . فمثلا عندما « أرى كرسيا » ، فان ما يحدث ليس ادراكى — فى البداية — لصيغة ملونة ، ثم اتجه بعد ذلك الى استدلال وجود الكرسى ، لأن الاعتقاد فى رؤية الكرسى ينبعث تلقائيا عندما نرى الصيغة الملونة . ولكن هذا الاعتقاد له أسباب لا ترجع الى المنبه الفزيائى فحسب ، ولكنها ترجع أيضا الى تجارب الماضى والى الأفعال المنعكسة معا ، وتلعب الأفعال المنعكسة دورا كبيرا فى حالة الحيوانات . أما فى حالة البشر ، فللتجربة دور أهم . ويتعلم الطفل ببطء كيف يربط بين اللمس والرؤية ، وتوقع قيام الآخرين برؤية ما يرى ، وبذلك تكون العادات التى تتكون على هذا النحو ضرورية فى مراحل النضج لحدوث تصورنا لشىء ما مثل الكرسى . والادراك الحسى للكرسى عن طريق النظر من أثر منبه فيزيائى لا يؤثر فى غير النظر مباشرة ، ولكنه ينبه أفكارا مثل الصلابة وغير ذلك بفضل تأثير التجارب الباكرة ، ويصح وصف الاستدلال بأنه « فسيولوجى » . والاستدلال من هذا النوع يدل على وجود ارتباطات بالماضى ، كالارتباط بين اللمس ، والنظر على سبيل المثال ، ولكنه قد يكون خاطئا فى المثل الحالى . فمثلا قد تقع فى خطأ فتتوهم وجود غرفة أخرى ، بينما ما تراه لا يزيد عن صورة فى مرآة كبيرة . وبالمثل ، فى الأحلام ، فاننا قد نقوم باستدلالات فسيولوجية خاطئة . وعلى هذا ففى غير مقدورنا الشعور بالتأكد فيما يتعلق بالأشياء التى يستدل عليها على هذا النحو ، لأننا نجبر رغم ذلك على رفض بعضها ، حتى لا نتناقض مع أنفسنا .

اهتدينا منذ هنيهة الى ما سميناه « بالاستدلال الفسيولوجى » باعتباره أحد المكونات الأساسية لتصور « المفهومية » لأى شىء فزيائى ، ويعنى الاستدلال الفسيولوجى — فى أبسط صوره — انه فى حالة التعرض لمنبه « م » والقيام برد فعل تجاهه عن طريق فعل منعكس على شكل حركة جسمانية يرمز اليه « ج » ، فاذا حدث تعرض لمنبه آخر « م » وله رد فعل ج ، ثم حدث بعد ذلك تعرض للمنبهين معا جملة مرات ، سيثير المنبه م رد الفعل ج (١) . هذا يعنى أن الجسم سيقوم برد فعله وكان

---

(١) على سبيل المثال — اذا سمعت صوتا حادا ورأيت ضوءا وهاجا ، فى نفس الوقت ، فكثيرا بمرور الوقت يستطيع الصوت دون وجود الضوء احداث رد فعل يتمثل فى انقباض حدقى العين .

م حاضر : وللاستدلال الفسيولوجى أهمية فى نظرية المعرفة ··· ولقد تحدثت عنه لسببين : أولا ـ للحيلولة دون الخلط بينه وبين الاستدلال المنطقى · وثانيا ـ لكى أمهد للكلام عن مشكلة الاستقراء ··

لعل الاستقراء يثير اصعب مشكلة فى نظرية المعرفة فى جملتها ·· ان ما يساعد على توطيد كل قاعدة علمية هو وسائلها ، وان كان من الصعب أن ندرك لماذا نعتقد أنها عملية منطقية صحيحة · والاستقراء فى جوهره المجرد يعتمد على الحجة القائلة بأنه لما كان « أ » · و « ب » ، يوجدان فى أغلب الأحيان متلازمين ، ولا يوجدان منفصلين على الاطلاق ، لذا فانه من غير المستبعد اذا عثرنا على « أ » مرة أخرى ، أن نعثر على « ب » أيضا · ولقد وجدت هذه الحالة فى البداية كاستدلال فسيولوجى ، كما يبين من استخدام الحيوانات لها · وعندما نبدأ فى التأمل فاننا نلفى أنفسنا قائمين بالاستدلال بالمعنى الفسيولوجى · مثلا عندما نتوقع رؤية الطعام ، فان ألسنتنا تشعر بنوع من المذاق · وغالبا ما تتحقق هذه الدراية بهـــذا التوقع من خلال حالات الاحباط ، كما يحدث مثلا اذا تعاطينا الملح ظنا انه سكر ·· وعندما اعتادت البشرية العلم ، فانهـــا حاولت أن تصوغ المبادىء المنطقية التى تبرر هذا النوع من الاستدلال ·· ويظهر لى أنهم لم يوفقوا تمـــاما · فأنا مقتنع بوجوب توافر الصـــحة ، من نوع ما وبمقدار ما ، للاستقراء · غير أن مشكلة بيان كيف ، ولماذا من المقدور توفير مثل هذه الصحة ، ستظل بغير حل · وحتى يمكن حلها ، سيتشكك العقلانى فى امكان اعتماده على غذائه فى سد رمقه ، وفى امكان سطوع الشمس فى الغد · ولست من هذا الصنف من العقلانيين ، وان كنت سأتظاهر بذلك لضرورات الحالة الراهنة · فحتى اذا لم نســـتطع أن نتصف بالعقلانية الكاملة ، فانه من المحتمل أن يكون بوسعنا أن نصبح أكثر اتصافا بالعقـــلانية مما نحن عليه الآن · وعلى أى حال ، فمن المخاطرات الطريفة المثيرة للاهتمام ، مراقبة الى أين سيقودنا العقل ·

ليست المشكلات التى أثرناها بالمشكلات المستحدثة ، ولكنها تكفى لبيان مدى عدم كفاية نظراتنا اليومية للعالم ، وعلاقتنا ···

● العقـــلانية

التأمل (١) والتأمل (٢) لرينيه ديكارت :

[رينيه ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) مخترع الهندسة التحليليـة وأحد عظماء الفلاسفة الفرنسيين • ولقد أثر تأثيرا عميقا على مشـكلات الفلسفة الحديثة ، ومناهجها وحلول مشكلاتها] •

● التأمل الأول :

عن الأشياء التى تدعونا الى الشك ، لقد مضى الآن بضع سنوات منـذ تحققت لى الدراية لأول مـرة بأننى قد قبلت ـ حتى منـذ شبابى الباكر ـ الكثير من الآراء الزائفة ، واعتبرتها صحيحة ، وكان ما قمت بانشائه فيما بعد اعتمادا على مثل المبادىء ـ بالتبعية ـ متيرا للشك الى حد بعيد • ومنذ ذلك الحين ، اقتنعت بضرورة الاقدام على الخلاص من جميع الآراء التى تبنيتها ، وأن أشرع من جديد فى البناء بدءا من الأساس ، لو أردت أن أبنى بناء علويا راسخا ودائما فى العلوم ، ولكن وبعد أن اتضح لى ضخامة مثل هذا العمل ، وجسامته ، فاننى آثرت الانتظار الى أن أبلغ النضج الكافى الذى ييسر لى تنفيذ مخططى ، وبناء على ذلك ، فاننى تمهلت طويلا ، وأصبحت من الآن فصاعدا أعتبر نفسى قد اقترفت خطأ لو أننى أضعت وقتى سدى فى التشاور ، بينما كان يتعين أن أخصص هذا الوقت للناحية العملية • واليوم اذن ، وبعد أن نجحت فى تحرير عقلى من شتى الهموم ، ولم تعد هناك ـ لحسن الطالع ـ أية أهواء تقلقنى ، ولما كنت أملك قدرا من الاطمئنان والفراغ يســـاعدنى على العيش فى سلام ، لذا فاننى سأكرس نفسى برمتها ـ بحماس وحرية ـ للخلاص نهائيا من جميع معتقداتى السابقة ، غير أنه وكى أنجح فى تحقيق هذه الغاية ، فاننى لن أكون مضطرا الى بيان زيف جميع هذه المعتقدات ، لأن هذه غاية يتعذر أن أحققها • ولكن ولما كان عقلى حتى فى الوقت الراهن قد أقنعنى بأنه على رغم هذا فيجب أن أحرص على الابتعاد عن الاعتقاد بكل ما هو بعيد عن التأكيد ، وكل ما لا يقبل الشك ، مثلما يتوجب ابتعادى عن كل ما ثبت زيفه ، لذا سيكون كافيا لرفض الكل ، أن أعثر على بعض المبررات التى تثير الشك فى أى جزء من هذا الكل • ولن يلزم لتحقيق

(★) نقلا عن Meditations and Selections from the Principles of René Descartes. ترجمة الى الانجليزية • John Veitch.

هذه الغاية أيضا أن أفحص كل اعتقاد بمفرده ، لأن هذا سيتطلب جهدا لا نهاية له • بيد أنه ولما كانت ازالة الطبقة التحتية من الأساس سيترتب عليها بالضرورة سقوط الصرح بأسره ، لذا سأعمل على توجيـــه نقدى للأسس التى استندت اليها معتقداتى فى جملتها •

ان جميع ما قبلتـه وامتلكتـــه ـ حتى الآن ـ من أسمى الحقائق واليقينيات ، اما أكون قد تلقيته من الحواس ، أو عبر الحواس ، ومع هذا فقد لاحظت أن هذه الأشياء قد ضللتنى أحيانا • وتدعونى الحصافة الى عدم الوثوق ثقة مطلقة بتلك الأشياء التى خدعتنا مرة من المرات •

على أنه قد يقال أنه بالرغم من أن الحواس قد تخدعنا ـ فى أغلب الظن ـ من حين لآخر ، فى دقائق الأشياء ، أى تلك الأشياء البعيدة عن تناولنا ، وعن قدرتنا على المشاهدة ، الا أن هناك مع هـذا العديد من متمثلاتها للحقيقة ، التى يتعذر الشك فيها ، كالاعتقاد مثلا بأننى أشغل هذا الحيز من المكان ، وأجلس بالقرب من الموقد ، وأرتدى رداء المنزل • وأمسك بيدى هذه القطعة من الورق ، وغير ذلك من الخصوصيات • غير أنه أنى لى أن أنكر أن لدى مثل هاتين اليدين ، وهذا الجسم • وسيساعد اعترافى بذلك على تفادى انضوائى فى زمرة المجانين . الذين تتصـــف أمخاخهم بالاضطراب وبالعتمة من أثر السحب القاتمة المكفهرة التى تدفعهم الى التشبث بالجهر بأنهم ملوك ، بينما هم يعانون من أشد ويلات الفقر ، أو يصرحون بأنهم يرتدون ثيابا من المخمل الموشى بالذهب ، بينما هم عرايا ، أو قد يتوهمون أن رؤوسهم مصنوعة من الطين وأجســـامهم من زجاج ، أو أنهم نوع من القرع العسلى ؟ • وما من شك أننى لن أكون أقل اتصافا بالخبل ، لو أننى اقتديت بهم فى مثل هذا التطرف •

ورغم صحة هذا الكلام ، فاننى سأعتبر نفسى انسانا ، وأننى بناء على ذلك ، قد اعتدت النوم ، وأن أتخيل فى نومى نفس هذه الأشياء ، أو ربما أحيانا أشياء أقل احتمالا من الأشياء التى تتراءى للمخبولين فى يقظتهم • وكم مرة حلمت أننى فى مثل هذه الحالات المألوفة ، وأننى ألبس رداءى ، وأشغل نفس المكان بالقرب من الموقد ، بينما أنا فى حالة استرخاء على السرير ، ولا أرتدى الرداء الآنف الذكر ؟ • على أننى فى اللحظة الراهنة ، وبكل تأكيد ، أنظر الى هذه الورقة بعينين يقظتين ، كما أن الرأس التى أحركها الآن ليست غارقة فى النوم ، وبمقدورى أن أمد هذه الذراع بوعى ، ولدى غاية واضحة ، غير أننى لن أنسى أننى فى بعض الأحيان قد خدعت أثناء نومى من أثر أوهام مماثلة • وعندما أبحث هذه الحالات بانتباه ، فاننى أدرك بوضوح وجلاء ، أنه لا وجود لأى علامات

معينة يمكن الاسترشاد بها للتمييز بين حالات اليقظة وحالات النوم • وهذا يدهشني كثيرا • وتدفعني الدهشة الى اقناع نفسي بأنني ربما كنت مستغرقا الآن في الحلم •

فلنفترض اذن أننا نحلم ، وأن جميع هذه الأشـــياء بالذات كفتح العينين وحركة الرأس ومد اليدين ، ما هي الا أوهام ، بل وأننا لا نملك بالفعل جسما كاملا ، أو يدين على نحو ما نرى • وبالرغم من هذا ، فيتعين الاعتراف فيمـا يتعلق بالأشياء التي تتراءى لنا في المنـام ، كمتمثلات ماونة ، ما كان بالامكان تشكيلها الا في صورة مماثلة للأشياء الأصلية ، ومن ثم تكون هذه الأشياء العامة في جميع الأحوال ، يعني العينين والرأس والجسم برمته ، مجرد متخيلات ، ولكنها موجودة بالفعل • فحتى المصورين أنفسهم عندما يدرسون كيفية تمثيل الجنيـــات والحوريات فيصـورونها بطريقة فانتازية وغير مألوفة ، فانهم لا يستطيعون طبعها بطبائع جديدة تماما • وغاية ما بوسعهم القيام به هو رسم كائنات تتألف من شذرات تمثل مختلف الحيوانات • أو اذا تصادف وتخيلوا أشياء مستحدثة تماما لا تتشابه أيما تشابه هي وأشياء أخرى ســبق وجودها ، بحيث بدت خرافية وزائفة بالاطلاق ، فليس من شك أن ألوان هذه الأشياء ــ على أقل تقدير ــ ستكون حقيقية •

وتبعا للمبدأ ذاته ، وبالرغم من أن هذه الأشياء العامة ، يعـــني الجسم والعينين واليدين وما أشبه متخيلة ، الا أننا مضطرون الى الاعتراف بحقيقة بعض أشـياء أخرى ، أبسط وأكثر كلية ، كالألوان ، وجميـع تخييلات الأشياء ، سواء كانت حقيقية وفعلية ، زائفة أو وهمية ، والتي توجد في وعينا •

وينتمي الى هذه الفئة من الأشياء ، الطبيعة الجسمانية بوجه عام ، وامتدادها ، وأشكال الأشياء الممتدة ، ومقاديرها ، وأحجامها وأعدادها ومواضعها ، والأصناف التي تندرج تحتها وأشياء أخرى من هذا القبيل • ومن هنا فاننـا لن نكون قـد استنتجنا استنتاجا مشروعا ــ في أغلب الظن ــ اذا خلصنا من ذلك الى الظن بأن الفيزياء والفلك والطب وجميع العلوم الأخرى ، التي لها غايات مؤلفة من أهداف مختلطة ، ذات طبيعة مشكوك فيها حقا ، بينما تشتمل علوم أخرى كالحساب والهندسة وشتى العلوم الأخرى من نفس الفئة من تلك التي لا تنظر الى غير الأشياء الأبسط والأكثر عمومية ــ وقلما تبحث في هل توجد هذه الأشياء حقا ــ على ما هو يقيني لا يتطرق اليه الشك • فسواء كنت يقظانا أو نائما ســيظل من الحقيقي أن حاصل جمع اثنين وثلاثة هو خمسة ، وأن المربع له أربعـة

أضلاع . كما أنه لا يحتمل أن تقع حقائق بمثل هذا الوضوح تحت طائلة الشك ، أو الوصف بالزيف .

ومع هذا فان الاعتقاد بوجود اله قادر على كل شيء ، خلقني مثلما أنا ، وقد سيطر على عقلي لأمد طويل ، فكيف يمكنني اذن أن أعرف أنه لم يرسم مخططا تستبعد منه الأرض والسماء ، أو أي شيء ممتد أو أي شكل أو حجم أو موضع ، بينما قد أعد العدة – رغم هذا – لكي يستثير عندي ادراك جميع هذه الأشياء ، واقناعي بأنها ليست موجودة على أي نحو غير النحو الذي أدركته ؟ . وفوق كل ذلك ، ولما كنت أعتقد أحيانا أن الآخرين قد وقعوا في الخطأ فيما يختص بأمور يعتقدون أنهم يعرفونها معرفة كاملة ، فأنى لي أن أعرف بأنني لم أتعرض لنفس الخداع في كل مرة أجمع فيها اثنين وثلاثة ، أو عندما أحاول معرفة عدد أضلاع المربع ، أو عندما أقوم باصدار أي حكم – ربما كان أبسط – لو أمكن تخيل أمثلة أبسط من ذلك ؟ . ولكن لعل الله العلي الحكيم لا يرتضى أن أتعرض لمثل هذا الخداع ، لأنه يوصف بأنه الخير الأعظم . فاذا كان مما يتنافر وخيرية الله أن يكون خلقني عرضة للخداع المستمر ، ألا يبدو بالمثل مما يتعارض وهذه الخيريه أن يسمح من حين لآخر بتعرضي للخداع . ومع هذا فلنقل بأن هذا قد لا يكون مستبعدا . ولا جدال في وجود بعض – في أغلب الظن – قد يرضون عن انكار وجود كائن عظيم القوة ، ولكنهم لا يرضون عن الاعتقاد بعدم وجود شيء يقيني . غير أن علينا أن نحجم هنيهة عن الاعتراض على هذا الرأي ، ونسلم بأن كل ما يقال هنا عن الله وهم . وبالرغم من هذا فأيا كان الطريق الذي يزعم أنني سلكته لبلوغ الحالة التي بلغتها ، سواء عن طريق القدر او المصادفة ، أو عن طريق سلسلة لا تنتهي من السوابق واللواحق ، أو أية وسيلة أخرى ، ولما كان الوقوع في خداع أو خطأ من أوجه النقص ، فلا يخفى أن احتمال اتصافي بالنقص يجعلني عرضة دائما للخداع ، الذي سيزداد باطراد بازدياد النقص في القوة أو القدرة التي تملكها العلة التي ينسبون اليها الأصل الذي انحدرت منه . وليس عندي بالتأكيد ما أقوله بالنسبة لهذه الاستنتاجات . غير أني مضطر في نهاية المطاف أن أعلن أنه لا وجود لشيء على الاطلاق سبق وأن آمنت بصحته يستحيل الشك فيه ، وأنني اذا كنت أرغب في اكتشاف شيء يقيني ما ، فلا يرجع ذلك الى افتقاري الى الفكر ، أو اتصافي بالطيش ، وانما يرجع الى أسباب مفحمة ، أدركتها ادراكا ناضجا ، فمن واجبي أن لا يقل حرصي على دحض الظنون عن حرصي على رفض تلك الآراء التي يبين زيفها .

غير أنه لا يكفى ابداء مثل تلك الملاحظات • اذ يتعين الحرص بالمثل على تذكرها ، لأن هذه الظنون العتيقة والتقليدية تداوم الظهور • وقد أكسبها الرجوع المستمر اليها لأمد طويل ، وألفتنا لها ، الحق فى شغل عقلى حتى ضد ارادتى وخضوع ايمانى لها • كما أننى لن أتخلى عن عادة الاذعان لها والوثوق فيها مادمت أعتبرها ظنونا مشكوكا فيها نوعا ، ان صح القول ، ولكنها محتملة احتمالا كبيرا • ومن ثم وبناء على ذلك ، فانه من الأعقل الايمان بها بدلا من انكارها • لهذا السبب فاننى مقتنع بأننى لن أكون قد وقعت فى الخطأ ، اذا اتبعت الحكم المقابل المستند الى مخطط راسخ ، ونسبت أصل الخداع لنفسى ، مما حدا بى الى الزعم لفترة ما بأن جميع هذه الظنون زائفة ومتخيلة • غير أنه فى نهاية الأمر ، وبعد أن أوفق فى احداث توازن بين أهوائى القديمة وأهوائى الحديثة ، فاننى سأتمكن من الحيلولة دون انحراف أحكامى من جراء ابتعادى عن الطريق الذى يسوقنى الى ادراك الحقيقة • فأنا موقن أنه فى أثناء ذلك ، لن ينجم أى خطر أو خطأ من اتباع هذا الطريق ، وأن من واجبى ألا أعرب عن مثل هذا القـــدر الكبير من عدم الوثوق مادامت الغاية التى أسعى اليها الآن هى المعرفة وليست الناحية العملية •

لن أفترض اذن أن الله ، الذى يتصف بخيريته ، وبأنه نبع الحقيقة ، قد استعمل كل حيلة لخداعى ، ولكنى سأفترض أن شيطانا شريرا يجمع بين القوة والقدرة على الخداع قد استخدم جميع ضروب الحيل لخداعى ، وسأفترض أن السماء والهواء والأرض والألوان والأشكال والأصوات ، وجميع الأشياء الخارجية ليست أفضل من أوهام الأحلام ، وأن هذا الكائن قد استعان بها لايقاعى فى فخ المصداقية ، وسأعتبر نفسى بلا يدين وعينين وجسد ودم ، أو أية حاسة ، وبأننى أعتقد ــ زيفا ــ أننى أملك هـــذه الاشياء • وسأحرص وسأصمم على الحفاظ على هذا الاعتقاد • واذا تعذر حقا تمكنى من بلوغ معرفة الحقيقة ، بعد اتباع هذه الوسائل ، فاننى سأكون ــ على أقل تقـــدير ــ قد أخرجت آخر ما فى جعبتى ، أى علقت أحكامى ، والتزمت الحذر اتباعا لغاية وطيدة ، ولم أوافق على ما هو زائف استسلاما لما فرضه على هذا الخداع ، أيا كانت قدراته وحيله •

غير أن هذه الفعلة عسيرة وعويصة • وسأضطر بتأثير نوع ما من الكسل ، الى العودة ، دون أن أشعر ، الى طريقى المعتاد فى الحياة • وكما يستمتع الأسير فى أحــلامه ــ عفوا ــ بالحرية المتوهمة ، فانه عندمـــا يبدأ فى الارتياب فى أن ما ينعم به لا يزيد عن رؤى فانه يخشى اليقظة ، ويتمنى خضوعا لهذه الأوهام المستحبة ، لو طالت هذه الأحلام ، ومن ثم

فاننى بمحض اختيارى ، سأعود مرة أخرى الى تيار معتقداتى السابقة ، وسأخشى أن أوقظ نفسى من سباتى ، حتى لا تجىء اليقظة ، وما فيها من كد وعناء ، فى أعقاب هذه الراحة والسكينة • وبدلا من أن تأتينى بضوء النهـار ، فانها تثبت عـدم كفايتها فى ازالة الظلمة التى ستنبعث من الصعوبات التى أثيرت الآن •

● التأمل الثانى :

عن طبيعة العقل الانسانى ، وأنه أسهل فى معرفته من الجسم :

لقد شحن تأمل الأمس عقلى بالكثير من الشكوك ، بحيث لم يعد فى مقدورى تناسيها • كما أننى لا أرى ـ فى الوقت نفسه ـ أى مبدأ بوسعى الارتكان اليه للخلاص من هذه الشكوك • ولقد اضطربت أفكارى وتبلبلت ، بحيث لم يعد باستطاعتى أن أضع قدماى على الأرض ، أو أتجنب الغرق فى الماء ، وكأنى قد سقطت بغتة فى اليم • ومع هذا فانى سأبذل جهدا ، وأحاول مرة أخرى اللجوء الى نفس الطريق ، الذى طرقته بالأمس ، أى أبدأ باستبعاد كل ما يساعد على الوقوع فى أوهى شك • ولن تقل محاولتى فى هذا الشأن عما كانت عليه عندما اكتشفت ما فيها من زيف مطلق • وسأواصل دوما اتباع هذا الطريق الى أن أهتدى الى شىء ما يوصف بأنه يقينى ، أو على أقل تقدير ، سأتبع هذا الطريق الى أن أعرف عن يقين أنه لا يوجد أى شىء يقينى ، وسألجأ الى هذه الوسيلة اذا عجزت عن فعل ما هو أكثر فاعلية •• وكما فعل أرشميدس ، الذى طالب بنقطة واحدة تتسم بالرسوخ والثبات ، حتى يستند اليها فى نقل الكون بأسره من الموضع الذى يحتله الى موضع آخر ، فانى سأجيز توقع أعظم الأشياء ، لو ساعدنى الحظ ، واكتشفت شيئا مؤكدا واحدا لا غير ، لا يتطرق اليه الشك •

وتبعا لذلك ، فاننى سأفترض أن جميع الأشياء التى أراها زائفة • (أى محض خرافات) ، وسأعتقد أن لا شىء مما تمثله ذاكرتى الخرافيـة قد وجد على الاطلاق ، وسأفترض أننى بلا حواس • وأن أشياء مثل الجسم والشكل والامتداد والحركة والموضع ما هى الا خرافات من صنع عقلى ، فأى شىء اذن يمكن أن يحكم عليه بأنه حقيقى ؟ لعل الشىء الوحيد الذى يمكن أن يوصف بهذه الصفة هو القول بأنه لا وجود لأى شىء يقينى •

ولكن أنى لى أن أدرك أنه لا وجود لشىء جد مختلف عن الأشياء التى سردتها الآن ، يمكن أن يثير أى شك طفيف ؟ •• أليس هناك أله ، أو أى كائن آخر أيا كان الاسم الذى أنسبه اليه ، ويعد علة هذه الأفكار التى

بزعت فى عقلى ؟ ولكن لماذا نفترض مثل هذا الكائن ، فلربما كنت أنا نفسى قادرا على احداثها ؟ ألست أنا — على أقل تقدير — شيئا ما ؟ . غير أننى قد أنكرت قبل ذلك أننى أملك حواسا أو جسما ، ومع هذا فاننى أتردد ، فما الذى يتبع ذلك ؟ فهل أنا معتمد اعتمادا كبيرا على الجسم والحواس بحيث لن أستطيع أن أوجد بغيرها ؟ غير أننى مقتنع بأن لا شىء كان موجودا فى العالم ، وأنه لا وجود لسماء أو أرض أو عقول أو أجسام . ألا يعنى هذا اذن أننى كنت فى الوقت نفسه متيقنا بأننى لست موجودا ؟ .. ان الأمر بعيد عن ذلك . فأنا موجود يقينا ، والا فما معنى قولى أنى مقتنع . ولكن هناك كائنا لا أستطيع أن أسميه يملك أعظم قدرة ، وأعمق دهاء ، ويستعمل بلا توقف كل براعته فى خداعى . ليس من شك اذن فى أننى موجود ، مادمت قد خدعت . وليخدعنى كما يطيب له ، الا أنه لن يستطيع أن يثبت انى لا شىء . ومادمت محتفظا بوعيى ، فان هـذا يثبت اننى شىء ما . ان هذا كلام يجب أن يقر . فهو كلام واضح ، لا يجب أن نختلف بشأنه . فبعد النظر فى جميع الأشياء نظرة فاحصـة مدققة ، سيبين أن هذا الحكم القائل بأننى كائن ، واننى افكر حكم صحيح ، قد أثبت صحته فى كل شىء قمت بالتعبير عنه أو تصورته فى ذهنى .

بيد أننى لم أعرف بعد — بوضوح كاف — ماهيتى ، وان كنت قد تأكدت من أننى كائن ، ومن ثم ، وفى المقام التـالى ، يجب أن ألتزم الحرص . فلعل وعسى أن أكون دون أن أعى قد قصدت شيئا آخر فى الحجرة عوضا عن نفسى ، وبذلك أكون قد شططت عن بلوغ الحقيقة ، حتى فى مسـألة اعتقدت أنهـا من أكثر المعـارف يقينا ووضوحا . لهذا السبب ، فانى سأعيد النظر من جديد فيما اعتقدت سابقا عن ماهيتى ، قبل أن أدخل فى تيار الفكر الحاضر ، وسأستبعد من رأيى السابق أى شىء يمكن أن يتعرض للبطلان والمسخ ، من أثر الشك الذى أوردته ، وبذلك لا يبقى فى نهاية الأمر أى شىء غير ما هو يقينى ، ولا ينطرق اليه أى شك . فما الذى سبق أن اعتقدته عن نفسى ؟ . ليس من شك أننى حكمت بأننى انسان ، ولكن ما هو الانسان ؟ . هل أقول أنه حيوان عقلانى ؟ بكل تأكيد ، اذ سيكون من الضرورى فى التو أن أبحث عن المقصود بالحيوان ، وما المقصود « بعقلانى » ، وبذلك أكون قد انزلقت من سؤال مفرد الى أسئلة أخرى أصعب من السؤال الأول . كما أنى لا أملك الآن قدرا كافيا من الفراغ يكفل لى اضاعة الوقت فى دقائق من هـذا النوع . والأفضل لى أن أنتبه الى الأفكار التى انبعثت من نفسها فى عقلى ، وكانت مستلهمة من طبيعتى نفسها ، عندما ركزت على بحث من أكون ..

فاولا اذن لقد اعتقدت أنى أملك سحنة ويدين وذراعين وجميع الأطراف التى تنتمى الى أى جسد ، أى ما أطلقت عليه اسم الجسم . ثم خطر ببالى بعد ذلك اننى أتغذى ، واننى أمشى وأدرك وأفكر وأقوم بجميع الأفعال التى أرجعتها الى الروح . أما ما هى الروح ذاتها فمسألة لم أتوقف لبحثها . وحتى لو فعلت ذلك ، فانى أكون قد تخيلت أنها شىء رهيف مثل الريح أو الشعله أو الأثير ، وأنها تتخلل أجزائى الأكثر جسامة وغلظة . وأما فيما يختص بالجسم ، فاننى حتى لم أتشكك فى طبيعته ، واعتقدت اننى أعرفه بوضوح ، ولو أنى رغبت وصفه تبعا للتصورات التى مرت بذهنى آنئذ لأفصحت عما أريد قوله على هذا الوجه : ما أفهمه من معنى الجسم هو ما يتحدد فى شكل معين ، ويمكن أن يحتل موضعا ما ، ويملأ بالتبعية فراغا بالذات ، وبذلك يستبعد أى جسم آخر يشغل نفس الفراغ الذى يشغله هذا الجسم ، ويمكن ادراكه اما باللمس أو بالنظر أو السمع أو الشم ، ويمكن تحريكه على أنحاء شتى ، ليس بتأثيره هو ذاته ، وانما بتأثير أشياء خارجة عنه ، تلمسه ، وتتلقى منه التأثيرات . وفى اعتقادى أن له قدرة على الحركة الذاتية . والأمر بالمثل فيما يتعلق بالادراك الحسى أو التفكير ، لأنهما لا يرجعان الى طبيعة الجسم . وعلى عكس ذلك فلقد دهشت نوعا لوجود مثل هذه القدرات فى بعض الأجسام .

وفيما يتعلق بذاتى ، فما الذى أعرفه عن ماهيتى ، بعد أن افترضت أن هناك كائنا جبارا وشريرا ، ان جاز لى القول ، تتجه جهوده الى خداعى ، فهل بمقدورى أن أؤكد أننى أملك جميع تلك الصفات التى تحدثت عنها أخيرا ، وأقول أنها تنتمى الى طبيعة الجسم ؟ وبعد أن بحثتها مليا فى عقلى اكتشفت أنه ليس بينها صفة واحدة يصح أن أنسبها لنفسى ، وأن مجرد اعادة عرضها مضيعة للوقت . فلننتقل اذن الى صفات النفس . وأول هذه الصفات هى القدرة على الغذاء والمشى . على أنه لو صح أننى بلا جسم ، سيصح أيضا القول انى لست قادرا على المشى أو التغذى . والادراك الحسى صفة أخرى من صفات النفس ، غير أن الادراك الحسى أيضا مستحيل بغير الجسم . بالاضافة الى أننى طالما اعتقدت أثناء النوم أننى أدركت أشياء لاحظت فيما بعد انى لم أدركها ادراكا حقيقيا . والتفكير صفة أخرى من صفات النفس . وهنا اكتشفت ما ينتمى لى انتماء حقا . فهذه الصفة وحدها لا تنفصل عنى (فأنا يعنى أنا أفكر) . وهذا أمر مؤكد ، ولكن الى أى حد يتحقق ذلك ؟ ، فالتفكير هو الحالة التى تغلب على ففى أغلب الظن ، فانى اذا توقفت عن التفكير ، فانى سأشعر انى توقفت فى الوقت نفسه عن الوجود . ان كل ما اعترفت به كان أشياء حقيقية

بالضرورة • فانا اذن ــ اذا توخيت الدقة ــ مجرد شيء يفكر ، يعني عقل يفهم ، أو يستدل • وهذه مصطلحات لم أدرك أهميتها قبل ذلك • ومع هذا فانا شيء حقيقي وموجود حقا • ولكن أى شيء أنا ؟ وكان الجواب : شيء مفكر ، والآن لقد اتضح انني لست مجموعة الأعضاء التى تسمى الجسم الانسانى ، ولست لهبا وهواء رهيفا ينفذ من خلال جميع هذه الأعضاء ، ولست ريحا أو لهبا أو بخارا أو نفسا ، أو أى شيء من الأشياء التى بمقدورى تخيلها ، لأننى افترضت أن هذه الأشياء ليست كائنة ، وبغير أن أحدث اى تعديل فى هذا الافتراض ، فانني اكتشفت أنى مازلت اشعر يقينا بوجودى •

على أنه من الحقيقى فى أغلب الظن ان هذه الأشياء ذاتها التى افترضت عدم وجودها ، لأنها غير معروفة لى ، ليست فى الحق مختلفة عنى ، أى عما أعرف • وهذه نقطة لا أستطيع أن أقررها ، ولن أدخل فى أى مشاحنة بشأنها ، فأنا قادر على الحكم فقط على الأشياء المعروفة لى • فأنا أعى أنى موجود ، وأنا الذى يعرف أنه موجود أبحث عمن هو أنا • ومع هذا فمن المؤكد تماما ان معرفة وجودى اذا نظرنا اليها نظرة دقيقة ، ليست مستقلة عن الأشياء التى ليس وجودها معروفا لى حتى الآن ، ومن ثم فانها لا تكون معتمدة على أى شيء من الأشياء التى بمقدورى أن أدعيها تخيلا • وفضلا عن ذلك ، فان العبارة نفسها التى ذكرت فيها أننى قد تخيلت شيئا ما ، تذكرنى بخطأ وقعت فيه ، لأننى لا أستطيع ــ فى الحق ــ تخيل أى شيء الا اذا استطعت أن أتخيل نفسى كشيء ما • ولما كان التخيل ليس شيئا آخر غير تخيل الشكل أو صورة الشيء الجسمانى • غير أننى أعرف بالفعل انى موجود ، وأنه من الممكن فى نفس الوقت أن تكون جميع تلك الصور ، وبوجه عام كل ما يرتبط بطبيعة الجسم هو مجرد حلم أو خرافة • ولقد اكتشفت من كل هذا أنه لن يكون من المعقول أكثر من ذلك القول بأننى سأستثير مخيلتى حتى يكون بمقدورى زيادة معرفتى بوضوح أشد من أنا ، أكثر من قيامى بالتعبير عن نفسى على الوجه الآتى : اننى يقظان الآن ، وأدرك حسيا شيئا حقيقيا ، ولكن لما كانت مدركاتى ليست واضحة وضوحا كافيا ، لذا سأتوجه للنوم بقصد ، حتى تستطيع أحلامى أن تعرض على موضوع مدركاتى بقدر أوفى من الحقيقة والوضوح • ومن ثم فانني أعرف أنه لا شيء من كل ما بمقدورى أن أضمه الى مخيلتى ينتمى الى المعرفة التى لدى عن نفسى ، وأن الحاجة تدعو الى تذكير العقل بزيادة الاهتمام بهذا النوع من التفكير حتى تتسنى له معرفة طبيعته بتمايز أكمل •

ولكن من هو اذن أنا ؟ شيء مفكر · هكذا قيل · ولكن ما هو الشيء المفكر ؟ انه شيء يتشكك ويفهم ويتصور ويؤكد وينكر ويرغب ويرفض ويتخيل أيضا ويدرك ادراكا حسيا · وبالتأكيد ، ليس أمرا هينا أن تلتقى جميع هذه الصفات فى طبيعتى · ولكن ما الذى يحول دون انتمائها لى ؟ ألست بالكائن ذاته الذى يتشكك الآن فى جميع الأشياء على وجه التقريب ، وأنه رغم كل هذا يفهم ويتصور أشياء معينة ، ويؤكد واحدة منها فقط على أنها صحيحة ، وينكر باقى الأشياء · انه يرغب معرفة الكثير عنهـــا ، ولا يرغب فى التعرض للخداع · ويتخيل الكثير من الأشياء ، أحيانا رغم ارادته · وهو بالمثل قادر على ادراك العديد ، وكأنه يدركها من خلال الحواس ، ألا يوجد بين جميع هذه الأشياء ما يتماثل فى صـــحته وشـــعورى بكينونتى حتى وان كنت فى حالة حلم دائم ، وبالرغم من أن من منحنى الكينونة قد استعمل كل فراسته لخداعى ؟ وهل هنـــاك أى صفة بين هـــذه الصفات يمكن التفرقة تفرقة صحيحة بينها وبين فكرى ، أو يمكن القول بأنها منفصلة عن نفسى ؟ ··· لأنه من الجلى تمـــاما اننى أنا الذى يشك ، وأنا الذى أفهم ، وأنا الذى أرغب ، وليس ضروريا اضافة أى شيء الى ما قيل من قبيل زيادة التوضيح· وأنا يقينا مماثل لنفس الكينونة التى تتخيل · فبالرغم من عدم صحة أى شيء تخيلته ، كما افترضت سابقا ، الا أن القدرة على التخيل لا تتوقف عن الوجود عندى ، ولا تتوقف عن الانتماء الى فكرى · وبعبارة أخرى ، اننى نفس الكائن الذى يدرك حسيا ، أى الذى يدرك أشياء معينة وكأنه أدركها بأعضائه الحسية ، لأننى — فى الحق — قادر على رؤية الضوء وسماع الصوت والشعور بالحرارة · ولكن ربما قيل ان هذه المتمثلات زائفة ، واننى أحلم · فليكن الأمر كذلك · وعلى أية حال ، فمن المؤكد أنه يبدو اننى أرى ضوءا أو أسمع صوتا وأشعر بالحرارة · وهذه أشياء لا يصح وصفها بالزيف · وهذا ما يسمى فى حالتى بالادراك الحسى ، وهو ليس شيئا مختلفا عن التفكير · ومن هذه الحالة ، أبدأ معرفة من أنا بوضوح وتمايز أعظم نوعا مما سبق ·

·· ورغم هذا فمازال يبدو لى ، وليس بمقدورى أن أمنع هذا الاعتقاد ، أن الأشياء الجسمانية ، والتى يقوم الفكر بانشاء تخييلاتها ، والتى تقع تحت حواسى ، وتفحصها الحواس نفسها ، بالمقدور أن تعرف بوضـــوح أشد يفوق وضوح الأجزاء التى يمكن تخيلها ، وعلى الرغم من أنه قد يبدو وجودها لى موضع شك وغير معروف ، ولا تنتمى لى ، وأن هذه المعرفة

وهذا الادراك يفوقان معرفتي وادراكي للأشياء الأخرى التي اقتنعت بأن حقيقتها معروفة لي وترتبط بطبيعتي الحقة ، أي تفوق معرفتي لنفسي ، بعبارة أخرى ، الا أنى أرى بوضوح ما هي حقيقـــة هذا الرأى : انى ميال للشطح ، الذى يحول دون تقبله التقيد بحدود الحقيقة • فلنترك اذن العقل لنفسه مرة أخرى ، ونمنحه كل نوع من أنــواع الحرية ، ونسمح له بالبحث فى الأشياء التى تظهر له من الخارج • فاذا تهيأت له فيما بعد الفرصة لكى يبتعد عن هذه الأشياء الخارجية وانسحب منها شيئا فشيئا ، عندما تسمح الظروف بذلك ، فانه سيتجه الى التركيز على كينونته وخصائصها التى يكتشفها فى نفسه ، وبذلك سيصبح أكثر قدرة على الحكم عليها •

وتبعا لذلك ، فلنبحث الأشياء التى يعتقد بوجه عام أنها الأسهل فى معرفتها • وبالمثل التى تتيسر معرفتها فى صورة أشـد تمايزا ، يعنى الأجسام التى نلمسها ونراها • وبطبيعة الحال ، لا يقصد بذلك الأجسام بوجه عام ، لأن مثل هذه التصورات تتصف عادة باضطرابها نوعا • ولكن المقصود هو أى جسم بالذات • ولنتأمل على سبيل المثال هذه القطعة من الشمع • انها ما زالت غضة • فلقد انتزعت حديثا من خلية للنحل ، ولم تفقد بعد حلاوة العسل الذى كانت تحتويه ، وما زالت محتفظة بعبق الأزهار الذى كان يفوح من الخلايا التى جمع منها هذا العسل • فلونها وشكلها وحجمها واضح للعيان • انها صلبة باردة • ومن السهل تناولها ، وينبعث منها صـوت عندما نطرقها بالاصـبع • وبعبارة أخرى ، ان جميع الصفات التى يوصف بها الجسم ، والتى يمكن التعرف على كل منها متمايزا عن الآخر ، موجودة فى قطعة الشمع • ولكن اذا حدث أثناء تكلمى ان قربت من النار ، فان ما بقى من مذاقها سيتصاعد أو يفوح ، وستتبخر رائحتها ، ويتغير لونهـــا ، ويتلاشى شكلها ، ويتمدد حجمها ، وتتحول الى سائل ، وتزداد سخونة ، ويتعذر لمسها • واذا طرقناها لن ينبعث منها أى صوت • فهل ما تزال قطعة الشمع نفسها هى هى ، بعد هذا التغير ؟ • يتعين الاعتراف بأنها ما زالت باقية • ولا أحد يتشكك فى ذلك ، أو يحكم غير ذلك • فما هو الشىء الذى أمكن أن أميزه عند تعرفى على قطعة الشمع ؟ • بالتأكيد ، لن يكون هذا أى شىء قد لاحظته باستعمال الحواس ، لأن جميع الأشياء التى تقع تحت طائلة الذوق أو الشم ، أو النظر أو اللمس والسمع قد تغيرت • ومع هذا فقد ظل الشـــمع نفســه ، كما هو ، ان ما بقى هو ما يجول بفكرى الآن • يعنى ان هذه القطعة من الشمع لم تك حلاوة العسل أو الرائحة العطرة للأزهار ، والبياض ، والشكل ، أو الصوت ،

ولكنها كانت فقط جسما بدا لى منذ هنيهة ظاهرا من خلال هذه الصفات ·
ولكنه الآن يدرك من خلال صفات أخرى · ولكن اذا توخينا الدقة ،
تساءلنا فما الذى تخيلته عندما فكرت فى قطعة الشمع على هذا الوجه ؟ ·
علينا أن ننتبه الى ما سيبقى بعد أن ننتزع جميع الخصائص التى لا تنتمى
الى قطعة الشمع · وفى الحق ، فلا شىء سيبقى غير شىء ممتد ، يتميز
بالمرونة والحركة · ولكن ما المقصود بالمرونة والقدرة على التحرك ؟ ·
هل يعنى ذلك تخيلى امكان تحويل الشمع من الشكل المستدير الى شكل
المربع ، أو تحويل الشكل المربع ، الى شكل المثلث ؟ · وبالتأكيد ،
ليس الأمر هكذا ، لأننى أتصور أنها تسمح بتغيرات مماثلة لا نهاية لها ·
وفضلا عن ذلك ، فاننى غير قادر على الاحاطة بجميع هذه التحولات ،
التى لا نهاية لها اعتمادا على الخيال ، ومن ثم لن يكون ما لدى من تصور
لقطعة الشمع من نتاج ملكة الخيال ، ولكن ما هو هذا الامتداد ؟ أليس
هو الآخر غير معروف ؟ · لأن هذا الامتداد يزداد ضخامة عندما يذوب
الشمع ، ويزداد حجمه عندما يتبخر ، ويزداد الحجم أكثر فأكثر عندما
ترتفع الحرارة ، ولن يكون بمقدورى أن أتصور فى وضوح ، وفى صورة
قريبة من الحقيقة ، قطعة الشمع كما هى ، اذا لم أفترض أن القطعة
موضع البحث تسمح حتى بأنواع أكثر تنوعا للامتداد ، تفوق ما تخيلت ·
ومن هنا فيجب أن أعترف اننى لن أستطيع حتى اعتمادا على الخيال ،
ادراك ماهية قطعة الشمع ، وأن العقل وحده هو الذى يدركها · ولقد
تحدثت عن قطعة واحدة بالذات ، لأنه فيما يتعلق بالشمع بوجه عام ،
فان هذا الاستنتاج أكثر وضوحا ، ولكن ما هى هذه القطعة من الشمع ،
التى لا يمكن ادراكها حسيا الا بوساطة الفهم أو العقل ؟ · انها بالتأكيد
هى هى القطعة التى أراها وألمسها وأتخيلها · وبعبارة أخرى ، انها هى
هى من البداية ، كما اعتقدتها · ولكن (وهذه نقطة يجب ملاحظتها)
ليس الادراك الحسى مرادفا لأى فعل من أفعال النظر أو اللمس أو
الخيال · ولم يك قط أى فعل من هذه الأفعال ، رغم أنه قد يبدو مسبقا
كذلك ، ولكنه عبارة عن حدس من حدوس العقل ، قد يتصف بعدم
اكتماله واضطرابه ، كما كان الحال فيما سبق ، أو قد يتصف بوضوحه
وتمايزه ، كما هو الحال فى الحاضر لأنه يخضع فى هذه الناحية الى
مقدار ما يتعرض له من زيادة فى الانتباه الى ما يحتوى من عناصر ·

ولكن فى الوقت نفسه ، فاننى أشعر باندهاش أشد عندما ألحظ
ضعف عقلى ، واستعداده للوقوع فى الخطأ · فعلى الرغم من أننى قد
فحصت كل هذه الأشياء داخل عقلى دون أن ألجأ الى التعبير عنها على
الاطلاق ، فان الكلمات قد عاقت من حين لآخر تقدمى فى طريق الاهتداء

الى الحقيقة • ولقد كدت أقع فى الخطأ من أثر استخدامى لمصطلحات اللغة العادية • فنحن نقول على سبيل المثال اننا نرى نفس قطعة الشمع عندما تكون أمامنا ، وليس اننا نحكم عليها على أنهـا هى هى ، لأنهـا احتفظت بنفس اللون والشكل ، ومن هنا فاننى على التو سأميل الى استنتاج أن قطعة الشمع قد عرفت عن طريق النظر ، وليس عن طريق حدس العقل وحده ، لولا استرشادى بمثل يصلح للقياس ، عندما أرى اناسا وأشاهدهم من النافذة • ففى هذه الحالة ، فاننى لن أتردد فى القول بأنى أرى الناس أنفسهم ، مثلما أقول اننى أرى قطعة الشمع ، بالرغم من أن ما أراه من النافذة عبارة عن قبعات وعباءات قد تستعمل لتغطية قطع من الآلات ، تحركها يايات ! ؟ ولكنى لا أعتمد على هـذه المظاهر عندما أقرر وجود اناس من البشر • وبمعنى آخر ، فاننى أدركت اعتمادا على ملكة الحكم وحدها ، التى هى بعقلى ، ما اعتقدت انى رأيته بعيناى •

ان من يضع نصب عينيه الارتفاع الى مرتبة المعرفة الأسمى من معرفة العوام ، عليه أن يخجل من البحث فى أسباب تدعوه للشك اعتمادا على الأشكال الدارجة فى الحديث ، وبدلا من القيـــام بذلك ، فاننى سأواصل بحثى واستوضح : هل كان لدى تصور أوضح وأكمل لقطعة الشمع عندما رأيتها لأول مرة ، وعندما اعتقدت أنى عرفتها اعتمادا على الحس الخارجى ذاته ، أو اعتمادا على المفهومية الدارجة Common sense كما تسمى ، يعنى اعتمادا على ملكه الخيال ، أم أننى أصبحت أدركها على نحو أوضح فى الحاضر ، بعد أن فحصت بعناية أكبر ماهيتها ، والسبيل الذى يجب أن أتبعه لكى أعرفها • لربما بدا من المؤكد مثيرا للسخرية الشك فى مثل هذه النقطة • فما الذى كان يتصف بالتميز فى مثل هذا الادراك الحسى الأول ؟ • فما الذى أدركت حسيا ، ولم يك بوسع اى حيوان ادراكه ؟ ولكن عنـدما أفرق بين الشمع وأشـكاله الخارجية ، وعندما أفحصه وكأننى قد خلعت منه جميع أرديته وأنظر اليه وهو عار ، سيكون مؤكدا أننى سأعجز عن الاحاطة به لو كنت لا أملك عقلا بشريا ، بالرغم من احتمال العثور على بعض الخطأ فى أحكامى •

ولكن وأخيرا ما الذى بوسعى أن أقوله عن العقل بالذات ، أى عن نفسى ؟ • فحتى الآن لم أعترف بأننى أى شىء سوى انى عقل • فماذا بعد ذلك • اننى ، أى من يبدو أنه يملك مثل هذه القدرة الادراكية على تمييز قطعة الشمع ، ألست قادرا على معرفة نفسى بقدر كبير من الحقيقة واليقين ، وبقدر أكبر أيضا من الوضوح والتمايز ؟ فاذا كنت قد استطعت

إن أحكم على أن قطعة الشمع موجودة... لأنى أراها ، فان ما سيتبع ذلك مؤكدا ، وبوضـوح أكبر ، هو أنى نفسى موجود لنفس السبب ، لأن ما أراه لا يستبعد أن لا يكون فى الحق شمعا ، وأن لا يكون لدى حتى العينين اللتين أرى بهما أى شىء ، ولكن من المستحيل أن أكون أنا القادر على الرؤية أو ما يساوى ذلك • أنا القادر على الاعتقاد بأنى أرى ، وأنا نفسى القائم بالتفكير ، ان أكون لا شىء • وبالمثل ، فاذا حكمت بأن الشمع موجود لأنى قادر على لمسه ، سيكون ما يتبع ذلك أيضا هو انى كائن • واذا قررت ان خيالى أو أية علة أخرى — أيا كانت — قد استحثتنى على الاعتقاد فى وجـود الشـمع ، فاننى سأستخلص النتيجة عينهـا • وما لاحظناه هنا عن قطعة الشمع ينطبق بالمثل على جميع الأشياء الأخرى ، التى تعد خارجية بالنسبة لى • وفوق كل ذلك فاذا بدا الادراك الحسى للشمع ، أو تضورى له أدق وأكثر تميزا ، حينئذ ، لن يقتصر الأمر على النظر واللمس فى تعريفى بطريقة واضحة المقدار الكبير من التمايز الذى بمقدورى أن أعرف به نفسى ، فسيكون بمقدورى تحقيق ذلك ، لأن جميع المبررات التى اشتركت فى تعريفى طبيعة الشمع ، أو أى جسم آخر ، ستتحقق على نحو أفضل عند تعريفى طبيعة عقلى ؟ • والى جانب ذلك فثمة أشياء أخرى ، فى العقل ذاته ، ستشارك بدور فى تصوير طبيعته ، بحيث قد لا يستحق عمل أى حساب لأولئك الذين ينسبون للجسم فضلا أكبر والذين أشرت اليهم •

ولكن ، وفى النهاية فانى أرى أنى قد رجعت دون أن أشـعر الى النقطة التى أرغب ايضاحها • فلما كان قد أصبح بينا الآن لى أن الأجسام ذاتها لا تدرك ادراكا صحيحا بوساطة الحواس ، ولا اعتمادا على ملكة الخيال ، ولكنها تدرك بفضل الذهن وحده • ولما كانت لا تدرك ارتكانا الى أنها ترى وتلمس ، وانما تدرك لأنها تفهم ، أو يحيط بها الفكر احاطة صحيحة ، فانى قد اكتشفت بالفعل أن فهم عقلى أيسر وأوضح من أى شىء آخر ، ولكن لما كان من العسير التخلص على الفور من رواسب الظن الذى اعتاده المرء طويلا ، لذا سيكون من المرغوب فيه التمهل هنيهة فى هذه المرحلة حتى أتمكن بعد تأمل وتمعن أن أغرس فى ذاكرتى على نحو أعمق هذه المعرفة الجديدة •

● المذهب التجريبى

[الملاحظات : بقلم ويلارد فان أورمان كين وجوزيف سيلبرت أوليان ويلارد • و فان أورمان كين (١٩٠٨ –) هو أستاذ الفلسفة فى جامعة هارفارد • وتتضمن كتبه الأربعة عشر كتاب

The Word and object — Methods of Logic — Roots of Reference

أما جوزيف سيلبرت أوليان (١٩٣٠ –) فهو أستاذ الفلسفة فى جامعة واشنطن • وقد ألف جملة أبحاث فى موضوعات الفلسفة والمنطق وعلم الكومبيوتر] •

ارضاء بعضنا أيسر من ارضاء البعض الآخر • وأى انسان منا سهل الارضاء فى بعض الأمور وعسير الارضاء فى أمور أخرى • ولكن ثمة حدا لذلك • ونحن اذا رجعنا الى مشاهداتنا المباشرة ، فاننا لن نهتدى الى ما هو أعمق منهـا يستأهل البحث • ولن يكون لما يقوله الآخرون ، حتى اذا كان ذلك مستمدا من مشاهداتهم المباشرة ، أى وقع يشعرنا بأن ما قالوه هو الكلمة الأخيرة فى هذا الأمر • وقد يكون لدينا مبرر قوى للوثوق فيما يقرره هؤلاء الآخرون • غير أننا عندما نثق فى مثل هذه الأقوال ، فاننا نكون قد ارتكنا فى ذلك على عملية استدلالية من بينة أخرى ، هى احدى مشاهداتنا • ان ما نشاهده شهادة مباشرة هو بالأحرى القرار الأخير فى أية مسألة ، سواء جاء ذلك جهرا بالكلمات ، أو جاء فى صورة كلمات مكتوبة • وعلينا بعد ذلك أن ننظر فى أمر التجارب اللغوية الماضية ، لتحديد مدى مصداقية أصحاب هذه الكلمات • ان أية متذكرات ، أو حتى أية وثيقة مكتوبة قد سجلت عليها مشاهداتنا المباشرة هى أيضا بعيدة نوعا عن المشاهدة الأصلية ، وان كنا لا نطمع فى المزيد • فما نشاهده مشاهدة مباشرة فى حالة الوثيقة المكتوبة يتشابه وتقرير أى صديق لنا • ففى الحالتين ، ترتبط الوثيقة بمشاهداتنا الأصلية برباط استدلالى ، حتى ان حبذنا حالتنا ، من حيث مدى اعتمادها على الاستدلال •

(★) نقلا عن كتاب The Web of Belief تأليف Willard Van Orman Quine و Joseph Silbert Ulian, (١٩٧٠) ، وأعيد طبعه ١٩٧٨ •

وهكـذا يكون الدليل النهـائي الذى يتعين أن يتجاوب ونسـق معتقداتنا فى جملته قد استند استنادا وثيقا على مشاهدتنا المباشرة ، بما فى ذلك مشاهداتنا لما لاحظناه ، ولما قرره الآخرون • بطبيعة الحال ، اننا نترك الكثير من النقاط بلا فحص ، فثمة حكايات تنتقل الينا من أسلافنا • غير أنه فى نهاية المطاف يبين أن الأدلة الفعلية التى تتوافر لأى منا ترتد الى الأدلة الفعلية للحواس • وبالمثل ، فان الأدلة الكائنة ، أو السابق الحصول عليها جماعيا ، والتى ارتكن اليها الصرح الهائل للعلم ، فانها قد اقتصرت فى قوامها على الدليل المباشر لحواس العديد من الأشخاص •

ان العالم بما فيـه من نقيق ضفادع وكروموزومات (صبغيات) وأراض نائية وسدم لولبية ، يتماثل وكومبيوتر الصندوق الأسود فى الطائرة ، الذى يبقى مشمعا الى الأبد ، ولا يخرج منه الا ما سجل من مدخلاته ومخرجاته • وهذه المدخلات والمخرجات هى التى نشاهدهـا مشاهدة مباشرة • وعلى ضوئها نتفكر فى تكوين الآلة ، وحتى الكون ذاته باعتباره آلة أيضا • وهكـذا يكون بمقدورنا التفكير فى النقيق والصبغيات والأراضى النائية والسدم • فباستطاعة كل هذه الأشياء أن تفسر لنا المعطيات المشاهدة • فاذا أخفقت احدى مشاهداتنا وظهر أنها خلاف ما نتوقع ، فاننا قد نحاول تعديل نظرتنا الى هذا الصرح فى موضع أو آخر •

واذا بينت لنا احدى المشـاهدات أن نسقا من المعتقدات يتوجب فحصه بعناية ، فان هذا يترك لنا الخيار للمراجعة وللتثبت من ماهية الاعتقاد الذى باستطاعته اعادة الربط بين شتى المعتقدات • ولقد تكررت هذه الحقيقة الهامة جملة مرات • وعندما يراد الحكم بصحة المعتقدات ، فان هذا لا يتحقق بالحكم على حقيقة بمفردها فى سياق كيان أكبر • ولكن عليك أن تلاحظ الآن أن حكم المشاهدة ذاتها ، أى الحكم الذى يحدد الرأى فى مشاهدة حاضرة أو وشيكة الوقوع أو يتنبأ بها ، هو حكم متفرد يخص حالة بالذات • انه يواجه القائمين بالحكم بصـحته بمفرده ، فى الحالة المعتادة ، ويتعرض اما للصـمود أو السقوط هو والمشاهدة التى يقررها أو يتنبأ بها • واذا صمد فانه سيساعد على سند نسق المعتقدات المتضمنة فيه ، واذا سقط فانه سيعرض هـذا النسق للسقوط فى الهاوية •

فما هى المشاهدات ؟ لقد اعتقد بعض الفلاسفة أنها قرارات مبنية على محسوسات ، مثل أحداث الشم والمشاعر والأصوات ولطع الألوان •

ويؤدى هذا الفهم الى الاحباط · فان ما نلاحظه عادة أو نشهد بحدوثه هو فى الأغلب أشياء وأحداث في العالم الخارجي · وقد صممت لغتنا بحيث تعبر عن هذا المعنى ، لأن اللغة من صنع المجتمع · فهى تتعلم من الآخرين الذين يشاركون فى نفس البيئة ، التى تشير اليها الكلمات · ان جمل المشاهدة Observation sentences مثل الجمل النظرية theoretical sentences هى فى الأغلب جمل تخص أشياء خارجية · وهذا يفسر لماذا يمكن ارتباطها منطقيا بالنظريات العلمية · فاما أن تؤكدها أو تنفيها ·

فى صفحة سابقة ، تساءلنا عن نوع الأشياء التى تسمى بموضوعات الايمان ، ثم طرحنا هذا السؤال جانبا عن طيب خاطر بعد أن لاحظنا أن الأفضل بدلا من ذلك هو الحديث عن الجمل ، وكيف نؤمن بصحتها · وسنقوم الآن بمناورة مماثلة تؤدى الى القاء الضوء على طريقة النظر الى معنى المشاهدة · ولنتوقف عن التساؤل عما يصح أن يسمى بالمشاهدة · وبدلا من ذلك فلنتناول الكلام عن اللغة وعما تعنيه « جملة المشاهدة » ·

ان ما يجعل أية « جملة » جملة مشـاهدة ليس نوع الحادث أو الموقف الذى تصفه وانما طريقة وصفها له · وهكذا فانى قد أرى عميد كلية الحقوق يرسل شيكا بريديا لابنته فى بلجيكا فى عيد ميلادها · واذا قلت ذلك باستعمال هذه الألفاظ ، فان هذا لا يجيز وصف قولى بأنه « جملة مشاهدة » · واذا وصفت ـ من ناحية أخرى ـ الحادث نفسه بالقول بأنى رأيت رجلا قوى البنية له جبهة عريضة وشارب رمادى ، ويرتدى منظارا بلا شنبر وقبعة « هومبورج » ، ويحمل عصا للسير . ويضع شيئا مسطحا رقيقا فى فتحة صندوق البريد ، كان هذا الوصف « جملة مشاهدة » · وما يساعد على وصف قولى بأنه « جملة مشاهدة » هو أن أى شاهد ثان سيضطر الى الاتفاق معى على جميع النقاط الواردة هنا وهناك شريطة فهمه للغة التى أتكلمها · وقد لا يكون الشاهد مضطرا الى الاقرار بأن الشخص المقصود هو عميد الحقوق ، الذى قد لا يعرفه أو قد لا يكون ـ وربما لا يتوقع منه ـ معرفة أى شيء عن الشيك ، أو وجود ابنة للعميد فى بلجيكا ·

وبعبارة أخرى ، بمقدورنا تعريف « جملة المشاهدة » بأنها الجملة التى نحتاج بصددها الى موافقة شاهد آخر على تحديد زمان الحادثة أو الموقف موضع الوصف · وبطبيعة الحال ، قد ينسى الشاهد ، ويدلى بشهادة مختلفة فيما بعد ، أو ربما يخفق فى ملاحظة بعض أجزاء منها من حين لآخر ، ويحتاج الى تنبيهه لذلك فى حينه · ويرجع السبب فى حدوث

مثل هذا الاتفاق الى أن المصطلحات المستخدمة فى « جملة المشاهدة » هى مصطلحات باستطاعتنا استخدامها لوصف أشياء لدى رؤيتنا لها • انها مصطلحات مثل صندوق البريد والرجل القوى البنية والشارب الفضى والمنظار بلا شنبر والقبعة الهومبورج وعصا السير • وتختلف هذه المصطلحات عن مصطلحات مثل « عميد كلية الحقوق » « وعيد الميلاد » « والابنة فى بلجيكا » ، لأننا اذا استخدمنا المصطلحات الأولى فى الحالة الثانية ، سيكون اعتمادنا على تجارب من الماضى أتيحت لقلائل فرصة المشاركة فيها •

وتصلح عبارة « القط على الحصيرة » Cat is on the mat للاستشهاد بها كمثل « لجملة المشاهدة » • أما عبارة « قطتى على الحصيرة » ، فانها لا تفى بالغرض ، تمشيا مع التعريف الذى ذكرناه • اذ قد لا يكون الشاهد الآخر قد عرف من تخصه هذه القطة ، بل وقد نتفوه بجملة مشاهدتنا أحيانا ـ بصدق ـ دون أن تكون هذه الجملة قد استندت الى أية مشاهدة حاضرة • وهكذا فقد تعبر عبارة « القط على الحصيرة » أحيانا عن اعتقاد مستند الى مشاهدات أبكر ، أو قد تكون مجرد قيل وقال أو اشاعة • وعندما وصفنا هذه العبارة بأنها « جملة مشاهدة » ، كان ما عنيناه أنها صيغة من الكلمات بالاستطاعة استعمالها للابلاغ عن حادثة حاضرة أو موقف حاضر ، وأنه من الميسور الاستشهاد بشهود آخرين لمطابقة شهادتهم بهذه الشهادة عند الحاجة الى التثبت منها •

ومن الميسور أن ندرك لماذا يتعين توافر هذا الشرط فى بعض الجمل من هذا القبيل ، اذا تأملنا كيف نتعلم اللغة • ان بعض المصطلحات والجمل القصيرة التى تحتويها هذه المصطلحات يمكن أن نتعلمها عندما نكون فى حضرة الشىء ، الذى يصفه المصطلح ، ونحسه ، أو فى الظروف التى تتحدث عنها الجملة • ان هذا الاسلوب فى تعلم التعابير هو ما يسميه الفلاسفة بالاسلوب الاشارى ostensive • فمن الوسائل البسيطة فى التعلم الاعتماد على التداعى بين الكلمات المسموعة والأشياء الموجودة • وكما يقول علماء النفس المحدثون أنها عملية تكييف conditicning وهكذا فاننا نرضى بقبول كلمة « أصفر » عندما نرى أى شىء أصفر اللون ، ونستمع الى آخرين يفعلون ذلك ، ويساعد على تعزيز هذا الأسلوب فى الاستجابة ـ كما يقول علماء النفس ـ عندما يقر المجتمع ذلك ، أو عندما ينجح التخاطب فى استعمال الكلمة وبذلك تصبح مالوفة • ويتعين أن يكون أول جزء نتعلمه فى اللغة عن طريق الاشارة ، أى أنه لا يعتمد على أى أسلوب آخر فى تعلم اللغة •

وما يكتسب من مفردات بعد ذلك يتم بفضل عمليات تعتمد على عملية تحصيل مسبق • ولا يستند التعلم عن طريق التعرف الاشارى على أى حصيلة مكتسبة سلفا • وبفضل التعريف الاشارى نتعلم كيف نطبق « جمل المشاهدة »وكيف نقوم برد فعل حيالها •

وأفضل نماذج « لجمل المشاهدة » هى التى توصف بها الأجسام : « هذه منضدة » و « هذه المنضدة مربعة الشكل » • و « القط على الحصيرة » • والموقف الذى يثبت صحة جملة المشاهدة هو دائما الموقف الذى يستوفى شرط اشتراك ذاتين فى مشاهدته ، أى نوع المواقف الذى يتفق بشأنه عدة شهود ان وجدوا • والى جانب ذلك ، انه الموقف الذى بمقدور الشهود مشاهدة شهادة الآخرين له • ان هذه الخصائص البالغة الدقة تتأكد بفعل الطبيعة المميزة للتعريف الاشارى • اذ يتعين أن يكون متعلم اللغة قادرا على مشاهدة الموقف المرتبط بالجملة ، فى نفس الوقت الذى يستمع فيه الى متحدث محنك يؤكد الجملة • كما يجب أن يكون قادرا على ملاحظة اقتران تأكيد المتحدث للجملة بمشاهدات لنفس الموقف•

وفى مقابل ذلك ، يتوجب أن يكون المتحدث المحنك الذى يتجاسر على الحكم على أداء المتعلم قادرا على ملاحظة كيف اعتمد المتعلم عندما أكد الجملة على ملاحظة الموقف المناسب •

ثمة صفتان « لجمل المشاهدة » ، اذا راعيناهما ، فانهما ستثيران سؤالا فلسفيا • فالصفة المميزة « لجمل المشاهدة » هى امكان التحقق منها فى الموضع المناسب • غير أن هذه الجمل تشترك فى كونها تخص الأجسام ذات الديمومة كالقطط والحصائر والمناضد • فكيف أمكن ذلك ؟ والقول بأن هناك أجساما لها ديمومة تكمن وراء المشاهد العابرة للمظاهر الحسية مسألة تخص الأبحاث الفزيائية النظرية • وهذه نقطة ثانوية ، وان كانت تجاوز نطاق الحادثة المشاهدة الحاضرة • فكيف اذن ينبغى لأية « جملة » عن الأجسام أن تكون فى نفس الوقت « جملة مشاهدة » تستند فى توكيدها على الحاضر المشاهد فحسب •

ولقد ترتبت هذه المعضلة على النظر الى هذه المسألة من نهايتها الخاطئة . فأهم ما تتميز به « جمل المشاهدة » هى امكان تعلمنا لها — من حيث المبدأ — من التعريف الاشارى ، باعتبارها كليات تحددت ككليات وتناغمت هى والأحداث المشاهدة قبل تعلم كيفية ربط الكلمات المركبة بالأجسام ذات الديمومة • فبالاستطاعة تعلم عبارة « القط فوق الحصيرة » عن طريق التعريف الاشارى بوصفها مجموعة من المقاطع لها وحدة ، وتتداعى وسلسلة معينة من المشاهد المحتملة •ونحن جميعا نتعلم بالضرورة بعض « جمل المشاهدة » على هذا الوجه • ثم بعد ذلك ، وبعد أن علقت

بأذهاننا شيئا فشيئا نظرية الأجسام ذات الديمومة ، فاننا قد أصبحنا ننظر الى بعض الكلمات المركبة على أنها تشير الى أجسام • ويعد التعلم بالتعريف الاشارى ــ الذى يناسب أيضا أى حيوان مدرب ــ والربط بين عدة جمل من « جمل المشاهدة » بالأنماط المناسبة لعملية التنبيه أول خطوة لا غنى لها كمدخل لنظرية التعلم الفيزيائى ، التى نواصل تقدمنا تبعا لها تدريجيا ، فنتعلم كيف نجزىء جمل المشاهدة ، ثم نذهب الى ما هو أبعد من ذلك ، عندما نستعمل كلماتها المركبة • والنظرية الفنيائية تدين أولا لهذا التعلم الأولى عن طريق التعريف الاشارى بادراك الجمل المشاهدة كوحدات كلية ، بارتباطها الحيوى المتواصل بالأدلة الحسية •

ومن المستبعد أن يكون أحد منا فى واقع الأمر قد تعلم عبارة « القط فوق الحصيرة » عن طريق التعريف الاشارى ، وان أمكن حدوث ذلك • ومن الأمثلة الأكثر احتمالا : عبارات مثل « (هذه) « كره » أو « أصفر » ، ومن الخصائص الهامة للغة ، امكان تعلم الناس لها باتباع طرائق شتى • وليس هناك تسجيل باق للكلمات المتعلمة • وما يجعل الجملة « جملة مشاهدة » ليس لأنها قد تعلمت باتباع طريق التعريف الاشارى ، وانما لكونها من نوع كان يحتمل أن يكون كذلك • وأى نوع هو هذا ؟ ولقد سبق أن قلنا : انها جملة يعتمد توكيدها تأكيدا كافيا نوعا على مدى احتمال مشاهدة أكثر من فرد لها • وهذه خاصة قويمة صريحة ترتبط ببعض الجمل ولا ترتبط بالبعض الآخر • وهى خاصة بالمقدور الكشف عن أصلها الاجتماعى ، لأنها قد اكتسبت هذه الصفة بحكم اقرار جميع من يتحدثون اللغة على وجه التقريب ممن يتعرضون لنفس المنبهات الجارية • وتجتاز مثل هذا الاختبار عبارات مثل : « المنضدة مربعة الشكل » و « القط فوق الحصيرة » ، وتثبت بذلك صلاحيتها كجمل للمشاهدة • أما عبارة « هذا أعزب » فلا يمكن الاعتراف بها كجملة مشاهدة ، لأن أحد المتحدثين موضع الاختبار قد يكون على علم بأن هذا الشخص أعزب ، بينما لا يعرف الآخرون ذلك •

ان التعريف الاشارى لا يفسر أكثر من قدر متواضع من لغتنا ، فثمة مصدر أساسى لحصولنا على اللغة يتم عن طريق عملية معقدة ــ لا واعية الى حد كبير ــ من التجريد والتعميم ، تسبق فاعليتها ما تعلمناه عن طريق التعريف الاشارى • وتعتمد اعتمادا كبيرا على محاكاة الاستعمالات المشاهدة ، وبمقدورنا أن نخمن مدى صلاحية جملة ما بعد ملاحظة استعمالاتها عند ارتباطها بالجمل الأخرى • كما ندرك معنى الكلمة بالتجريد من جمل أخرى ترد فيها • ونتعلم كيف نكون جملا جديدة بأن نبارى التكوينات التى تلاحظ فى الجمل القديمة • وهناك الكثير مما

يمكن أن يقال ، والكثير الذى مازلنا قادرين على تعلمه من هذه الطرائق ٠

وثمة وسيلة أقل غموضا قد يتخذها هذا الاكتساب الاشتقاقى للغة هى التعريف ، وان لم تك الأكثر شيوعا ٠ وأبسط صورة للتعريف هى الصورة التى تجرى فيها المساواة التامة للتعبير الجديد بالتعابير الأخرى التى يفترض أنها أصبحت مفهومة بالفعل ٠ فمثلا اذا اعتبرنا الكلمات : « والد » و « أخ » و « متزوج » و « انسان » و « أعزب » كلمات مكتسبة نوعا سيكون بوسعنا شرح كلمات مثل « عم » و « غير متزوج » على أساس أنها مرادفة لشقيق الأب و « أعزب » ٠ وثمة تعاريف أخرى تجىء فى السياق ٠ وفى هذه الحالة لا تحدث مساواة تامة بأى شىء آخر ، وانما تذكر تعاليم منهجية لترجمة جميع الجمل المطلوبة التى يشتمل عليها التعبير ٠ وعلى سبيل المثال بوسعنا أن « نعرف » كلمة أخ ، ليس بذكر بديل للكلمة ، فى ذاتها وانما بالتفسير المنهجى لجميع الجمل للكلمة عندما تظهر متبوعة بكلمة of ٠ وبمقدورنا أن نفعل ذلك بترجمة أخ « س » بأنه مذكر ، وبأنه يختلف عن شخص آخر « س » ، وان كان الاثنان يشتركان فى انحدارهما من أب واحد هو والد س ، وأخ س ٠٠

وتعد جمل المشاهدة هى قاع اللغة ، وتمثل احتكاكها بالتجربة . عندما يكون الكلام خاضعا لتأثير الأشياء ٠ وتكتسب اللغة من خلال هذه الجمل (جمل المشاهدة) ، فى نهاية الأمر معناها ، واستنادها الى الواقع ٠ ان هذا يفسر لماذا يرتكن الى جمل المشاهدة الدليل الأساسى لجميع المعتقدات وجميع نظريات العلم ٠ وتقوم جملة المشاهدة بهذا الدور الأساسى ليس فقط عندما يقوم أحد الناس بالتحقق من معتقداته ، بعد أن تخطىء احدى النبؤات ، وانما أيضا عندما يسوق أحد الناس دليلا مؤيدا لأى اعتقاد قوبل بالتحدى من أحد أقرانه ٠ وهنا يظهر مدى الأهمية الحاسمة للدور الاجتماعى الذى تقوم به جمل المشاهدة ، وهى اجماع من يتحدثون على الاعتراف بصلاحية مثل هذه الجملة لاستعمال من تعرضوا لنفس المنبهات ، واذا حدث التقاء بين النظريات المتشاحنة فى تقدير جمل المشاهدة ، سيحدث أيضا تقارب مماثل تجاه الاتفاق ٠

وقد يتولى عملية المشاهدة أحد الأفراد ٠ ولكن وكما نكرر القول ، يعتمد صدق أى مشاهدة على كونها مسألة بينية بين الذوات العارفة ٠ وفى هذه الناحية ، يظهر لنا مذهب لا عقلانى عتيق له أنصاره ، يكتشف ما فى هذه النظرة من اغواء وتناقض ، ويحاجى هذه النظرة الغابرة ويقول ان الحقيقة نسبية ، وترتبط بأصحاب الاعتقاد ٠ فهناك حقيقة لى ، وهناك حقيقة لك ، وليست عملية المصالحة بين هاتين الحقيقتين ممكنة

أو مستحيبة • على أنه بالاستطاعة الاستشهاد بأصحاب الآراء المتقلبة عن القائمين بالمشاهدة لتعضيد هـذا المذهب ، ألم نقل أن المشاهدة هى الأساس النهـائى لأنسـاق المعتقدات ؟ • وألا يتوقع قيامك أو قيامى بمشـاهدات مختلفة ؟ قد يكون الأمر كذلك • غير أن تقرير أى جمل المشاهدة ستعد حقيقية ليست من المسائل التى ترجع لى او لك ، أو لأى مشاهد آخر ، فقد يكون هناك اختلاف حول مدى رسوخ الأسس التى استندت اليها جمل المشاهدة عند كل منا ، وقد تختلف أيضا تقديراتنا لها • أما حقيقتها فلن تكون كذلك • ومن حسن الحظ ، اننا لسنا ملزمين بالتسليم بأن هذا الاختلاف نهائى ولا رجعة فيه ، حتى يمكننا مصادرته • فليس من شـــك أن الخـلاف البينى الذاتى يختلف عن الخــلاف intra subjective (*) فى ناحية هامة واحدة • فالخلاف الأول يمكن التعرف عليه كما هو فى ذاته ، بغير أى احتدام يتخذ ذريعة للبوح به • ولا ينطبق ما يحدث هنا عما يحدث فى الحالة الثانية • ولكن عندما يكون هناك عدم توافق متبادل بين معتقداتى ومعتقداتك ، فلا يمكن أن نكون نحن الاثنين على صواب ، مثلما لا أكون أنا وحدى على صواب فى جميع المعتقدات العديدة المتوافقة •

وهكذا نساهم جميعا ، بمشاهداتنا المتلاحقة فى المعرفة التى نشترك فيها • وهنا نكتشف عنصرا قد جعل من العلم مسألة شاقة ، كما جعله فى الوقت نفسه أمرا ممكنا ، ويرجع وجه المشقة الى أن العلم فى حاجة الى بناء نسقى متماسك ، يحصل عليه من أدلة متضاربة ، التقطها ورواها اناس ينتمون الى عصور وأماكن وحضارات ومصالح مختلفة • أما امكانه فيرجع الى وجود الكثير ، مما يستطاع استخلاص أشياء منه •

فهل تعد جمل المشاهدة معصومة ؟ تقريبا ، اذا استبعدنا الجمل المفتقرة الى براعة التعبير عنها ، أو التى يعرضها متحدثون لا يملكون ناصية اللغة • فقد تتعرض معانى الكلمات ذاتها للاجهاد فى مثل هذه الجمل ، لو افترض وجود مثل هذه العصمة الجديرة بالتقدير ، لأن الكلمات ذاتهـا قد اكتسبت عن طريق التداعى بين جمل المشـاهدة والظروف المشاهدة التى صاحبت الجهر بها •

وليس من شك فى وجود ملامح من العصمة فى جمل المشاهدة • وفى الأحوال العادية ، تكون المشاهـدة هى المقطورة التى تجـر مركب النظرية • ولكن فى بعض الحالات المتطرفة ، يندفع مركب النظرية بشدة تؤدى الى استسلام المشاهدة • فقد يحدث أن تكون احدى النظريات قد استمرت فى البقاء طويلا دون أن تواجه أى تحد ، وأن تكون متوافقة

* The Structure of Scientific Revolution — T. S. Kuhn

على خير وجه مع ما لا حصر له من المشاهدات الوثيقة الصلة بها فى جميع المواقف الراسخة ، ثم تجىء مشاهدة واحدة تتعارض معهـا • وربمـا ساقتنا المصادفة الى التخلى عن احدى المشاهدات المشاكسة العنيدة • ان هذا لا يعنى التراجع عن تعريفنا لجملة المشاهدة • فلقد عرفناها على أنها جملة يضطر جميع الشهود الى قبولها فى حضرة الحادثة المشاهدة • ولقد تركنا جميع الشهود أحرارا ، وتركنا لهم حرية تغيير نظراتهم فيما بعد • وفى الحالات التى نتخلى فيها عن احدى المشاهد ــ ومن الأفضل اعتبارها حالات خاصة ــ فاننا نكون قد غيرنا رأينا بما يناسب المقام ، أو كثيرا ما يحدث أننا نكون قد تشككنا فيما أخبرنا به أى انسان آخر •

ولا يحدث قط أى رفض لجملة المشاهدة فى الوقت الذى تحدث فيه المشاهدة • اذ يتوقف تسمية جملة المشـاهدة بهذا الاسم عندما نغير الزمان الذى تجرى فيه • اذ تحمل تقارير المشاهدات الماضية فى طياتها استدلالات ، كما ذكرنا آنفا • وهذه الاستدلالات وحدها ، وليس جمل المشاهدات بالمعنى الصحيح للكلمة ، هى التى تخطر ببالنا عندما نتخلى عن المشاهدة العنيدة المشاكسة •

وعلى الرغم من هذه الحرفيات الشبيهة بتمسك القانونيين بحرفية قانونهم ، فمن الواجب أن لا يستبعد دور متذكراتنا • فلها دور لا يقل عن دور البيانات المسجلة • والأمر بالمثل فيما يتعلق بتقارير مشاهداتنا . التى أثبتها زملاؤنا الموثوق بهم ، وان كان الوثوق فى هـــذا الجانب يتفاوت من حيث الدرجة • ان النظرية القوية التى تستمر أمدا طويلا دون تعرض للتحدى ، هى التى تستطيع الصمود أمام الشهادات المعارضة ، التى تجىء من التذكر ومن المشاهدات المتضمنة فى البيانات المسجلة ، أو مشاهدات التقارير • وفى مثل هذه الحدود القصوى ، قد ننسب الأدلة المناوئة الى تدخل أدلة لا تقبل التفسير ، بل والى الهلاوس • فاذا جنحت مثل هذه الحالات المزعومة من الهلاوس الى التكشف عند قلة من الأشخاص الذين تبدو الهلوسة فى طبعهم ، كان هذا لصـــالح ضميرنا العلمى • اذ سيلتعش الأمل آنئذ فى امكان تكييف هـــذه المشاهدات المناوئة ، وصبها فى صيغة نظرية أيضـا ، أو بمعنى أصـــح فى نظرية للمرض النفسى ، وسيتيسر البحث عن قاعدة بالرجوع الى الحالات الظاهرة لخرق القانون •

وحتى عندما تصر المشـاهدات على التعارض والنظرية ، فلا يلزم حينئذ التنازل عن النظرية بالضرورة على التو • انهـا ستظل على قيد الحياة الى أن يعثر على بديل مستصوب لهـا • وكل ما هناك هو أن

المشاهدات المتعارضة ستظل بلا تفسير ، ويتصاعد الاحساس بوجود أزمة .

« لقد اعتمدت مساهمات جاليليو فى دراسة الحركة اعتمادا وثيقا على الصعاب التى اكتشفها نقاد العصر الوسيط فى نظرية أرسطو ، وبزغت نظرية نيوتن الجديدة فى الضوء واللون بعد اكتشاف عدم استيفاء أية نظرية ... فلقد أعلن عن النظريات الخاصة بطول الطيف ونظرية الموجة التى حلت محل نظرية نيوتن وسط الاهتمام المتناهى بما فى نظرية نيوتن عن العلاقة بين مؤثرات الانكسار والاستقطاب من شوائب . كما أن نظرية الحراريات الدينامية thermo dynamics كانت وليدة الاصطدام بين نظريتين فيزيائيتين راسختين فى القرن التاسع عشر ، وبين آليات نظرية الكم (الكوانتم) من أثر وجود صعوبات متنوعة تحيط باشعاعات الأجسام السوداء black body ، والحرارة النوعية والمؤثرات الفوتوكهربائية . وفضلا عن ذلك ، ففى كل هذه الحالات ، ما عدا حالة نيوتن ، استمرت الدراية بهذه الشوائب أمدا طويلا ، ، ونفذت الى أغوار بعيدة ، مما دفع الكثيرين الى وصف المجالات المتأثرة بهذه الدراية بأنها قد مثلت حالة أزمة متصاعدة ، وتسبق بوجه عام فترات القلق الواضح بين المشتغلين بالعلم ظهور النظريات الجديدة ، التى تحتاج الى تعديلات كبيرة فى طريقة صراع مشكلات العلم العادى وتقنياته . وكما يمكن أن نتوقع أن ما يولد هذا القلق هو الفشل الذى لا ينقطع ، الذى يصادفه العلم العادى فى سبيل التغلب على هذه المعضلات . ويعد الفشل الذى يتكشف فى القواعد السائدة مقدمة للبحث عن قواعد جديدة » (١) .

وثمة بعض حالات نتفق جميعا وبدون فحص دقيق للنظريات على أنها تدعونا الى تنقيح المشاهدات . وهذا يرجع الى طبيعتنا المكتسبة . فنحن نتعلم اننا عندما نرى العصا منحنية ، بينما تكون أجزاء منها مغمورة فى الماء ، فان علينا أن نحكم بأنها مستقيمة . ومن بين ما نتعلمه عدم افتراض ان القمر يكون أضخم حجما عندما يكون قريبا من الأفق من حجمه عندما يكون فى كبد السماء . وعندما تتراءى الألوان لنا وكأنها قد بدأت تتذبذب ، فاننا لا نتخيل حدوث تغير فى خواص الضوء . غير

---

(١) The Structure of Scientific Revolutions — T. S. Kuhn.

أنه فى جميع هذه الأمثلة ، فاننا نعانى فى نهاية الأمر من محاولة تكييف مشاكسة المشاهدات ، فى النظرية أيضا . فهناك نظرية فزيائيـــة فى الانكسار تستوعب وهم العصا المغمورة . كما أن توهم انخفاض ارتفاع القمر ، قد رد الى بعض فروض سيكلوجية . وتدعونا الاضطرابات العامة فى الرؤيا الى البحث وراء ذلك . فقد يرجع السبب الى شىء ما أكلناه أو شربناه . وهكذا تحتفظ مشاهداتنا بعناد بأولويتها ، وتبقى ممثلة لحدود عالم معتقداتنا .

ومع ذلك فيتعين الاعتراف بأنه ليست جميع المشاهدات أو تقارير المشاهدات تقبل التكيف الواعى . فبعض المشاهدات التى لا تتجانس والنظرية القائمة يمر عليها مر الكرام ، دون حتى الاعتراف بها ، أى تتعرض لاهمال يفوق ما يحدث فى حالات الهلوسة . وينطبق هـذا الوصف على التقارير الملحة لتجارب الشعوذة ، وكذلك وأخيرا فانه ينطبق على الكثير من تقارير الأشياء الطائرة التى تعذر التعرف عليها ، ومع هذا فان عليك أن تلاحظ أن أى عالم مقتدر ، لا ينظر الى المشاهدات التى لا تتجانس وأبحاثه مثل هذه النظرة التعسفية المتعالية عندما تكون المشاهدة وليدة تجربة خاصة به ، لأنه قد صمم تجربته للغاية ذاتها التى ترمى الى الحسم بين حركتين بديلتين ، تهدفان الى تقدم نظريته ، أى عقيــدتين بديلتين تم تصــورهما تصــورا مسبقا . ولكنه سيستبعد فى أغلب الظن أية مشاهدة حافلة بالألغـــاز تبلغ له باخلاص ، وهذا أمر يسهل فهمه . أو قد يستبعد أية مشاهدة يكون قد أجراها بنفسه فى الحالات التى لا ينوى فيها الاقدام على أى تغيير نوعى للنظرية قد يكيف المشاهدة ، وبذلك يستمر فى التواءم ومعطياته السالفة . والى حد ما يعد هذا التعسف له ما يبرره . فلو قام العالم بقطع مشروعاته القائمة حتى يهتدى الى فرضية مستصوبة لكل تجربة محيرة خارج معمله ، ولو أنه أرهف السمع وأنصت لكل أفاق ولكل ثرثرة فانه لن يجنى الكثير من وراء ذلك .

ان علماء هذه الأيام يتميزون بالبراعة فى اكتشاف الحقيقة بحيث ، غدا من العبث امتداح منهجهم أو نقده . وفى الوقت نفسه ، لا يخفى أن المشاهدات العنيدة ستظل دائما مسألة حساسة . اذ تعد أية نظرية لا ترمى الى غير العناد والتشبث بالمنهج أداة لا يعتمد عليها فى التنبؤ ، ولا تعد أيضا مثلا حسنا للمنهج العلمى .

ولقد جنح بعض الفلاسفة الى التحرى عن فكرة المشاهدة ذاتها ، بعد أن رأوا أنه من غير المجدى التوفيق بين جميع المشاهدات فى جميع الأوقات ، ولقد ازدادت خطورة شكوكهم ، بعد أن تدعمت بنظرة أخرى تنتقد الناحية الذاتية ، وترى أنها قد أضفت على مبدأ المشاهدة غموضا لا علاج له • فعندما ترى العين المدربة سلكا معدنيا فان بمقدورها أن ترى فيه شيئا أكثر من ذلك ، أى تراه كملف • وبينما تعجز العين غير المدربة عن رؤية أى شىء ، فان بمقدور العين المدربة أن تشاهد الآثار الحديثة العهد لاقدام غزال فوق الرمال • غير أننا نكرر القول بأن هذه المتباينات ليست مبررا للشك ، اذا نظر اليها نظرة صحيحة • انها لا تدل على أكثر من الاستعمال غير الدقيق للكلمة •

فمن أجل الأغراض الفلسفية ، تحتاج فكرة المشاهدة « وجملة المشاهدة » أن ينظر اليها نظرة حرفية بعيدة عن الخيال • وأمامنا بالفعل معيار قويم صالح لأداء هذه المهمة ، نلاحظه فى حالة جميع المتحدثين المقتدرين للغة ، عندما يطلب منهم اقرار أية جملة فى نفس الظروف التنبهية ، التى تتعرض لها حواسهم ، وتبعا لهذا المعيار ، لا تحتسب عبارة هذا مكثف « جملة مشاهدة » ، بالرغم من وجود عين مدربة • وبطبيعة الحال ، فان أهل الخبرة ، بحكم تمتعهم بالرشاد والعقلانيـة ، فانهم سيتوقفون عن المطالبة بأية أدلة أخرى بمجرد امكان اتفاقهم • فباستطاعتهم أن يتفقوا على وصف شىء ما على أنه مكثف ، ويتوقفون عند هذا الحد ، بدلا من الالحاح ، والمطالبة « بجمل مشاهدة » حقة بالمعنى الذى قصدناه ، وان كان هذا لن يمنعهم من الاستمرار فى المطالبة بذلك ، واذا أبدوا حرصا على استعمال مصطلح « المشاهدة » للدلالة على المواقف المتوسطة التى توقفوا عندها ، فان علينا أن لا ننازع فى هذا الشأن • وقد يقال عنهم ان أقصى ما استطاعوا القيام به هو تضييقهم نطاق فئة « المقتدرين على تكلم اللغة » بحيث أصبحت تقتصر على جماعتهم المتخصصة •

ولقد لاحظنا أن بعض الفلاسفة قد اعتقدوا فى وجود هوية بين المشاهدات ، وأحداث الاحساسات • فلا عجب بعد ذلك اذا رأينا بعض الكتابات الفلسفية تخصص لمصطلح جملة المشاهدة حالات بعيدة الاختلاف عما يعنيه هذا المصطلح ، طبقا لتعريفنا له • فلقد خصوا بها التقارير الاستبطانية ، مثل قولى « عندى وجع » أو « يبدو أننى أرى لونا أزرق الآن » ولقد نظر الى مثل هذه التقارير على أنها معصومة • ويجب أن نسلم بأن هذه التقارير تنزع الى أن تكون فوق كل خلاف ، لأن المتحدث يتميز بقدرته على تناول أحداث تجربته الشخصية • غير أنهم فى هذه

الناحيــة بالذات قد اختلفـــوا على طـول الخط مع ما عنينـــا بجمـل المشاهدة · فالمواقف التى جعلت أحكامهم تبدو صحيحة ليست هى هى المواقف التى يستطيع أن يشهد بها جملة الشهود ·· فما يتقبل المشاهدة فى حالتهم المشار اليها هو بالأحرى التقرير الاستبطانى ذاته · وما يصح أن يقارن بجملة مثل جملة « القط فوق الحصيرة » ، ليس شعور شخص ما بالوجع أو رؤيته للزرقة ، ولكنه تقريره عن الوجع أو الزرقة ، أى سلوكه الشفهى · وليس من شك أن هذا السلوك الشفهى ميسور لأى راغبين فى وضع نظريات لاحقة ، لأنه يمثل معطيات بمقدور العديد من الشهود أن يشهدوا بها ·

● طبيعــة العلم

المخبر البوليسى كعالم بقلم ارفنج م · كوبى ·

[ارفنـــج مارمر كوبى (١٩١٧ ـ) أســتاذ أمريكى للفلسفة · وقد ألف جملة كتب تتميز بلغتها الواضحة ، عن المنطق والمنهج العلمى وفلسفة اللغة] ·

من الشخصيات المستحبة دوما فى هذا المقـــام شـــخصية المخبر البوليسى ، التى لا تتماثل مشكلته ومشكلة العالم البحث ، غير أن نظرته وتقنيته تصوران منهج العلم تصـــويرا واضـــحا جـــدا · والشخصية الكلاسيكية التى تمثل المخبر البارع القادر على حل حتى أصعب الألغاز هى الشخصية الخالدة التى ابتكرها سير أرثر كونان دويل : شرلوك هولمز، ولم تتـــأثر مكانة هولمز بمرور الزمان · وقد اخترناه بطلا لهـــذا العرض التـــالى :

١ ــ **المشكلة** : من بين أكثر الصـــور حيوية ، التى لدينا عن هولمز تلك الصور التى نراه فى واحدة منها مشغولا باســتعمال منظاره المكبر وعلبة شريط القيـــاس باحثا ومنقبا عن علامات وبينـــات لم ينتبه اليها أولئك المقصرون الأغبياء من خبـــراء ســـكوتلانديارد · وقد يرجع

(★) نقلا عن كتاب From Introduction to Logic
تاليف Irving Marmer Copi

نفر منا : من أولئك الذين يتمتعون بحيوية أقل الى هولمز المفكر ..
« الذى اعتاد عندما يعجز عن حل مشكلة تشغل باله ، أن يظل أياما ، وربما أسبوعا بطوله لا تعرف عيناه النوم ، فيقلب الحقائق ، ويعيد ترتيبها ، وينظر اليها من مختلف وجهات النظر الى أن ينجح فى حل طلاسمها ، أو يقنع نفسه بعدم كفاية ما لديه من معلومات (١) » ، وفى مثل هذه الأحوال ، على حد قول الدكتور واطسن : كان يخلع سترته وصدرته ، ويرتدى رداء فضفاضا أزرق اللون ، ثم يذرع الحجرة ذهابا وايابا ، ويجمع الوسادات من فوق سريره ، ومن الأريكة ومقاعد حجرة الجلوس ، وينشىء من هذه الوسائد شيئا شبيها بالديوان الشرقى يسترخى فوقه ، واضعا ساقا فوق ساق ، وأمامه علبة الطباق وعلبة الكبريت . ومن خلال ضوء المصباح الخافت رأيته جالسا هناك يدخن غليونا مصنوعا من خشب البريار ، وعيناه مثبتتان على ركن السقف ، وكأن لا شىء يشغل باله ، وسحابات الدخان الأزرق تتصاعد من فمه الصامت ، بلا حراك ، والوهج يلمع من ملامحه القوية الشبيهة بملامح النسر . هكذا كان يجلس عندما سمعت تمتمة مباغتة أرغمتنى على اليقظة ، ورأيت شمس الصيف تشرق داخل المسكن . وكان الغليون مازال بين شفتيه ، وما فتىء الدخان يتكاثف ويتصاعد فى حلقات الى أعلى . واكفهر جو الحجرة ، ولكن لم يبق أى شىء من ركام الهشيم الذى رأيته فى الليلة السابقة » (٢) .

غير أن مثل هذه الذكريات ليست كاملة . فلم يك هولمز يبحث دائما عن أدلة وبينات ، أو يتأمل فيما اهتدى اليه من حلول . ولعلنا نذكر جميعا تلك الفترات القاتمة ـ وبخاصة فى الحكايات الباكرة ـ عندما كان هولمز يقدم على حقن نفسه بالمورفين أو الكوكايين مما أثار ضيق واطسن ، الرجل الطيب . وكان هذا يحدث ـ بطبيعة الحال ـ فى فترات الاستراحة أثناء اشتغاله ببحث بعض القضايا ، فعندما لاتكون هناك أسرار غامضة تتطلب كشف النقاب عنها ، فلن يعقل أن يعمد أحد يتمتع بقواه العقلية كاملة الى البحث عن أدلة وبينات . فمن البديهى أن من يبحث عن بينات تكون لديه مسائل يحاول أن يكشف عنها ، وفيما يتعلق بهذه المسألة ، فلا هولمز ولا أى انسان آخر ، كان سيشغل باله بالفكر العميق مالم يك هناك شىء ما يفكر فيه . لقد كان هولمز عبقريا فى حل المشكلات ، ولكن حتى العباقرة يحتاجون الى مشكلة

---

(١) The Man with the Twisted Lip.

(٢) نفس المرجع .

قبل الاقدام على حلها . ان الفكر التأملي برمته ـ ويتضمن هذا المصطلح البحث الجنائي ، وكذلك البحث العلمي ـ كما أصر على القول جون ديوى وبراجماتيون آخرون ـ عبارة عن نشاط يهدف الى حل المشكلات . نعم يتعين وجود مشكلة قبل أن يشرع المخبر البوليسى أو العالم على حد سواء في الشروع فى العمل .

بطبيعة الحال ، ان العقل الفعال يستطيع أن يدرك وجود مشكلة ، بينما لا يشعر الحمقى بوجود أى شيء غير عادى أو غير مألوف . وفي موسم عيد الميلاد ، زار الدكتور واطسن هولمز فوجده يستعمل عدسة وملقطا ويفحص : « ... قبعة خشنة متبززة حقيرة ، يصعب استعمال أحد لها . وكانت القبعة مشققة فى جملة مواضع » (٣) وبعد أن تبادلا التحية ، قال هولمز لواطسن عن هذه القبعة : « أرجوك أن تتأملها ، لا باعتبارها قبعة (معفصة) روبابيكيا ، وانما كمشكلة فكرية (٤) » . وهكذا ساقتهما القبعة الى واحدة من أكثر مخاطراتهما اثارة للاهتمام ، ولكنها ما كانت لتحدث هذا الأثر لو أن هولمز لم يكتشف وجود مشكلة بها من البداية ، وبالاستطاعة تعريف المشكلة بأنها واقعة أو مجموعة من الوقائع ، ليس لدينا أى تفسير مقبول لها ، وتبدو لنا أمرا غير مألوف ، أو نرى أنها لاتتوافق وتوقعاتنا وتصوراتنا المسبقة . وينبغى أن لاتخفى أن الحاجة تدعو الى وجود بعض معتقدات مسبقة حتى تبدو أية مسألة فى صورة أشكال . فاذا لم توجد توقعات ، لن تكون هناك مفاجآت .

بطبيعة الحال ، كانت المشكلات ترد أحيانا محددة المعالم بالفعل . ولقد بدأت أول مغامرة رواها المستر واطسن بالرسالة الآتية التى وردت ، من اسكتلنديارد .

عزيزى المستر شرلوك هولمز .

لقد حدث حادث مؤسف أثناء الليل فى ٣ شارع لوريستون جاردن Laurston Garden بعيدا عن طريق بريكستون ، فلقد شاهد جندى الدورية ضوءا الساعة الثانية صباحا ، ولما كان البيت خاليا ، فانه اشتبه فى حدوث خطأ ، ووجد الباب مفتوحا ، وفى الغرفة الأمامية الخالية من الأثاث ، اكتشف جثة أحد الوجهاء مرتديا ثيابا أنيقة ، ويحمل بطاقات فى جيبه كتب عليها اسم انوك . ج . دريبر من كليفلند

---

(٣) The Adventure of the Blue Carbuncle.

(٤) نفس المرجع .

بأوهيو بأمريكا ٠ ولم تحدث أية سرقة ، كما لايوجد أى دليل عن كيف لاقى الرجل حتفه ٠ وثمة آثار دماء فى الغرفة ، ولكن ليس هناك أى جروح فى جسم القتيل ٠ ونحن حائرون لانعرف كيف دخـل الرجل المنزل الخالى ٠ ان المسـألة برمتها معضلة ٠ واذا حضرت الى المنزل فى أى وقت قبل الساعة الثانية عشر ستجدنى هناك ٠ ولقد تركت كل شىء على حاله الى أن أعرف ماذا تنوى أن تفعل ٠ فاذا لم تتمكن من الحضور ، سأبلغك بتفاصيل أوفى ٠ واذا تفضـلت بابداء رأيك سـأكون عظيم التقدير لك ٠

المخلص

توبيا جريجسون (٥)

هنا نصادف مشكلة حقـا ٠ وبعد أن تلقى شرلوك هولمز الرسالة بدقائق قليلة ، ركب الهانسوم (وهى نوع من الدراجات البخارية التى انقرضت الآن) برفقة واطسن ، وهو فى حـالة غيظ ، وتوجها سويا الى طريق بريكستون ٠

٢ ـ **الفروض الأوليـة** ـ أثنـاء ذهابهما الى طريق بريكستون ، كان هولمز يثرثر ، ويتحدث عن الفيدل كريمـونا (جـدة الكمنجة) ، والاختلاف بين كمنجة ستراديوفاريوس وأماتى ، وأنب الدكتور واطسن هولمز ، ودعاه الى عدم اعطاء هذه المسألة أكثر مما تستحق ، فأجـاب هولمز : « لامعلومات حتى الآن ٠٠٠ ومن الخطأ الجسيم أن تضع نظريات قبل أن تتوافر لك جميع الأدلة ، لأن هذا يؤثر على الحـكم ، ويجعله متحيزا » (٦) ٠ وعبر هولمز عن هذا المعنى مرارا ، ففى احدى المناسبات ، حذر مخبرا أصغر سنا وقال « ان اغراء وضـع نظريات قبل أن يحين الأوان ، اعتمادا على معلومات غير وافيـة هو آفة مهنتنا (٧) » ٠ ولكن رغم ثقته فى هذه الناحية ، الا أنه كان مخطئا تمـاما فى هذه الحالة وحدها ، وليس من شك أن علينا أن لا نصل الى **حكم نهائى** قبل النظر فى قدر كبير من الأدلة ٠ غير أن هذا الاجـراء بعيـد الاختـلاف عن **عدم التنظير** ، وفى الواقع أنه من المتعذر تماما القيام بأية محاولة جادة فى جمع البينات مالم يك الباحث قد قام بالتنظير مسبقا ، فكما لاحظ تشارلز داروين عالم البيولوجيا العظيم ومؤلف النظرية الحديثة للتطور : « ٠٠٠ يجب أن تتركز جميع النظريات على تأييـد احـدى النظرات أو معارضتها ، لو أريد تحقق المطلوب منها » ، ولب المشكلة هو وجود

(٥) A Study in Scarlet.

(٦) نفس المرجع ٠

(٧) The Valley of Fear.

العديد من الوقائع الجزئية والكثير من المعطيات فى العالم بحيث يغدو من المتعذر أن يحاول أى شخص التعرف عليها جميعا ، فعلينا جميعا . بما فى ذلك أكثر الباحثين جلدا ومثابرة وسعيا وراء الكمال ، أن ننتقى وأن نختار وأن نقرر أى الوقائع سندرس ، وأيها سنمر عليها مرالكرام ، ويجب أن تتوافر لنا فرضية فعالة نسترشد بها فى جمع المادة المناسبة المؤيدة أو الرافضة لهذه الفرضية ‥ ولا يلزم أن تكون نظرية كاملة ، ويكفى أن تكون فى أقل تقدير خلاصة تقريبية ٠ وبغير ذلك أنى لنا أن نقرر أى الوقائع سنختار من بين جملة الوقائع التى تتسم بضخامة حجمها ، بحيث يتعذر حتى البدء بغربلتها !

وكان ما فعله هولمز فى هذا المقام أحكم من العبارات التى جهر بها٠ فعلينا أن لا ننسى أن هذه الكلمات قد قيلت أثناء استقلاله للهانسوم ، وهى مسرعة صوب مسرح الجريمة ٠ ولو لم تك لدى هولمز أية نظرية فى هذا الشأن ، فهل كان هناك ما يدعو الى التوجه الى طريق بريكستون ؟ ٠ ولو كانا غاية ما يريد هو الوقائع والمعلومات وأية وقائع قديمة وأية معلومات قديمة ـ وان صح أنه لم يعتمد على أية فرضية يسترشد بها فى الانتقاء من بينها ـ فلماذا اذن غادر شارع بيكر ؟ لقد كان هناك العديد من الوقائع فى حجرات ٢٢١ ب شارع بيكر ‥٠ وكان بمقدور هولمز أن يمضى وقته فى احصاء جميع المراجع وجميع الصفحات فى الكتب الموجودة هناك ، أو لعله كان سيقوم بعملية قياس دقيق للمسافات الفاصلة بين مختلف قطع الأثاث فى المنزل ٠ وكان بوسعه أن يجمع معلومات ترضيه ، وبذلك يوفر أجر التاكسى الذى أقله الى هناك ! ‥

وقد يعترض على ذلك ويقال ان الوقائع التى كانت ستجمع فى شارع بيكر ليس لها أى علاقة بالقضية ٠ أما المعلومات التى كانت تنتظر هولمز فى مسرح الجريمة ، فتعد أدلة لها قيمتها لحل المشكلة ، نعم ـ بطبيعة الحال ، كان هذا السبب هو الذى ساق هولمز لتجاهل « المعلومات » الموجودة فى شارع بيكر ، ودفعه الى الاسراع لجمع المعلومات الموجودة فى طريق بريكستون ، ومع هذا فيجب الاصرار على القول بأن ارتباط المعلومات الأخيرة بما يهدف اليه هولمز لايمكن أن يعرف مسبقا ، ولكنه من الأمور التى تخمن على أساس الخبرة السابقة بالجرائم ومفاتيح الجرائم ، والحق أن هناك فرضية بالذات هى التى ساقت هولمز الى البحث فى موضع ما دون الآخر بحثا عن الوقائع التى ينشدها ‥ وهذه الفرضية هي تصور حدوث جريمة ، وأن الجريمة قد ارتكبت فى الموضع

الذى وجدت فيه الجثة ، وأن القاتل قد ترك بعض بصمات أو آثار تساعد على اكتشافه ، ان أمثال هذه الفرضيات مطلوبة دائما لهداية الباحث فى بحثه عن معلومات مرتبطة بالموضوع • فاذا لم توجد أية فرضيات أولية ، سيكون هناك بكل بساطة العديد من الوقائع فى العالم التى تحتاج الى الفحص والتحرى • ويجب أن تكون الفرضية الأولية اجتهادية الى حد كبير ، وأن تعتمد على معرفة مسبقة • على أن الفرضية الأولية لها ضرورة لا تختلف عن ضرورة وجود مشكلة لبدء أى استقصاء جاد •

نعم لابد أن نركز على القول بأن الفرضية الأولى ـ كما تصورناها هنا ـ لايلزم أن تكون حلا كاملا للمشكلة • ان فرضية تعرض الرجل للقتل من قبل أحد الأشخاص الذى ترك بعض أدلة تعرفنا بهويته على الجسم أو بالقرب من ضحيته هو الذى ساق هولمز الى طريق بريكستون • ولا يخفى أن هذه الفرضية غير مكتملة ، لأنها لا تعرفنا من ارتكب الجريمة ، وكيف حدثت ، أو لماذا ؟ وقد تختلف مثل هذه الفرضية الأولى اختلافا كبيرا عن الحل النهائى للمشكلة • أن هذه الفرضية لا يمكن أن تكون كاملة قط ، وقد تكون مجرد تفسير اجتهادى لجزء من المشكلة فحسب • ولكن مهما كانت الفرضية الأولية جزئية ، ومهما كانت مجرد اجتهاد ، فانها ضرورية حتى يمكن متابعة الاستقصاء •

٣ ـ **جمع الوقائع الاضافية** ـ يبدأ أى بحث جاد بواقعة ما أو بمجموعة من الوقائع ، يشعر الباحث أنها اشكالية ، ومنها تشرع عملية البحث برمتها • وعادة تكون الوقائع المبدئيـة التى تتألف منها المشكلة شحيحة للغاية ، بحيث يتعذر الاعتماد عليها فى الحصول على تفسير واف • ولكنها توحى ببعض فرضيات أولية للباحث المقتدر تقوده الى البحث عن وقائع اضافية ، ويؤمل أن تساعد هذه الوقائع الاضافية على العمل كمفتاح للحل النهائى • ويتجاهل الباحث قليل الخبرة ، أو المقصر فى عمله جميع هذه الوقائع ، أو يتجاوزها ، فيما عدا أكثرها وضوحا ، أما الباحث المدقق فيرمى الى الاكتمال فى فحصه للوقائع الاضافية ، التى تقوده اليها فرضياته الأولية • وغنى عن القول أن هولمز كان من أدق الباحثين ، وأشدهم حرصا •

فلقد أصر هولمز على النزول من (الهانسوم) على بعد مائة ياردة أو يزيد من المكان الذى كان يقصده برفقة واطسن ، وسار الى المنزل مشيا على قدميه مدققا النظر فى كل ما يحيط به ، وبخاصة الطريق المؤدى الى المنزل • وعندما دخل هولمز وواطسن المنزل أطلعه اثنان من

العاملين باسكوتلانديارد هما جريرسون وليستريد على الجثـــة ، وقال جريرسون : ليس هناك أى دليل ، وقال ليستريد بصـوت مجلجل : « لا شيء على الاطلاق » • غير أن هولمز كان قد بدأ عمليـــة البحث عن وقائع اضافية ، فنظر أولا الى الجثة :

« ورأيت أصابعـــه الرشيقة تتنقل فى خفـــة من موضـــع لآخـر متحسسا وضاغطا وفاحصا وكاشفا الثوب الذى ترتديه الجثة •• وتم الفحص فى سرعة بالغـــة بحيث تعذر على المرء أن يخمن مدى الدقة التى التزمها هولمز • وفى النهاية ، قام بتنشيق شفتى الرجل المائت ، ونظر الى ظاهر نعلى حذائه الجلدى » (٨) •

ثم حول انتباهه الى الغرفة ذاتها •

« ثم أخرج شريطا للقياس وعدسة مكبرة مستديرة من جيبه ، وأخذ يركض حاملا هاتين الأداتين ، بلا جلبـــة داخل الغرفة ، ويتوقف حينا • ويركع حينا آخر • وعلى حين غرة استلقى على وجهه ، ولقد شغلته مهمته شغلا كبيرا بحيث بدا وكأنه قد نسى وجودنا معه ، لأنه كان يكلم نفسه ويتمتم بصـــوت خافت ، لاهثا أو متعجبا ، وأحيانا كان يصفر بفمه • أو يطلق بعض صيحات ، وكأنه يسعى لتشـــجيع نفســـه ، واقنـــاعها باستمرار وجود أمل ، وبينما كنت أشاهده ، ذكرنى منظره بمنظر كلب مدرب أصيل من النوع الشبيه بالثعـــالب ، عنـــدما يتقدم ويتراجع وهو يخرج من مخبئه أو يعـــوى عنـــدما يشـــعر بالتلهف ، الى أن يهتدى الى الرائحة التى ينشدها ، وواصل هولمز أبحاثه زهاء عشرين دقيقة • وكان يقيس بدقة بالغة المســـافة بين العلامات التى كنت لا أراها اطلاقا • ويقيس من حين لآخر بشريطه ارتفاع الجدار وطوله وعرضه ، بطريقة يكتنفها الغموض أيضـــا ، وجمع فى موضع ما ـ بعناية ـ كوما من التراب الأغبر من الأرض ، ووضعه فى مظروف ثم قام بفحص الكلمة الموجودة على الجدار بعدسته ، ومر بأصابعه على كل حـــرف منهـــا بنفس الدقة البالغة ، وبعد أن أتم ذلك ، بدا وكأنه قد شعر بالاطمئنان ، لأنه أعاد الشريط والعدسة الى جيبه •

« **تعرف العبقرية بأنها المقدرة التى لا حد لها على تحمل العناء** » • هكذا لاحظ هولمز مبتسما : « انه تعـــريف سيء ، ولكنه ينطبق على عمل المخبر (٩) » •

---

(٨) A Study in Scarlet.

(٩) نفس المرجع •

ثمة مسألة تستحق التشديد عليها ، فليست الخطوة الثانية منفصلة انفصالا كاملا عن الخطوة الثالثة ، ولكنهما عادة مرتبطتان برباط وثيق ، وتتبادلان التأثير . حقا اننا نحتاج الى فرضية أولية لبدء أى فحص ذكى للوقائع ، ولكن الوقائع الاضافية قد توحى هى ذاتها « بفرضيات جديدة قد تؤدى الى اكتشاف وقائع جديدة ، تقوم بدورها بالتعريف بفرضيات أخرى تؤدى الى اكتشاف وقائع اضافية ، وهكذا دواليك » ، وهكذا وبعد أن أجرى هولمز فحصا دقيقا للوقائع الميسورة فى منزل طريق بريكستون ، فانه قد انساق الى طرح فرضية أخرى ، تطلبت الاستماع الى شهادة الكونستابل الذى عثر على الجثة . وكان الكونستابل خارج الخدمة آنئذ . وأعطى ليستريد هولمز اسم الكونستابل وعنوانه ، وبعد أن تناول هولمز العنوان قال :

« تعالى يادكتور ! اننا سنذهب للبحث عنه . وسأخبرك شيئا واحدا قد يكون له بعض النفع فى هذه القضية » . وأردف قائلا للمخبرين : « لقد حدثت جريمة قتل . وكان القاتل رجلا يبلغ طوله أكثر من ١٨٠ سم ، وفى مقتبل العمر ، وله قدمان صغيرتان بالنسبة لطوله ، وكان يرتدى حذاء خشنا ذا بوز عريض ويدخن سيجارا ماركة Trichinopoly . ولقد وصل الى هنا مصحوبا بضحيته فى عربة ذات أربع عجلات يجرها حصان يحتذى ثلاث حدوات قديمة وواحدة جديدة ، مركبة على ساقه الأمامية . وأغلب الظن أن القاتل كان ذا وجه صبوح ، وكانت أظافر أصابع يده اليمنى طويلة بدرجة ملحوظة . هذه مجرد علامات قليلة ، ولكنها قد تساعدنا » .

وأحدق ليستريد وجريرسون ، كل منهما فى وجه الآخر ، وعلى وجهيهما ابتسامة تعجب ، وعدم تصديق لما استمعا اليه ، وسأل ليستريد : « لو كان هذا الرجل قد قتل ، فكيف حدث هذا » ؟ فقال شرلوك هولمز باقتضاب : « عن طريق السم » ، ومشى مسرعا فى خطاه (١٠) .

٤ ـ **صياغة الفرضية** ـ فى بعض المراحل ، يشعر أى انسان ـ سواء أكان مخبرا بوليسيا أو عالما أو انسانا عاديا ، أنه يملك جميع الوقائع التى تلزمه للاهتداء الى حل ، أى يملك العناصر التى يتألف منها الحل ، غير أن المهمة الصعبة تتمثل فى كيفية تجميع هذه العناصر ، وفى مثل هذه الحالات ، قد يجلس هولمز ليالى طويلة مدخنا غليونه ،

---

(١٠) نفس المصدر .

محاولا ، اذا وفقه الله أن يهتدى الى « فرضية » قادرة على تفسير جميع المعطيات ، أى مجموعة الوقائع الأصلية التى تتكون منها المشكلة ، مضافا اليها ، الوقائع الاضافية التى أوحت بها الفرضيات الأولية • ويعد الكشف العقلى عن هذه الفرضية التفسيرية من العمليات الخلاقة ، التى ترجع الى عاملين هما الخيال والمعرفة • وكان هولمز عبقريا فى اختراع الفرضيات ، ووصف هذه العملية بأنها تمثل الاستنتاج عن طريق التراجع للوراء ، وقد عبر عن هذا المعنى بقوله •

« أغلب الناس ، عندماتسرد لهم الأحداث وكيفية تسلسلها ، فانهم سيستفسرون منك عن النتيجة التى ستسفر عنها ، وبمقدورهم أن يجمعوا بين هذه الأحداث فى أذهانهم ، وأن يستخلصوا ما سيتمخض عنها ، ومع هذا فثمة قلائل اذا ذكرت لهم نتيجة ما ، كان باستطاعتهم أن يستنتجوا اعتمادا على وعيهم الباطن ماهية الخطوات التى أدت الى ظهور هذه النتائج » (١١) •

تضمن هذا الكلام وصف هولمز لكيفية صوغ الفرضية الايضاحية ، ومع هذا فأيا كان ذلك ، فعندما تقترح أية فرضية ، فمن الواجب أن يتبع فى تقييمها نفس الخطوط التى ذكرت فى القسم الثالث (وقد استبعدت من هذا المقتطف) • واذا سلمنا بارتباطها بالمسألة المنظورة ، وقابليتها للفحص ، وتوافقها والمعتقدات الأخرى التى أثبتت صحتها ، فان المعيار النهائى لتقييم أية فرضية هو قدرتها على التنبؤ •

٥ ــ **استنتاج نتائج أبعد** ــ لايقتصر أثر أية فرضية مثمرة حقا ، على تفسير الوقائع المستلهمة منها أصلا ، ولكنها يجب أن تكون قادرة أيضا على تفسير وقائع أخرى بالاضافة الى ذلك ، وتساعد الفرضية الحسنة على الاشارة الى ما يتجاوز الوقائع المبدئية ، والتعريف بوقائع جديدة ، وبغيرها ، لن يكون بالاستطاعة التكهن بوجود هذه الوقائع ، وبطبيعة الحال ، سيؤدى اثبات صحة هذه النتائج اللاحقة الى تأكيد الفرضية التى أدت الى اكتشاف هذه الوقائع ، ولقد تعرضت فرضية هولمز بأن القتيل قد مات مسموما لهذا الاختبار • فبعد أيام قليلة ، عثر على سكرتير القتيل الذى رافقه فى السفر قتيلا أيضا ، ولقد سأل هولمز « ليستريد » ، الذى اكتشف الجثة الثانية : « هل عثر فى الغرفة على أى شىء يصلح كبينة للتعريف بحقيقة القاتل » • فأجاب ليستريد :

(١١) نفس المصدر •

« لا يوجد أى شيء » ، واستطرد فذكر بعض الآثار العادية التى تساعد على زيادة توضيح الموقف . ولم يقتنع هولمز وألح عليه وسأله : « ألا يوجد أى شيء آخر » ، فأجاب ليستريد : « لا شيء ذا بال » ، وذكر بعض تفاصيل أخرى ، كان آخرها : « علبة مرهم صغيرة تحتوى على قرصين من أقراص الدواء ... وعندما استمع هولمز لهذه المعلومة هب من مقعده ، وارتسمت على محياه علامة من علامات الغبطة وصاح متهللا :

« لقد اهتديت الى آخر حلقة ، وبذلك تكون قضيتى قد اكتملت ». وأحدق المخبران كل منهما فى وجه الآخر مذهولين .

وبكل ثقة قال رفيقى (شرلوك هولمز) : « بين يدى جميع الخيوط التى تضافرت وخلقت هذه المعضلة .. وسأذكر لكم دليلا على ما عرفت . فهل تستطيعون لمس هذه الأقراص ؟ » . فقال ليستريد : « ان معى ما يماثلها ، وأخرج من جيبه علبة بيضاء صغيرة (١٢) .. »

وعلى الأساس الذى افترضه هولمز عن حقيقة الجريمة الأصلية ، أمكنه أن يتكهن بأن الأقراص التى وجدت على مسرح الجريمة الثانية لابد أن تكون قد احتوت سما . هنا أثبت الاستنتاج مدى فاعليته فى أية عملية من عمليات البحث العلمى أو الاستقرائى ، وترجع القيمة النهائية لأية فرضية الى قدرتها التنبؤية أو التفسيرية ، وبعبارة أخرى ، من الواجب استنباط وقائع اضافية من فرضية مستوفاة ، ولقد استخلص هولمز من تصوره أن أول شخص قد مات مسموما ، أن الضحية الثانية قد لاقت حتفها على يد القاتل نفسه ، وأن الاقراص التى عثر عليها ليستريد قد احتوت على السم . وكانت النظرية التى استند اليها ، بالرغم من شدة وثوقه بها ، مجرد نظرية ، وبحاجة الى توكيد أقوى . وحصل على هذا التوكيد عندما اختبر النتائج المستنبطة من الفرضية ، واكتشف صحتها . وبعد أن استفاد من استنباطه فى التكهن ، كانت خطوته التالية هى اختبار هذا التكهن .

٦ ـ **اختبار النتائج** ـ قد تحتاج نتائج أية فرضية (يعنى النبوأت التى نحصل عليها اعتمادا على هذا الأساس) الى وسائل متنوعة لاختبارها ، وقد يحتاج بعضها الى المشاهدة فحسب . وفى بعض الحالات ، لم يحتج هولمز الى أكثر من المراقبة والانتظار ، (أى كى يقتحم لصوص البنك القبو فى مغامرة Red Headed League ، أو كى

(١٢) نفس المصدر .

يتسنى للدكتور رويلوت تسريب حيته السامة من خلال أداة التهوية الزائفـــة فى مخاطرة (Speckled Band · على أنه فى الحالة الراهنة ، فانه قد رأى وجوب اجراء تجربة ·

وطلب هولمز من الدكتور واطسن أن يبحث عن كلب عجوز مريض تملكه ربة البيت ، وكانت قد طلبت فى اليوم السابق تخليصه من الشقاء الذى يعانيه ، ثم كسر هولمز قرص الدواء الى قسمين ، وأذابه فى كوب من الماء ، ثم أضاف قليلا من اللبن ·

وسكب محتويات الكوب فى صـــحن ، ووضعها أمام الكلب الذى لعقها على الفور ، قبل أن يكتمل ذوبانها ، وحثنا المسلك الوحشى لشرلوك هولمز على الاقتناع بضرورة مراعاة السكينة فى جلستنـــا ، ونحن نرقب الكلب ، ونتوقع حدوث بعض النتائج المذهلة · ومع هذا فلم تظهر أية علامة من هذه العلامات المرتقبة · اذ استمر الكلب ممددا على الوسادة ، يتنفس بجهد جهيد ، وان لم تظهر عليه أية آثار تدل على أن حالته قد ساءت أو تحسنت ·

ثم أخرج هولمز ساعة من جيبه · وبعد أن مرت دقيقة تلو الأخرى ، دون ظهور أية نتائج ، ظهـــر على ملامحه تعبير يدل على الشعور بالأسى والاحباط ، ثم قضم شفتيه ، وطرق المنضدة بأصابه ، وكشف عن كل علامات الضيق الحاد ، وكان انفعاله شديدا ، أشعرنى بالأسف العميق لحالته · أما المخبران فكانا يبتسمان ساخرين ، لأنهما لم يشعرا بأى أسف للضيق الذى انتابه ·

ثم صاح هولمز : « لايمكن أن يكون الأمر محض مصـــادفة » ، ثم قفز من مقعده ، وخطا خطوات واسعة بطول الغرفة وعرضها : « مستحيل أن يكون الأمر مصادفة · ان الأقراص ذاتها التى ارتبت فيها فى قضية دريبر ، قد عثر عليها بالفعل ، بعد موت سترينجرسون · ومع هذا فانها ما زالت محتفظة بصـــلابتها · فما الذى يعنيه ذلك ؟ ليس من شك أن تسلسل استنتاجاتى ليس باطـــلا · فهذا مستحيل ! على أن الكلب المسكين مازال كما هو · آه ! لقد أدركت ما حـــدث ! » · واندفع هولمز تجاه العلبة ، وهو يشعر بمزيد من الغبطة ، وقسم القرص الى جزئين ، ثم أذابه وأضاف اللبن ، ثم أعطى الشراب للكلب · وبمجرد أن ابتل لسان الكلب البائس ، ارتجفت فرائصه ، ثم رقد هامدا فاقد الحياة ، وكأنه قد أصيب بصدمة كهربائية ·

وزفر هولمز نفسا عميقا ، ومسح العرق من فوق جبينه (١٣) ٠

وأثبتت هذه النتيجـة الموفقة أن فرضية هولمز قد أثبتت صحتها بصورة درامية مقنعة ٠

٧ ـ التطبيق ـ ان اهتمامات المخبر البوليسى اهتمامات عملية ٠ فعندما تواجهه جريمة يراد الكشف عنها ، فان ما عليه القيام به ليس مجرد تفسير الوقائع ، وانما عليه أن يتعرف على المجرم وأن يقبض عليه ، وتتطلب هذه الحالة اجراء تطبيقات لنظريته ، والاستفادة منها فى التنبؤ عن أين يوجد المجرم ، وكيف يستطاع القبض عليه ، وفوق ذلك ، فان عليه أن يستنبط نتائج أبعد من فرضيته ، لا من باب زيادة التأكيد ، وانما من أجل الفائدة العملية ٠ واستطاع هولمز من فرضيته العامة أن يستخلص قيام المجرم بدور سائق العربة ٠٠ ولقد سبق أن رأينا كيف قدم هولمز وصفا واضحا لمظهر الرجل ، وقد أوفد حشدا من الأفراد غير التابعين للشرطة من أبناء الحى للبحث عن العربة التى يقودها هذا الرجل ، واستحضارها ٠ وبالاستطاعة وصف كيفية تطبيق هذه الفرضية تطبيقا ناجحا بالرجوع مرة أخرى الى كلمات واطسن بعد موت الكلب بدقائق قليلة ٠

٠٠٠ « لقـد حـدث طرق على الباب ، وقدم فتوة الحارة الشاب ويجنجز شخصه التافه البغيض ٠

وقال لامسا جبهته : « ان العربة عند البوابة الخارجية » ٠ فقال هولمز بلطف ٠ أيهـا الصبى الطيب ٠ لماذا لاتقـدم هذه الأداة الى اسكوتلانديارد ٠ وقال ذلك وهو يمسـك بقطعتين من القبضـات الحديدية ، بعد أن أخرجهـا من الدرج : « أنظر كيف تعمل اليايات على خير وجه ٠ انها تتماسك فى لحظة واحدة » ٠

ولاحظ ليستريد « ان القبضة الحديدية جيدة بما فيه الكفاية ، شريطة العثور على الانسان الذى تناسب يديه » ٠

وقال هولمز مبتسـما : « عال ! عال ! ٠ أرجو أن يقوم العربجى بانزال حقائبى ، وليتك يا ويجنجز تطلب منه الدخول » ٠

ولقد دهشت عنـدما رأيت رفيقى (هولمز) يتحـدث كأنه يتهيأ للقيام برحلة ، لم يخبرنى أى شىء عنها ، وكان هناك معطف فى الغرفة ،

---

(١٣) نفس المصدر ٠

وأمسك به نافضا التراب العالق به ، وانهمك فى هذا العمل ، بينما كان العربجى يدخل الغرفة ·

وقال هولمز : « ليتك تســـاعدنى ، وتمســك بهذا الجردل » ، وقال ذلك وهو ينحنى أثناء انهماكه فى عمله دون أن يلتفت برأسه ·

وتقـدم الرجل ، ووجهه متجهم نوعا ، وفى مظهـر ينم عن شىء من التحدى · وبدأ فى تقديم المساعدة ، وفى هذه اللحظــة ، سمع طرق شـديد على البـاب · انه جلجلة صـوت قطعة من المعدن · وقفز هولمز مرة أخــرى ·

ثم صاح وعيناه تتوهجان : « أيها الســادة أرجو أن تسمحوا لى بتقــديم المستر جيفرســـون هوب قاتـل اينـــوخ دريبر وجوزيف سترينجسون » (١٤) ·

لقــد أطلعنا هنا على صــورة للمخبر البوليسى عنـدما يقوم بدور العالم ، ويستدل على الوقائع المشـــاهدة بالرجوع الى فرضـية تقبل الاختبار ، ولا يقتصر دورها على تفسير الوقائع ، ولكنها تســـمح أيضا بالتطبيق العملى ·

الفلسفة الآتية للعلم بقلم هنرى مارجينو

[هنرى مارجينـو عالم فزيائى وفيلسـوف معروف · صاحب مؤلفات متخصصة فى الفيزياء منها بعض الكتب حديثة العهد مثل
The Scientist and Integrative Principles of Modern Thought,
وكتاب Ethics and Science]
(★)

فى الحضارة الغربية ، ينظر الى العلم على أنه سعى براجماتى يهدف الى اكتشاف الحقائق النافعة ، أيا كان نوعها · وتعتمد فضائله على مقدار التزامه بالأمانة والدقة عند جمع هذه الحقائق ، وعلى اكتمال الصيغة التى تصاغ فيها ، باعتبارها جزءا من النسق العرفانى الذى تتبعه فى نهاية المطاف · هذا الطابع الشديد الالتصاق بالوقائع الفعلية Factualness للعلم يدفعه الى التغاضى عن الاختلاف بين ما هو تافه وما هو ذا قيمة ، وبين ما هو بغيض ، وما هو شائق ، وما هو حسن ، وما هو سىء ، والحق أن القول بوجود هوية بين العلم وعالم الوقائع المكتشفة قد أبعده الى حد

(★) نقلا عن مجلة The Key Reporter العدد ٢٥ خريف ١٩٥٩ مقال كتبه Henry Margenau

(١٤) نفس المصدر ·

كبير عن الاهتمامات الأكثر اتصافا بأساسها الانسانى ، وحوله (العلم) الى روبوت مهول ، لا ينشد غير التقدم المادى ٠

لقد كانت هذه الحركة البينة من الكشف ، التى اتجهت الى خلق بيئة مادية أفضل هى التى أسرت انتباهنا ، وشغلت ألبابنـا ، وحرفت تقديرنا للمهمة الحقة الخالدة ، التى يقوم بهـا العلم فى الحضـارة البشرية ، لأنها أغفلت من حسابها حركة أشد غموضا ، تصحب الحركة الأخرى بحتمية مقدرة ، وتنتقل قدما من الكشف ، الى الفهم ، ومنه الى الحكمة ، ثم الى الفلسفة وشئون الروح الانسانية ٠

فلأحاولن تحديد سمات هذه الحركة الأخرى باستخدام مصطلحات عامة فى البداية ٠ ان الكشف العلمى الهام ليس مجرد اضافة للمعرفة فحسب ، انه يتخذ عادة شكل التحدى لمعتقدات راسخة ، والانحراف عن الاتجاهات الجارية للفكر ٠ وغالبا ما يـكون أشـبه بارتداد عن « المفهومية الدارجة » Common sense غير أن هذا الرأى من الصعب ادراكه ٠ ومن ناحية — يرجع هذا الى الاضواء المبهرة للشهرة والذيوع ، التى تشع وتتألق وسط مظاهر التقدم العلمى ، وأبهته ، والتى أصابت رؤيانا بالعتمة ٠ ومن ناحية أخرى — نحن نحتـاج الى الاحاطة بأشياء أكثر من الاحاطة بالوقائع لاكتشاف الآثار البعيدة الغور للعلم ٠ وهكذا انغمرت هذه الحركة ، التى بدأت بالكشف ، فى الناحيـة النظرية ، واتجهت الى السعى لتبديل ما يدعى بالمفهومية الدارجة ، وأحدثت تغيرات حادة فى معتقداتنا الكونية فى نظرية المعرفة وطبيعة الكون ، ونظرتنا الى الانسان فى أغلب الظن ، ومرت دون أن يعترف بهـا أو يهلل لها ٠ فهى تخطو خطوات وئيدة ، وشاردة أحيانا ، كأنها كرة تنحدر الى السفح بغير هداية عاقلة ، وتتعرض فى طريقها للعديد من العوائق ، ولكنهـا ماضية فى طريقها نحو غايتها ، التى تحدد المناخ الفكرى والحضـارى ، الذى يحيا فيه البشر ٠ وتتأثر — فى نهـاية المطاف — علوم الاجتماع والأخلاق والسياسة — بل وربما الدين — بالجرثومة التى تـولد عندما يظهر كشف عظيم حق فى العلم البحت ٠

ويكفى ذكر مثل واحد للحركة الغامضـة لتصـوير ما أريد قوله ٠ وسأترك جانبا الأمثلة كتلك التى تذكر عن بزوغ المذهب المادى فى أعقاب بعض كشوف العلم ، والتى اعترف بها المؤرخون بالفعل ٠

ولقد صـاغ قوانين الميكانيكا فى بداية القرن السابع عشر جماعة من العلماء ، كان أبرزهم جاليليو ونيوتن ٠ وكانت الميزة البالغـة الدقة

لهذه القوانين هى ثباتها وادعاءها الصحة الكلية ، والاتجاه المميز الذى اتبعته فى نظرتها الى المكان والزمان ـ اللذين نظر اليهما كثيرون كعاملين فزيائيين ـ كتصوريين صوريين علاقتيهما بالظواهر علاقة محايدة وقاصرة ومطلقة ٠ وفى عشرات السنوات التى أعقبت جاليليو ونيوتن ، حدثت جملة محاولات لترجمة هذين المظهرين المستحدثين لقوانين الطبيعة الى لغة الفلسفة ٠ وحقق كانط ذروة نجاح هذه المحاولات ٠ اذ حرصت نظرية المقولات عنده على مراعاة الطبيعة القاطعة لقوانين الميكانيكا ٠ كما راعت ـ على خير وجه ـ نظرته الى المكان والزمان كصورتين خالصتين للحدس ، لأهميتهما كعاملين فزيائيين ، وطابعهما المطلق فى فهم الانسان للعالم ، ولن يستطاع فهم النجاح التاريخى الساحق لنظرية مميزة كنظرية كانط ، مالم يتم تصورها على ضوء الخلفية العلمية ، التى تمكنت من عقلنتها ، والاحاطة بها ، ولا يخفى أيضا كيف أثر تصور كانط للقانون الطبيعى ذاته على تعاليمه الأخلاقية ، والمعنى المطلق للواجب الذى تحكم فى السلوك الأخلاقى لأوربا زهاء قرن أو يزيد ، وهكذا استغرق التخلف الحضارى ، الذى فصل بين الكشوف العلمية ، وفهمها فلسفيا ، أو تأقلمها ، ان شئت القول ، زهاء مائة سنة ٠

ويهمنا أن نذكر أنه فى الماضى البعيد ، كانت حتى أية حركة واضحة للعيان تستغرق مئات السنين لبلوغ ذروتها ٠ فمن المعروف ان اكتشاف البارود قد حدث فى القرن الثانى عشر فى وسط أوربا ، غير أن البارود لم يستعمل فى الحرب الا فى القرن الرابع عشر ، ولقد تغيرت سرعة هذه الخطوة الوئيدة الآن ، فلقد اكتشف انشقاق الذرة ١٩٣٩ ، وفجرت القنبلة الذرية ١٩٤٤ ٠ وفى غضون خمس سنوات ، تم تحويل هذا الكشف الحديث الى أشد الأسلحة فتكا ودمارا ٠

فهل حدث تسريع مماثل فى هذا الاتجاه الغامض الذى بدأه العلم ؟ لقد ظهرت نظرية الكم (الكوانتم) حوالى ١٩١٠ ، وعرضت أعظم التحديات ، وأشدها التى عرفها الفكر البشرى ، واليوم يستعمل علماء الفيزياء المعادلات الأساسية لميكانيكا الكوانتم عندما تتطلب أية مشكلة ذلك ٠ وساعد ما ظهر من أبحاث رائعة على بلوغ تقنيات حل هذه المشكلات الكمال ، غير أن المعنى الأساسى لهذه المعادلات لا يصح بأى حال أن يوصف بالوضوح ٠ ولقد نجح أولئك الذين خلقوا نظرية الكوانتم من أمثال بور وشرودنجر وهايزنبرج وبورن ودى براوجلى وغيرهم فى تحويل قدر كبير من انتباههم فى السنوات القريبة العهد لمهمة توضيح معنى كشوفهم الباكرة ٠ ومما يؤسف له أن لايحدث أى

اتفاق بينهم ، ولم يعد الجيل الحاضر من علماء الفزياء يبالى بهم أدنى مبالاة ، ولم ينتبه حتى الآن عهد احتضان غوامض هذه النظرية ، وما صادفته من تطورات •

ومن المعقول أن يتعرض الفكر البشرى للاضطراب من جراء المفارقات ، والوقوع فى فخ المشكلات الزائفة اذا هو احتضن مجرد جزىء من الحقيقة . ولن يتسم نسيج الحقيقة بالاكتمال اذا لم يتوافر الوضوح للنتائج التكنولوجية للعلم ، وظل معناها الفلسفى محاطا بضباب النقائض ، وهذه هى الحال التى نحيا فى ظلها الآن • انها حالة أزمات وتشتت ومتباينات • وعلى مجتمعنا أن ينتبه لذلك ، وأن يعير هذه المسألة انتباهه ، وأن يشجع النزوع لمواجهة المشكلة الملحة التى تدعو الى اضفاء الصبغة الانسانية على العلم ، والبحث عن معناه للانسان ، والعمل على احداث توافق فى بنائه المثالى ، وأن لا يكتفى بآثاره التكنولوجية على اتجاهنا فى الحياة •

ولن أبحث ، وأستقصى الاحتياجات التى يلزم القيام بها اليوم لتحقيق مثل هذا التوافق • وبدلا من ذلك ، فاننى سأعكف على تخمين ما قد يعد فى أغلب الظن المهمة المستحيلة لاستشفاف ملامح الفلسفة الآن ، التى ستكون ترجمة صادقة لمثاليات العلم فى الحاضر ، ومصادر اتجاهاته والتزاماته ، وثمة أربعة أوجه جديدة تبلور فيها العلم بعد نهوضه • وقد بهرتنى باعتبارها شديدة الأهمية والخصوبة ، ولما لها من دلالات للفلسفة •

أولا : هناك اتجاه صحى شجاع من الشك فى امكان بلوغ الحقائق الأساسية أى غايات نهائية ، أو الاهتداء الى أسسها الحقة الأولى التى ندعوها بالبديهات والمسلمات • فكما نعرف ، لقد ارتكنت هندسة اقليدس على بديهات ومسلمات نظر اليها زهاء ألفى سنة على أنها من الحقائق التى لا يتطرق اليها الشك • ولم تتعرض صحتها لأى خضوع للبرهان ، واكتفى بالبحث عنها واكتشافها ، وقيل ان كل انسان محب للاستطلاع قادر اذا تعمق بعقله أن يكتشف الصحة القاطعة لبديهات اقليدس ، بيد أن هذا الاقتناع قد تشتت بمنتهى الفظاظة ، عندما اكتشفت الهندسات اللااقليدية ، وعندما اكتشفت الرياضيات للمرة الأولى ، أى منذ مائة سنة تقريبا ، أن الحقيقة فى الهندسة مجرد توافق داخلى ، وأن هناك أنساقا منافسة من المسلمات ، وأنها جميعا تؤدى الى كيانات نظرية متماسكة صوريا ، لكن هناك نسقا واحدا منها فقط هو القادر على انصاف وقائع العالم ، كما هو معروف •

وهكذا أدركنا أن المسلمات لا تحمل فى طياتها مبررات صحتها ، وأنها لاتظهر الى الوجود أو تبرر اعتمادا على نور ربانى معصوم • ان مكانتها المنطقية تستند فى اثبات صحتها على المحاولة والخطأ ، وتخضع للتغير عندما تتطلب الوقائع المشاهدة ذلك •

وهكذا يكون العلم قد نبذ فكرة الحقيقة المطلقة ، ولكنه أقدم على هذه التضحية عن طيب خاطر ، لأنها ساعدته على الاقتراب من نطاقات أخرى من الاهتمامات الانسانية ، ويسرت له اكتساب قدر من الفهم المعمق لها • وبعد أن أدرك العلم حاجته الى الالتزام بالمسلمات والبديهيات، التى لايستطيع التأكد منها قبليا ، أو بصورة نهائية ، رأى وجود جوانب مشتركة بينه وبين المجالات التى تلتزم بمعايير ومثل فى سبيل التقدم ، ورأى العلم وجود تشابه بين احتياجه الى الاعتراف بالبديهيات ، وحاجة الانسان الأعظم الى الايمان •

● **تعليق المفهومية الدارجة Common sense**

ويعتمد العلم أيضا اعتمادا متزايدا على العقل • وكثيرا ما يكون هذا الاعتماد على العقل المجرد للغاية مصحوبا بميل لنقد « المفهومية الدارجة » • ولايقصد بذلك الانتقاص من قدر الحكمة البشرية التى كثيرا ما تتسمى باسم « المفهومية الدارجة » ، وبخاصة فى النطاقات التى يعد فيها العلم ذاته قاصرا عن خوضها ، وانما المقصود أنه عندما يتعارض أى زعم واضح للعقل والمعتقدات المستحبة ، فان العلم يطالب باستسلامها ويعلن فى لهجة استعلاء ـ أحيانا ـ أنه هو الذى ساعد على ظهور المفهومية ، باعتبارها وعاء المعرفة العلمية المتروكة ، والتى تخلى عنها العلم بعد تقدمه ، تركها لكى يستوعبها الأميون علميا ، وكان الفيلسوف الفرنسى دالمبر D'Almbert قد تنبأ بذلك عندما قال :
"Allez en avant. la foi vous viendra" (سيروا قدما ، وسيتحقق لكم الايمان) • وكان ما يقصده هو أن على أهل العلم أن لايقلقوا كثيرا من الحماقات الظاهرية ، التى تظهر فى بياناته • وأوضح مثل للحقيقة القاصرة ، التى تحدث عنها دالمبر يمكن مصادفتها فى نظرية النسبية ، عندما تبنى علماء من أمثال أينشتين صحة قضايا غريبة ، واحتضنوها فى البداية بشجاعة ، مع ادراكهم لتناقضها والمفهومية ، ثم أثبتت المشاهدات صحة هذه القضايا ، وأصبحت تتمتع الآن بالقبول الكلى من الجميع باستثناء قلائل من الشواذ ، الذين يرفضون فهمها ، ويتمسكون برفضهم •

ومن الاتجاهات البارزة التى تعرضها الفزياء الحديثة ، رفض النماذج الميكانيكيـة • فلقد صب العلـم الكلاسيكى عـائده المنتظم من الفكر بفيض غزيز كاسح فى قوالب مرئيـة ، مستخدما فى تفسيرها نماذج منقولة طبق الأصل من الآليات متلما تصادف فى الكونيـات الكبرى Macroscopic وامتلأ العلم بعجلات وتروس دقيقة وقضـبان ووصـلات وأوتار وأنظمة شمسية مصغرة ، وقبلت هذه المبتكرات على علاتها ، حتى وان تعذر رؤيتها بالعين المجردة بأية وسيلة مجدية • ولقد اتضح ان هذه الأشياء دقيقة للغاية وبالغة الضآلة بحيث تتعذر رؤيتها ، لا لأنه لم تخترع حتى الآن مكروسـكوبات ذات قوة كافيـة قادرة على رؤيتها ، وانما نتيجة للحقيقة الأساسية التى ترى أن هذه الأشياء ــ من حيث المبدأ ــ فى مستوى أدنى من المستوى الذى بالمقدور ادراكه فى ضوء البصر ، لأن طول موجتها أصغر من طول الموجات التى فى مستوى البصر• وعندما نتمعن فى هذه المسألة ، سيبدو من المستغرب أن لا ينظر بمنظار الجد الى هـذا الرأى ، الذى نادى به أحيـانا الوضـعيون فى العصر الكلاسيكى • انها النظرة التى ترى أن الكائنات الشديدة الضآلة ، التى يصعب ادراكها ، قد يكون لها صفات تتحدى بالمثل الادراك الحسى ، وتتطلب لادراكها خصائص أحد من الأشياء التى نستعملها فى حياتنـا اليومية •

وقد اتخذت الصدارة فى آليات (الكوانتم) هذه المعرفة ، وهذه الدراية بأن الأشياء التى تتألف منها الدقائق الفزيائية (الميكروكوزم) لايمكن أن تفهم بلغة التصورات السهلة للعالم المرئى ، فليس للالكترون ، تبعا لما يراه هذا الفرع الجديد من العلم ، فى ظروف معينة أى موقع محدد ، أو طاقة محددة ، أو سرعة محـددة على الاطلاق ، فقد يكون فى حالة يمكن تشبيهها بالسحابة ، أو الموجة الاحتماليـة ، ومنها تنبعث كيانات فزيائية حقيقيـة (بالمعنى القديم) ، اذا أمكن قياس ذلك • وحلت تصورات شديدة التجريد ، لا تقبل الحدس ، مثل الاحتماليات ، والسعات الاحتمالية Probability amplitudes محل النماذج الآلية الأقدم ، وأفسحت التصاوير الطريق أمام المجالات المجردة ، كما أفسحت الجسيمات المجال أمام المتفردات الرياضية ، وحل العقل محل الأنواع الفجة من الحدوس ، وأطلق بعض على هذا التغير اسم الاتجاه الى تنقية منهج العلم والتسامى به • وأعلن بعض آخر عن استنكاره لهذه الاتجاهات ووصموها بأنها نكوص عن الواقع • وسواء رضينا بذلك أم لم نرض ، فان هذا التغير قد حدث ، وترك بصمات لاتمحى على العلم الحديث •

وأخيرا هناك عنصر دال على الجرأة بمقدور البـاحث فى العلم أن

يراه بوضوح • وتصف كلمة « تطور » ـ فى الأغلب ـ بكل ما تحويه من تلميحات سافرة ومجازية ، وصفا حسـنا اتجـاه عالم القـرن التاسع عشر • واليوم ـ على ما يبدو ـ علينا أن نستعيض الكلمة التى تدل على الماضى ex بكلمة أخرى تدل على الانطلاق للأمام ad .
وأن نحـور كلمـة Volvere الى كلمـة coming / venir
وأن نستعيض بالكلمة الدالة على الرجوع الى الماضى ، كلمـة دالة على الاتجاه الى المستقبل ، وبذلك تتحول كلمة evolution الى adventure التى تصور روح العلم الحاضر ، وتعبر أصدق تعبير عن روحه المحلقـة فى الآفاق وانطلاقه الى العلم البحت ، وجرأته واقدامه على اطلاق الطاقات الهائلة واندفاعه لغزو الفضاء ، وانكاره للمفهومية الدارجة •

وانتقل الآن الى أصعب جزء فى مهمتى ، التى اخترتهـا ، أى الى السؤال المثير للجدل ـ وغير المعصوم من الخطأ حقا ـ للفلسفة الوليدة التى ستحقق وحدة عضوية لمكونات المنهج العلمى ، الذى لخصناه فى ايجاز ، وتفاصيل هذه الفلسفة تحيرنى • فلست أعرف هل ستكون بناء نقيا مغلقا خاضعا للاستدلال ، أم أنها ستكون خليطا من الاستبصارات النزواتية ، فلم ينصرم من القرن التقليدى للنضوج أكثر من نصفه فحسب• غير أننى اذا كنت لم أتعرض للخداع ، فانى أرى أن منهج هذه الفلسفة سيعكس الاهتمامات الجارية (السائرة فى طريقها) وديناميات العلم ذاته • وستتصور هذه الفلسفة ـ على غرار ما فعل العلم ـ هدفها كهدف مثالى ، لايهتدى اليه الا بوصفه اجابة محددة لأسئلة انسانية محددة ، طالما تكررت •• ولما كانت هذه الفلسفة تعرف طابع « المحاولة والخطأ » الذى تتصف به المسلمات ، فانها لن تستقر عند أى يقينيات ثابتـة ، ومع أنها ستعترف بالمسائل الأبدية الحافلة بالمعنى ، الا أنها لن تحتضن أية اجابات أبدية ، كما أنها لن تعتنق أية حقائق سرمدية فوق كل زمان ، وستبث بعض الميسرات التى تساعدها على الارتقاء وتصحيح مسارها بغير انقطاع ، كصمام أمان ضد الركود وزحف الدوجماطيقية ، ولمواجهـة الموجات الطاغية التى لانهاية لها للوقائع المستحدثة ، غير المتوقعة •

● تاريخ وليس قدرا

هذا سيكون منهجها ، اذا لم تك فطرتى قد أخطأت ، وستتضمن مشكلاتها مشكلة الحرية الانسانية • وكان العلم الفزيائى ـ على الطريقة القديمة ـ يستبعد مشكلة الحرية ، ويحـول دون مناقشتها جـديا ، بايداعها المخزن المترب للنماذج الآلية ، حيث كانت تقبع كأنها واحدة

من الأحاجى ، بين المشكلات البعيدة الأثر • فالآليـات التى تتبع قوانين نيوتن لاتسمح بأية حرية • واذا عهد اليها بوصف تكوين الانسان وصفا مستوعبا ، فانها تصف حياته وأفعاله على أنها خاضعة خضوعا ضيقا للحتمية ، تماما مثل مسار أى مقذوف أو صاروخ • هذا يعنى أنه خاضع للأقدار وليس له تاريخ •

وأنقذت نظرية « الكوانتم » مصير الانسان من شباك القدرية للحتمية الفزيائية • فلقد نجحت فى غرس اللايقينيات فى مسلسل الأحداث • وقد يلوذ مبدأ الحرية بهذه اللايقينيات • ولم يبين أى عالم فزيائى كيف تترتب الحرية على قوانين الميكانيكا الكوانتم ، وان كانت هذه القوانين تسمح بذلك ، ونزع بعض الكتاب ، تحدوهم الرغبة فى تأييد قضية الحرية ، الى الخطأ فى تشخيصها على أنها تعنى غياب الحتمية ، وبذلك ارتكبوا خطأ الظن بأن افتراض أن يكون الشيء حرا يعنى أن يكون غير قابل للتنبؤ • فلو كانت احتماليات ميكانيكيات الكوانتم ، هى وحدها التى تتحكم فى مسلكنا ، فاننا سنكون مرغمين على العمل بطريقة شاردة ، وستكون أفعالنا خاضعة للحتمية ، وسيتعذر حسم مشكلة المسئولية الأخلاقية •

واذا أردنا طرح القضية بطريقة صائبة كان علينا القول بأن الحرية لم تعد مشكلة زائفة أو مسألة ذاتية ، ترتبط بالاستبطانات التى لا صلة لها بالعالم الخارجى • فلقد تم انتشالها من سلة مهملات المفارقات ، ووضعت فى « خانة » المشكلات التى تتحدى العالم ، وتحتاج الى حل • وللحصول على هذا الحل ، بمقدور العالم ، أن يقطع شوطا فى هذا الطريق • ولقد فعل ذلك ، وعلى الفيلسوف الخبير بالعلم أن يكمل ما تبقى •

● مفتاح لقشرة الغيبيات

وأخيرا فثمة أمل فى قيام الفلسفة الآتية أو فلسفة الغد بتحقيق توليفة رئيسية للتباينات المتوارثة • ولقد أضاف التاريخ أثقالا الى تفكيرنا ، بما فيه من نقائض واستقطابات فى المفاهيم ، ترغم أبحاثنا على التوقف عندها • ونحن نشعر بالتهيب أمام مشكلة العلاقة بين العقل والجسم ، والصراعات بين الذات وبين العالم ، ومن يحاول معرفته ، وبين المشهد الكونى ومن يشاهد ، ورغم خطر التهديد بالاتهام بعدم احترام هذه المقدسات ، وهذه القشرة من الغيبيات ، فانى أرى أن العلم قد أصبح يحمل الآن مفتاحا لحلها حلا مختلفا عن الحلول السهلة التى

تزعم أن هذه النقائض ليس لها مضمون تجريبى · وهذا المفتاح عبارة عن اكتشاف ما يسميه المهندسون : « التغذية الارتجاعية Feedback ، وما يسميه رجال الاقتصاد بالمعاملات ، وما يسميه علماء الفزياء بالتداخل الذى لايرد بين القياس والمتغيرات المقاسة · واذا انتزعنا من هذه الكشوف كل شيء آخر غير أساسيها ـ ويقصد هنا بكلمة transaction وكلمة Feedback وصف عمليات أساسية فى المعرفة سنرى أن هذه المعرفة تنكر وجود أى حاجز يفصل « العارف » من « المعروف » · كما أنها ترفع الستار بين المشهد والمشاهد (بكسر الهاء) ، وتجعله جزءا من العرض الكونى · وفى مستوى الماهيات الأولية ـ كما هو الحال فى الفزياء الذرية ـ فان كل مشاهدة تحدث تعديلا فيما يشاهد · اذ يدخل العارف فى الطبيعة فى كل عملية قياس يقوم بها · كما أن كل متتابعة من الأحداث معلقة على أحداث قائمة على الدور الذى يقوم به الانسان ·

وانى على يقين من قدرة الفلسفة الجديدة على عرض بيان أكثر تماسكا لهذا الموقف ، أكثر مما توحى به اشارتى الفجة · فليس من شك أنها تثبت ـ تمشيا مع متضمنات العلم ـ نهاية الأبراج العاجية والتأملات المنعزلة ، التى لاتقدم ولا تؤخر بالنسبة للعالم ، لقد تحولت الوقائع الى أفعال ، ولم تعد الحرية مجرد وهم · وأصبحت الحقائق الراكدة تبدو كأنها تحديات أبدية · وعندما يتم فى نهاية الأمر تنظيم هذه الاستبصارات فى فلسفة تضم هذه الأشتات ، فان صورة الانسان ستتعدل بالمثل ، اذ سيظهر بمظهر كيان فعال له سلطان أعظم وقدرات خلاقة ، وستزداد مسئولياته عما مضى ، ولكنه سيتصف بتواضعه أمام الحق ·

أمثلة من المشكلات المعاصرة

● العلم والطبيعة البشرية

الطبيعة مقابل الثقوت

البيولوجيــا الاجتماعية : بقلم ادوارد أوزبورن ويلســون

[ادوارد أوزبورن ويلســون (١٩٢٩ ــ) هو أستاذ العلوم ورئيس قسم الحشرات فى جامعة هارفارد بالولايات المتحدة. ومن أحدث كتبه : The New Synthesis وكتاب On Human Nature

وفيهما يحث على العناية بانشاء علم جديد للبيولوجيا الاجتماعية] .

يرجع أول مأزق الى ما حدث من تدهور مميت للأساطير التقليدية ، وما يناظرها فى عالم الدنيويات من أســاطير مماثلة ، وعلى رأســـها الايديولوجيات ، التى استندت الى التفسير الماركسى للتـــاريخ ، وكان الثمن الذى دفعته البشرية فى مقابل هذه الاخفاقات هو فقدان الاجماع فى الأخلاقيات ، والاحساس الكبير بالعجز فى المشاغل التى تمس البشر ، وانكماش الاهتمام بالنفس والمستقبل المباشر ، وتراجع هذه الجوانب الى الوراء ، وبالمقدور الاهتداء الى حـــل نظرى لهذا المأزق ، اذا فحصنا الطبيعة البشرية فحصا أعمق ، وأشجع ، يجمع بين كشوف علم الأحياء (البيولوجيا) وكشوف العلوم الاجتماعية . وسيتحقق تفسير العقل

(★) نقلا عن كتاب On Human Nature تأليف Edward Osborne Wilson (١٩٧٨)

تفســيرا أدق اذا نظـر اليــه كظواهر لاحقـة epiphenomenon للخلايا النيرولوجية الآلية لأعصاب المخ • وهذه الآليات بدورها قد نتجت عن التطور التوليدى الذى ترتب على عمليــة الانتخاب الطبيعى ، التى تعرض لها أهل الأرض من البشر زهاء مئــات الألوف من السنوات فى بيئاتهم القديمة • واعتمادا على الامتـداد المتوازن لمنهجية بيولوجيــة الأعصاب ، وأفكارها وعلم الأثولوجيا (العادات الأخلاقية) والبيولوجيـا الاجتماعية ، ســيكون باستطاعتنا ارســاء أساس مناســب للعلوم الاجتماعية ، وربما تيسر أيضا محو انعدام الاتصــال ، والانفصام بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والانسانيات •

واذا أثبت هذا الحل للمازق الأول نجاحه ـ حتى جزئيا ـ فانه سيؤدى مباشرة الى المازق الثانى : الاختيارات الواعية ، التى يتعين القيام بها بين ميولنا الذهنية الفطرية • وتتألف مكونات الطبيعة البشرية من قواعد التعلم ومقويات المشاعر والانفعالات ، وهورمونات التغذية الارتدادية (feed back) التى توجه السلوك الاجتماعى ، وتدفعه الى اتباع قنوات معينة قد تتعارض والقنوات الأخرى ، وليست الطبيعة البشرية مساوية فحسب لما يتمخض عنها فى المجتمعات القائمة ، فهى تساوى أيضا بعض المتحققات بالقوة ، التى بالمقدور بلوغها بفضــل التصــميم الواعى ، الذى ستضطلع به المجتمعات المستقبلية • واذا تصفحنا النسق الاجتماعيــة التى حققتها فئات عديدة من الأنواع الحيوانية ، وأحطنا بالمبادىء التى ارتكنت اليها هذه النسق فى تطورها ، سيتسنى لنا التيقن من أن جميع الاختيارات الانسانية لاتمثل الا نزر يسير من الامكانات الثانوية لما هو ممكن نظريا • وفضلا عن ذلك ، فان الطبيعة البشرية لايتعدى كونهــا خليطـا من التكيفات التوليدية التى تظهر فى بيئة قد اختفى قدر كبير من ملامحها ، والآثار التى تركتها حقب مختلفة كالعصر الجليدى وعصر الصيد •• الخ• ولاتزيد الحياة الحديثة ، بثرائها وسرعة تغيرها فى نظر من وقعوا فى براثنها ـ بالرغـم من كل ذلك ـ عن فسيفساء من الانماءات المفــرطة للتكيفات السلوكية العتيقة والمتخلفة •• ويتلخص المأزق الثانى فى حالة من دوران الفرد حول نفسه ، يتمثل فى كوننا مرغمين على الاختيار بين العناصر التى تتألف منها الطبيعة البشرية بالرجوع الى نسق من القيم ، قامت هذه العناصر نفسها بخلقها فى عصر من عصور التطور ، قد اختفى الآن منذ أمد طويل •

ومن حسن الطالع أن هذه الحركة الدوارة لهذه الحالة الانسانيــة غير المقبولة أو المستحبة ، ليست شــديدة المناعة ، وفى مقدور الارادة

تحطيمها ، والمهمة الأساسية للبيولوجيا الانسانية هى التعرف على القيود التى تؤثر فى قرارات الفلاسفة الأخلاقيين وغيرهم وقياسها واستخلاص أهميتها اعتمادا على عمليات اعادة تكوين reconstructions النواحي العصبية الفسيولوجية والنسالات (الفيلوجينية) للعقل ، وتعد هذه المهمة مكملا ضروريا للدراسة المتصلة للتطور الحضارى ، اذ سيترتب عليها حدوث تبدل في أسس العلوم الاجتماعية ، وان كان لن يقلل — بأى حال — من ثرائها وأهميتها ، وسيتمخض ذلك عن انشاء بيولوجيا أخلاقية ، تيسر اختيار سنة للقيم الأخلاقية أعمق فى مفهومها وبقائها .

وهكذا سيتجه البحث عن القيم الى تجاوز الحسابات النفعية لمدى لياقة النوع الانسانى ، وعلى الرغم من أن الانتخاب الطبيعى كان المحرك الأول للتطور ، الا أنه يعمل من خلال تيار من القرارات المعتمدة على قيم ثانوية ، قامت تاريخيا بدور فى تيسير آليات الحفاظ على البقاء وتخليد النوع . وما يحدد هذه القيم الى حد كبير هو أشد انفعالاتنا قوة كالحماسة وشحذ حواسنا من أثر ما نقوم به من تنقيب واستقصاء وكشوف وانتصار فى المعارك والمباريات الرياضية ، والشعور بالارتياح والسكينة بعد التوفيق فى القيام بفعل من أفعال الايثار فى موضعه الصحيح ، واثارة الشعور بالعزة والعنصرية والقومية ، والقوة المستمدة من الروابط الأسرية ، ومتعة الاطمئنان الى وجود قرابة بيولوجية بيننا وبين الحيوانات والنباتات النامية .

وهناك مظاهر عصبية فسيولوجية لمثل هذه الاستجابات تحتاج الى الاحاطة بها ، كما يتطلب تاريخها التطورى اعادة استحضاره . وهناك شيء أشبه بمبدأ خاص بالطاقة يعمل من خلالها ، وينعكس فى التركيز على نفر أكثر من التركيز على الآخرين ، مما يساعد على استمرار الحفاظ بخلاصة لقوى الجميع .. وقد لاحظ الشعراء هذه الظاهرة على خير وجه . كما يبين من التعبير الرصين لمارى بارنارد Barnard فى سافو :

يقول بعض أنه لواء فرسان
ويقول بعض بل أنهم المشاة ، ويتشبث بعض
بأن سرعة مجاديف
أسطولنا هى أبهى مشهد على

أرضنا السمراء • ولكن أقول

ان كل ما نعشقه سيكون كذلك (*)

وعلى الرغم من الافتقار الى وسائل لقياس هذه الطاقات ، فلست أشك أن علماء النفس سوف يتفقون على امكان اعادة توجيهها — جوهريا — لقنوات أخرى دون فقدانها لقوتها ، وعلى قيام العقل بالكفاح للحفاظ على مستوى معين من النظام والثواب الوجدانى • وتوحى الأدلة الحديثة بأن الأحلام تنبعث عندما تقوم أنسجة ضخمة فى مقدمة المخ بالاندلاع من خلال المخ أثناء النوم ، وبذلك تنشط اللحاء المخى وتدفعه الى العمل ، وعند غياب أى معلومات حسية من الخارج ، يستجيب اللحاء بأن يستحضر تخيلات من بنك الذاكرة ، ويخترع حكايات مستصوبة • وعلى نحو مماثل ، فان العقل يتوقف عن خلق الأخلاقيات والمعتقدات الدينية والأساطير ، وعن تغذيتها بالطاقة الوجدانية • وعندما تنتزع المعتقدات الأسطورية والأيديولوجيات العمياء يتم صنع بدائل — على وجه السرعة — لاحلول محلها ، واذا أمكن تدريب اللحاء المخى تدريبا صارما على تقنية التحليل النقدى ، وتم شحنه بمعلومات مختبرة ، فانه سيسجل جملة هذه الحصيلة فى صورة من الأخلاقيات والأساطير • واذا درب العقل على عدم الجمع بين الأفعال الخارجة على نطاقه ، والأفعال العقلانية ، فانه سيقسم نفسه الى قسمين ، بحيث يتسنى لكل قسم منهما النمو جنبا الى جنب القسم الآخر •

وبالاستطاعة كبح جماح النزعة الغارقة فى الأساطير بوساطة التعلم والبحث العقلانى لتحقيق التقدم الانسانى اذا سلمنا فى النهاية بأن المادية العلمية ذاتها ما هى الا أساطير بأسمى معانى الكلمة • وليسمح لى مرة أخرى بابداء الأسباب التى حثتنى الى اعتبار الكيف الأخلاقى العلمى أسمى من الأخلاقيات التقليدية ، ان هذا يرجع الى انتصارات العلم المتوالية فى تفسير العالم الفزيائى ، والتحكم فيه ، والى طبيعته التى تساعده على الاعتماد على نفسه فى تصحيح أخطائه ، وترحيبه بجميع القادرين على الابتكار واجراء الاختبارات ، واستعداده لفحص جميع الموضوعات المقدسة ، وغيرها • وأخيرا لاننسى امكانية تفسير الدين بالرجوع الى نماذج ميكانيكية للبيولوجيا التطورية • والإنجاز الأخير

(*) Some say a cavalary corps — some infantry, again will maintain that the swift oars.

Of our fleet are the finest — sight on dark earth; but I say — that whatever one loves, is.

حافل بالاشكالات • فلو نجح اخضاع الدين وما يتضمن من ايديولوجيات دوجماطيقية دنيوية للتحليل المنهجى ، وتيسر تفسيره على أنه نتاج لتطور المخ • فان سلطانه كمصدر خارجى للأخلاق سيتلاشى الى الأبد ، ويصبح من المحتوم التغلب على المأزق الثانى كضرورة عملية •

وجوهر المادية العلمية هو الملحمة التطورية • وسأكرر مزاعمها فى ايجاز • انها تزعم أولا — أن قوانين العلوم الفزيائية متوافقة والعلوم البيولوجية والاجتماعية ، وبالاستطاعة الربط بين قوانين هذه العلوم جميعا فى سلاسل من التفسيرات العلية • **ثانيا** — ان للحياة والعقل أساسا فزيائيا • **ثالثا** — ان العالم كما نعرفه قد انحدر من عوالم أبكر تخضع لنفس القوانين • **رابعا** — ان العالم المرئى اليوم خاضع فى كل موضع لهذه التفسيرات المادية • وبالمقدور تدعيم هذه الملحمة الى غير حد تبعا لهذه النظرة ، وان تعذر برهنة أحكامها الكاسحة برهانا نهائيا قاطعا •

وفى نهاية المطاف ، فان ما أود الاشارة اليه هو أن الملحمة التطورية — كما يحتمل — أفضل أسطورة بوسعنا الحصول عليها • ومن الميسور ضبطها بحيث تقترب من الحقيقة بقدر ما يسمح به العقل الانسانى ، وتكوينه ، وقدرته على الحكم على الحقيقة • ولو صح هذا ، سيتعين حدوث التقاء بين احتياجات النزعة الاسطورية فى العقل — على نحو ما — ، وبين المادية العلمية على نحو ييسر اعادة استثمار أسمى طاقاتنا • وثمة وسائل لتحقيق هذا التحول — باخلاص — وبغير استعانة بالفكر الدوجماطيقى • واحدى هذه الوسائل هى انماء العلاقة بين العلوم الانسانية حتى تصبح أوثق وأرسخ • **ولقد قال عالم البيولوجيا البريطانى هالدين** J.B.S. Haldane **عن العلم والأدب : « انى شديد الاقتناع بأن العلم أكثر اثارة للخيال من الكلاسيكيات ، وان كانت هذه الاستثارات لا ترى النور عادة ، لأننا اذا نظرنا الى رجال العلم كفئة قائمة بذاتها ، سنرى أنهم محرومون من أية قدرة على ادراك الصيغ الأدبية » ••**
والحق ان أصل الكون وما يقال عن أنه بدأ بفرقعة هائلة منذ أكثر من خمسة عشر بليون سنة ، كما ذهب علماء الفلك والفزياء ، قد يعد أكثر اشعارا بالهيبة من الفصل الأول من الكتاب المقدس أو ملحمة نئوى لجيلجاميش • وعندما يستحضر العلماء الصورة الفزيائية ، التى كانت فى هذا الماضى الغابر ، بعد الاستعانة بالنظريات والمعادلات الرياضية ، فانهم سيتحدثون عن كل شىء • نعم عن كل شىء ، وعندما ينطلقون قدما فى المستقبل ، ويتحدثون عن ال pulser وال Supernouss ، وما يقال عن اصطدام « الثقوب السوداء » ، فانهم سيسبرون غور أبعاد فى

المستقبل ويكتشفون أسرارا لم تخطر ببال مخيلة ، الأجيـــال الغابرة ، ولعلك تذكر ما ذكر عما فعله الله عندما أنزل آياته على سيدنا أيوب فأوحى اليه بتصورات قصد بها أن يشعر العقل الانسانى بأنه مغلوب على أمره ٠

كلمات من هى تلك الكلمات الجهول
التى غمرت مخططاتى بالظلمات ؟ ٠
انصب قوامك ، وقف كواحد من الرجال
سأسأل أسئلة ، وعليك أن تجيب ٠٠٠
هل نزلت فى جوف البحر ، ورأيت ينابيعه
أو غصت فى الأعماق التى يتعذر الكشف عن سرها
وهل رأيت حراس أبواب أرض الظلمات ؟
وهل أمكنك ادراك مدى اتساع العالم ورحابته ؟
تعالى ! حدثنى عن كل هذا ، لو كنت تعرف ٠

نعم لقد أصبحنا نعرف ، ولقد بلغنـــا عن ذلك ، وامكن مواجهة تحديات يهووه ، وواصل العلماء سيرهم وكشفوا سر أعظم المعضلات ٠ لقد أصبحت القاعدة الفزيائية للحياة معروفة ٠ فنحن نعرف على وجه التقريب كيف ومتى بدأت على الأرض ٠ فلقد تم تخليق أنواع جديدة فى المعامل ، وأمكن تتبع التطور حتى فى المستوى الجزيئى ٠ وبالمقدور نقل الجنيات (المورثات) من نـــوع من الكائنات الى النوع الآخر ٠ ولقد توافرت لعلماء بيولوجيا الجزيئات أغلب المعلومات التى يحتـــاجون اليها لتخليق أشكال أولية من الحياة ٠ وتمكنت آلاتنا بعد أن استقرت فوق الكوكب مارس من تصوير مشاهد بانورامية ، ونقلها الينا ، واستطاعت الحصول على نتائج التحليل الكيمائى للتربة ٠ فهل كان بوسع أحد قبل ذلك تصور مثل هذه الأفعال ؟ وما زالت عملية الكشوف العلمية توالى انتصاراتها ٠

غير أنه مما يثير الدهشة أن تكون الثقافة الرفيعة للحضارة الغربية فى واد والعلوم الفزيائية فى واد آخر ٠ ففى الولايات المتحدة ، يعرف المثقفون بأنهم أولئك الذين يعملون تبعا للمعـــايير الســـائدة فى العلوم الاجتماعية والانسانيات ، والذين تبتعد نظراتهم عن أســـاليب الكيمياء والبيولوجيا ، وكأن أبنـــاء البشر ما زالوا ــ بمعنى ما ــ يتماثلون هم وأبناء « النومن » عند الرومان فى تأملهم لحقائق الفزياء ٠ وفى صفحات المجلات العلمية والثقافية فى نيويورك ، تغطى المقالات التى يفهم منها أن أغلب القواعد الأساسية للعلم ، قد تم الاهتداء اليها وتوقعها فى ابان

القرن التاسع عشر ، اذ تتألف مادتهـــا الى حد كبير من حشو ونوادر تاريخية ونظريات مقارنة فى السلوك البشرى أكل الدهر عليها وشرب ، وأحكام عن الأحداث الجارية خاضعة للايديولوجيات الشخصية • ويسعى الكتاب لبعث الحياة فيما يكتبون ، ويحاولون انعاش كتاباتهم بتقنيات الاثارة ، الممتعة والمحبطة معا • وما زال ينظر الى العلم الحديث على أنه مجرد نشاط عملى يرمى الى حل المشكلات ، ومجموعة من روائع التقنيات يمكن تقديرها باستخدام قيم أخلاقية من خارج العلم • حقا لقد خطأ الكثير من العلوم ذات النزعة الانسانية خارج نطاق المادية العلمية ، وقامت بالمشاركة بدور ثقافى بوصفها شاهدا متخصصا ــ حينا ــ وكممثلة لبعض الكتاب الملهمين فى حين آخر ، ولكنها عجزت فى الأغلب عن سد الثغرة بين عالم الحضارة وعالم الفيزياء المادية ، وباستثناءات قليلة ، فان من نهضوا بهذه المهمة ، لا يزيدون عن حفنة من العلماء المستأنسين ، ممن يتبعون شعار (اللى يجوز أمى أقول له يا عمى) ، أى يسيرون وراء آراء أولياء نعمتهم ، ويصفون أية حضارة غير حضارتهم بأنها همجية ، لم يكرمها الله بلغة يستطيع كتابها النطق بها • ولقد ساعد على الحط من شـأنهم الاسم الذى أطلـق عليهم ، والذى يتقبلونه عن طيب خاطر : Popularizers (مروجى الثقافة) ، ان قلائل من كبار الكتاب ، أى من أولئك الذين يجهدون أنفسهم بالتحرك الى أبعد المواضع التى بمقدور العقل الوصول اليها ، هم من يتجهون الى العلم الحق ، تبعـا لخصائصه • فهل هم على علم بطبيعة التحدى ؟

وقد تيسر الآن تحقيق هذا التحول المرغوب فى الانتباه ، وغدا أكثر سهولة ، بعد أن وقع العقل الانسانى فى شرك التفسيرات ، التى تتبع مبدأ العلية • وتحتاج كل ملحمة الى بطل ، والعقل قادر على النهوض بدور البطل • وحتى علماء الفلك ، الذين اعتادوا التفكير فيما يقرب من عشرة ملايين من المجرات ، ومسافات لا تقل كثيرا من اللانهائية • فان من واجبهم أن يقروا القول بأن العقل الانســانى هو أعقد جهاز عرفناه ، ويمثل مفترق طرق الأبحاث والاستقصاءات التى يقوم بها كل علم طبيعى رئيسى ، وسيضطر علماء الاجتماع والباحثون الانسانيون ــ ولا ننسى رجال اللاهوت ــ فى نهاية الأمر الى التنازل والرضاء بمصدر قيـام الطبيعانية العلميـة بتغيير أسس بحوثهم المنهجية ، عندما يعاد تحديد العملية الذهنية ذاتها •

لقد بدأت هذا الكلام بعرض الطبيعة الديالكتيكية ــ غالبا ــ للتقدم العلمى • اذ تتجاور الدراسات التى تقبل الانضواء فى نسق علمى ، هى

والدراسات التى تتعارض والنسق العلمى فى اعادة تنظيم ظواهر المادة الأولى بأن تردها الى قوانينها الأكثر أساسية • غير أن التوليفة الجديدة التى تستحدث فى تعاليم الدراسات التى تقبل الانضواء تحت النسق العلمى تغير تغييرا عميقا مادة النوع الآخر ، كلما ازداد التفاعل بينهما • ولقد أشرت الى أن علم الأحياء (البيولوجيا) ، وخصوصا علم البيولوجيا العصبية وعلم البيولوجيا الاجتماعية سيقومان بدور تلك التى لا تقبل الانضواء فى النسق العلمى ، فى العلوم الاجتماعية • وسأذهب الآن الى ما هو أبعد وأشير الى أن المادية العلمية المتجسمة فى البيولوجيا ستتمكن اعتمادا على اعادة فحصها للعقل وأسس السلوك الاجتماعى من القيام بدور المادة التى لا تقبل النسق العلمى للانسانيات ، ولن تحدث ثورة على غرار ثورة كونت ، ولن تخلق خلقا مفاجئا حضارة علمية بدائية • ان التحول ، أو هذه النقلة transation ستتم تدريجيا • ويتعين على العلم حتى يتمكن من طرق المشكلات المحورية للانسانيات ، بما فى ذلك الايديولوجية والمعتقدات الدينية أن يزداد ابتعادا على البساطة ، وأن يهيء بوجه خاص لتناول الملامح المميزة للبيولوجيا الانسانية ••

وآمل اذا تحقق مثل هذا الحل الوسط ، أن يحدث احساس حق بالادهاش ، يعاود اقتحام مشكلات الحضارة بأرحب معانيها ، فعلينا أن نتحدث بطريقة أكثر صراحة عن الأشياء التى نعرفها • اذ أن الملحمة التى تكتب عنها العلوم الطبيعية شذرات تكنولوجية ، ما زالت حافلة بالفجوات الواسعة وبالأسرار التى تدفعنا الى الاستغراق فى التأمل ، ليس أهونها شأنا ، الأساس الفزيائى للعقل • وتتشابه هذه الفجوات هى والمساحات البيضاء على خريطة أى عالم لم تكتشف بعض أجزائه ، اذ يستطاع تحديد حدودها على وجه التقريب • أما مقدار مساحتها فأمر لا يفلح فيه غير التخمين • وبمقدور العلماء والباحثين فى الانسانيات أن يفعلوا ما هو أفضل مما قاموا به ، اذا أفصحوا عن الأهداف العظيمة التى يتجه نحوها أهل العلم ، وكأنهم فى رحلة استكشاف • فثمة أشياء مجهولة تثير الدهشة فى انتظارهم ، تماما مثل الأشياء التى واجهت القدماء فى عهد الاندهاش الأولى ، عندما سار المكتشفون الأوربيون فى العهود الباكرة قدما ، واكتشفوا عوالم جديدة مثلما حدث عندما شاهد العلماء الأوائل ، الذين استخدموا الميكروسكوب البكتريا وهى تسبح على قطرات الماء • وكلما نمت المعرفة ، اضطر العلم اضطرارا متزايدا الى تنبيه الخيال للقيام بدوره •

سيقابل مثل هذا الرأى بالاعتراض بغير شك ، ويوصف بأنه يمثل آراء النخبة ، كبعض أولئك الذين يرون المشكلات الاقتصادية والاجتماعية هى المتحكمة فى كل مكان • وهناك جانب من الحقيقة فى هذا الاعتراض • فهل هناك ما يهم اذا كان الناس يجوعون فى الساحل والهند ، ويصابون بالأوبئة والعفن فى سجون الأرجنتين والاتحاد السوفيتى ؟ وللاجابة عن ذلك بوسعنا أن نتساءل هل نحن نود أن نعرف معرفة عميقة تناسب كل زمان لماذا نبالى بهذه المسائل ؟ • وعندما تحل هذه المشكلات فما الذى سيجرى بعد ذلك ؟ ان الغاية المطروحة لجميع الحكومات فى كل مكان هى تحقيق ما يتوق اليه البشر على نحو يفوق ــ بمعنى ما ــ البقاء الحيوانى • لقد كانت الأهداف ذات الأولوية الكبرى فى جميع الثورات الاشتراكية ، بعد تمجيدها للثورة والاشادة بها هى التعليم والعلم والتكنولوجيا • واذا جمعنا بينها فاننا سنعود عودة متزمتة الى المأزق الثانى •

وسيرفض هذه النظرة ، ربما باصرار أكبر ، أولئك الذين يتحقق اشباع احتياجاتهم الوجدانيــة عن طريق تقــاليد الأنظمــة الدينيــة • وسيزعمون أن الله والكنيسة لا يمكن استبعادهما واحــلال أســاطير منافسة ، قائمة على العلم محلهما • وسيكون الصواب فى جانبهم • ان الله سيظل من الفروض الحيوية ، بوصفه المحرك الأول • كما أن طقوس الدين ، وبخاصة طقوس ال passage وتقديس الوطن ، لها جذور ممتدة • وتضم بعضا من أعظم المكونات السامية للحضارات القائمة • وستستمر ــ بالتأكيد ــ تمارس حتى بعد الكشف عن أصلها • وتكفى خشية الموت وحدها كضمان لاستمرارهــا فى البقــاء • ومن التغطرس القول بأن الايمان باله شخصى أخلاقى سيختفى • كما أنه من التهور التنبؤ بالشكل الذى ستتخذه الطقوس عندما تتوافر للمــادية العلمية الطاقات المستندة الى الأساطير الحديثة التى تمجد العلم ، وتسخيرهــا لغايتها •

وأيضا ، لست أتخيل قيام التعميمات العلمية باحتلال المكانة التى يحتلها الفن ، أو القيام بأى شىء آخر أكثر من الدور المكمل ، الذى يساعد على النهوض بالفن ، ان الفنان ــ وتضم كلمة فنان عندى الكاتب الخلاق ــ يوصل تجاربه ورؤياه وخبراته الأكثر خصــوصية على نحو مباشر ، من اختياره ، يدفع المتلقين لقبولها بعد أن تستولى على ألبــابهم ووجدانهم ، وبمقدور العلم أن يأمل فى تفسير ما يفعله الفنانون والعبقرية الفنية ، وربما الفن أيضــا • وسيظل العلم يعتمــد على الفن للتعرف على خفايا السلوك البشرى • ولكن العلم ليس مصمما بحيث تتوافر له القدرة على توصيل التجربة على المستوى الشــخصى ، أو لاعادة تكوين أو تركيب

التجربة فى أكمل ثرائها بالاستعانة بالقوانين والمبادىء التى تعد أول شىء يتركز عليه الاهتمام العلمى بحكم تعريفه ·

وفوق كل شىء ، فلسنت أرمى الى الايعاز بامكان احتلال الطبيعانية العلمية كصيغة بديلة للدين ، وأنظمته · ان استدلالاتى تتبع اتباعا مباشرا النزعة الانسانية (الهيومانية) لأمثـال هكسلى ووديـنجتـون ومونود وكاثيل (*) وآخرين ، الذين خاطروا بمواجهة هذه الغرغورة (**) ، وجها لوجه · وقد حققوا أقل مما ابتغوا · ويرجع ذلك فى اعتقادى الى سبب واحد أو سببين · فهم اما رفضوا الايمان الدينى ووصمـوه بأنه اتجاه صبيانى ، أو أوصوا باقصائه فى مكان رقيق من العقل ، يحيا فيه ، كما يفعل بيض السمك ، بمعزل عن التيار الرئيسى لاتجاهات الفكر · وفى ظنى أن أعظم أثر ملحوظ سيكون ازدياد التخصص الدقيق للتـاريخ · ولقد كان من بين أعظم أحلام أصحاب النظريات الاجتماعية (كفيكو وماركس واسبنسر واشبنجلر وتيجارت وتوينبى) وغيرهم من المجددين الاهتداء الى قوانين للتاريخ قادرة على التنبؤ ببعض أشياء عن مستقبل البشرية · ولم تتمخض جهودهم عن تحقيق الشىء الكثير ، لأن فهمهم للطبيعة البشرية لم يستند على أسس علمية · اذ كانت أنساقهم على درجة بعيدة عن الاتصاف بالدقة ، اذا استعملنا تعبيرا مستحبا فى التقارير العلمية · وظلت اليد الخفية ، التى قيل أنها تحرك الأحداث التاريخية على حالها ، أى خفيــة ، أما الأفعال الاجمالية لآلاف أو ملايين من الأفراد أو الكائنات البشرية ، والتى فهمت فهما هزيلا ، فلم تحتسب احتسابا دقيقا · والآن قد ظهر ما يبرر اتباع النظرة القائلة بانطلاق حضارة أى مجتمع فى مسار أو آخر من المسارات التطورية ، وان انتظام المسار انتظاما كاملا مرهون بالقواعد الوراثية للطبيعة البشرية ، وبينما يعد هذا الانتظام مشتتا على نطـاق واسع من وجهة النظر المتمركزة حول الانسان ، الا أن هذا المسار مازال يمثل شيئا أشبه بمسار ثانوى بالنسبة للمسارات الممكنة فى غياب أى قيد يرجع الى العوامل الوراثية ·

وكلما نمت معرفتنا بالطبيعة البشرية ، واتجهنا لاختيار أنساق من القيم تبعا لأسس أكثر موضوعية ، واستطعنا فى نهاية المطاف أن نجعل عقولنا مسايرة لقلوبنا ، فان فئات المسارات سـتزداد ضيقا · ونحن

(★) وودينجتون (وليم هنرى ١٨٢٦ – ١٨٦٤) عالم اثرى ومن رجال الدولة · اما كاثيل (جيمس ماكين ١٨٦٠ – ١٩٤٢) فعالم اثرى ·

(★★) الغرغورة أسطورة تزعم ان غرغور كان له وجه قبيح يصيب كل من يراه بالشلل العام ·

نعرف بالفعل أن عالم وليم جرهام سامر الداروينى الاجتماعى ، الشديد التمسك بالداروينية ، وعالم ميكائيل باكونين الفوضوى مستحيلان من الناحية البيولوجية (مع الاكتفاء بالاستشهاد بمثلين متطرفين متقابلين) . وبازدياد نضج العلوم الاجتماعية ، وتحولها الى علوم قادرة على التنبؤ ، فان المسارات المباحة لن تتعرض للنقصان وحسب ، من حيث عددها ، ولكنها ستصل الى حد يتيح لأخلافنا الرؤية الى ما هو أبعد .

وفى أعقاب ذلك ، ستواجه البشرية المأزق الروحى الثالث ، وربما كان المأزق الحاسم . ان علم الوراثه الانسانية يرتقى الآن ارتقاء سريعا ، الى جانب جميع فروع العلم . وبمرور الزمان ، سيتراكم الكثير من المعرفة بأسس توارث السلوك الاجتماعى . وسيتيسر الحصول على تقنيات لتعديل مركبات الموروثات بالاستعانه بالهندسة الجزيئية ، والانتخاب السريع بوساطة Cloning . وعلى أقل تقدير سيصبح التغير التطورى البطىء مجديا من خلال وسائل التحكم فى الوراثة التقليدية ، أى سيكون باستطاعة الأنواع الانسانية تغيير طبيعتها . فما الذى ينتظر أن تختار ، هل تظل هى هى ، أى تتأرجح على أسس هشة ، بعضها قد صنع للتكيف وعصر جليدى ؟ أم أنها ستتجه الى التركيز على زيادة الارتقاء بالعقل والسلوك المصحوب بقدرة أعظم على الاستجابة الوجدانية ، وربما قدرة أقل على ذلك ؟ من الميسور اقامة أنماط جديدة من التجمعات الاجتماعية (بالقطاعى) وقد يكون من الميسور المحاكاة التقريبية من ناحية الوراثيات للعائلة النووية الكاملة لقرود الجيبون المعروفة بأياديها البيضاء ، أو للأخوات المتوافقات عند نحل العسل . غير أننا نتحدث هنا عن جوهر البشرية . فلعل هناك شيئا ما موجودا بالفعل فى طبيعتنا البشرية سيحول بيننا وبين القيام بمثل هذه التغيرات . وعلى أية حال ، ولحسن الحظ ، فان هذا المأزق لا يواجهنا ، نحن أبناء العصر الحاضر ، ولكنه سيواجه الأجيال اللاحقة .

ان الكتاب المحدثين تحدوهم الرغبة فى اثراء الملحمة التطورية يلجأون الى استحضار الأبطال الأسطوريين لتصوير ما الذى سيحل بالبشر ، ومن أمثلة هؤلاء الأبطال سيسفوس ، الذى حول القدر الى وسيلة التعبير الوحيدة الميسورة له ، وأرجونا المتردد ، الذى وقع فى صراع مع ضميره فى ميدان الفضيلة وباندورا المهلكة التى تسببت فى الوجود الفانى للكائنات البشرية ، وأطلس خادم الأرض الفانية ، الذى لا يشكو قط . وابتعد بروميثيوس نوعا عن الاتجاه الشائع فى السنوات الحديثة العهد التى تدعو الى مراعاة محدودية الموارد ، ووجوب اتباع الحصافة فى الادارة

والتدبير ، ولكن علينا أن لا نفقد الايمان ببروميثيوس ، وليتك تصحبني لحظة الى الأصل أى الى بروميثيوس الأشيلي :

الكورس : لعلك قد ذهبت الى أبعد مما أخبرتنا ؟ ٠

بروميثيوس : لقد دفعت الفانين الى التوقف عن التنبؤ بالدينونة ، أو الهلاك الأبدى ٠

الكورس : وما هو الدواء الذي وصفته لهم ضد مثل هذا المرض ؟

بروميثيوس : لقد وضعت فى داخلهم آمالا عمياء ٠

وتعنى الروح البروميثية الحقة للعلم تحرير الانسان ، بمنحه المعرفة وقدرا من السيطرة على البيئة الفيزيائية ، ولكن فى مستوى آخر ، وفى عصر جديد ، فانها قد أنشأت أسطورة المادية العلمية ، التى تسترشد بالوسائل التصحيحية للمنهج العلمى الموجه بدقة ، وباستهواء مقصود لأعمق احتياجات الطبيعة البشرية ، وما يساعد على الحفاظ على بقائها قوية هو الآمال العمياء التى توحى لها بأن الرحلة التى شرعنا فى ابحارها ستكون بعيدة وأفضل من الرحلة التى انتهينا منها فى التو ٠

وهم البيولوجيا الاجتماعية ٠٠ بقلم ستيوارت نيوتن هامشير ٠

[ستيوارت نيوتن هامشير (١٩١٤ —) عميد احدى كليات جامعة اكسفورد فى انجلترا ٠ شغل وظيفة أستاذ الفلسفة فى جامعة برنستون من ١٩٦٣ حتى ١٩٧٠ ٠ وتتضمن مؤلفاته :

1. Thought and Action.
2. Freedom of Mind and other Essays.
3. Modern Writers and other Essays.
4. Two Theories of Morality.

يرتد الجمع بين تصورات البيولوجيا والفلسفة « والنظرة الجامعة » Weltanschauung الى القرن الماضى ٠ ويعد كونت وهربرت اسبنسر هما الرائدين المؤسسين لهذه الحركة ، ويرجع وصفهما بالمؤسسين الى أن أعمالهما لم تعد تقرأ الى حد كبير ٠ ويعى الأستاذ ويلسون تماما أن ما كتبه يرجع الى هذا التقليد ، كما يعى الأخطار ومواطن الخداع الكامنة به ، خصوصا الخطر الناجم من أن خواطر الأمس العلمية تتحول الى جثة عفنة بعد كشوف اليوم ٠ فلا غرو اذا تعرضوا الى الاغراب ، وحملتهم أحلامهم

(*) نقلا عن مجلة The New York Review of Books
مقال Stuart Newton Hampshire.

الى مستقبل علمي ذهبي ، وراحت السكرة وجاءت الفـــكرة ، وتبين أن ما حدث كان بعيد الاختلاف عن ذلك ·

وكتاب جاك مونود Chance and Necessity هو السلف المباشر لكتاب ويلسون · وقد أفاد في احداث دوى وشيء من الاثارة · ولقد ذكر الأستاذ ويلسون آل هكسلي وودينجتون C. H. Waddington أيضـا · فلقد أهاب الجميع بالفلاسفة الأخلاقيين والسياسيين لكى يوجهوا الاهتمام المناسب بنظرية التطور والانتخاب الطبيعي ، ونادوا ــ بخاصة ــ بتكييف قيمهم الأخلاقية حتى تناظر احتياجات الجنس البشرى ، التى يمكن التحقق منها علميا · واتهموا جميعا الفلاسفة والانسانيين ــ على اختلاف مشاربهم ــ لأنهم تجاهلوا بلا مبرر ما يؤثر في الطبيعة البشرية ، وما يشكلها ، كما اتهموهم بالسذاجة ــ عن طيب خاطر ــ لما أقاموا من طقوس وأساطير معلقة في الهواء · وتشابه هؤلاء الفلاسفة هم والكهنة ، بعد أن ظنوا أنهم قد انحدروا من صلبهم ، وحلوا محلهم · فقد اتهم الجانبين على الســواء بادارة ظهورهم لبعض الحقائق المؤكدة حتى يتمكنوا من الشعور بالسلوى والارتياح جزاء ما اخترعوا من أخلاقيات ·

لقد ذكر الأستاذ ويلسون جميع هذه الأشياء فى كتابه الجديد (*) ، وانما بحرص أشد ، مع زيادة فى التخصص · فهو لم يهمل الفلســفة بمعناها الأكاديمي ، كما أدرك ماهية الحدود التى يحتمل أن يقف عندها الفلاسفة عندما يستخلصون من النظريات العلمية ما يناسب الاحتياجات الأخلاقية · وكان أقل اتصافا بالدوجماطيقية ، وأقل من مونود وثوقا من التاريخ من النتائج التى اهتدى اليها ·

واذا أوجزنا ما ذكره فى اقتضاب سنرى أن حجته تتلخص فيمـــا يأتى : اننا بحاجة الآن الى دراسة جديدة تدعى بالبيولوجيا الاجتماعية ، تبين ما بين البيولوجيا فى جميع فروعها النامية حديثا وبين العـــلوم الاجتماعية من اتصال · وستبحث هذه الدراسة الجديدة القيود التى تحد من الآراء المتاحة لنا ، عندما نرغب النهوض بأساليب الحيــاة والأنظمة الاجتماعية · وثمة ثوابت fixites فى الطبيعة البشرية ، كما توجد أيضا نقاط تقبل التشكيل على أنحاء مختلفة ، ومتغيرات قد لا نكون على علم بها · وهناك الكثير من المصادر فى نطاق البيولوجيا التى بمقدورها أن تقدم لنا أدلة عن هذه القيود ، كدراسة السلوك البدائى primate ، ودراسة فسيولوجية المخ ، ودراسة التواءم المتماثلة ، ونظريات التعلم ،

(*) On Human Nature (هارفارد ١٩٧٨) ضمن مقالات اخرى ·

واهم من كل ذلك الدراسات التى تجرى فى مورثات الصفات والقدرات ، والأساس الفزيائى لانتقالها من جيل لآخر ٠

ويشير الأستاذ ويلسون الى بعض أعمال حديثة وجارية فى هذه المجالات ، وترتكن معظم حججه الى نبوءات بما يتوقع من تطورات مستقبلية فى هذه العلوم المزدهرة ، ويعتقد أن على هذه العلوم أن تزود ـ مستقبلا ـ بالخلفية التفسيرية للمعرفة المتراكمة فى العلوم الاجتماعية ٠ وفى ظنى ، أنه يقصد بالعلم الاجتماعى الأنثروبولوجيا وعلم الأجتمـــاع ، بصـفة خاصة ٠ ويستشهد ـ فى تحرز ـ بعلماء الأنثروبولوجيا الاجتماعيـــة عندما يصور الثوابت المفترضـــة فى دور الذكور ودور الاناث وعادات الطقوس الدينية ٠ ويستنتج وجود أساس موروث فى هذه الجوانب ، وأنه بالمقدور إدراك كيف تستطيع أن تضفى ميزة طبيعية على بنى البشر الذين يؤلفون جماعات اجتماعية ٠ ويقصد بالميزة الاجتماعية المعنى البيولوجى الذى يتمثل فيما يطرأ على الأفراد من تكيف ، يساعد على استمرارهم فى البقاء ، وان كان لا يترتب على ذلك بالضرورة استمرار بقـــاء أصحاب الامتياز من هؤلاء الأفراد ٠ وبالاستطاعة النظر الى الرابطة الجنسية كعملية تخضع للانتخاب الطبيعى لتحقيق الارتباط بين الذكر والأنثى ٠ وليس من شك فى أن الاعتقاد بأن الجماع الجنسى قد صمم أساسا من أجل التكاثر فحسب ، كمــا يذهب أصحاب فكرة القانون الطبيعى فى الكنيســـة الكاثوليكية يعد بيولوجيا رديئة ، لأنها تعنى أن البيولوجيا هى التى تصحح النظرية الأخلاقية والاجتماعية ٠ " "

ويتجنب الأستاذ ويلسون ـ وهذه الظاهرة حميدة عنده ـ الأخطـاء المعروفة جيدا عن استدلال سلوك الانسان من سلوك الكائنات الأولية ٠ ويتجنب استعمال تصـــورات مثل العـدوان والاقليمية territoriality فى مثل هذه الاستدلالات ، ويلاحظ عـدم وجود دليـل على قيام غريزة عدوانية واحدة شائعة ٠ ويستبعد المزاعم المألوفة فى الكتب الجماهيرية عن البيولوجيا الدارجة ، والتى ترى أن أبناء البشر يتفردون باستعداداتهم المدمرة فى نطاق جنسهم ، وأنه بالمقدور تفسير استمرار الحروب والمشاحنات الأهلية كنوع من الدفاع عن الأرض ، كما هو معروف عند بعض الأجناس ٠ ولم يحاول الرجوع الى أية صورة من الصور المتنوعة للداروينية الاجتماعية المبسطة ٠

وقوام النظرية التى ساعدت على التئام حجته هو القول بأن المورثات تضع حدودا ، للنطاق الذى يتعين على الحضارة أن تنمو فيه كتقليـــد اجتماعى لم يختبر ، وكذلك كعقيدة واعية ٠ وأحيانا تبدو السمة الحضارية أشبه بزيادة فى التضخم ، أو تضخما يصاب به أحد الميول الموجودة من

الناحية الفزيائية · وفى أحيان أخرى ، تنمو الحضارة عن طريق تقـديم تنويعات لفكرة محددة فزيائيا · فمثلا الاتجاه الى تعدد الزوجات ، أى معاشرة الذكر لأكثر من أنثى ـ من المحتمل أن يكون له أساس فيزيائى موروث ، وأن يكون قد ساعد على منح النوع الانسانى ميزة طبيعية · غير أن الأشكال التى يتخذها كتعدد الأزواج والاكتفـاء بالزوج الواحـد والمحظيات ، وتعدد الزيجات والطلاق ربما تنوعت واتخـذت أشكالا لا حصر لها ·

بل ويتوهم الأستاذ ويلسون أن هنـاك حاجة موروثة فى التلاعب بالمورثات genes ، كما يتوهم وجود نوع من الاحترام للمقدسات ، وأن هذه الحاجة عندما تنتقل من جيـل لآخر عن طريق فزيائى ، وليس حضاريا ، فانها تضع حدودا لامكانات التنور العلمى البحت ، كأساس للتماسك الاجتماعى·كما تؤدى ـ كما يحتمل ـ الحاجة المتوارثة الى الترابط بين الزوجين ، والروابط الزوجية الى تعذر قيام حياة مثالية جماعية من الناحية العملية ـ على حد قول ويلسون· بيد أن هناك حاجة موروثة الى اضفاء القداسة Sacralization ، قد تكون مصـحوبة بأساطير ، وتشترك فى بنية التكوين البشرى ، وأثبت ذلك الاختبار الذى استمر طويلا ، على المميزات المنتقاه عند بعض العشائر الذين استطاعوا الحفـاظ على تماسكهم الاجتماعى طيلة أجيال عديدة ، مما أثبت قيمة « المقدسات » كوسيلة لتحقيق هذا التماسك الاجتماعى ·

ويخص الافتراض موضع الخلاف هنا وسيلة نقل هـذه الثوابت البشرية المفترضة أكثر مما يخص الثوابت ذاتها · اذ يفرق الأسـتاذ ويلسون بين الصفات الانسانية ، التى تم انتخابها انتخابا طبيعيا باعتبارها تضفى ميزة على الأخلاف ، والتى انتقلت فيزيائيا لهذا السبب من خلال أبناء العشيرة ، وبين الصفات الانسانية التى تنتقل من خلال العـادات الاجتماعية النوعية · ويحاجى ويلسون ويقول أن هنـاك ميلا فزيائيـا موروثا عنـد البشر يحثهم على التوافق واحترام العـادات الاجتمـاعية ، أيا كانت هذه العادات ·

وجوهر مزاعم ويلسون هو الظن أن هناك ثوابت بشرية معترف بها ، أكثر ممايعتقد بوجه عام ، وأنها تخضـع لمؤثرات فزيائية وليسـت اجتماعية · ويقف وراء هذه الدعوى زعم فلسـفى ، لم تتحدد معالمه كاملة ، وان كان يفهم ضمنا ، وطرح مرة أو مرتين · ومؤدى هذا الزعم أن الفكر والايمان والعـاطفة وكل مكونات الحضـارة ظواهر لاحقـة epiphenomenalism فىالطبيعة البشرية ، أى أن الطبيعة البشرية فى المقام الأول تعتمد في تكوينها علي نقل مورثات تشـتمل على برنامج

للسلوك البشرى • وهذا البرنامج يتمتع بقدر من اللاحتمية ، التى تساعد على ترك باب الاختيار مفتوحا •

ويقر ويلسون أن العملية السابقة للبرمجة خالية من التخصصات بالمقارنة بالعمليات السابقة للبرمجة عنـــد الأنواع الأخرى ، وأن اللحاء والمخ البشرى فى جملته ، (بقـــدر ما نعلم) آلة معقـدة فذة ، مصممة كنتيجة للانتخاب الطبيعى لتسجيل أنواع هائلة من المنبهات والاستجابة لها • وتحتوى على أنواع هائلة من أنماط السلوك ، وأكثر من ذلك ، فان المخ البشرى قد أصبح مكيفا الآن ليس فقط من أجل تعلم اللغات وانما أيضا لمتابعة المعرفة الى غير حد ، وهذه الميول المتضمنة فى بنية المخ تؤدى الى مسالك مركبة ومعقدة • لا يمكن حسابها ، حتى اجمالا • أما السؤال الخاص بهل هناك معنى لوجوب افتراض خضوع الاســـتجابات البشرية المتعددة المتنوعة للحتم ، حتى وان كان من المحتمل أن تكون مركبة على نحو يصعب حسابه ، فقد آثر ويلسون ـ بحكمته ـ أن يتركه جانبا •

ولقد استنتج الأستاذ ويلسون ـ بطبيعة الحال ـ أننا أصبحنا الآن قادرين على تطبيق معرفة الامكانات والتحديدات البيولوجية ، التى تسنى لنا الحصول عليها ، على عمليات التخطيط الاجتمـاعى الأكثر عقلانية • وعنوان فصل كتابه الأخير هو « الأمل » • ويمثل تطبيق البيولوجيا على العلم الاجتماعى ، وبذلك يكون التخطيط هو هذا « الأمل المنشود » •

وذكر ويلسون أن البشر قد ورثوا ميولا أسطورية شعرية mythopoe تدفعهم الى التعلق بالأساطير ، وأن هذه الميول قد ساعدتهم على خير وجه فى الأحوال البدائية ، ويعتقد أن المادية العلمية فى ذاتها لن تتميز بخصب كاف يساعدها على شغل مكان الدين ، والقيام بدور الأسمنت الاجتماعى ، الذى يربط الأفراد برباط متين ، ويرى أن ما سماه « الملحمة التطورية » هو أفضل أسطورة يمكن أن تتوافر لنا لتحقيق هذه الغــــاية • ومن الميسور ضبطها على نحو يقربها من الحقيقة ، بقدر ما بوسع العقل الانسانى تحقيقه فى هذا السبيل ، واذا تجاوزنا عن هذه الجملة الأخيرة ، وما فيها من غاية أقرب الى الغموض ، فاننا سنكون قادرين على الاستماع مرة أخرى ، الى الطنين المستمر للتفاؤل العلمى ، والذى ظهر فى صورته الكلاسيكية الأولى فى كتاب كوندورســـيه Esquisse d'un tableau historique des progrès de l'esprit humain.

وسوف تعد هذه الخلاصة المجردة للحجة بعيدة عن الانصاف اذا لم تترك انطباعا بما فى عرض ويلسون من معقولية عند كلامه عن الحاجة الى

التنور العلمى ، وبما فيه من حذر التزم به عندما تجنب المشكلات الكامنة وراء قضية الاختيار والحتمية · ولكن ومع هذا فســـتظل حجة الكتاب والفرضيات الفلسفية الكامنة وراءها تتصف باساءة تصورها وخطأها ·

ومن بين الأسباب التى دفعتنى الى عدم اقرار النظرية المادية العلمية لويلسون أنها عجزت عن الاتصاف بالنزعة المادية بالقدر الكافى : فمثلا فى الفصل الخاص بالدين يتساءل : « هل يعد الاســـتعداد لتقبل الايمان بالعقيدة قاعدة تعلمية تستند الى أساس عصبى ، وتطورت بفضل الانتقاء الذى أجرته العشائر المتنافسة ؟ · وفى ظنى ، ليس لتصور « تقبل الايمان بالعقيدة » أى موضع فى العلم الفزيائى · كما أن هناك عددا هائلا من الغوامض تختبىء وراء عبارة « لها أساس عصبى » · فما يتقبله أحد الناس كعقيدة ، يتقبله آخر عن طريق التعلم · وجوهر الاختلاف بين الحالتين يستند الى تقييمهما للقضايا المتعلمة ، وهل اعتمد هذا التقييم على أساس فزيائى مختلف ؟ · أم أن العقل لديه استعداد خاص لذلك · فبوسعنا أن نتصور أن قواعد التعلم مبرمجة فسيولوجيا للمشاركة فى عمليات قليلة من التعلق عن طريق تقديس شىء ما ، ولكن هذا التعلق ليس تصورا يمكن مواءمته ونظرية فزيائية بالذات ، ولربما رجع ذلك الى سبب أوحد وهو عدم وجود معيار أو اختبار يفى بالغرض لتحديد هل تعد عملية التعلق عن طريق التقديس عمليـــة يمكن العثور عليها اعتمـــادا على مشاهدة السلوك ؟ ، فالفكر الذى تقوم به الذات ضرورى ، للتفرقة بين ما يبث فى النفس من عقائد ، وبين العمليات التعليمية ·

وثمة مثل آخر للصفة الموروثة طرحه الأستاذ ويلسون ، ويساعد على التعريف بحالة مباينة · انها الاستعدادات المتضـــمنة فى عمليات التنافس بين الذكور من أجل الهيمنة على الجماعة ، والاعتراف بنسبة ذلك الى الذكر المسيطر الذى تخضع له الجماعة · وباعتبار هذه المسائل متحررة من القيم ، ولها معايير سلوكية ، فانه من الميسور الكشف عنها على نحو ييسر مشاهدتها ، واختبارها بالتجربة أيضا · اذ قد تكفى المشـــاهدة المقتدرة بغير التجاء الى مقولة اللاحتمية لبيان هل وجد هذا الاستعداد أم لم يوجد ، ومن هنا تعد سيطرة الذكور تصورا يمكن ادراجه تحت النظرة العلمية ، بغير وقوع فى اللبس أو اتباع لمبدأ اللاحتمية ·

وأما أين يمكن اقامة الحد على وجه الدقة بين ما يقبل المشاهدة ، وما لا يقبل المشاهدة أو الاختبار فموضع خلاف ونقاش ، وان كان ذلك ضمن حدود ، وبالاستطاعة قبول تعاريف صارمة نوعا ومقيدة نوعا لمختلف الأغراض ولمختلف العلوم · وبالمثل فان ما يعـــد فكرا يختلف من حالة

لأخرى ، وان كان هذا ضمن حدود أيضا . والاعتراض الذى أسوقه ضد نوع المادية العلمية ، الذى جاء به الأستاذ ويلسون ــ كما سماها ــ ليس اعتراضا منهجيا ، كما أنه ليس من المسائل التقنية فى فلسفة العلم . وأيضا ، انه ليس اعتراضا من النوع الذى يركز عليه الفلاسفة التجريبيون فى أيامنا هذه أكثر من الفلاسفة العقلانيين . انه مشكلة أكثر عمومية ، احتلت مكانة محورية منذ القرن السابع عشر . ولا يمكن أن يفهم الاعتراض على البيولوجيا الاجتماعية ، وامكانيتها كعلم ، الا اذا وضحت هذه المشكلة .

وتشابه ويلسون وأغلب الناس الذين يتبعون عادات المفهومية الدارجة Common sense الوطيدة للفكر فى نهاية المطاف ، والذين يهذبون المفهومية بما يطعمونها به مما يعشقون من علوم طبيعية . وويلسون من أنصار المذهب التفاعلى ، أى الذين يعتقدون فى امكان وجود قوانين طبيعية تساعد على تفسير الحالات الذهنية عن طريق الحالات الجسمانية والعكس بالعكس . وان كانت « تفاعليته » قد اتخذت مظهرا جعله يظن أنه من الماديين ، لأنه اعتقد أيضا أن سيطرة العلل الفزيائية فى التفاعل بين العقل والجسم لم تفهم حتى الآن .

وهذا يبين لماذا تحدث عن الفكر والحضارة باعتبارهما ظواهر لاحقة epiphenomena ، من ناحية علاقتيهما بالعلل الفزيائية الفعالة فى الوراثة . وتعد هذه النظرة التى رأت وجود اعتماد علمى قائم بين الجسم والعقل هى الاجابة المتوقعة لتصور المفهومية الدارجة للنجاح المتزايد للعلوم الفزيائية . ومع هذا فانى أعتقد أن هذه النظرية ، اذا فهمت جميع متضمناتها كاملا ، سيتضح أنها أقرب الى مأوى فى منتصف الطريق أو حلا وسطا فعالا . ولن يتسبب ما فيها من لا تماسك مضمر جاء من كونها حلا وسطا ، فى حدوث أية متاعب ، بل وقد لا يلحظ الا فيما ندر ، الى أن يتقدم مفكر فعلى ، أو عالم أو فيلسوف بمشروع نظرى مثل البيولوجيا الاجتماعية .

وسنرى أن ما فيها من تماسك سيتصاعد الى السطح بمجرد نظرنا اليها كفكر نسقى . نعم ليس من الصعب أن نتحدث حديثا موفقا عن الخلل السيكلوجى فى المورثات النفسية ، والأمراض السيكوزوماتيكية لبيان العلاقات المنتظمة بين ما هو فزيائى وما هو ذهنى ، بعد ملاحظتنا للتجربة العادية ، مادمنا نطالب بأى تفسيرات نسقية لهذه الظواهر . وبوصفنا من أنصار التفاعلية ، الذين لا يتشككون فيها ، ومن العمليين ، فاننا عندما نشعر بأى اضطراب فى الفكر ، يدفعنا الى الشعور بالخجل ، فاننا سندرك

وجود علاقة متبادلة بين فكرنا والآثار الفزيائية ، واضحة ، لأننـــا اذا تناولنا مهدئا سنشعر فى التو بأن أفكارنا قد ازدادت رصانة • ان هذا المستوى من المعرفة بالروابط العلية بين العقل والمادة يتشابه تشابها كبيرا والمعرفة التجريبية للعلل ، التى يسرت لمعظمنا التعامل والأشياء الفزيائية دون معرفة للقوانين الآلية التى بمقدورها تفسير ردود فعل هذه الأشياء • غير أننا اذا أردنا الالتزام بالجدية فى أبحاثنا سيكون الأفضل لنا حينئذ البحث عن مهندس يعرف شيئا ما عن هذه الآليات والنظرية الفزيائية • فعلينا أن لا ننسى أن « البيولوجيا الاجتماعية » قد قصد بها أن تكون علما ، وليس مجرد قائمة غير مفسرة من العلاقات العلية النافعة •

ويحتمل أن يكون أفضل توضيـــيح لما ظهر من تفـكك فى مشروع الأستاذ ويلسون للبيولوجيا الاجتماعية قد جاء فى المثـــل الذى ضربه ديكارت ، الذى لم يك يقينا من أنصار مذهب الظواهر اللاحقة ، بالمعنى الذى قصده ويلسون ، ولكنه استطاع أن يتنبأ بالمشكلة الأساسية ، التى تظهر فى أى مذهب فزيائى يتبع التفـــكير بطريقة المفهومية الدارجـة Common sense فكل حركة فزيائية ، سواء أكانت على المســـتوى الفلكى أو على المستوى الذرى يجب أن تقبل التفسير تبعا للقوانين الكلية للحركة ، التى يعبر عنها بلغة الكم ، ويتعين أن ترتبط هذه القوانين ذاتها على نحـو مفهـوم بنظرية نسقية واحـدة • وتنطبق هـذه الاحتياجات على حركات الجسم الانسانى وأطرافه ، بنفس مقدار امكان تطبيقها على أى شيء بالمقدور مشاهدته ، ومن ثم فعندما أقوم بالتنزه فى الطريق ، وألوح لصديق بالتحية فيجب أن تتقبل هذه الحركات المشاهدة تفســـيرا كاملا تتوافر له الدقة المطلوبة ، فى نطـــاق الفزياء ، وبالرجـوع الى الشروط المبدئية المعبر عنها بلغة الفزياء •

وعندما يتبع التفسير الوافى مفهوم لغة القانون ، ويصلح للتفسير النسقى ، ويصبح موضع تساؤل ، فان التغيرات الفزيائية لا يمكن أن تفسر الا بالرجوع الى التغيرات الفزيائية • ولن يكون بمقـــدور القوى الروحية اقحام نفسها من الخارج ، ـ ان جاز مثل هذا القول ـ فى شيء أشبه بالمعجزة • يكفينا هذا عما طالب به ديكارت العـــلوم الفزيائية • وبالمثل ، ومن ناحية أخرى ، فان للفكر روابطه وموصوليته • وهى روابط تختلف تماما عن روابط الأشياء الممتدة فى المكان ، ولكى يتحقق تفسير أية فكرة تفسيرا كافيا ، يكفى الربط بينها وبين أية فكرة أخرى تبعـــا للقوانين الكلية للفكر ، ولا يخفى وجود روابط علية أكثر تراخيا ، معروفة تماما على المستوى التجريبى ، بين حالات الجسم وحالات العقل ، وتتضمن

الأفكار ، ونحن نستعمل هذه المعرفة التجريبية فى حياتنا اليومية ، ولكنها ليست المعرفة التى يتوافر لها بناء العلم ، وتنظيمه ٠

لقد كان ديكارت «ثنائيا» ، بمعنى أنه تصور العالم المخلوق منقسما الى قسمين متقومين بذاتهما : (١) نطاق يضم الأشياء القائمة فى المكان ، (٢) نطاق الأفكار ٠ ويلتقى النطاقان فى الشخصية الانسانية ، ويمثل الأستاذ ويلسون فى مخططه للبيولوجيا الاجتماعية الفكر كما يشارك فى الحضارة والعادات الاجتماعية ، ويراه ــ من ناحية ــ يقبل التفسير العلمى اعتمادا على المحتمات determinant الفزيائية ، دون أن يزعم امكان الحصول على تفسير كاف للحالات الفزيائية خارج الفزياء ، وهكذا تكون البيولوجيا قد دخلت فى نطاق العلوم الاجتماعية ٠ غير أنه لم تحدث أية مطالبة باجراء عملية عكسية يضطلع بها العلماء الاجتماعيون لتفسير الظواهر الفزيائية للبيولوجيين ٠

وكشف الأستاذ ويلسون عما لديه من روح ديكارتية ، عندما تنبأ بأسس أرسخ للمعرفة فى العلوم الانسانية ، على أساس الكشوف المثيرة التى ظهرت فى البيولوجيا الجزيئية ابان الثلاثين السنة الأخيرة ، مثلما سبق أن اعتمد ديكارت على أساس الفزياء الجاليلية (نسبة الى جاليليو) ٠ ولكنه ــ على ما يبدو ــ لم يعر الاتهام الذى وجه مرارا ضد ديكارت أى اهتمام ، فعندما أخرج للتنزه ، وألوح بيدى لصديق ، فان لغة الفزياء والبيولوجيا لا تشير أية اشارة الى ايماءة التلويح ، أو الأصدقاء ، ولا حتى لواقعة النزهة ٠ ان مرجع هذه التصورات هو الأوصاف المختلطة « للمفهومية » Common sense ٠ وليست « المفهومية » معنية أساسا بالآليات الفزيائية البحتة ، القادرة على تفسير الأحداث الفزيائية المشاهدة علميا ٠ ان هذه المصطلحات المختلطة لم تصمم لأغراض النظرية العلمية ، أو للتفسير الوافى ، ولكن الأصل فى ظهورها ، هو التجاوب واحتياجات التخاطب بين الأشخاص ، والأهم من ذلك هو مواجهة احتياجات تكوين القرار ، والتفاهم والآخرين فى النوايا والمشاعر ٠

لقد تكونت فى رأسى ووجدانى المعتقدات والرغبات والعواطف والنوايا ، التى تولد أفعالى ، وتوجهها لأسباب حميدة أو مرذولة ٠ وغالبا ما يكون ذلك لأسباب يتعين أن أشرحها بعد ذلك للآخرين ، وفى الوقت نفسه ، فانى أرى سلوك الآخرين كمؤشرات تدل على معتقداتهم ورغباتهم وعواطفهم ، وتكشف عن نواياهم ٠ وفى قواعد النحو لأية لغة ، تعتمد « الأفعال » و « الأسماء » و « الصفات » ، التى ننسبها للأشخاص والأشياء

« تالتلويح الودى » الى حد كبير فى معناها على الظواهر الاجتماعية والعادات والطقوس ، التى تشير اليها ، أو التى قد تكون سياقا ضروريا لها ٠

وليس بمقدور أى مشاهد حاد البصيرة من سكان الكواكب الأخرى ، من أولئك الذين يتبعون أساليب مختلفة فى الحياة أن يدرك الغرض فى كثير من مسالكنا ، ولن يكون قادرا على استخلاص المعتقدات والرغبات والعواطف التى استثارتها ٠ فليس بوسعه أن يتعرف على الأثاث ، أو أن يصف أنماط السلوك مثلنا ، وستكون الاختيارات المتاحة له فى مخططاته مختلفة ، تبعا لذلك ٠ وبالمثل فان أى عجوز ينزح الى كاليفورنيا المعاصرة من بلد متخلفة سيعجز عن التعرف على حقيقة ما يفعله الأساتذة الذين بلغوا منتصف العمر ، عندما يركضون فى الشوارع مرتدين « الشورت » ٠ ونحن نعترف جميعا بأنهم يجرون ، ولكن ما مقصدهم من ذلك ، أو ماذا يعنون ؟ ولقد أطلق على احدى المؤسسات مؤسسة جوجنج Jogging ويعنى هذا الاسم أمنية ما يراد تحقيقها ٠ ووصف أى انسان يجرى فى الشوارع بأنه Jogging ، سيكشف هذه الخلفية والمبررات التى أدت لذلك ٠

ومن المقومات العامة لأوصاف السلوك تبعا لنظرة « المفهومية » ، وحالة ما قبل العلم ، آن يتسع محيط النوايا والعواطف ، التى يشعر بها أى فاعل بلا توقف ، بحيث تمتد الى نطاق أوسع ، من أى سياق ، يخص مناسبة بالذات ٠ اذ يعتمد وصف أى فعل يقوم به الانسان ، قاصدا وبصدق ، على مدى امتداد معتقداته واهتماماته ، المستمدة بدورها من ثقافته ، يعنى عاداته الاجتماعية واللغة التى تعلمها ، وأيضا الأحوال الاجتماعية المحيطة به ٠ وربما قام طرزان بنفس الحركات المشار اليها فى الغابة فى ظهيرة أى يوم مشمس ، على نحو لا يختلف عما يفعله أستاذ كاليفورنيا ، ولكنه لن يكون بالتأكيد قد قام بعملية Jogging

ان هذه الملامح من أحاديث « المفهومية » عن الأشخاص ليست عرضية أو قابلة للتعديل ٠ انها قد انبعثت من حقيقة ضرورة استخدامنا لنفس المفردات عند تفكيرنا فى أى قرار نتخذه فى الحاضر ، بينما يتعين علينا أن نخترع مفردات خاصة ، وما يتبعها من أنماط مميزة من التصورات من أجل الأغراض النظرية والعلمية البحتة ٠ ولنضرب مثلا واحدا لما يجرى من خلط ضرورى فى مقولات « المفهومية » ٠ فعندما أتساءل لماذا فعلت شيئا بالذات ؟ فاننى أسأل نفسى عن الأسباب التى تفسر ما فعلت ٠ وعندما يدفعنى حب الاستطلاع الى التساؤل عن تفسير لهذا السلوك نفسه ، عندما أعاود تذكره ، فان هذا السبب يصبح أيضا علة أو عاملا عليا ٠ ولكنه ليس نوع العلة التى تخص تفسير عمليات الآليات فى

الفزياء ، سواء على المستوى البيولوجى أو الكيميائى أو الفزيائى الرئيسى ٠ فمن المتعذر اثبات طريقة فاعليته عن طريق التجربة ، كما أنه ليس له نفس القدر من الاستقلال عن معلولاته ، أو الوضع الذى لا يخضع للمشاهدة ، الذى يتطلبه التوكيد التجريبى ٠

ولو أردنا الحصول على تفسير لا يقتصر على الاتصاف بالدقة والقابلية للاختبار ، ولكنه يجب أن يتواءم وأية نظرية عامة ونسقية ، حينئذ سيتعين علينا تغيير المصطلحات التى ينظر من خلالها الى ساوكنا ٠٠ وعند الاستجابة لهذه المطالب من أجل الحصول على تفسير شامل ودقيق ، سيتضح لنا أن ما قمنا باستقصائه كان آليات الأداء . وليس حالة من حالات الأداء أمكن التعرف عليها ، ووصفها ، أنها ظاهرة اجتماعية وحضارية ، وتعبير عن الفكر ، اذ يتعين أن يتوافر لأوصاف السلوك التى يراد توافرها فى نسق التفسير العلمى أن تتميز بمحدوديتها ودقتها ٠ ولا يجب أن تعتمد فى تفسيرها على السياق الذى استخدمت فيه ، كما يتوجب أن يكون بمقدور جميع المشاهدين اختبارها ، ولا يتحقق هذان الشرطان الأساسيان فى المصطلحات السيكلوجية المنقولة عن المفردات الدارجة ٠

ويظهر التفكك الرئيسى فى فكرة « البيولوجيا الاجتماعية » عند نقطة التقاء صورتين من صور التفسير ٠ فباعتبارها تخدم غرضين مختلفين ، فانه ليس بالمقدور صبها فى كل متواصل ٠ اذ ستقف النظرية الفزيائية فى جانب ، وما يسميه الأستاذ ويلسون بالحضارة ، أى عالم العلوم الاجتماعية ، وبخاصة الأنثروبولوجيا فى الجانب الآخر ٠ ومن المهم أن لا ينظر الى هذا التصدع ، الذى لا يقبل الالتئام ، على أنه قسمة قائمة فى الواقع ، ولكنه بالأحرى انقسام بين نوعين مختلفين من الاهتمامات الانسانية . وكلاهما لا يصلح للحلول محل الآخر ٠ ولقد مثل الفلاسفة ـ بوجه عام ـ الانقسام بين العالم الممتد ، أو العالم المكانى ، وبين عالم الفكر كانقسام ميتافزيقى ٠ وبناء على ذلك ، فانه قد ترك بلا تفسير ، وبالمثل فلقد نقل الأستاذ ويلسون صورة للبنية العليا للحضارة ، التى فرضت على البناء الأساسى للطبيعة الفزيائية للانسان ، وتمخض ذلك عن ظهور فكرة العلم المفرد (البيولوجيا الاجتماعية) الذى يمثل ما يقوم به القسمان ٠

غير أن هذه الصورة يمكن عكسها ، بل وينبغى ذلك ، فعلينا أن لا نجعل نقطة بدايتنا الطبيعة القصية للواقع ، ونتخذ عوضا عنها احتياجات الكائنات البشرية ، التى تعد نوعا واحدا من بين النتاجات الأخرى للتطور ، تصادف أن قام بانماء آليات فزيائية ومخا بشريا وجهازا

عصبيا مركزيا • وأضفت هذه الآليات بعض القدرات المميزة ، ـ وبصفة أساسية القدرة على الارتقاء بصورة من صور الكلام ـ وبالتبعية صورا من التأمل والوعى الذاتى يسرت التخطيط قدما للأفعال المستقبلية ، وكذلك البحث عن قوانين للطبيعة ، التى تقوم بدورها بتطوير تكنولوجيات جديدة فى خطوة متسارعة •

وستستخدم هذه التكنولوجيات استخداما متزايدا ، لا يقتصر على انماء قوى أعظم من المدركات الحسية ، وانما أيضا للنهوض بأداء المخ ، وما يتبعه • وبالاستطاعة دراسة تكوين المعرفة العلمية وتطورها كصورة من صور السلوك الانسانى • ولكن هذه الدراسة التى تجىء فى المقام الثانى ، ستنقسم الى ناحيتين بعيدتى الاختلاف : الناحية الأولى ـ هى دراسة الآليات الفزيائية للذكاء البشرى ، وبصفة أساسية (فى الحالة الراهنة للمعرفة) فسيولوجية المخ ، والمحاكاة الآلية لآليات الفكر • وتتضمن الناحية الثانية دراسة تاريخية لعادات الفكر والأوضاع الاجتماعية ، التى يحتمل أن تكون مواتية لنمو المعرفة ، وتتضمن أيضا دراسة للاستراتيجيات ، التى يحتمل أن تكون أعظم نجاحا فى مراحل مختلفة للمعرفة • وتتطلب هذه الأنواع الثانية من الدراسات ، تأملات فلسفية وتاريخية أيضا •

ولست أحاجى وأزعم أن هناك نوعين وصورتين فحسب من البحث : النوع الأول يخص البحث فى الفكر والحضارة ، والثانى يخص الآليات الفزيائية • ولا ترمى حجتى الى مؤازرة هذه القسمة الثنائية • فما أزعمه بالأحرى هو أن الكائنات البشرية ، بينما تقوم بدراسة ذاتها ونوعها يجب ـ على أقل تقدير ـ أن تتابع نوعين من البحث لا يستعاض عن أحدهما بالآخر • وهذا يرجع الى طبيعة النوع البشرى المتجسمة فيه ، باعتباره قادرا على التفكر والوعى بالذات ، والنوع الأول هو البحث الذى يهدف الى الفهم النظرى البحت للوظائف الفزيائية ، التى ترى فيها الكائنات البشرية كأشياء تتوافق وتتواءم والقوانين الفزيائية للطبيعة ، والنوع الآخر هو البحث الذى يرمى الى فهم طريقة هذا النوع من التفكير وتفكير الآخرين الذى يدور فى أوضاع اجتماعية عادية ومتنوعة وباستخدام لغات مختلفة •

والتناوب بين النظرتين ، باعتبار النظرة الأولى تمثل المشاهد المنزه عن الغاية ، وتمثل النظرة الأخرى الدور الاجتماعى الفعال ، من المميزات التى يتميز به نوعنا ، وتوقف المذهب المادى لويلسون قبل أن يدرك أن النظرة الفزيائية ، كما تطورت ، ليست معنية بالمادة كما فهمت هذه الكلمة أصلا ، والأصح هو أن النظرية الفزيائية قد احتفظت بهويتها كبحث

بفضل غايتها وتكوينها ، باعتبارها تتصف دائمـــا بطابعهـا التجريبى وشمولها ودقتها • واعتقد فى القرن التامن عشر أحيانا أن مركز الثقـل لا مادى ، بحيث يتعذر قبوله فى الفزياء • كما أن القوى والجسيمات التى يتكون منها العالم الفزيائى ، وكما تكشفت فى الفزياء الحديثة بعيدة بعدا متزايدا عن الأشياء المادية متوسطة الحجم ، التى تتماثل وجسم الانسان الملموس • ولا أحد بمقدوره التنبؤ بالمقومات ، التى ســـتلتقط وتنتقى بوصفهـا عنـاصر أساسية فى النظرية الفزيائية بعد خمسين سنة من الآن ، اذا لم يتعرض الجنس البشرى لأية كارثة • غير أننا نستطيع أن نطمئن الى أن آليات منح المورثات وعمليات المخ سيزداد فهمها وادراك خضوعها للحتمية ، أو ما يشبه الحتمية • وسيتكشف أنها ذات تركيب منتظم يمكن التحكم فيه ، بقدر غير معروف ، بفضل المدخلات الفزيائية ، اعتمادا على التكنولوجيات المستحدثة •

واذا فهمت العمليات الجسمانية على هذا الوجه ، فانها لن تجر فى أذيالها فقدان الاستقلال الذاتى للفكر الذى يخضع لقوانين تحدد طريقة تعامله والواقع الفزيائى ، الذى يضم أيضا الجسم الانسانى ، وما يجب أن يجرى والغاية التى ستتحقق من جراء ذلك ، والفكرة القائلة بأن البشر يفكرون بأمخاخهم قبل الاقدام على اتخاذ أى قرارات ، وأن أمخاخهم تعمل بطريقة متوافقة والقوانين الفزيائية لا يجب أن تكون سببا فى احـــداث أى اضطراب ، أى يجب أن لا تختلف عن معرفة أن البشر يرون بأعينهم ، والتى تتوافق بالمثل هى وقوانين الفزياء ، وتخضع الفكرة التى تشارك فى تعرفهم على الأشياء المرئية الى حد ما للمنطق ، كما أنها تخضع الى حد ما أيضا لطريقة تركيب الجمل والمفردات في أية لغة من اللغات ، ولتداعى الأفكار فى مخيلة الانسان • وتصحب أفكارا مختلفة للغـــاية ، تتوافق وقوانين الفكر ، نفس المنجزات الفزيائية ، عند مختلف الناس ، أو عند نفس الشخص فى أوقات مختلفة •

وعلى سبيل المثال ، لاحظ الأستاذ سالينز **Sahlins** فى نقـده اللاذع للبيولوجيا الاجتماعية وللأستاذ ويلسون (*) أن نفس العـــائلة المنحدرة من أصل واحد ومن نفس المادة الفزيائية ، تحمل علامات بعيدة عندما توضع في سياقات عادات اجتماعية مختلفة فى مجتمعات مختلفة ، وبوصفه عالما أنثروبولوجيا ، فانه قد أنكر امكان وجود حجة صحيحة

(*) **The Use and Abuse of Biology.** تأليف **Marshall Sahlins** (١٩٧٦) •

تستند الى الوقائع الجنالوجية (الخاصة بالانتماء الى نسب واحد) تؤيد ما يقال عن مزايا الانتخاب الطبيعي ، وما تحدثه من أثر بعض العادات الجنسية والعلاقات الأسرية . فليست مثل هذه العادات والعلاقات بالخاصية المميزة للنوع برمته · فهى قادرة على تحقيق التماسك الاجتماعى فى ظل ظروف اجتماعية مختلفة ، ولا تدل على أى تأكيد لاستمرار بقاء أفضل اسهام للمورثات فى ظروف فزيائية مقارنة ·

وواقع الأمر أن الأستاذ ويلسون قد تجاهل الملامح المميزة للكائنات التى تترتب على أثر اللغة والفكر فى استحداث عادات وأساليب للحياة ، تتميز بها احدى الجماعات الثانوية ، وتكون مصحوبة بقدر من العدوان أو عدم الاكتراث بعادات وأساليب الحياة عند احدى الجماعات الثانوية الأخرى من نفس النوع · ان استعداد الكائنات البشرية بالفطرة لتعلم احدى اللغات ، وعدم استعدادها بالفطرة لتعلم لغة أخرى من الحقائق المعروفة عن الكائنات البشرية ، والتى تثير سؤالا يخص التاريخ الطبيعى · هذا السؤال هو : ما هى المميزات التى اكتسبها النوع من أثر الاستعداد لتعلم لغات متنوعة ، ومن تعرفه الى مجموعات اجتماعية متماسكة باحكام تتعادى فى الأغلب كل منها مع الأخرى ؟ ·

قد لا تكون هناك اجابة عن هذا السؤال ، أو قد لا يكون قابلا للاجابة عليه فى نطاق المعرفة الراهنة ، ولكن — على أقل تقدير — من الواضح أن هذا التفرق اللغوى للأنواع لا يتعدى كونه خاصية ممتدة الجذور من خاصيات التفرق ، ومن ثم تكون الدراسة العلمية الحقة للطبيعة البشرية معنية بالضرورة بالقوانين الكلية ، مع ترك تفسير الفكر البشرى — عن وعى أو غير وعى — بلا مساس ، باستثناء مجردات المنطق المنفصلة عن أية لغة بالذات ، والمنفصلة أيضا عن أى سياق اجتماعى ·

ليس من العسير أن نفهم من تجربتنا المباشرة أن أفكارنا قادرة على تفسير الحركات الجسمانية والتغير الفزيائى ، سواء كانت هذه الحركات حركاتنا أم غير ذلك ، باتباع متتابعات منتظمة أو سلاسل منتظمة من الفكر · ويتعين فهم هذه المتتابعات تبعا لخصائصها كأفكار خاضعة لتواصل الفكر ، وليس لأى قانون من قوانين الحركة ، فعلينا أن نعرف شيئا ما عن التصورات التى يتوقع أن تجول بخاطر أى انسان والأفعال البديلة ، التى يحتمل أن يبحثها ، لو أردنا تفسير فكره ونواياه · ويجر قيامنا بتفسير أفكاره فى وقت بالذات ، وكذلك تفسير أفكارنا فى أذياله عملية تصور لسياق الفكر المحيط بهذه الأفكار · اذ يترتب على تفسير النوايا والغايات التى استحثتنا على اتباع سلوك فى وقت من الأوقات تحديد خاص لرغباتنا

ومعتقداتنا عن موقفنا ، كما يترتب عليه شغل سياق الفكر المحيط بهذه الرغبات والمعتقدات بالذات ٠

ويثير التساؤل حول لماذا تتوافر لنا أفكار بالذات على الفور الحاجة الى تبريرها وتاييدها ، فلا يستبعد أن تكون أغلب الأفكار التى أصبحت موضع تحرياتنا الواعية قد تكونت فى مرحلة ما قبل الفكر الواعى بعيدا تماما عن التحريات الواعية ٠ ويمثل قيامنا بالمواءمة بين أفكارنا فى نمط متماسك من الفكر تصميما وتفسيرا معا ، ولا يعد اكتشافا لآليات أو اختراعا لها ٠

وتعد الأنثروبولوجيا الاجتماعية التى طالما استشهد بها الأستاذ ويلسون استقصاء منتظما للطبيعة البشرية فى الحضارة البشرية ، انطوت تحت عنوان العلم الاجتماعى ، لأسباب أشبه بالأسباب الادارية التى تذكر فى لائحة الجامعات ٠ ولكن ليس هناك أى شىء مشترك بين مثل هذا البحث والعلوم الفيزيائية ، لا من ناحية المنهج ، ولا من ناحية الهدف ٠ فهو ليس علما تجريبيا ، كما أنه لا يهتدى ـ أو يهدف بوجه عام الى نظريات شاملة ، نسقية ودقيقة ٠ والأصح هو أنه يحاول آن يفسر العادات المميزة للفكر والنوايا المتضمنة فى العادات الاجتماعية للجماعات الاجتماعية المتنوعة تنوعا لا حصر له ، والتى تقبل الدراسة ٠ ويعتمد منهجه على التفسير والترجمة والتزويد بسياق للفكر للمعتقدات والرغبات، التى لولا ذلك ، والتى لو بحثت بحثا مستقلا ، فانها لن تكون مفهومة ٠ ويحاول علماء الأنثروبولوجيا معرفة العادات والتقاليد والممارسات الدينية والجنسية ، والأنظمة الأسرية والفنون والرياضيات فى صورة متماسكة بكل تنويعاتها ٠ ان جميع هذه الأشياء تعابير للفكر ، وليست موضوعات تصلح للتنظير العلمى المنهجى الدقيق ٠

عندما ناقشت موضوع البيولوجيا الاجتماعية والمادية العلمية عند الأستاذ ويلسون أشرت باستمرار الى الفكر وتفسير الفكر ٠ ولقد كتب الأستاذ سالينز مثل العديد من علماء الانثروبولوجيا عن الأنساق « الرمزية » ، واختارها موضوعات لدراساته متتبعا المصطلح الذى وضعه ارنست كاسيرر ٠ وهو بكل ما فيه من استدلالات عملية معقدة وتأملات يبدو شديد القصور ٠

أيضا هناك نقطة فلسفية تتعين الاشارة اليها عن طريقة استعمال كلمة « فكر » فى المذهب المادى ٠ ان التفرقة بين الفهم وتفسير الفكر بالرجوع الى العلل ، وبين الفهم وتفسير التغير الفزيائى بالرجوع الى العلل هى تفرقة لا مفر منها ، لأن الوقائع الأكثر أولوية المحيطة بنا ترغمنا على

اللجوء اليها ، وعلى الأخص لأننا قد ولدنا ولدينا تكوين فزيائى ييسر لنا التفكير والتخاطب والآخرين والتحدث اليهم عن أفعالنـــا وحركاتنا التى سنقوم بها فى الغد ، وأشد الماديين العلميين عنادا وتصلبا فى الرأى والذى من المسلم به أنه مفكر ذو فاعلية مضطر الى التفكير فى مستقبله على ضوء المعرفة المتراكمة عنده عن الاتجاه الطبيعى للأحـــداث • وهو يعرف أن الانتباه الى معرفته بالعلل المستقلة ســـيضع بين يديه امكانات جديدة للعمل ، قد يرغب فى الاستجابة لها استجابة مختلفة •

انه يعرف كل هذا معرفة مباشرة واضحة بحكم قدرته على التحكم فى جسمه الذى يضعه فى العالم الفزيائى المشاهد ، ويربطه به ، ويساعده على التوافق وقوانينه الفزيائيـــة • انه ليس فقط أو أساسا مشـــاهدا لجسمه ، وانما هو أيضا المفسر المتفكر لحركاته ، التى بمقدور فكره أن يوجهها وأن يضفى عليها المعقولية ، لو أمكنه أن يفسرها كأشياء متوافقة ورغباته ومعتقداته • وسيصف حركات جسمه انها « أفعاله » ، عنـدما تتوافق ورغبته الرائدة ، وعندما يعرف أو يعتقد أن العلة المباشرة للحركة كامنة فيه • وعندما تتجسم رغباته فزيائيا ، وتدخل فى تكوين مخه •

واذا اتبع المذهب المادى العلمى ، فاختلف بذلك عن الأستاذ ويلسون فانه لن يدرك العلاقة بين رغبته وتجسمها الفزيائى فى المخ كعلاقة علية ، ولكنه سيشير الى وجود علاقة متوازية بين هذه العلاقة وعلاقة العمليات الفزيائيـــة لرؤية الألوان وتمييز الألـــوان ، وكمـا يستطاع تفسير نفس العلاقات الخاصة بالنسب ، يعنى بين الجدة من ناحية الأم والابن ، أو بين العمة وابن أخيها ، تبعا لمختلف التصورات لمختلف أنساق القرابة ، وتبعا لما بين اللغات من اختلاف ، كذلك ستكون هناك نوايا مختلفة متعـــددة متجسمة فى الحركات ، التى ستعتبر من منظور المشاهد العلمى هى نفس الحركة ، وليس المرء مضطرا الى بلوغ المستوى الرفيع للعلوم الأكاديمية لكى يعرف « المادى العلمى » بأنه الشخص الذى يعتقد أن العـــالم كما نشاهده يسير تبعا لقوانين الفزياء ، وأن رغباتنا ومعتقـــداتنا وأفكارنا الأخرى ، بما فى ذلك الاعتقاد فى المادية ، متجسم فى المخ على نحو يمكن ادراكه ، ومن ثم يتصف بفزيائيته ، مثلما تتخذ مدركاتنا الحسية شكل التجسيم الفيزيائى عند العينين ، ولكن يتعين على المادى العلمى أن يدرك أيضا أن طبيعة هذه الأفكار ، بما فى ذلك الاعتقاد فى المادة نفســـها لا يمكن أن تفسر تفسيرا كافيا الا فى السياق الذى تظهر فيه ، وبالرجوع الى ما يرتبط بها فكريا ، شأن كل فكر •

ويرجع السبب وراء وصف الأستاذ ويلسون بأنه لا يتصـــف « بالمادية » بقدر كاف الى أنه يتوقع الكثير من العلل اللامادية فى العلم ،

ومن تكنولوجية تعتمد على هذه العلل • وهذه نقيصة جميع أولئك الذين مازالوا يتوقعون الكثير من العلوم الاجتماعية ، وبخاصة من علم الاجتماع ، اننا اذا تمكنا من اجراء عملية جراحية للآليات الفزيائية للوراثة والذكاء ، سيكون بمقدورنا توقع احداث تغيرات مخططة للأفضل أو الأسوأ من نوع يتعـذر تحقيقه اعتمادا على الاقناع ، والمحاجاة اعتمادا على الفكر ، بعبارة أخرى •

ان البيولوجيا الاجتماعية كمشروع لها نفس رنين التفـاؤل الذى عرف عن الفيلسوف الفرنسى كوندورسيه ، ولما كان يأمله عصر التنوير والمذهب الوضعي لأوجست كونت • انها توحى بصورة لتاريخ مختلف المجتمعات والحضارات ، وكأنه لن يفهم فهما أفضـل الا اذا نظر اليه كتاريخ للتكيفات المتعـاقبة للبشرية والبيئة الطبيعيـة ، والى جانب ما يتصف به هذا الزعم من تفكك فلسفى ، فانه يبدو فى نظرى وهما خطيرا فى طريقة تصور التاريخ ، والكوارث أيضا من ملامح التاريخ الطبيعى فى الزمان البيولوجي والتاريخ القصير نسبيا للحضارات البشرية معا • وقد تؤدى الطفرات المواتية غير المحتملة ، التى تتمخض عن تكييفات أفضـل لبيئات بالذات فى المدى القصير الى اساءة تكييف والى ابادة وفناء فى المدى البعيد • فهل ندرك أن التطورات التى تطرأ على المخ ، والتى تصـحب الحديث الذكى والوعي الذاتي والتنوع الاجتماعى ، لا يستبعد أن يكون لها فى المدى البعيد آثار مهلكة ؟ واذا اضطررنا الى التنبؤ بما سيجرى فى المدى البعيد ، فانى أظن أنه من المعتقدات المعقولة ، بنـاء على الأدلة الحاضرة ، أنه لن يستمر بقاء الأنواع لمدة طويلة ، وأنها ستثبت بهـذا المعنى أنها اخفاق تطورى ، وسيثبت التفرق والتشتت الذى أحدثه تعدد اللغات واختلاف العادات أنه بالغ الضرر على المدى البعيد •

لا يخفى أن هذا مجرد خاطر ، مثلمـا يتعين أن يكون أى اعتقاد معارض • غير أن المشاركة الأفضل لعالم البيولوجيا قد تثبت أن استمرار الجنس البشرى فى البقاء مجرد مصادفة ، وتثبت أيضا مدى قصور المعرفة البشرية فى بلوغ الحقيقة • واذا نظر للمعرفة البشرية من منظور الفزياء المعاصرة ومنظور البيولوجيا وحدهما ، وبغير ماجاءت به الأديان السماوية من سلوى ومواساة ، فان المعرفة البشرية للكون ستبدو دائما بالضرورة شحيحة للغاية ، وسيبدو ارتقاء العلم مستقبلا أمرا يتعذر التنبؤ به • ان مقولاتنا وتصوراتنا محدودة ومقيدة بقدرتنا على المشاهدة والفكر ، ولسنا نعرف الى أى حد باستطاعتنا زيادة هذه القدرات ، بالاعتماد على التجسيم الفزيائى لها ، ولكن ليس لدينا ما يؤكد وجود مصـير واحد للجنس البشرى ، اللهم الا اذا استعنا فى هذا الشأن ـ بأدلة تجاوز الطبيعة •

ان ادراك حداثة التطور والانتخاب الطبيعى يجب أن يقترن عقلا بادراك افتقارنا الى اليقين فى الحاضر ، وبقـدر ما نعلم لسـنا متفردين بالاستمرار فى البقاء ، أو بما نتمتع به من قدرات منظورية تساعدنا على التعرف على الكون • ولن يستدل من البينات المسجلة أن مستقبلنا مميز وسعيد ، ان آثار الفكر البشرى ــ والعلوم الفزيائية ليست أقل هـذه الآثار قدرا ــ عظيمة الاثارة بلا شك ، ولكن فهمنا ومعرفتنا سيظلان دائما قاصرين من أثر تكويننا الفزيائى الموروث • وليس هناك مبرر للاعتقاد بأننا نحتل موضعا مركزيا أو أساسيا فى المخطط الكلى للطبيعة • فالكون قادر على السير قدما بانتظام بغير كائنات بشرية ، ولو حدث ذلك ، فانه سيكون لصالح الدرافيل وربما الحيتان ، لأنها ستنعم بالحركة بلا متاعب وستسبح فى بحار هادئة ، وبذلك ستتمكن من التطـــــور وفقا لطريقها المناسب •

● العلم والايكولوجيا : الروحانيات فى مقابل العقل

الروحانية والايكولوجيا •• بقلم تيودور روشاك •

[تيودور روشاك (١٩٣٣ ــ) أستاذ التاريخ والدراسات العامة فى جامعة ولاية كاليفورنيا • من مؤلفاته :

The Making of a Counter Culture.

Where the Wasteland Ends.

Persons/Planets : The Creative Disintegration of Industrial Society.

• ولقد ازدادت شهرته عندما ناصر الحركة المناهضة للحضارة ضـد حضارتنا العلمية التكنولوجية المعاصرة] •

● أن تعرف وتعرف :

ثمة لحظة أوردها ليون تولستوى فى روايته « موت ايفان اليتش » ، عندما تذكر ايفان المحتضر حادثة وقعت أثناء فترة تعلمه الباكرة • فلقـد

(★) نقلا عن كتاب Where the Wasteland Ends تأليف Theodore Roszak (١٩٧٢) دوبلداى •

خطر بباله أحد دروس المنطق عن مبدأ القياس · ووردت فى أحد أمثلته عبارة تقول « ان جميع البشر مائتون » ·

اذن لقد عرف منذ صباه «أن جميع البشر مائتون» ، وأن هذه حقيقة لا تحتمل الخلاف · والآن انه يرقد على فراش الموت ، يواجه هذه الحقيقة مرة أخرى : « جميع البشر مائتون » · غير أنه الآن قد لاحظ وهجا خاصا يشع من هذه الكلمات ، ويغير من طابعها تغييرا خطيرا · وكأن ايفان قد أدرك للمرة الأولى طبيعته الفانية · ومع هذا فقد عرف هذه الحقيقة دائما كمسألة استنباطية بسيطة · نعم لقد عرف ذلك دائما ، ولكنه لم يعرفها قط مثلما عرفها هنا والآن · وليس بمقدوره زيادة « ما تضمنته من بيانات » · فلا شيء قد تغير فى العبارة الأولى · ومع هذا فان كل شيء يحيط بها ، قد تغير · فلقد أدرك ايفان أخيرا ما الذى تعنيه حقا هذه الكلمات الأربع · وليس باستطاعته أن يقول ما هو أكثر ، أو ما يختلف عما كان يقوله أثناء فترة التلمذة فى حصة المنطق · على أن ما يعرفه الآن قد ازداد وزنا بفضل ما حدث من زيادة فى المعنى · ان ايفان لم يعرف ما هو أكثر ، ولكنه عرف ما هو أعمق ·

ولكن أين يمكن العثور على هذه الزيادة التى طرأت على المعنى ، ليس هذا ممكنا على الاطلاق بالرجوع الى الكلمات ، وانما بالرجوع الى الانسان فى جملته الذى سمع هذه الكلمات ونطق بها ، ان هذا يكمن فى الشعور بالكلمات ، عند انتقالها بين تلافيف مخه ، ومن القدرة التى اكتسبتها على تغيير حياته · ان الكلمات هى هى ، ولكنها الآن عندما تمعن فيها ايفان ، قد كشفت أن لها صليلا لم يكن موجودا من قبل ، وسيضخم صدى الصليل صليله الى أن يهز أسس حياته ·

فثمة سبل عديدة للمعرفة · وكتاب ايفان اليتش لتولستوى دراسة فى المعرفة الوجودية · انها معرفة تتردد من خلال أصداء صليل الأزمة الشخصية ، وفى معرفة الرموز الترانسندنتالية الكثير من الطابع نفسه · فهى أيضا لابد أن يكون لها صليلها · انه صليل المعنى الجذرى · وفى كلا الحالين ، فاننا نشعر بما يدفعنا الى ما يتجاوز المعنى الظاهرى الشفوى · وفى كلا الحالين ، تزداد المعرفة عمقا واتساما بالطابع الشخصى من أثر الحاح التجربة ووقعها ، وانما بغير زيادة فيما تحمله من بينات · وهكذا فاننا نغدو على علم بما هو أكثر مما فى مقدورنا الجهر به اللهم الا اذا توافرت لدينا القدرة على التعبير الرابسودى · نعم لقد أصبحنا فى موقف مماثل لموقف أحد أولياء طائفة « زن » باليابان ، الذى لم يعرف عن الجبال أكثر من كونها جبالا فحسب ، ولا يعرف عن الأنهار أكثر من كونها

أنهارا فحسب · وانتهى كواحد من الحكماء · صحيح لقد استمر يعرف أن الجبال هي مجرد جبال ، والأنهار مجرد أنهار · غير أن الأمر قد انتهى بمعرفته هذه الأشياء معرفة حكيمة ، لأنه عرف كيف يتحدث عن مثـــل هذه الأشيـــاء ؟

لقد ذكرت أن البديل للواقع ، الذى نعبده عبادة الأوثان ، والذى ورثنـــــه من « الرؤيا المتفردة ومن غفوة نيوتن » هو اســـتعادة الرموز الترانسندتالية · وهذا يعني اننا نلوذ بالرموز الترانسندتالية · وهـــذا لوذ بنوع عتيق من المعرفة ، وان لم يكن هذا الشيء قادرا على التميز بقدرته على التزويد بمعطيات اضافية عن العالم · وهـــذا هـــو المـــازق الكامن فى الرموز · انها تملأ حياتنا وفننا ولغتنا · غير أن أولئك الذين لا ينتبهون الى صليل الرموز ، سيكتفون بظاهر التجربة ، ويتشبثون به ، ويخلطون بين المشتقات المكثفة وأصلها المتسمى · فبعد أن أخفقوا فى ادراك الاختـــلاف الحيوى ، فانهم سيصرون على المطالبة بقيام أحد الناس بتعريفهم عما هـــو أكثر هناك مما يجب معرفته ، والذى يعرفونه بالفعل · فعلينا أن نذكر أن الرؤية المفردة تستعمـــل نفس القـــائمة من الرمـــوز التى يستعملها الدين والطقوس والفن ، والتى تستوعب نفس المساحة الثقافية ، وانما بغير عمق فى الكيف · ولقـــد اعتادت دائمـــا أن تفسر الرمز بعد الحط من أصله الترانسندتالى ، والابتعاد عنه ، بغية تكثيفه وتحويله الى واقعة واضحـــــة جلية وموضوع تجريبى ، ثم تقول بعد ذلك ، « أنظر ! هنا لدينا المعنى الحقيقى للشىء » ·

لقد تعرض الاصحاح القديم خلال القرن المـــاضى أو يزيد لعـــدد من التفسيرات «الردية البارعه» . وتم ترشيح معانيه الاقتصدية والسيكلوجية والاجتماعية جميعا من أجل الدراسة · وبطبيعة الحال ، ان هذه الزيادات الدنيوية موجودة أيضا هناك من أجل فحصها · انها جزء من قصة البشر ، ولكنها ليست كل شيء · فهناك ذلك الشيء الذى سيظل باقيا بعـــد أن تنتزع الزيادات من الرموز · انه المعانى الجذرية · انه بمثابة الذهب الذى يوجد وسط النفاية · انه الدور الذى يقوم به الله ·

● الصليل والحرفية :

ان التدهور الظاهر للوعى ، والذى نعانى منه ، يعنى تضاؤل الدراية بالصليل الرمزى · ويصح أن يعد بوجه خاص نتيجة لأزمة فى اللغة · ففى حضارتنا ــ وهذه ناحية فريدة ــ قمنـــا بعكس العلاقـــة الهرميـــة بين الافصاحات الرابسودية والنثر الحرفى ، وبين مادة الأساطير ومادة الوقائع ·

فلقد مر وقت طويل توقف فيه النظر الى الرابسودية والأسطورية (أول وعائين لغويين للصليل الرمزى) كمصدرين للمعرفة · وأيا كان ما استعارته المسيحية من العبرانية ، الا أنها قد تركت جانبا الروح الليريكية للنبوءة مفضلة الموضوعات اللاهوتية اليابسة · ولقد انتقل هذا الضعف نحو « الحرفية » الى طاحونة الوعى الغربى ، حتى أصبحت أغلب عقولنا النيرة فى العصر الحديث تؤمن ايمانا حارا « بأن كل ما نبغيه فى هذه الحياة هو معرفة الحقائق أيها السادة ، لا شىء غير الحقائق » ، على حد قول المستر جريدجرايند Gradgrind عند المستر ديكنز ، وهل هناك ما يجىء بعد ذلك غير الحضارة التى تقتصر حقائقها على المسطحات ، والنثر الذى يكتب لغايات عملية ، والمقادير الحسابية الخالية من الابهام ، والاستقراءات البيكونية ، وترتب على ذلك ان ارتقت اللغة ذات البعد الواحد للمنطقى والباحث العلمى والناقد ، ولغة التكنولوجى والعالم ـ فى نهاية الأمر ـ الى مكانة اللغة القادرة على كل شىء عندنا · فهل ظهر قبل ذلك مثل هذه الحضارة ، بما فيها من مفسرين وموضحين وشارحين وجزارين منطقيين ؟

تأمل كيف يتصف نظامنا التعليمى المجيد بتشبثه بالالفاظ فى تطلعه الى الامتياز ، عندما يلجأ الى القوة لتلقين أطفالنا الثالوث المشهور « القراءة والكتابة والحساب » من أبكر سن مستطاعة ، والذى لا يتوقف عن ممارسة هذا الفن فى جميع درجات السلم التعليمى ، أى ابتداء من الحضانة حتى نهاية السلم والتخرج ، بالمحاضرة والمراجع والمحفوظات والاختبارات واعطاء المذكرات والبحث والنقد والمناقشة والمناظرات ·· بدءا « بديك وجين Dick and Jane حتى حلقات البحث والمجلات الثقافية » · واذا كان هناك فى جعبة التشريح البشرى ما هو أكثر من العين القارئة والأذن المنطقية والصندوق الرنان ، فان مدارسنا لم تسمع بمثل هذه الجوانب · وكان الله فى عون المصورين والموسيقيين وأهل النظر بين طلبتنا ! فنحن عندما نعلم نتوهم أن من بين الثوابت الافتراض بأن معانى الأشياء يمكن أن تستنفد ، اذا قمنا بالتحدث حديثا فصيحا واضحا وحسنا عنها · واذا سمعنا للتجربة صليلا ، فاننا نطالب بالمزيد من كلمات اللغة للتعبير عنها · ولا بأس من اللجوء الى لغة الأرقام · فلقد اهتدت الرياضيات الحديثة الى لغة مجردة من هذه الارتجافات الأخيرة للصليل ، التى تتذبذب من الكلمات باصرار ، وتتمثل فى الغموض المحير ، والتظليل العاطفى وأصداء الصرف النحوى فى اللغة ·· ولو أشرت فى أية أكاديمية من أكاديمياتنا بأن هناك أشياء ليس فى مقدور الكلمات والأرقام متابعتها ، ستكون قد اقترفت جريمة ضد الفكر · فنحن نتماثل وايفان اليتش (عند تولستوى).

لاننا سجناء للحرفيات · ففى حالة ايفان ، لقد شعر بالدهشة والذعر عندما أدرك أن المقدمة المنطقية « جميع البشر فانون » لهـا تجربة تثبتها · فالى جانب الكلمة المجـردة « موت » هنـاك أيضـا الكلمة المشخصة الدالة على حدوث ذلك للأفراد ، وهكذا تكون الرموز أيضـا تتطلب هذا التجريب · فيجب أن تقابل بتفتح من كياننا برمته ، وعندما تمسك بنا ، فاننا نقف فى مواجهتها معقودى اللسان ·

وأن تحيا حياة كاملة يعنى أن تحيا الحياة بمصلصلاتها · واللغة اذا فصلت عن مصلصلاتها اللالفظية ستعبر بكفـاية عن النواحى الرتيبة فى الحياة ، أى المعلومات البسيطة والعمليات الخالية من أى نقائض ومحيرات ، بيد أن الجانب الأعظم من جهود الفلسفة التحليلية والوضعية فى الأجيال العديدة الماضية لم تتجه الى رفع شأن المصلصلات ، ولكنها اتجهت ـ بدلا من ذلك ـ بتعسف ـ الى دفع جميع المعانى الى مثل هذه الصيغ اللغوية الرتيبة · ثم قتلت أمام أعيننا أى شىء يرفض أن يساق الى مثـل هـذا المعسكر الاعتقالى الفكرى · وكأن اللغة قد أصبحت ملكا خصوصيا للمناطقة وأهل التكنولوجيا والعلماء ، ويتوجب أن يخضـع بالتبعية كل تخـاطب لمواصفات تعسفية جامدة لمطابقة الأبحاث المعملية ، حتى بغير سماح بمشاركة الحدس والالهام والتلاعب بالألفاظ والمجز والقـواعد الفطرية لأى بحث ذى بال ·

هنا لدينا مثل مثير للسخرية عن كيف مهـدت سيكلوجية الديـانة المسيحية الطريق للوضعية المتشككة ، التى عارضت الدين الى درجة قاتلة · لم تك العقلية الحرفية تفعل ما يحلو لها فى أى ميدان آخر ، مثلما حدث فى حالة المسيحية ، حيث ردت بطريقة منهجية الدين الى نقاش مجرد من الايمان والعقيدة · ويذكر أن هارفى كوكس قد قال : « الاله الذى لن يكون أمر مؤسف · فحيثما يتركز الدين على اللاهوت العقلانى التعليلى ، ويقتصر على ذلك ، ويصر على القول بانفصال الكلمة عن الرؤى ، وعلى الزعم بان بوسع كلمات البشر الاشارة اليه ، ليس هو اله الكتاب المقدس » · وهذا السلوك قادر على تجسيم الروح ، فان ما سيترتب على ذلك هو كشط المعنى المصلصل من اللغة · وهكذا رأينا أولئك المعتوهين العجباء الشائهين فى تاريخ المسيحية الذين ساقوا الدين الى وضـع جعله يبدو نتن الرائحة فى خياشيم كثيرين من أصحاب الرصانة ، وأذكر هذه الأمثلة ليس على سبيل الحصر : المواعظ الرسمية التى تحفظ عن ظهر قلب ، والحروب التى اندلعت ودارت حول مواد الايمان ، والحكم على الناس تبعا للناموس الذى استنوه هم أنفسهم ونسبوه الى الله ، وادانة المتهمين بالهرطقة ·

لقد حدث كل هذا نتيجة لتحميل اللغة العادية أثقالا ليس بمقدورها حملها ، والسؤال المناسب الذى يصلح لكى يسأل عن دين أى شعب هو : ما هى التجارب التى أجروها ، وكيف نستطيع أن نشـــارك فى هــــذه التجارب » . ولكن المسيحية قد ركزت على سؤال آخر ، لم تشرك أحدا فى التفكير فيه : « مـا الذى يقولون أنهـم يعتقـدونه ، وكيف يتـواءم ذلـك وعقيدتنا » ؟

وانى أتذاكر بكل وضوح صراعاتى ضد المجادلات التى كانت تسعى لقتل عقلى وروحى ، والتى وقعت بينى وبين العقائد الكاثوليكية فى طفولتى والتى انحصرت فى كثرة من الأسئلة والاجابات والاستعراضات القائمة على صيغ لفظية جوفاء يتعين أن تحفظ عن ظهر قلب ، ونطـالب بالايمان بها جميعا ، والا تعرض المخالف للعقاب البدنى .. وكانت التعاليم المتزمتـــه تخترق عقلى ، كأنها قوات العاصفة التى تدك أى عائق طبيعى ينشئه حب الاستطلاع الطفولى . نعم لقد كانت حربا سافرة ضد المخيلة الفتية . وهل هناك من يرتاب فى مدى الدمار الذى أصاب قدرات الرؤى فى حضارتنا جيلا بعد آخر على يد من اتخذوا الدين والعبادة سلعة تباع وتشترى ؟ فمن أجل خير روحى كانوا يبرمجوننى ، كأننى كومبيوتر بشرى يشحن بمعلومات تدعوه الى الايمان الحق . ولم يكن بين أساتذتى فى الدين أحد يعرف أن القديس توما الاكوينى ذاته قد طرح جانبا لاهوته بمجرد أن زارته الرؤيا . وقال فى هذا الصدد : « ما كتبته من أوله لآخـره يبدو فى نظرى مثـل القش بالمقارنة بما تكشف لى الآن » .

ولا أظنه يخفى لماذا يزدرى الوضعى المتمرد الحماقات الشمولية فى اللاهوت الدوجماطيقى ، ولماذا يصل الى حد رفض جميع الموضوعات الدينية ، ويصفها بأنها « بلا معنى » . لقد كان هذا هو رد فعلى ضد حماقة فهـم المسيحية فهما حرفيا . غير أن كل ما أحدثته هذه الفعلة هو تكرار خطـأ الدوجماطيقى ، الذى يغفل عدم امكان تكشف معـانى الرموز والنقـاش الميتافزيقى الا اذا ركزنا على رمزيتها وصليلها . ان هذا هو مكمن قوتهـا وقدرتها على تشكيل الضمير والوعى دون التجاء الى حقن هذه المعـانى فى الذهن ، وعندما يقتنع الوضعى بأن اللغة الخالية من الصلصلة هى المقياس الكامل ، فانه يكون قد أصبح أخا للاهوتى الدوجماطيقى ، من نفس الدم ، دون أن يعرف كيف انتقلت الى عروقه هذه الدماء ، فالأول (اللاهوتى) يوثق حرفيته بالعقيدة والكتاب المقدس ، أما الثانى فيوثق حرفيته باثبات صحة اعتقاده عن طريق التجـربة ، ويستبعد الأول كافة ما يفتقر الى سلطان العقيدة ، ويستبعد الآخر أى شىء يفتقر الى الإستناد الى واقعة تجريبية .

ولقد سحقت الرموز بين حجرى رحاهما ، وتحولت الى رماد · ومن هذه الفئات الحرفية ، أعادا تكوين لغة تصلح للتداول ، والرؤى الفردية ···

● **الايكولوجيا ومزايا الروحانيات :**

عندنا فاصل سيكلوجى هائل يفصل الطبيعة الموضعة المطردة للعالم عن واحدية الطبيعة فى الاصحاح القديم · انه الفاصل نفسه الذى يفصل القديس فرنسيس الأسيزى عن رواية الغريب لألبير كامى · واذا تحدثنا بلغة الوجودية ، قلنا ان هذا الاختلاف عبارة عن اختلاف بين حياة انسان يشعر بالتآلف هو والكون ، وحياة آخر يشعر أنه يحيا فى كون وهمى ·

فالقانون الكونى ، و « المستمر » الرياضى والاستمرار الفزيائى للحياة لا شىء من هذه الأشياء بمقدوره أن يستوفى حق الصليل الرمزى Chemical marriage غير أن هناك موضعا أفضل للانصات الى الصليل فى الحياة المعاصرة · فالعلم الذى ندعوه بالايكولوجيا هو أقرب طريق إقترب فيه الوعى الموضوعى من الرؤى المقدسة للطبيعة التى تكمن وراء رمز الواحدية · وفى الحق ، فان الايكولوجيين كثيرا ما يخضعون فى بعض الأحيان لسحر الروحانيات الجنوصية القديمة · فهم يقتربون اقترابا لا يكاد يلمس من الطواف عند حافة الروح التى تفصل بين العلم فى صورته المحترمة ، والغيبيات الطبيعية ·

ولقد وصفت الايكولوجيا بأنها علم مدمر · وهو وصف له ما يبرره · اذ تنبع صفاتها كالحساسية والنظرة الجامعة والوثوق من أغوار بعيدة من الحدس الاستاطيقى · وتعد روحها المناهضة للعبث والفساد ابتعادا راديكاليا عن العلم التقليدى · ولا تنزع الايكولوجيا الى انشاء نسق قوامه التعميمات الرياضية ، أو « المادية الردية » ، ولكنها تستند على نطاق واسع الى حدسها لما فى الطبيعة من تناغم ، يكاد يكون محسوسا · ولا تقتدى فى أساليبها بلغة ما ، ولكنها تؤمن بالوحدة القائمة فى نسق من الدفقات ، وتستعير سيكولوجيتها أفكارها من نظرية الجشطلت ، وتمثل وعيا يقظا بالوحدات الكلية الأكبر من جملة مكوناتها · وفى ناحية الروح ، يتميز منهجها باتجاهه الى التأمل والعمل على اصلاح العطب ، وعماده الانصات المفعم بالاهتمام بوساطة « الأذن الثالثة » · ولقد كان لين وايت Lynn White الأصغر موفقا عندما سمى القديس فرانسيس بالأب الروحى للايكولوجيا · ولعلى أميل الى اضافة الفلاسفة الهرامسة والشعراء الرومانتكيين الى أسماء مؤسسيها الأوائل · كما أن رؤى تاو الصينى قد غذت هذا التيار من جهة أخرى ، ومنذ عهد سحيق ·

وفضلا عن ذلك ، فان الايكولوجيا تتميز مثل جميع الفنون العلاجية بالاعتماد على الأحكام التى تتخلل شتى جوانبها · ولعل هذه هى أهم علامة تفرق بينها وبين العلـوم الأخرى ، وتتضمن الأنمـاط التى تدرسها الايكولوجيا الانسان من ناحية جسده وروحه وأفعاله ، ومن ثم فانها قد قامت بوضع أوصاف معيارية للصحة العامة · ورأت أن كل ما يعتبر انتهاكا للتوافق الطبيعى يتعين شجبه · أما ما يساعد على النهوض بهذا التوافق فيستأهل المؤازرة · ويرى الايكولوجى ان الاتصاف بالصحة يعنى اتباع الأسلوب الصحى الصحيح فى الحياة ، وتنساب فضائل الحصافة والرقة والعون المتبادل انسيابا سلسا من هذه الدراسة · ولعل الايكولوجيا هى أنسب شىء اهتدى اليه علمنا للاقتراب من الحكمة المتكاملة · انها تستحق أن توصف بأنها العلم الأساسى للمستقبل · فهى أجدر بذلك من الفزياء ·

وأنه لمن الخير العظيم لعلمنا ، ومما يمجده ، أن تثريه هذه الحساسية المستحدثة · على أن هذا الاتجاه قد مثل ابتعادا عن التقليد العلمى ، وجاء متأخرا . أما مقدار هذا الابتعاد فبالاستطاعة قياسه مما ذكره أوتيس دنكان Otis D. Dunkan بلا لبس أو مواربة فى مقاله عن الايكولوجيا الانسانية فى آخر طبعات الانسكلوبيديا البريطانية (١٩٧١) :

« لقد كان التركيز على معنى (الوحدة الجامعة) الذى تضمنته فكرة الايكولوجيا الانسانية تهديدا مستمرا لوحدة هذه التعاليم · ولقد مثلت الأبحاث الشاملة الخاصة بهذا الموضوع خير تمثيل ما تنادى به الفلسفة الاجتماعية أكثر من تمثيلها لأحكام النظرية العلمية المستندة الى أساس تجريبى · والحق أن العديد من المعقبين قد قدموا نظرة تنادى بوجوب حفاظ الايكولوجيا الانسانية على طابع النظرة الفلسفية بصفة أولية بدلا من أن تتطلع الى مكانة الدراسة النسقية » ·

وبعبارة أخرى ، فان الايكولوجيا الأكثر اتباعا لحكمة الحفاظ على الحياة قد قدمت لنا أقل حق فى التطلع الى « المكانة » الأسمى للعلم الحق · ولقد أسرع المجتمع العلمى وبادر باحتضان الايكولوجيين كناطقين باسمه فى الأزمة البيئية · وكان هذا عين الصواب · ولكن هذا الاجراء قد كان حقا أشبه بما قامت به الكنيسة الكاثوليكية فى مرحلة متأخرة ، عندما منحت القداسة لجان دارك ، بعد أن قام حراسها بحرقها بتهمة السحر ·

ومع هذا فان حدوث ذلك متأخرا كان أفضل من عدم حدوثه على الاطلاق ·

بيد أن هناك مشكلة أعمق . انها مشكلة لم يواجهها بعد حتى أقدر علمائنا الايكولوجيين . وعندما سيحدث ذلك ، فهـل سيكون بمقدورهم الحفاظ على تمتع دراساتهم بالاحترام من الناحية العلمية ؟ . هناك احتمال أن تكون هناك هرطقة كامنة فى ثنايا الحساسية الايكولوجية ، قد بدأت الآن تنتشر فى العالم الصناعى ، وان كان أولئك الذين شاركوا مشاركـة فعالة فى الايكولوجيا عن طريق الارتياب فى مدى كفـــاية الرؤيا العلمية للطبيعة ، بوسعهم أن يدركوا هذه الحقيقة .

وسأحاول أن أصور ما أعنيه ، ان النقطة التى أبحث عنها تظهر بكل وضـــوح فى القراءة الخيالية للغـــاية للطقوس البدائية . والفقرة التى سأستشهد بهـــا منقولة عن مهندس المنـــاظر مخطط المدن ايان ماكهارج Ian Mcharge ، تكشف على خير وجه البصيرة الايكولوجية التى يعرضها فى جميع أعماله :

« عند قبـــائل الايركواز ، كان الدب يحظى بأعظم تقـدير .... وعندما كانوا يقفون وجها لوجه أمام الدب أثناء اصطياده ، كانوا ينشدون مونولوجا طويلا يسبق عملية القتل ، يشرح فيه احتياجات الصياد شرحا كاملا ، وتعطى التأكيدات بأن دافع القتل كان الحاجة ، وليس الرغبة فى جلب العار . واذا أردت تحديد موقفك من الفريسة ، كان عليك أن تتبع هذه النظرة ، التى تساعد على توطيد الاستقرار فى أى مجتمع من مجتمعات الصيد .... والصياد الذى يعتقد أن جميع المسائل والأفعال مقدسة ، ولها عواقب ، سيحرص على اثبات احترامه وفهمه لعـــلاقته بالبيئة ، وسيحقق حالة من الاستقرار فى هذه العـــلاقة ، يعنى سيعيش متوافقا وطبيعته ، ويستمر فى البقاء من أجل ذلك » .

ويعد التفسير المرهف الحس الذى جاء به مخرجا جديرا بالاحتفاء ، ولعله يحررنا من نظرتنا المتمركزة حول عنصرنا والتى تدفعنا الى الاعتقاد بأن أسلافنا الذين سبقوا عصر العلم ، لم يكونوا بشرا بالمعنى الصحيح للكلمة . هنا لدينا نوع من البصيرة والتعاطف الذى حول الكثير من الشعوب الفتية الى مناضلين باسم الأنثروبولوجيا . ولقد تأثروا بهذا المبادىء تأثرا شديدا قربهم من المحافظين الينوليثيين (حسب تعبير بول جودمان) ، الذين يسعون لاحياء الأساليب الفولكلورية البدائية .

ولكن عليك أن تعيد قراءة الفقرة التى استشهدنا بها مـرة ثانية ، ولاحظ تقدير ماكهارج ، لما سماه : «النظرة التى تتبع مذهب وحدة الوجود»، (أى التجربة الترانسندتالية للواحدية) وقد اعترف بأن لها دورا وظيفيا . وما استخلصه من ذلك هو أن الحساسية التى وصفها قد ظهرت بضربة

حظ ، وأن لها دورا نافعا ٠ ولقد أثبتت فاعليتها عندما أنتجت نسقـــا ايكولوجيـــا ، تنظمـه الطقوس ، ويحاجى ماكهارج ويقول : ان المجتمع الصناعى يتعين أن يخترع أداة مماثلة فى نجاحها للتعامل والبيئة ٠ ولكنه عندما يشرع فى مناقشة هذا الاقتراح ، فانه يجنح الى التساؤل : « هل هناك مكان آخر نتجه اليه للاهتداء الى نموذج دقيق نسترشد به فى مسائل العالم وأنفسنا غير العلم ؟ » ٠

وهنا يكمن اللغز ٠ فهل يعد التحليل الوظيفى للجانب الروحى فى الطبيعة كافيا ؟ ٠ أو ألسنا نرى هنا أيضا رمزا ترانسندتاليا فى طريقه الى التكشف ؟ ٠ ان الايكولوجيـا نقف فى مفترق طرق حرج ٠ فهـــل تتحول هى الأخرى الى تقنيـة أخرى متمركزة حول الانســان ، تسعى لزيادة كفايتها فى الأداء ، الذى يهدف الى تحقيق صالح ذاتى مستنير ذى خبرة ، وقدرة على تدبير الموارد الماليـة لأمد طويل ؟ ٠ أم أنها ستقابل الروحانيين الطبيعيين تبعا لشروطهم ، وبذلك تكون قد اعترفت بأن واجبنا يتطلب أن نحتضن الطبيعة ، وكأنهـا شخص محبـوب ، يكمن فيه شىء مقدس ، مثلما يكمن فينا ؟ ٠

وتدعو الايكولوجيا الى الحذر ، ولـكن مـا الذى يدفعنـا الى التزام الحذر ؟ ٠ هل يرجـع هذا فقط الى أن سخائمنـا قد أصبحت تهـددنا بالخطر ؟ ٠ ان هذه مجـرد اجابة واحدة ، وتبعا لمفهوم هذه الاجابة فان الطبيعة ستظـل محتفظة بموضعتها ، اذا أمكن استغلالهـا بطريقـة أكثر مواءمة ، ولكن ثمة احتمالا آخر ٠ فعلينا أن نتعامل بحذر والطبيعة ، لأن الحذر تعبير عن العشق ، وعشقنا مدعو للقيام بدور ، وهذا كلام لا يقال من باب المجاز وحسب ٠

فعاجلا أو آجلا (وفى الحق ان الزمان المقصـود هو الآن) ستتمكن الايكولوجيا من الاستحواذ على حساسية مشابهة لحساسية الصيادين عند قبائل الايركواز ، وعلى رؤى جميع المؤمنين بروحانية الطبيعة ، وستضطر الى أن تواجه بكل اخلاص الحقيقة الهائلة التى ترى أن العلم الحديث فى أعمق استبصاراته الايكولوجية مدين للتقاليد الدينيـة ، التى تمتـد الى أصول احدى العقائد القديمة (الشامانية) ٠ اذ كانت تجربة الشعـور بواحدية الطبيعة تشع من خلال الوعى البشرى ، قبل أن يهتدى نيوتن الى الأعداد التى استعان بها لتصوير هذه الحقيقة العظيمة بأمد طويل ٠

ان الايكولوجيـا تتأرجح بالفعل على حافة الهرطقة ٠ فهل تتسم بقدر كاف من الشجاعة ، يساعدها على السير قدما ، وعندما تفعل ذلك فانهـا ستحدث ثورة فى العلوم فى جملتها ؟ ٠ ولو تحققت هذه الخطوة ، فانهـا

لن تكون مجرد امتداد فى ميدان البحث ، ولكن سيكون معناها حدوث تحول فى الوعى ٠ لقد قدمت لنا كاثلين رين Raine فى بيت واحد من الشعر « حد الموسى » بعد أن شحذته على أفضل وجه ٠

« ليست الطيور هى التى تكلمت ، وانما هم البشر الذين تعلموا الصمت » ٠

فعند كثيرين ممن أصابتهم الحضارة بالاغفاء ، من أولئك الذين تعلموا بالفعل أن الصمت (ويعد رمزا للصلصلة) ، الذى تمثله الايكولوجيا هو الوصلة الرهيفة الأخيرة بالتيار الأساسى للعلم ٠ انها العلم الأوحد الذى يبدو قادرا على استيعاب الاخلاقيات وتجربة الرؤى الروحية ، ومن ثم فان بمقدوره أن يكون علما للانسان فى شموله ٠ ولكن ليس هناك ضمان لقيام الايكولوجيا بمد ذراعيها لاحتضان هذه الأبعاد الأخرى من العقل ٠ وقد تنتهى فى صورتها عند محترفى أتباعها ـ على أقل تقدير ـ كشىء لا يزيد عن نسق معقد للحفاظ على الموارد الطبيعية ، وسيظل السؤال مفتوحا : ما الذى ستؤول اليه الايكولوجيا ٠ هل تصبح آخر العلوم العريقة ، أم أول العلوم المستحدثة ؟ ٠

● علم الذهن الرابسودى :

لما كان العلم يسيطر على لعبة الواقع فى المجتمع الصناعى الأرقى ، لذا فانى مقتنع بأن ما أقوم به الآن من انتقاد قاس لسيكلوجيته له اتصال كامل بمسألة استعادة سلامتنا الحضارية ٠ ولو فشلنا فى تغيير هذه اللعبه تغييرا جذريا ، لن يكون للصحة العقليــة أو الديموقراطية فرصــة كبرى للصمود أمام الزامات التكنوقراطية ، وبيئتها المصطنعة ٠ لهذا السبب ، فان العلم ذاته لا يحتمل أن يستمر فى البقاء فى صورة تزيد عن الصورة الكاريكاتورية لأخلص تطلعاته ، مالم ينضم الى حملة توسيع الوعى ، وان كان من المؤكد أن هذه المغامرة ستكلفه فقدان الكثير من الامتيازات التى يتمتع بها الآن بوصفه مخ التكنوقراطية ٠

لقد عرضــت جملة تشخيصات حكيمة لأوصاب علمنــا ورؤياه ذات الجانب الواحد ٠ وطالب ابراهام ماسلو Maslow بضرورة حدوث تكامل هيرارشى للكثير من أشكال المعرفة ، بما فى ذلك تلك التى تعلمناها فى تراث « زن » و « تاو » ٠ ومنذ أمد بعيد ، دعا لويس مامفورد الى ظهور علم يستند على « صــورة عضــوية للعالم » ، بدلا من الاقتداء بنماذج الآلات ٠ وسعى لانسيلوت لو وايت لخلق وحــدة بين الفن والأخلاق والفلسفــة الطبيعية فى نطاق علم « للشكل » ترتد أصوله الى جوته ٠ واستعمــل

بلاكبيرن تصور التكاملية Complementarity كنموذج لخلق تكامل بين التجربة الحسية والحدس والموضوعية . ولقد غدا ارثر كويسلر من ألسنة الحال الشعبية الرئيسية المعبرة عن اتجاه علماء البيولوجيا والنفس الذين ابتعدوا عن الأساليب الروتينية وعن السلوكيين ، والذين يطالبون بتركيز جديد على الوحدات الكلية والأنساق ، وتشترك نظرتى ونظرات جميع هؤلاء المفكرين فى الأساس الهائل الذى ينادون به . وجوهر نقدهم وانتقاداتى هو القول بأن العلم يرتكز على أساس محصور للغاية ، هـذا الأساس هو « الشخص » فلقد أوصد العلم الأبواب أمام الكثير من التجارب ، وبذلك يكون قد شوه تشويها شديدا ما يدرسه . وترتب على ذلك أن تحول الى جهاز آلى لانتاج الأبحاث . غير أن ما يصبه لا يضيف الى الفلسفة الطبيعية التى ترتقى بالحياة .

بيـد أنى أعتقـد أن أمام العلم ما هو أكثر من الانغماس فى رذائل النظريات الردية والآلية . اذ يتعين عليه أن يطهر نفسه من النزعة الحسية « الصنمية » ، التى ورثها من الخلفية العبرانية المسيحية . ولن يكون أى تغير فى العقل العلمى قد ذهب بعيدا بالقدر الكافى اذا لم ينجح فى اعادتنا الى الرؤيا الروحية للطبيعة . وفى هذه النقطة ، فان فكرى يعد صدى لمـا قاله « سيد حسين نصر » . فأنا أتماثل معه فى الاعتقاد بأن علمنا يجب أن يدرس مرة أخرى كيف يتأمل الطبيعة لا بوصفها عالما مستقلا للواقـــع والحقيقة . وانمـا باعتبارها مرآة تعكس واقعا أسمى ، وبانوراما هائلة من الرموز التى تتحدث الى الانسان ، ولهـا دلالة عنده ، وباختصـــار ان ما نسعى اليه هو خلق علم للذهن الرابسودى .

لعل هذا المطلب مطلب جسيم ، تصعب المطالبة به من مهنة منظمة تنظيما محكما ، وتبدو كأنها فى قمة النجاح الفياض والانبهار بقدرتهـــا على تحقيق « نتائج راسخة » . ان الرؤية المنفردة شديدة الابتعاد عن الوعى المؤمن بالمشاركة والتعددية ، والذى يحتاجه « الذهن الرابسودى » . ومع هذا وبمعنى آخر ، فان الذهن الرابسودى قريب من عقر داره ، نفس قرابة الرموز التى يهتدى بها العقل العلمى ، فى طريقه الهابط من خلال الزمان والمادة ، ويكفى فقط أن يتمكن العلماء من اعادة استعادة المعانى الجذرية لهذه الرموز ــ لنا ولهم ــ وادراك ما يدينون به للقدرة على الرؤيا ، التى نبعت منها الرموز . فحتى فى أتفه الصيغ الرياضية للعلم ، فاننـــا نرى الرموز تتهاوى فى انتظار بعث الدفء فيهـا ، واعادتها للحياة . ولم تك الأعداد دائما محرومة من الصليل ، كما جاهدت الفلسفة لجعلها كذلك . اذ كانت فى يوم من الأيام من موضوعات التأمل . ففى نطـاق التقليـــد

الفيثاغورى ، الذى يعد صورة متأخرة للسحر القديم المعتمد على الأعداد كأن كل فعل يجرى فى أية « حسبة » يعد تعبيرا عن الهارمونيات الجزئية فى نطاق « الواحد » ٠

ويرى نصير مذهب الرياضيات الردية (*) فى تطلعه لمواصـــلة عمله باستخدام أدوات للقياس ، أن هناك قدرا أعظم من النفع يتحقق اذا بدأنا بالواحد ثم اعتمدنا على عملية العد ، بعد تجميع أجزاء الواحد فى أكوام منفصلة لا معنى لها ، أى أكوام من الأشياء المتناثرة هنا وهناك فى خواء كأنها ذرات ديموقريطس وجسيمات الضوء عند نيوتن ٠٠٠ » بيد أن هذه الطريقة ليست الطريقة الوحيدة لتجريب العـــدد ٠ فهناك أيضا العـــد « الباطنى » ، الذى يساعد على الاحساس بأن الأشياء أجزاء من كل ، وأن الكثرة ما هى الا أجزاء تجرى وتتلاعب فى نطاق الواحد ٠٠ وفى حالـــة مثل هذا الاحساس بالعدد تكون كل معادلة عبارة عن موازنة بين قطبين واستخراج للواحد من الاثنين ٠ وأما فيما يتعلق بالصيغ الهندسية ، فانها لن تفقد سرها فى نظر الفنان ، أو نظر الرياضى ، كما يحتمل ٠ وليس مستبعدا أن يفلح أى قدر من الموضعة فى ازاحـــة الصليل الرمزى الذى ينبعث من التوتر الغريب بين الخط المتشكل والمكان الذى لا شكل له ، وبين ما هو محدد ، وما هو خال من التحديد ، نعم يتعين أن لا تفقد الأعداد والأشكال أى شىء من نفعهما ، حتى تظلان على اتصال بأسرارهما التليدة ، وان كان التأمل سيستغرق ــ بطبيعة الحال ــ وقتا من الأوقات المخصصة للقياس ، لأنه يبطىء البحث ، وليس من الأشياء التى بوسع الكومبيوتر اجراءهـــا ٠

على أن ما كان مقصودا بكل ذلك هو اعادة ملاحظة المفارقة الخاصة بوجود هوية بين الرموز الترانسندتالية والرموز المكثفة ، وان كان بينهما تضاد يتماثل والتضاد بين الصورة السلبية (العفريتة) وصورتها الموجبة . ولعل هذا يحذرنا ويعرفنـــا أن علم الذهن الرابسودى لايمكن أن يتحقق بثمن بخس ، أى بمجرد ذكر التفكير فى هذه المسألة بعد فوات الأوان ، كما أعتيد فى حالات البحث التى لاتتوقف ، كما أنها لن تتحقق باعطاء شباب العلماء دراسة اضافية فى طبيعة التاوية (نسبة الى تاو Tao) الصوفية ٠ اذ يتطلب هذا الأمر احداث تغير فى الحساسية الأساســـية للفكر العلمى ، ويتعين القيام بذلك ، حتى اذا اضطررنا الى اجراء مراجعة شاملة للطابع الوظيفى للعلم وموضعه فى الحضـــارة ٠ ولا يخامرنى أى شك أن مثل هذه المراجعة ستأتى فى القريب ٠ ان الذهن الرابســودى

---

* "reductionist"

سيمهل خطوة البحث (مقطوعيته) بقدر لن يكون محتملا تبعـا للمعايير المهنية الجارية · انه قد يخضع قدرا كبيرا من البحث لتأمل الطبيعة التى ربما عمقت المعرفة ، ولكنهـــا لن تزيدها · وقد تنتهى يقينـــا ببعض اتجاهات البحث من أثر نفورها من طابعها الردى ولا حساسيتها ، والمخاطر التى تلحقها بالمجتمع ·

فأى موضع اذن يتعين للعلم احتلاله فى حضـــارتنا ؟ · لقد قارن استيفان تولمين Toulmin الفكر العلمى بعمليه رسم الخريطة ، وأشار الى وجود تشابه بين علاقة النظريه بالطبيعـــة وبين علاقه الخريطة بالمنظر الطبيعى · وفى نظرى ، يعد هذا التشبيه مثمرا · ويستحق التمعن ، وان كان لمثل هذه التشبيهات حدود تقف عنـدها الى حد ما · ويتشابه أى نسق من المعرفة العلمية والخريطة ، فى أن كليهما يساعدنا على تخطيط رحلات ناجحة فى المدى القريب ، خلال أجزاء من العلم تم رسمها · انها وسيلة ناجعة وبارعة تيسر لنا قدرا عظيما من اليقين فى تنبؤاتنا وتكيفاتنا · وما من شك أنها تمثل براعة انسانية قيمة تبهرنا تبعا لذلك · ولكن ، وكما لاتستطيع أية خريطة أن تتجاوز كونها رسما تقريبيا مختارا للأرض التى تمثلها ، كذلك ليس بمقدور أية نظرية أن تكون أكثر من تمثيـل تخطيطى للطبيعة · ولا يعنى ذلك أنها لاتزيد عن مجرد نموذج ، لأن هناك نقطة التقاء حقيقية دائمـــا بين النظرية والجزء من الطبيعة الذى يرتبط بها · غير أن نقطة الالتقاء هذه لاتزيد عن نقطة ، وقد يكون من الصعب التشبيطن والقول على وجه الدقة ما هو طابعها · وغاية ما يمكن قوله هو أنها تساعد على ترتيب العالم حتى يستطاع التعامل معه بقدر أكبر من النجاح ·

وتتجاهل المعرفة العلمية ـ مثلما تفعل الخريطة ـ الكثير من أجل مثل هذا الهدف النفعى · وهذا هو الأساس الذى يرتكن اليه الاتجـاه الانتقائى الذى يتبع عند انشائها ، وقد نقضى على قيمة الخريطـة قضاء مبرما ، اذا تناسينا أنهـــا ليست المنظر الطبيعى نفسه ، أو أنها قادرة على تصويره تصويرا مستوعبا شـــاملا ، يتشابه معها تشابها بعيدا ، ولو تناسينا ذلك ، فاننا سنصاب بالجمود مثل أى روبوت يطيع برنامج الكومبيوتر ، ونفقد المرونة العقلية والحكم الحدسى الذى يتعين على كل مسافر أن يحافظ عليـه · وقد نتعرف بعد ذلك على الخريطـة فى أدق تفاصيلها ، وان كانت معرفتنا تتصف بأكاديمتها البحتة ولا تجريبيتها وضحالتها · وعند هذا الحد ، قد ينتهى الأمر بأن تصبح الخريطة شيئا غير عملى ، وتقضى بذلك على الغاية الأصلية منها · وكما عرف كل مكتشف

حكيم فى التاريخ فان أفضل خريطة لا يمكن أن تحل محل المرشد الوطنى الذى قد لا يكون قد سمع حتى باسم الخريطة . ولكن المرشد يعرف مواضع المطبات « والتخريمات » والموارد الدفينـــة فى أرض البلدة ، ويعرف أين توجد الوحوش الضارية ومواضع انتشار الحميات ، ويعرف كيف يتصنت لسماع الرسائل الخفية للأرض ، وكيف يحيا على هذه الأرض على أفضل وجه .

وعندما نصر على جعل المشروع العلمى الفيصـــل فى كل معرفة ، فان حالنا يتماثل وحال من يعتقد أن راسمى الخرائط يعرفون عن الأرض ماهو أكثر مما يعرفه الوطنيون الذين يحيون هناك ، أو الفنانون الذين جاءوا لرسم مواضع جمالها ، أو القسس الذين يحرسون بقاعها المقدسة . ومثل هذه النظرة حماقة تسير على قدمين ، اذا استعرنا عبـارة بنتام . انها تؤدى الى حالة الغطرســة السخيفة التى يتصف بها عالم الاجتماع ، الذى لا يعرف غير ما جاء بالكتب ، عندما يصر على القول بأنه يعرف عن الأكواخ وأحياء « الجيتو » أكثر مما يعرف الأهالى الذين يعيشون فيها ، بفضل النماذج السلوكية التى يسترشد بها ، أو نوع الأنساق التحليلية التى تشتمل على جميع أنواع المشروعات التخطيطية ، ولكنها لا تحتوى أبدا على تجارب من يحيون حياة فعلية على الأرض التى جرى عليها التخطيط ، أو هذا النوع من العلاج النفسى الذى يزعم أن الدكاترة يعرفون عن ادمان الخمر أو تعاطى المخدرات أو الأمراض العقلية أكثر مما يعرفه من ابتلى بهذه المصائب ، أو نوع الفزياء الفلكية astrophysics ، التى ترى أنها قد عرفت ما يكفى عن النجوم ، باستثناء لماذا نظـر اليها يـوما من الأيام نظرة تقديس .

عندما يفكر العلماء فى الطبيعة أو المجتمع أو البشر فانهم يفكرون فى الواقع فى مجموعة كبيرة من الانســاق والنماذج ، التى لا غنى عنها لمهنتهم ، والتى تحترم لأنها جديرة بالتقدير . غـير أن الجانب المصطنع فى هذه الأنساق شديد للغاية ، والفجوات بينها واسعة الى أبعد حد ، على الدوام ، بحيث تسمح بسقوط عوالم كاملة من التجربة من خلالها ، والظن أن جميع هذه الأنساق ستلتئم سويا يوما ما ، وتؤلف صـــورة كاملة ومطابقة لأصل الواقع يتشابه ومحاولة رســم خريطـــة كاملة لا تغفل أى شىء . ولو أمكن ذلك ، فان هذه الخريطـــة ســتتماثل فى ضخامتها واحتوائها على شتى الأشياء والأرض التى مثلتها ! ، وستصبح بالتبعية لا عملية بالمرة ، ولكن ما يبرر الاسلوب التجريدى الأسمى الذى يتبعه العالم فى نظرته للكون هو طابع هذا الاسلوب الانتقائى ، وما يحققه

من نفع محدود على أفضل وجه ، وحتى الانبهـــار الفكرى بتوهم حـل معضلات النظرية ، فانه مرتبط أيضا بمبدأ المنفعة باعتباره المحك الذى يحدد صحته • وما تمخض عن هذه التدابير ، كما يذكر فى القول الشائع هو الزعم بأن هذا المحك فعال حتى لو اقتصرت قيمته على شـحذ قدرة الباحث على التنبؤ بعواقب تجربته التالية •

ولقد ازدادت حضارتنا خيرا باتباع هذا الاسلوب من الفكر ابان القرون الثلاثة الأخيرة • ولقد نجحنا فى صقل هذا الاسلوب بحيث أصبح يتميز بالمهارة الفائقة ، فى العلوم الطبيعية على أقل تقدير • (وان كان تطبيقه على العلوم السلوكية موضع شك ، لأنه سـيكون أشبه برسم خرائط لمناظر طبيعية وهمية لاتتوقف عن التغير ، ويعيد سكانها خلقها على ضوء ما تكشفه أية خريطة جديدة) • وما نشعر به من زهو لهـذه المهارة أمر مشروع ، وان وجب الانتباه الى أنها رؤيا متخصصة قاصرة للواقع • وما أشبه المناقشات التى تدور بين العلماء بالنقاش فى المشكلات المتقدمة فى صنع الخرائط فى احدى الحلقات الدراسية ، والتى تتركز على طريقة رسم الخرائط ، ان ما يتحدث عنـه هؤلاء الرسـامون هو خرائطهم ، وليس المناظر الطبيعية • وهذا يفسر لماذا يبـدو ما يقولونه غالبا حافلا بالمفارقات عندما يترجم الى اللغة العادية ، وعندما يتناسـون الاختلاف بين الخريطة والمنظر الطبيعى ، وعندما يقنعوننـا بتناسى هذا الاختلاف ، ستترتب على ذلك جميع أنواع التبعات والعواقب ، اذ سينجم عن ذلك خطر امكان انحرافنا انحرافا يائسا عن أى اتصال بالمنظر الطبيعى نفسه • وقد يتحقق ذلك بقدر كبير بحيث يبدو أى تقدم نواصل الحصول عليه فى تقنيات صنع الخـرائط كمجرد تغلغل فى الحماقات المتعالمة ، ففى أية نقطة اذن يكون من الأفضل اغلاق باب العلم من أجل اسـتعادة المعقولية التى ولدت معنا •

أما الأسوأ من ذلك فهو ما ينتابنا من خطر الانبهار بالمتخصصين ، الذين تبدو معرفتهم الرهيفة بعيدة المنال عنا ، وهذه هى بداية السياسة التكنوقراطية • والحق ، لقد منحتنا البيئة المصطنعة خريطة نعيش فيها ، بدلا من العيش فى المنظر الطبيعى ، وهكذا وقعنا فى براثن رجل العـلم وقبضته ، وعالمه الذى يراه بعيون صناع الخرائط •

غير أن ما يفوق ذلك سوءا هو أننا عندما أخطأنا وتصورنا أن الخرائط هى والمناظر الطبيعية شىء واحد ، فاننا قد انتقصنا من قدر أية وسيلة أخرى لمعرفة أرض العالم ، ووصفناها بأنهـا نوع من الوهم • وبذلك أوصدنا أبواب أغنى مصـادر البهجة والتنور فى الشخصية الانسانية •

ثم نسينا بعد ذلك أن رسم خريطة لاحدى غابات قرية ما أدنى مكانة من زيارتها وزيارة أهلها ، كما أن رسم خريطة لأخدود مقـدس لا يرقى الى زيارته والتعبد على أرضه ، وقد يكون رسم الخرائط أمرا شائعا ونافعا ، وقد يتطلب قدرا كبيرا من الموهبـة الفكرية الذهنية ، وقسطا وفيرا من التدرب ، ولكنه لا يزيد عن وسيلة هامشية لمعرفة المنظر الطبيعي

فهل نحط من شأن العلم ، اذا نظرنا اليه على هذا الوجه ، لا تخفى صحة هذا الرأى • على أن العلم قد بولغ فى الاشادة به من أثر ضرورات الحياة المدنية الصناعية ، ومسايرة للانتهازية السياسية للتقنوقراطية • ان العلم قد وصل الى القمة الثقافية التى يحتلها الآن بطريقة فظة بدون وجه حق • وسوف يكتشف العلم أنه قد أصبح أكثر اتصافا بالانسانية بمجرد نزوله من هذه القمة • ويستحق العلم بوصفه مهارة انسانية أن يتابع كأى مهارة انسانية أخرى ، ولكن نتاجه لا يرتبط أيما ارتباط بما يعطى الحياة معنى اللهم الا اذا تكامل وأصبح مثلا أعلى للذهن الرابسودى •

فهل ستسنح الفرصة لكى يحدث مثل هذا التحول فى الحساسية فى نطاق المجتمع العلمى ؟ لست أتوقع كل هذا ، ان الذهن الرابسودى قد يعنى حدوث ثورة فى الوعى ، التى تحدث ثورات حقة من داخل القصر ، وبخاصة اذا كان العائشون بداخله يرتعون فى بحبوحة من العيش • ولو أمكن استعادة الرؤيا المقدسة للطبيعـــة ونظرنا الى العلم كدراســة للروحانيات ، فإن هذه المهمة ستتحقق من خارج من يمتهنون مهنة العلم . على يد المافريك Mavericks ، والمنشقين الذين تنازلوا عن امتيـازات الماندرين التى يتمتع بها أهل مهنتهم من العلماء ، من أجـل الاقتراب من الكتاب المقدس • وفى ظل المجتمع التكنوقراطى ، يدفع الفيلسـوف الطبيعى ثمنا باهظا مقابل اعتقاده أن الحكمة لها قيمة أكبر من المشروعات العملية • ويمر العلم فى صورته المتشامخة على مثل هذه الاستثمارات الهزيلة مر الكرام ايثارا لأبحاث المتخصصين بعائدها الوفير • بيد أن هناك أحداثا مهولة يضطلع بها شباب وعواجيز من الناعسين المخاطرين فى العلم من أولئك الذين يرغبون مشاركة الفنانين فى دورهم وأحاسيسهم ، ومشاركة متصوفى الطبيعة والفلاسفة البعيدين عن التيار السائد ، وخليط متنوع من مخربى الحضارة أيضا • انه سيؤتى ثماره يقينـــا فى الوقت المناسب •

ان علمنا مصاب بالهوس ، والأمر بالمثل فيما يختص بتكنولوجيتنا ، لأنه يحمل عبء الحضـارة الذى يدعـوه للبحث عن معنى لمجتمعه ، حيث يتعذر العثور على معنى ، أى فى واقع حافل بالرموز المكثفة • وهى مهمة

لا طائل وراءها ، لأن الرمز المكتشف هو بكل دقة الرمز الذى اغترب عن معناه الجذرى . انه لم يعد يناسب غير المعرفة المرتبطة بالقوة والسلطان . ومع هذا فسيواصل العلم شق طريقه بتزمت فى نطاقات دائمة التكثيف للوجود آملا أن يهتدى الى حقيقة قصوى ما ، قادرة على الزود عن مطلبه ، أى سر الحياة بعد تحضيره فى أنبوبة اختبار .. أصل الكون .. أو ميكانيزم العقل . غير ان أقصى ما سيهتدى اليه لن يزيد عن كاريكاتوريات رديئة ، ووسائل عملية عدمية Know how .

ولو صح أنه بالمقدور احداث تحول فى مبدأ الواقع فى العلم الحديث ، فان هذا التغير سيحدث بصورة عكسية ، وفى صورة هرطقة ، على حافة حضارتنا ، ويشق طريقه منها متجها الى المركز ، ولعل علماءنا وحراس الرؤى الفذة فى المجتمع المدنى الصناعى ، والذين يقومون بدور أشبه بدور صواميل الفكر فى النظام التكنوقراطى من بين آخر من سمع هذه الأخبار .

ازالة النفايات بقلم جون باسمور (*) :

[جون ارثر باسمور (١٩١٤ —) مؤرخ معروف للفلسفة وفيلسوف . تولى منصب عميد معهد الدراسات المتقدمة فى الجامعة الاسترالية الأهلية بكانبرا . وله اهتمامات كبيرة بالعلم والمسرح والأدب والموسيقى والفنون الرفيعة] .

فى نظرى ، ثمة تنافر بين الزعم بأنى قد قمت بحل احدى مشكلات العالم الايكولوجية ، وبين أحد ادعاءاتى الأساسية . فلقد ذكرت أن المشكلات الايكولوجية لا يمكن أن تحل الا اذا اشترك فى حلها العلماء والتكنولوجيون ورجال الاقتصاد والسياسة والادارة ، ولم أذكر اسم الفيلسوف من بينهم ، فما بالكم اذا أراد هذا الفيلسوف القيام بمهامهم جميعا ، اذن فماذا فعلت ؟ . ولو صحت مقارنة الأشياء الصغيرة بالأشياء الكبيرة . فان ما قمت به كان السعى — مثلما فعل جون لوك — الى القيام بدور أحد صغار العمال ، فقد حاولت أن أزيد الأرض استواء ، وأن أزيل النفايات التى تعترض طريق المعرفة ، ثم انتقل عن طريق المعرفة الى الناحية العملية الفعالة . وسأحاول أن أنظر الآن نظرة أكثر تبصرا بالعواقب لما حاولت ازالته .

(*) نقلا عن Removing the Rubbish
ضمن كتاب Man's Responsibility for Nature
تأليف John Arthur Passmore (١٩٧٤) .

أولا ـ « النفايات الغيبيـــة » ، واعنى بذلك النظرة القـــائلة بأن الغيبيات قادرة على انقاذنا ، بينما تعجز التكنولوجيـا عن تحقيق ذلك • ولقد كان للعلم والتكنولوجيا والديموقراطية وحرية العمل دائما أعداء • « فالنزعة الغيبية » و « النزعة البدائية » و « النزعة السلطوية » ــ كان لجميع هذه النزعات أنصار على الدوام • ولم يك الاحتجاج المستند الى مبادىء الايكولوجيا موجها ضد قصر النظر والطمع فحسب ، ولكنه انصب ـ بصفة أساسية ـ على تلك النظرات الخاصة بالطبيعة والمجتمع ، التى تسخر لتبرير قصر النظر والطمع ، وكان لها ما يبررها ما فى ذلك شك ، كما اعترفت بكل حرية • غير أن هذا الاحتجاج قد استغل كسلاح جديد وقوى فى المعركة القديمة بين العقلانية والغيبية ، مثلما حدث عندما حاول فريزر دارلنج أن يقنعنا بأن الغرب قادر على حل مشكلاته الايكولوجية ، اذا نظر للمشكلة نظرة جامعة ، أو نظر اليها على طريقة زرادشت ، وأدرك أننا جميعا من خامة واحدة ، وأن الاختلاف يقتصر على الاختلاف فى الدرجة ، وأنه بالمقدور تصور الله ككينونة قائمة فى الكل ، ونابعة من الكل ، أى ككون يتصف بالجلال والقداسة (وطبقا للموضة الشائعة ، فقـــد جنح دارلنج الى اكتشاف تمثيل زرادشت للغرب فى أسمى حالاته ، هكذا وبكل بساطة) ، وبعد لحظة ، رأيناه يستحثنا على ممارسة المثل الأعلى لطبيعتنا الأرستقراطية ، وأن نكون خادمين للكوكب الذى ولدنا من أجله ، والذى مازلنـــا مرتبطين به (١) • ان تضرعه ، بالكمــــون immanence والأرستقراطية فى الوقت نفسه ، وتأكيده لوجود اختلافات أساسية ، وانكاره لها فى نفس السياق ، لأعظم مثل فذ للتفكك الفكرى للنزعة الغيبية الغربية • والمثل الأعلى للأرستقراطى الذى يقوم بدور الخادم • سواء لله أو للشعب أو لكوكب الأرض ، من مظاهر الاتجاهات التسلطية • وتعمل فلسفة « الكل » كما تمثلت فى المثالية الكلاسيكية الجرمانيـة للربط بين الشيئين • اذ يعد الكل الشامل مطلقا اجتماعيا وميتافيزيقيا معا • وفيه ينغمر الفرد انغمارا كاملا • ولم يأت فريزر دارلنج بأى جديد عن الحضارة الغربية • وكل ما حاول استحداثه هو الاعتراف بهيمنـة وهم من أخطر الأوهام التى خضعت لها هذه الحضارة ، أى الوهم الغيبى الشـــمولى • ولقد قمت بالاحتجاج على هذه المحاولة بالذات •

---

(١) Man's Responsibility for the Environment — Frazer Darling ضمن كتاب اشرف على تحريره Ebling بعنوان Biology and Ethics ـ منشورات معهد البيولوجيا لندن ١٩٦٩ رقم ١٨ ص ١١٩ ، انظر أيضا الى مقال The Rhetoric and Ethics of the Environment تأليف George Seddon (ديسمبر ١٩٧٢) ص ٤٢٧ ـ ٤٣٧ •

بطبيعة الحال ، هناك أسباب خاصة تفسر لماذا اعتقد كثيرا أن الايكولوجيا فى جوهرها اتجاه غيبى ومناهض للعلم ، أو اتجاه يجر فى أذياله فلسفة تسلط الكل على الفرد أو الجزء • لقد كان الاتجاه العام للعلم الغربى تحليليا ، يرمى الى تفتيت الأشياء الى مكوناتها الذرية ، وفسر السلوك على نطاق واسع بالرجوع الى سلوك الجزيئات والجسيمات ، ومن ثم قام علم «التربة» الكلاسيكى بتحليل تربة الأرض الى كثرة من الجزيئات ، التى تتماسك بفعل القوى الفزيائية • وهذه الطريقة فى النظر الى حال التربة ، لها أهمية كبرى ، فى بيان مسلك بقعة من الأرض عند هطول مطر غزير ، أو عند حرثها • ولا ينظر العالم الايكولوجى الى الأرض على أنها مساحة من التربة ، ولكنه يراها بالأحرى كعنصر من مقومات الطاقة ، ينتمى الى « كل » أكبر • وفى هذا الصدد كتب ألدو ليوبولد : « ليست الأرض مجرد تربة • انها نافورة أو نبع للطاقة ، تتدفق فى شكل دوائر أو حلقات من الترابيات والنباتات والحيوانات • ان التسلسل الذى تمر فيه عملية الغذاء بمثابة القنوات الحية التى تنقل الطاقة الى أعلى ، ثم يعيدها الموت والتحلل مرة أخرى الى التربة (٢) » • ويرجع التغير فى خصوبة التربة الى تقطعات فى مثل هذه السلسلات وللدورات ، بالمثل • فبينما يدرس العالم البيولوجى من أنصار المذهب الذرى الكائن العضوى باعتباره نسقا من الخلايا ، ومن الجزيئات ، فان العالم الايكولوجى ينظر الى موضع هذا الكائن فى نسق أرحب يتجاوزه ، والى العلاقة بين هذا الكيان العضوى وموضعه ، وبين أنساق أرحب •

على أن هذا لا يعنى أن الايكولوجى قادرعلى استبعاد الدراسات المعملية ، أو الاستغناء عنها • فاذا تطلع الايكولوجى لفهم الطريقة التى تتكون بها الأملاح الزئبقية فى الكائنات البشرية ، توجب عليه أن يبحث أولا ـ طبيعة سلسلة الغذاء ، التى تيسر للأملاح الزئبقية الموضوعة فى حمام بخارى من شق طريقها الى أمخاخ الكائنات البشرية •

ثانيا ـ أن يبحث أيضا ما يحدث فى أنسجة كل عضو من الأعضاء التى يتألف منها مسلسل الغذاء • ولا يخفى أن اعتماد العالم الايكولوجى على تصورات مثل الطاقة أو الدورات أو سلاسل الغذاء ، لا يعنى بأى حال ، أن الايكولوجيا شىء أسمى من العالم •

وهذه نقطة حاسمة • فالعالم لا ينشد ـ من الناحية الجوهرية ـ أية غاية « ذرية » كأن يفسر ما يحدث فى ظاهرة المد بارجاعها الى قوى تعمل فى النظام الشمسى • وأحيانا يحتاج المرء لتفسير مسلك شىء ما الى النظر فى مظاهر الفعل الذى يتمثل فيه هذا المسلك ، أو كما يعبر عن

---

(٢) A Sand Country Almanac — Aldo Leopold. ص ٢٠٣ •

دلك فى الجزئيات أو الجسيمات التى يتألف منهما . وأحيانا قد تدعو الحاجة الى النظر فى النطاق الأرحب الذى يقع فيه الفعل . ولكن والأكثر شيوعا من ذلك ، فقد تتطلب الضرورة النظر فى الحالين ، كأن يفسر مسلك الشخص بالرجوع الى تكوينه والعوامل الوراثية ، وأشكال الفعل التى ورثها ، وأيضا من ناحية البيئة الحضارية التى عاش فى غمارها . فلربما رجع تلعثمه أو تلجلجه الى أنه ولد أشول فى حضارة تتطلب من أبنائها الاعتماد على أيديهم اليمنى .

وليس من شك أن ما ذكره الايكولوجى عن السلاسل والدورات ، قد يدعونا الى تذكر أمثلة من الماضى تتداعى وما ذكره عن المصلصلات ، وسيتبادر الى خاطرنا « السلسلة الكبرى للوجود » فى الفلسفة الكلاسيكية ، أو دورات الحياة التى أولع بهما الصوفيون « كالحلقة المتصلة للخير ــ من الخير وفى الخير والى الخير » (٣) . على أن أمثال هذه المتداعيات لا تحظى بأى تبرير من الاتجاهات الفعلية ، التى يتبعها الايكولوجيون . فليست « الوحدات الجامعة » Wholes ، التى يعنى بها الايكولوجى وحدات غيبية . فحديقتى الخلفية قد تعد نسقا ايكولوجيا ، ولا يصح ادراجها تحت نوع الوحدات الجامعة الميتافزيقية ، التى تتحول فيها جميع الاختلافات الى اختلاف فى الدرجة ، بالرغم من أن فريزر دارلنج قد أشار الى غير ذلك . والحق أنه بالرغم من امكان دراسة الايكولوجيا فى مستوى أعلى من المستوى التجريدى ، اذا نظرنا اليها كتحولات تطرأ فى ناحية الطاقة ، الا أن أحد الاسهامات التى شاركت بها فى الفهم الانسانى ، انما ترجع الى تركيزها على أهمية الاختلافات الفردية والعواقب بعيدة الأثر ، التى قد تنجم مما يبدو للوهلة الأولى كتغير طفيف فى الانتماء الى نسق . فلن يختلف التقليد العلمى الغربى وبزوغ الايكولوجيا الا فى الزعم الخاطىء بأن العلم يجب أن يتخذ مظهرا ذريا . وهذا خلاف لن يستطاع الخلاص منه الا بنبذ العلم والارتماء فى أحضان الغيبيات .

ونحن اذا أردنا حل مشكلاتنا الايكولوجية ، فاننا لسنا مضطرين ــ من جهة أخرى ــ الى النظر الى الطبيعة نظرة تقديس . فان مثل هذه النزعة قد تعد حجرة عثر فى الطريق الى المعرفة ، ومن ثم فقد يعد مثل هذا التراجع ، كما أشرت ، تنازلا عن تقاليد العلم الغربى برمتها ، التى قد تعتبر أعظم منجزات البشرية . فالنظر الى الطبيعة نظرة تقديس يعنى

---

(٣) C. E. Rolt فى كتاب من المختارات تحت اسم Dionysius the Areopagite on the Divine Names and the Mystical (لندن ١٩٢٠) ص ١٠٧ .

ننظر اليها بمنظار نزع الى رفضه العبرانيون واليونانيون · فلو نظر اليها على أن تحتوى على حرمات وأسرار ستكون محاولة فهمها تدنيسا وانتهاكا للحرمات ، وستعد محاولة فهمها أو التحكم فى اتجاهها أمرا غير مناسب ، لأن علينا أن نخضع لها ونعبدها (٤) والعلم مختلف عن هذا الاتجاه ، لأنه يحول الأسرار الى مشكلات · يامل فى الاهتداء الى حلول لها·

وفضلا عن ذلك ، فان مثل هذه الرجعى ليست ضرورية ولا تفى بالغرض لو أردنا انقاذ الكون والحياة القائمة فيه ، انها يقينا غير كافية · اذ أن المجتمعات التى بدت الطبيعة فى نظرها أمرا مقدسا ، قد قامت رغم ذلك بتدمير موطنها الطبيعى · وتصور فقرة من محاورة اقريطياس لافلاطون هذه النقطة · وفيها يصف آتيقا : « لم يبق سوى عظام الأجسام الفانية ، كما يمكن أن توصف ··· بعد أن تساقطت وتوارت جميع الأجزاء الأخصب والأرق من التربة · ولم يبق غير هيكل الأرض فحسب ، على أنه فى حالة بداوة هذه البلد ، كانت جبالها عالية مغطاة بالتربة . وكانت السهول مليئة بالأراضى الغنية ، وكانت هناك وفرة من الغابات تكسو الجبال » (٥) · ويذكر لنا افلاطون أن ما يشهد على حدوث هذا التدهور هو استمرار وجود ذكريات لها صفة القداسة عن بعض مواضع كانت قد أصيبت على عهده بالجفاف . بعد أن كانت فى وقت ما تنتعش بالحياة من أثر ما يتدفق فيها من أنهار وقنوات · ان الانسان لا يحتفظ بالضرورة بالقناة التى كرسها للاله · فقد يتماثل فيما يلحقه من دمار الجهل البسيط أو الطمع هو والأساليب التكنولوجية ، التى تقتصر على التعريف بطريقة تشغيل المعدات Know how . وكما ذكرنا ، ليس هناك موضع آخر ظهر فيه مقدار ما تلحقه الايكولوجيا من دمار مثلما حدث فى اليابان فى يومنا هذا ، رغم كل تقاليدها وعبادتها للطبيعة ·

والحق فاننا اذا سايرنا هذه الحجة الى ما هو أبعد ، سنرى أن الاعتقاد بأن الطبيعة مقدسة قد يوحى بأشياء ضد محاولات الحفاظ عليها · فقد يقال أنه اذا صح أن الطبيعة تتمتع بالقداسة ، فان بمقدورنا أن نتركها وشأنها لكى تعنى بنفسها · فلنتأمل ما ذكره امرسون (٦) : « فى الغابات ، نحن نرجع الى العقل والايمان · فهناك أشعر بعدم وجود شىء سيحدث لى فى الحياة ، أى أى شىء أو كارثة تعجز الطبيعة عن اصلاحه ،

---

(٤) انظر فى هذا الشأن كتاب Kingship and the Gods. — Henry Frankfort.

(٥) افلاطون : محاورة اقريطياس . ترجمها الى الانجليزية جويت (١٨٩٢) الجزء الثالث

(٦) Nature Addresses and Lectures — R. W. Emerson. (١٨٧٦) ص ١٠

لأن تيارات الوجود الكونى تدور من خلالى . فأشعر كأنى جزء لا يتجزأ من الله » غير أن امرسون قد تعاطف وتسامح مع من أساءوا الى الأرض الأمريكية ، عندما كانوا يشقون طريقهم آنئذ الى الغرب الأمريكى . اذ كانت « القوة الاستردادية أو الاسترجاعية للطبيعة » فى نظره ضمان كاف لاثبات أن الاعتماد على الطبيعة دون قيد أو شرط ، والذى كان يعجب به ، لن يتسبب فى حدوث دمار أو خراب (٧) . فكما أن الطبيعة قادرة على علاج البشر ، فانها قادرة أيضا على علاج نفسها . والطبيعة ، التى تتصف بالقداسة ليس باستطاعة البشر تدميرها ، ولن أكف عن القول بأن النظر الى الأزمات الايكولوجية نظرة جادة يعنى الاعتراف ـ أولا ـ باعتماد الانسان اعتمادا مطلقا على الطبيعة . وثانيا ـ ان تعرض الطبيعة للسلب والانتهاك من البشر ، يعنى اتصاف الانسان والطبيعة على السواء بعدم القداسة أو شبه القداسة (*) ، رغم قدرتهما الملحوظة على البرء من كل ما يصيبهما .

وثمة ما هو أكثر من المفارقة الصغيرة فى هذه النظرة ، عندما تصدر من قبل بعض القائلين بضرورة الحفاظ على البيئة من المتمسكين بالايكولوجيا عندما يعتقدون اننا بحاجة الى الرجعى الى نزعات غيبية للنظر الى الطبيعة ، لأن الايكولوجيا ـ بالرغم من أن بعضا ممن يمتدحون الايكولوجيا قد يرغبون فى اقناعنا بغير ذلك ـ محاولة علمية جادة تعتمد على عون مستحدثات تكنولوجية كالكومبيوتر ، لفهم الأشياء التى مازال العلماء يعتبرونها خافية غامضة ، كالوسائل التى يتبعها الناس فى الاستجابة للتقلبات البيئية . وليست هذه الوسيلة فى النظر الى الايكولوجيا موضع رضاء أولئك الذين يأملون فى حلول الايكولوجيا محل التحليل العلمى ، من أمثال تيودور روشاك ، ويودون ظهور « علم جديد يكون فيه موضوع المعرفة مثل معشوقة الشاعر ، أى شيئا يصلح للتأمل ،

---

(٧) قارن ما قاله فى هذا السان S. L. Udall فى كتاب The Quiet Crisis

(*) قد يكون من الصحيح أنه فى مجتمعات الصيد ـ وهو المثل الذى كثيرا ما يطرح ـ قد ساعد الاعتقاد بقداسة الطبيعة وبقدرة الحيوانات على الفهم الى حد ما كوسيله للحماية ضد ابادة النوع (بالرغم من أن الانسان فى عصر الصيد كان مسئولا مسئولية كبرى عن اختفاء الكثير من الثدييات الضخمة كالقنفر العملاق فى استراليا وحيوان الماو فى نيوزيلاندة والماموث ذى الفروة الصوفية فى أمريكا الشمالية) ، وهذه مسائل قد اتضحت الآن ، على أنه كما أثبتت الأحوال ، فان مثل هذه المعتقدات لم تشذ عن تقاليدنا ، بحيث تبدو محاولة اعادتها للحياة أمرا مستحيلا ، انها قد لا تنجح فحسب .

لا للتحليل ، أى شيئا يسمح باستبقائه لأسراره وخفاياه » (٨) بيد أنه اذا كان روشاك وأتباعه المناهضين للحضارة قد شعروا بالاحباط عندما اكتشفوا أن الايكولوجيا ليست أكثر من فرع من فروع العلم ، وأنها تستبعد الغيبيات ، فان كثيرين من بيننا يرون أن هذه الحقيقة تثبت أن العلم الغربى ما زال خصبا ، وما زال قادرا على الاسهام فى حل المشكلات التى تهدد الكائنات البشرية ، حتى عندما تكون مشكلات من صنع أهل العلم أنفسهم ٠

وأما أن العلم ما يزال يتمتع بخصوبته فأمر مسلم به ٠ اذا راعينا - كما لاحظت مرارا - ان الجهل من أشد المعوقات تأثيرا ، التي تحول دون نجاحنا في حل مشكلاتنا الايكولوجية ٠ انه جهل ليس بمقدور أى شيء ازاحته غير العلم ٠ وما من شك ان تحت امرة الغرب الحديث وفرة من العلم لم تعرفها المجتمعات في سالف العصر والأوان ٠ ولكنه لا يملك نوع العلم ، أو مقداره اللذين يحتاج اليهما الآن ، فما نعرفه عن أساليب عمل المجتمعات لا يمكن أن يقارن فى مداه بمعرفتنا لكيفية عمل المجموعة الشمسية ، على سبيل المثال ٠ فنحن نملك نزرا يسيرا من المعرفة بأحوال الجو والبحار ودورات الحياة عند الأنواع التى لا حصر لها من نباتات وحيوانات ٠ وقد يظن أننا نعرف قدرا كبيرا من المعارف - اذا تحدثنا بلغة المطلق - الا أننا نجهل نسبيا الشيء الكثير مما نتمنى معرفته ٠ ولم يكن الفلاح الذى يحرث أرضه ويستعمل آلات تقليدية ، ويحيا فى مجتمع تقليدى بحاجة الى معرفة الكثير ٠ بيد أن المهمة التى تواجهنا الآن عندما نحاول تقدير الآثار البعيدة المدى للأفعال فى عالم الأحياء والمجتمعات البشرية جسيمة للغاية ، اذا راعينا مقدار جهلنا العارم ، الذى يكاد يكون كاملا ٠

ويتطلب تصحيح هذا الوضع ثورة بسيطة فى العلم ٠ وانى على استعداد كامل للاعتراف بذلك ٠ وسيكون رجل العلم مضطرا - على حد قول صدر من أحد زملائى العلماء : « الى التمرغ فى الأوحال البدائية التى تعرف باسم الدراسات التى تتأرجح بين العلم واللاعلم » ٠ وسنرغم على

---

(٨) Ecology and Mysticism — Theodore Roszak مجلة Humanism. عدد مايو ١٩٧١ ، انظر أيضا لكتاب Life against Death. تأليف Norman Brown (لندن ١٩٥٩) الجزء الخامس الفصل ١٥ ص ٢٣٦ ٠ والخلاصة التى أوردتها فى كتاب The Perfectibility of Man ص ٣٠٦ ٠ انظر أيضا The Revolt against Science — Passmore البحث الثالث ص ١١ ، ١٢ (ديسمبر ١٩٧٢) ص ٤١٢ - ٤٢٢ ٠

توجيه قدر أكبر من الاحترام لعلماء من أمثال أولئك الذين يعملون خارج المعامل • فثمة محاولات فى العلم أشبه بنقر العصافير ، وتكاد معظم محاولات العلم فى ميدان التاريخ الطبيعى أن تكون من هذا القبيل • انه الميدان الذى لا يحتمل حصول عالم الطبيعة فيه على جائزة نوبل • أو حتى على عضوية الأكاديمية الملكية • ولكن ثمة بشائر تدل على أن مثل هذه الثورة فى طريقها الى التحقق ، وان كانت ما زالت فى مرحلة المحاولات (*) • فلقد بدأت الدراسات الميدانيــة تستعيد شيئا ما من مكانتها السابقة • وعلينا أن لا ننسى أن داروين لم يعمل فى أحد المعامل • فعلى أقل تقدير ، لقد أصبحنا نرى العلماء المميزين يغمسون أصابعهم فى تلك « الأوحال البدائية » • والقول بأن العلم يحتاج الى اتجاهات جديدة شيء ، والقول بأن على الغرب أن يطرح جانبا تقاليده ، التى كسبها بعد لأى ، فى مجال البحث التقدمى ، شيء آخر • انه فى حاجة اليوم الى التقاليد أكثر من أى يوم مضى •

فما الرأى فى النظرة التى كثيرا ما تقترن بالعلم والتكنولوجيا ، والتى تعتقد أن الانسان سيد العالم ؟ ألا يتعين الابتعاد عن مثل هــذه النظرة ، على أقل تقدير ، لو كان من غــير المرغــوب فيــه الابتعـــاد عن العلم ؟

ان « سيادة الانسان » مسألة يسهل فهمها على أنحاء مختلفة ، كما سبق أن أشرت • وتختلف من حيث مقدار ما فيها من « غطرسة » • وعند أدنى حد لتفسيرها ، فانهــا تعنى « الترخيص » للناس بالاقتيات عن طريق استعمال ما يصادفونه حولهم ، على نحو ما يفعل أى حيوان آخر • أو اذا استبعدنا اللغة الأشبه فى اضطرابها بلغة رجال القانون ، والتى استعملت فيها كلمات مثل « ترخيص » و « سيادة » و « حقوق » • وهذا ضرب من الكلام ســمعناه أكثر مما يجب ، فاننا سنتخيل أن هذا التفسير يعنى : « أنه لا وجود لشيء يعتبر اتباع الناس له فى مسلكهم خطأ أخلاقيا » • • وحتى اذا فسرناه على هذا الوجه ، فان الزهاد المتزمتين

(*) من أعظم الأمثلة اثارة للاهتمام التى واجهتنى المثل الخاص بالمحاضرة الاستهلالية التى ألقاها A. G. Pippard بوصفه أستاذا للفزياء فى جامعة كيمبردج • اذ قال ان الوقت قد حان لكى يوجه العلماء انتباههم الى الظواهر العويصة للعالم الفزيائى الحق ، بدلا من تركيزهم ـ كما حدث فيما مضى ـ على الموضوعات الأبسط والأكثر لطفا المتعلقــة بالقوانين الطبيعية ، ان صدور هذا الرأى من أحد كبار أساتذة الفزياء مسألة لها وزنها • انظر الى كتاب A.B. Pippard : Reconciling Physics with Reality (كيمبردج ١٩٧٢) •

سيرفضونه ، وسيرفضه — على سبيل المثال — الافلاطونيون الجدد من امثال فورفوريوس ، الذى كان يرى قصر الطعام الذى يأمل الآخرون الحصول عليه لسد رمقهم على تلك الثمار التى لا تحتاجها النباتات من اجل التكاثر (٩) • (ويعد هذا الحل — على أية حال — أفضل من الحل الذى فرضه صمويل بطلر لأسباب مماثلة على أنبياء اريهون (*) — الذين تركوا الثمار لكي يصيبها العفن ، وتركوا أوراق الكرنب تذبل وتموت) • ولكن وأيا كان الموضع الذى ترسم فيه الحدود ، فان بمقدورنا أن نصل الى القول — كما ذكرت — بأن الانسان قادر على العيش ككائن يمشى على قدمين ، سواء تغذى على النبات أو الحيوان • واذا أراد توطيد الحضارة، فان عليه أن يتجاوز أو يعلو على الحالة البيولوجية الآنفة الذكر ، أى أن عليه أن يستأنس قطعان الماشية ، وأن يحسن استعمال محاصيل النبات • وعليه أن يعرف كيف يسود جزءا ولو صغير من الطبيعة • ولما كان مضطرا الى اتباع هذا المسلك ، فلا معنى للادعاء ، بأن على الانسان عدم القيام بأى شىء يحدث اضطرابا أو خللا فى الأوضاع الايكولوجية القائمة ، أى أن لا يحاول القيام بأى جهد للتحكم فيها •

وعلى الطرف المقابل ، فان عبارة « التحكم فى الطبيعة » قد تفسر وكأنها تجر فى أذيالها الاعتقاد بأن الطبيعة أشبه بقطعة شمع بين يدى الانسان • واذا فسرت هذه العبارة على هذا النحو ، فمن الواجب ان يرفض هذا التفسير • وانى أقر ذلك • والحق أن هذا الرأى لم يك مستصوبا قط • وكان بالبوس Balbus عند شيشرون يزهو لأن البشر بفضل مخترعاتهم فى عالم الملاحة قد نجحوا الآن فى السيطرة على الريح والأمواج ، وان كانوا — كما أظن — لم يجربوا الأعاصير الدوارة الاستوائية• وحتى الآن ، فان البشر عندما يزعمون القدرة على السيطرة على الطبيعة ، فان كلامهم لا يرتفع عن درجة الهمس ، للحفاظ على شجاعتهم ، واذا كان علمهم بعد أن تحول الى تكنولوجيا قد يسر لهم السيطرة على بيئاتهم الطبيعية ، على نحو أعظم تأثيرا من قدرة أى حيوان آخر ، الا أنه ما فتىء يذكرهم — كما أشار كارل بوبر بصفة خاصة — بما عجزوا عن تحقيقه • وكما أثبتت الايكولوجيا الآن بقدر كاف ، فان المذهب القائل بأن الطبيعة قابلة للتشكل الى ما لا نهاية ليس مجرد وهم ، ولعله يبعث الاطمئنان فى قلوب البشر عندما يشعرون بالاحباط ، ويحتاجون الى ما ينعش آمالهم • ولكنه وهم خطير •

---

(٩) فورفوريوس — IV De Abstentia ص ٢٠ •

(*) رواية Erehon تاليف Samuel Butler

ومن الميسور صوغ تفسير وسط على هذا الوجه : البشر وحدهم قادرون على تحضير العالم • وهذه مسئوليتهم الرئيسية أمام أقرانهم • ولا جدال أن فضائل الحضارة قد أصبحت الآن موضع ارتياب فى بعض الأحيان • ولقد عاود « الهمجى النبيل » مرة أخرى استعمال أساليبه الايكولوجية فى الصالونات الفكرية •

وفى الحق ، فاننا اذا تساءلنا عما أضافه البشر الى العالم بفضل وجودهم فيه ، فان بوسعى ذكر اجابة واحدة ممكنة : الحضارة • فلولا قدرة الانسان على التحضر ، فانه ما كان ليزيد عن دابة من الدواب التى تدب بقدميها ، وان كان سيتصف بعظم قوته وتفوقه فى العدوان والعنف والمهارة فى أسر فريسته دون أن يظهر أى تفوق فى أى مجال آخر • وسيتصف فى مجالات كثيرة بضآلة الشأن بالمقارنة بالفرائس التى يقتنصها ، ان جميع النفائس والذخائر التى يكتنزها الانسان من علم وفلسفة وتكنولوجيا وفن معمارى ، ومناظر فطرية فى الريف قد قامت على أساس محاولة فهم الطبيعة والسيطرة عليها • ولقد اكتشف البشر بفضل صراعهم والطبيعة قدراتهم ونهضوا بجميع أشكال المخططات التى تكون حضارتهم • ولقد أصبحت « المناظر الفطرية فى الريف » مجرد ذكرى ، بعد أن غدت حتى مشاهد توسكانيا أو انجلترا ، و Kyusha

من خلق الجهد الانسانى والكفاح الانسانى • وعندما كتب كاوبر : « الله قد صنع الريف • الله قد صنع المدينة » ، فانه قد أخطأ بكل بساطة ، اذ كان الريف الانجليزى الذى عرفه كاوبر وعشقه من صنع البشر الى حد كبير (وهل هناك اله لا يفخر اذا استطاع أن يخلق مدينة مثل مدينة باث فى القرن الثامن عشر ؟) ان هذا القول ، ورغم ما فيه من غموض هو ما رآه هيجل وأتباعه ، وانتقل الى الماركسيين • فاذا اعتقد البشر أن واجبهم « يدعوهم الى اخضاع الطبيعة » ، لأنهم وحدهم قادرون على الخلق ، لن يكون هذا الكلام من قبيل اللغو النظرى ، ومن هذه الناحية ، ومن هذه الناحية فقط ، يكون من حقهم الزعم « بالسيطرة على الطبيعة » •

كما أنه رغم ما فى الزعم بأن الطبيعة قد وجدت لخدمة الانسان فحسب من مظهر بعيد عن الصواب ، فهل هناك من يعترض على النظرة الأضعف من هذا الزعم والتى شارك فيها ديكارت ، والتى رأت أن كل ما هو موجود فى الطبيعة له بعض النفع لنا ، ان هـذه النظرة ليست فرضية تجريبية ـ كما تبدو للوهلة الأولى ـ لأنه لا محل لاثبات زيفها ، اذ سيظل من الميسور لأى شىء على الدوام ، أن يثبت نفعه لنا ، بعد أن نكون قد طرحناه جانبا باعتباره عديم الفائدة لنا ، وسيكون قادرا على

الاضطلاع بدور المبدأ الهادى ، الذى يستحث البشر على البحث عما يفيد فى مواضع غير متوقعة ، وتثبيط همتهم اذا حاولوا تحطيم ما قد يتضح فى المحصلة النهائية أن له أهمية حيوية لهم • واذا أثبت جدواه على هذا النحو ، فانه لن يستحق ــ يقينا ــ أن يطرح جانبا باعتباره من «النفايات» •

والأخطار المترتبة على افساد الطبيعة من النقاط ، التى ركز عليها النقاد الايكولوجيون • ولا يخفى أن من واجبنا ــ بطبيعة الحال ــ أن نسلم ، كما ذكر ارليش بأن « أى رتق للأوضاع البيئية قد تترتب عليه عواقب غير متوقعة ووبيلة » (١٠) • ولكن وكما كررنا مرارا عندما سنحت الفرصة بذلك ، ليس أمام الانسان أى خيار ، غير أن يعيش فى خطر • فاذا ترك نفسه للانفزاع بحقيقة كونه لا يعرف ما الذى يفعله ــ بمعنى ما ــ فانه ما كان ليجسر على القيام باى شىء يتجاوز بيئته المباشرة ، ولا كان ــ بكل تأكيد ــ ليقدم على استئناس الحيوانات . ناهيك بالفلاحة والصناعة • والحق أننا اذا تابعنا وصف « ارليش » للانسان بأنه كائن صغير وخطير لنتيجته المنطقية ، فاننا لن نكون بعيدين عن صورة علاقة الانسان بالطبيعة كما جاءت فى قصيدة شعر بلنت الشاعر المتوج فى نهاية القرن التاسع عشر ، والذى دافع فيها عن البيئة (*) •

وهذه هى الطبيعة التى لم تتعرض للتلوث ، كما رآها بلنت :

لعلك تذكر يا ربنا ، كيف كان عالمنا المجيد

لقد كان الجمال بعينه ، والوفرة بعينها ، يحيا خاليا من الندوب

تتناثر غاباته الفيحاء التى لم تعرف المستأجرين •

نعم كانت جداوله وفيضاناته ومستنقعاته نفورة

كأنها عذراء لم تعرف التلويث والانتهاك

تنعم بالجمال والرياض الزهراء

حيث لا يعرف الخوف أو البغضاء •

وهنا جاء الانسان الأشبه بقرد ، البيته عارية

انه الانسان السافل عديم الاحساس

الذى حك الصوان ليشعل بناره الحارقة أشجارك الشجاعة الباسقة

---

(١٠) Population Resources Environment. — A. H. Ehrlich. ص ١٨٢ •

(*) أخبرنا بلنت W. S. Blunt ان هذه القصيدة قد نظمت بالاشتراك والمرحوم هربرت سبنسر • وثمة دلائل تؤيد ذلك •

وحصد خيراتك لأبقاره الهزيلة التى دنست بنجاستها
الأرض وأزهارها الحلوة بأكداس غائطها
لكى يزرع أرزه وشعيره (١١) ٠

ولكن فضائل حضارتنا لا يجب أن تطرح جانبا بمثل هذا الاستخفاف ، كما يميل كثيرون منا الى القول ٠ فالاعتراف بأن الأفعال الانسانية لها عواقب غير مقصودة شيء ، والايحاء بأن الانسان لا يزيد عن كونه مدنسا للطبيعة شيء آخر ٠ وليس من شك ان الانسان كثيرا ما يتصف بالسفالة ، ولكن عرى الينه ليس الشيء الوحيد الذى يبرر مقارنته بالقرد ، ولو صح أن العالم المجيد الذى تخيله بلنت كان عالما خاليا من البغضاء ، وأنه قلما خلا من الخوف — كما أشار — الا أنه كان أيضا عالما خاليا من الحب ، خاليا من الفن والعلم والفلسفة ، وليس به فنيسيا أو نارا أو سالزبورج (*) ٠ فهذه الأشياء لا تختلف عن كونها من نتائج الرتوق التى أحدثها الانسان للخلاص من ركام غائطه ٠ أما مسألة محاولة الحفاظ على الروح التى خلقت هذه الحالة فمن المسائل التى لا أبالى بمناقشتها ٠

---

(١١) Wilfrid Scawen Blunt ديوان Satan absolved mystery.
ضمن The Poetical Works of W. S. Blunt الجزء الثانى ص ٢٦٦ ، ص ٥٧٥ (١٩١٤) ٠

(★) لقد أبدى ايان ماكهارج فى بحث أعيد نشره كثيرا ، واختير له عنوان بليغ هو Is man a planetary disease استعدادا للمجاهرة بالرأى الآتى : « ان الطحالب تعرف ماهية الخلق ، أما الانسان فلا يعرف عنه شيئا ٠ ليس هناك أغوار فى عالم الهراء الماسوخى ، لا ينحدر اليهـا الانسـان فى حالات تهتكه وتبذله ٠ ففى فيلم Walkabout لرويج Roeg (١٩٧٠) لم تشخص حالة الانسان بوجه عام على أنها حالة مرضية . ولكن ما شخص على هذا الوجه كان الانسان المتحضر ، وعقدت مقارنة بين « الأبوريجيني » البدائى الرقيق الذى يعتمد على نفسه بالمتحضرين ، رجالا ونساء الذين يتصفون بالقسوة والبلد والدناءة . ويكبت رغباتهم الجنسية ، والذين لا يشعرون بالولاء والتفانى الا لما يملكون أو يستحوذون عليه ٠ وصور الفن الغربى على أنه عبث صبيانى ، ووصف العلم الغربى بانه أشبه بتفاهات فى صحراء قاحلة ، أما الأدب فعبارة عن حكايات تدور فى حلقة مفرغة ، ولا تهدف الى أى شيء ٠ وما النظام التعليمى الا تدرب على بعض المتحذلقات غير المجدية ، والصناعة وليدة المصادفة والتكنولوجيا أداة لسفك الدماء ٠ والرياضيات صيغ جوفاء ٠ ولو صحت هذه الاتهامات فى جميع تفاصيلها ، كما جاءت فى كتاب Gordard : Weekend ، فلن يكون امامى أية سياسة أدافع عنها غير الدعوة الى الانتحار الجماعى ، أما البديل ، أى العودة الى حالة الهمج فى عصر بعيد فلم يثر فى وجدانى أية حماسة على الاطلاق ٠

ومع هذا فان الافتراض الأكثر تميزا يستند على القول بأن ما يستحق الحفاظ عليه وصونه هو الانظمة الديموقراطية وروح الكفاح والنضال والاتجاه الليبرالى ، أى المميزات التى يتميز بها الغرب الحديث ، ويتطلب ذلك برهانا مستقلا • فلا احد لديه أية معرفة بالتأريخ سيخضع لأية أوهام تنسب الى الحضارة الغربية ، قديما وحديثا ، وما سجل عما وقع فيها من فظائع وعنف وتعصب وحركات تطهيرية وشح • ويتمثل الجانب التراجيدى فى كيفية اجتماع الجوانب الحسنة والجوانب السيئة فى كثير من الأحيان ، كما يبين واضحا فى تاريخ فلورنسا فى الحقبة بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر • فلقد جمعت كل ما يخطر على البال • فعاشت فى ظلها عبقرية الادب والتصوير والنحت والعـــلم ، كما سادت فيهـا القسوة فى ابشع صورها ، اى فى صورة لا يمكن ان تغتفر ، بل وجمعت أنظمتها السياسية بين الرعب والمساواة على عهد جيانو ديللا بيلا • غير أنه سيظل من الحقيقى القول بأن البشر لم يرضوا كثيرا عن مثل هــذه الذرى فى أى مكان آخر خارج الحضارة الغربية • ولا يعنى هذا الرأى ـ ضمنا ـ بأى حال ، الحـــكم بان الحضارات غير الغربية كانت منعدمة القيمة • فلا أحد ممن عرفوا المنجزات الحضارية أو البناء الاجتماعى لهذه الحضارات ـ ولو قليلا ـ سيقر هذه النظرة • ولن أتردد عن التسليم بأن الغرب كثيرا ما كشف عند تعامله وهذه الحضارات عن أسوأ حالات الغطرسة والتعصب والجشع • غير أنه لا الحسيات الشهوانية الساذجة التى عرفت عن تاهيتى أو الطقوس المعقدة فى اليابان القديمة قد يسرت للروح الانسانية التفتح والانطلاق على أكمل وجه • وربما صادفت مثل هذه المجتمعات هوى عند بعض أصحاب الحرف أو عند نوع خاص من الفنانين ، ولكن ليس فى مقدور الفيلسوف أو العالم أو الكاتب الدرامى أن يعثر فيهــا على ضالته ومبتغاه • ان الغرب لم يهيمن على العالم اعتمادا على قوة أسلحته فحسب ، أو على المبهرات الوهاجة لســـلعه الاستهلاكية ، فلقد اكتشفت حتى بلد كاليابان ثراء الحضارة الغربية وتنوعها ، وعمق تأثيرها ، مما يثبت أهمية منجزاتها •

ومن أكثر البدع المعــاصرة شيوعا اتهــام من يصفون أى شكل من اشكال المجتمع بأنه أسمى أو أكثر تقدما أو أفضل من المجتمع الآخـــر « بالعنصرية » ، التى أصبحت من النعوت الدالة على الانتقاص وتضم شتى أنواع السباب ••• وما من شك ـ كما سلمت من قبل ـ أن أى مجتمع أقل تقدما قد يتحلى بفضائل يفتقر اليها أى مجتمع أكثر تقدما • غــير أن هذا لا ينفى امكان ترتيب المجتمعات تبعا لتنوع حضاراتها واتصافهـا بالروح الانسانية ، ومقدار الحرية التى تمنحها لأبنائها • ووفقا لأى معيار

من هذه المعايير . فان الغـرب الديموقراطى الليبرالى يحتل أعلى مقـام ٠ (ولن يدهشنا ولا يجب أن ندهش اذا جاءت الاجابة على ذلك بان هذا أمر غير مستغرب ، لأن الغرب هو الذى اخترع هذه المعايير ٠ وهل هناك معايير أخرى عرضت علينا ؟) ان مدى المنجزات الحضـارية فى العلم والفلسفة والفن لم يضاهى ٠ وقلائل من مواطنى الغرب فقط هم الذين يجوعون فى الشوارع ، أو يعيشون على استعراض عاهاتهم ٠ فلم يسبق من قبل على الاطلاق أن كانت الحرية الشخصية بمثل هذا الشيوع والانتشار ٠ واذا حكمنا بالنقص على الديموقراطيات الغربية الحديثة ، كان مرد ذلك أننا قد طبقنا عليها تلك المعايير المطلقة التى تعلمناها من الغرب ٠ فنحن نسلم بأنها لا تضم بين أبنائها أى منبوذين ، أو Etas ونحن نشجب هـذه الظواهر بحق ، وننعى على الديموقراطيات الغربية الحديثة أنها مازالت تميز بين الأفراد ، وما زالت تقيد الحرية الشخصية ، بفـرض قوانين سخيفة ، ومازالت لا تفعل كل ما فى وسعها لمساعدة أولئك الذين يحيون حيـاة قميئة وحشية قصـيرة داخـل أو خـارج بلادهم ، واذا انهـارت الديموقراطيات الليبرالية فاننا سنرد ذلك الى قيـام الحكومات باستثارة تطلعات عند مواطنيها ، لن يقدر أى مجتمع على اشباعها ٠ ولا يعنى هذا أن هذه التطلعات عديمة القيمة (*) ٠ واذا حدث نزوع لالحاق الدمار عند هذا النوع من المواطنين ، كان معنى ذلك محاولة القضاء على النوع الأوحد من المجتمع ، الذى اقترب من تحقيق هذه التطلعات ٠

والقول بأنه من المحتمل أن تحل المشكلات الايكولوجية فى المجتمـع التسلطى ، وليس فى مثل هذا المجتمع الديموقراطى الليبرالى يستند الى فرضية غير مستصوبة ترى أن الدولة التسلطية ستكون خاضعة لحكم ملوك ايكولوجيين ٠ ومن الناحية العملية ، فان الاحتمال الأقوى هو أن تتحقق النتائج الفعالة فى المجتمعات الديموقراطية ٠ ففى الولايات المتحدة بوجـه خاص ، تعد اجراءات السلطات المحلية ، وقدرة الأفراد على رفع دعـاوى

(*) بطبيعة الحال ، ثمة قدر كبير من التضليل فى وصف الغرب بانه كتلة متجانسة واحدة ، وكثيرا ما ذكر لى عندما أثنى على الحضارة الغربية ، بأننى قد أغفلت من حسابى نيوآرك ونيويورك ٠ وليس بمقدور أحد أن ينسى ماساة نيويورك ٠ فيجب أن نذكر دائما ان هذه المدينة وسكانها يشهدان بعظمة الانسان وتعاسته ٠ ولابد أن أعترف بان نيوآرك نادرا ما تخطر على بال ٠ وهل ثمة ما يدعو الى مرورها بخاطرى ؟ ٠ فلا يخفى أن نيوآرك لا تعد ممثلة للغرب ، مثلما لا تمثل كالكتا الهند ، أو أوزاكا اليابان ٠ ولست أرى موجبا للاعتقاد بأنها تعكس أحوال الغرب ، على نحـو ما يحدث فى مرآة القصـص العلمية ، وما ستؤول اليه يقينا ٠ والحق أن هذه المدينة تذكرنا بالقرن ١٨ ، أكثر من كونها تنبىء بما سيكون عليه الحال فى القرن الواحد والعشرين ٠ ومن جملة نواح ، فان أمريكا تعد بلدا عتيق الطراز للغاية ٠

قضائية ، وتقاليد تقديم الحساب للشعب ، أسلحة قوية ، فى الكفاح ضد الدمار الايكولوجى . والدول الديموقراطية هى الأولى بالاتهام ـ كما أشرت ـ عندما تقع تحت طائلة الاغراء للخضوع لنفس الشرور التى وقعت فيها الدول الشمولية ، كالتجسس ولجوء السلطات المركزية الى تهدئة الخواطر بكلمات معسولة ، والقصور الذاتى البيروقراطى والرقابة واخفاء الحقائق (*) ·

فما الذى يمكن أن يقال عن النظرة الميتافيزيقية التى يتميز بها الغرب ؟ · فاذا كنت قد حاولت أن أبين أن هذه النظرة معقدة ومتنوعة بصفة استثنائية ، فلا يعنى هذا القول اجمالا بأن الطبيعة أشبه بقطعة شمع فى يدى الانسان · وربما أضفت الى ذلك القول بأن الغرب ليس ملتزما التزاما قاطعا بالخصائص الأرسطية ، والتى يمكن تحوير كل خاصة منها دون احداث تعديل لباقى الخصائص · ومن بين الاقتراحات البديلة الأخرى ، والتى ترجع أساسا الى هيرقليطس ، الزعم بأن العالم يتألف من أنساق تتفاوت من حيث ثباتها وفاعليتها · وبمقدور أى نسق من هذه الأنساق ـ وما البشرية الا نسق من بينها ـ أن يبقى كأى شعلة ، شريطة أن يكون باستطاعته التفاعل والأنساق المحيطة به ، وتبادل الأخذ والعطاء هو وهذه الأنساق المحيطة به · ولا يستبعد أن يتعرض للموت بالاختناق متأثرا بمخلفاته ونفاياته ، أو بعد أن يستنفد موارده · ان هذا الأسلوب فى النظر الى العالم ، والذى حاولت الأبحاث الايكولوجية أن تبرهنه قد بين بوضوح « لماذا تعجز عن القيام بفعل واحد فى نفس الوقت » ، ولقد قضى أيضا على الاعتقاد بوجود اختلاف ما بين الكائن البشرى والنسق الايكولوجى ، سواء كان هؤلاء البشر من الأشرار الطفيليين أو كانوا أبطالا من القادرين على العطاء · على أنه عندما فعل ذلك ، فانه اتبع طريقة لا تتصف بأى قدر ، ولو قليل ، من الطابع الغيبى ، أو بطابع معاد للعلم فى روحه ، ولم يقصد ضمنا على أى وجه القول بوجود خطأ جوهرى ما فى أية محاولة لتحويل العالم الى مكان أفضل ·

ووفقا لهذه النظرة ، لا يكون تفرد الانسان أمرا ميتافيزيقيا · ان تفرده يرجع ، مثل خصائص الشعلة ، الى الطابع الخاص لعلاقته بالأنساق

(*) اذا أعتقد أن الحركة الايكولوجية تتضمن بالضرورة نقدا للاتجاه البيروقراطى الزاحف الذى ابتلى به مجتمعنا فانها ستتصف بأهمية اجتماعية وسياسية تمتد الى ما وراء غايتها الايكولوجية المباشرة · واذا رئى أن سياستها العملية تجنح الى تشجيع هذا الاتجاه فانها ستمثل خطرا اجتماعيا · اذ لا يقتصر الأمر على كون الانسان والطبيعة يتصفان بالهشاشة · اذ تتصف الحضارة الليبرالية أيضا بنفس الصفة ، كما يذكرنا التاريخ المأسوى لما حدث فى ألمانيا بين الحربين العالميتين فى صورة جلية ·

والأنظمة الأخرى . وفى قدرته القصدية لاحداث تحول فيما يحيط به • ولقد اعتقد المسيحيون شيئا من هذا القبيل ، وكان النقاد الايكولوجيون محقين عندما زعموا أن المسيحية قد شجعت الانسان على الاعتقاد بأنه متفرد ميتافيزيقيا ، وأنه شيء يتجاوز الطبيعة ويسمو عليها ، بدلا من القـــول بأنه منغمر طبيعيا فى موجات صاعدة وهابطة • والحق أن أخطر ما جاء فى المسيحية خاصا بالايكولوجية لم يكن انكارها لقدسية الطبيعة ، ولكنه تشجيعها البشر على الاعتقاد بأنهم « أبناء الله » ، ومن ثم فانهم فى أمان ، لأن استمرار وجـودهم على الأرض مضـــمون من الله ، وترتب على ذلك تشجيعها الـ Hubris ، أى تصور الطبيعة شيئا قابلا للتلف من أثر الدنس وعدم النقاء ، على أن الانسان يتعين عليه أن يعرف أنه لا يملك أى سند ملكية فى عالم الأحياء •

مع هذا ، فقد أثبت اللاهوت المســـيحى فى الماضى اتسامه بالمرونة بشكل ملحوظ ، ويعكف رجال اللاهوت حاليا على محاولة اســـتخلاص اتجاه جديد نحو الطبيعة ، يستمر فى التوافق مع النظرة الى الأنساق التى سبقت لابلاس (١٢) ، وينكر تمتع البشر بقداسة لا يتمتع بها الحيوان • ومن ناحيتى ، فاننى أشد ارتيابا فى قدرة اللاهوت المســـيحى على اعادة تشكيل نفسه دون فقدانه للانتساب الى المسيحية ، سواء أرغم نفسه على انكار اتصاف الانسان بالتفرد **ميتافزيقيا** ــ على ضوء محـــور لاهوته ــ بوصفه صاحب روح تستوجب الانقاذ ، أو أنكر القول بأن استمراره فى البقاء مضمون ميتافزيقيا فى نهاية المطاف (*) • ولن يتيسر لأبناء البشر مواجهة مشكلاتهم الايكولوجية ، بمتضمناتها كاملة ، الا اذا تمكنوا من رؤية أنفسهم ــ ولابد أن أقول ذلك ــ كما هم فى الحقيقة ، أى وحداء ، ليس هنـاك من يعينهم غير أقرانهم من البشر ، الذين هم نتاج عمليات طبيعية ، لا تكترث البتة ببقائهم أو عدم بقائهم •

---

(١٢) انظر على سبيل المثال الـ
Is it too late : A Theology of Ecology — J. B. Coff
(بيفرلى هيلز) ، وبخاصة ما ذكر فى هذا الكتاب عن Schweitzer, Barth

(★) لقد ركزنا تركيزا كبيرا على ما قاله الرسول بولس : « إن الخليقـــة بأسرها ما برحت تئن وتتوجع حتى الآن (٢٢ (Rom VII cc) • وتفسر هذه العبارة على أنها تعنى أن الخليقة عن بكرة أبيها تتوقع الخلاص ، وليس الانسان وحده ، ومنذ أمد طويل كان هناك ــ فى الحق ــ من يتوقعون الخلود للحيوانات ، بالرغم من عدم وجود أحد فى الغرب ــ فى أغلب الظن ــ قد ذهب بعيدا ، كما فعل أساطين الشرق ، الذين اعتقدوا أن أنصال ورق الأشجار ذاتها من حقها أن تتطلع الى خلود روح بوذا فيها • ومع هذا فبالاستطاعة احداث تغيير كامل فى المسيحية . لو أنه افترض أن القطط والكلاب لا تختلف من حيث بنوتها لله عن البشر ، وأنها مطالبة ، على نفس النحو ، بالبحث عن الخلاص •

ولا يعني ما ذكرت أي انكار للمسيحية ، ولا يجر فى أذياله قبول اى مذهب أكثر وعيا بأوجه القصور البشرى ، كما أثبت الحال فى الاتحاد السوفيتى والصين المعاصرة على السواء ، وليس هناك ما هو أكثر تدميرا من الناحية الايكولوجية ، من المذهب الهيجلى الذى اعتقد أن الطبيعة قبل أن يمارس الانسان دوره الفعال فيها ، لم تزد عن ميدان للامكانات • ولقد سبق أن أشرت الى وجود اتجاهين تقليديين أكثر واعدية ، الأول ــ وجوب تصور الانسان لنفسه كسيد • والثانى ــ وجوب اشتراكه والطبيعة عند محاولة اجراء أى تحويل لها • ويقال ان « الاتجاه السيادى » • كثيرا ما يكون من الاتجاهات المميزة للمسيحية • ولقد أنكرت هذا الرأى ، انه بالأحرى متصل بتصور الانسان كحلقة من حلقات الارتقاء ، باعتباره مسئولا عن أولئك الذين سيفدون بعده • انها مسئولية نابعة من محاولة الحفاظ عما يحبه ، والنهوض به ، وترجع هذه الفكرة فى أكمل متضمناتها الى التصور الغربى الحديث ، الذى يرتد الى كانط ، وله أهمية ايكولوجية لا تخفى •

وأما فيما يتعلق بوجوب تعاون الانسان والطبيعة ، فمن الواجب أن يفسر هذا القول تفسيرا حرفيا ، فليست الطبيعة كيانا شبه مقدس ، له أهداف بمقدور البشر المشاركة فيها • ولقد سبق أن اعترض العالم الفزيائى روبرت بويل بحق على أى تفسير من هذا القبيل • فاذا فسرنا هذا القول تفسيرا أقل روحانية ، سنرى أنه يوحى ــ كما سبق أن أشرنا ــ باتباع سياسة ايكولوجية حكيمة ، يعنى محاولة التحكم فى الحشرات بتنويع المحاصيل ، وليس باستعمال المبيدات الحشرية ، وبانشاء قرى سياحية ، يمكن الاستفادة منها ، بدلا من تحطيم أجهزة الصرف الصحى ، لزرع ما تستطاع زراعته ، مع الحاق أقل قدر من الضرر للبيئة الزراعية ، وهكذا وهكذا • فعلينا أن نتحلى بالتواضع ، وانما بطريقة فعالة ، واذا نظر الى الطبيعة هذه النظرة ، فانها لن تكون نفاية على أى نحو •

على أن قبول هذا الرأى لا يعنى باى حال تأييدنا للقانون الثالث للايكولوجيا الذى نادى به بارى كومنر : ان الطبيعة تعرف أفضل (١٣) ، فمن الحق مثلما قال أرليشس مؤيدا كومنر : ان كل تدخل انسانى فى أى نسق ايكولوجى ، يحتمل أن يؤدى الى اضطراب فاعلية هذا النسق على نحو معوق لأى شىء ينتمى اليه •• على أن ما يتبع ذلك ليس هو ما يوحى به قانونه • ان كل محاولة من هذا القبيل ، أو حتى معظم المحاولات

---

(١٣) Barry Commoner فى كتاب The Closing Circle ص ٤١ •

ستكون معوقة **للكائنات البشرية** . فالأنساق الايكولوجية ليست مصممة لنفع الانسان ، أى أنها ليست شبيهة بالساعات ، التى قارنهـــا ارليش بالأنساق . فعندما التقط بنو الانسان بذور النباتات ، وبذروها فى أرض ممهدة ، فانهم قاموا بفعلة ألحقت ضررا بالحياة العضوية التى اعتــادت الاقتيات على البذور الساقطة ، ولم يخطر ببال أحد غير المتعاطفين على الحياة البدائية (الغشم) الظن بأن أفعـــال جدودنا المزارعين قد ألحقت دمارا بالصالح الانسانى . ولن يكون بوسع الطبيعة ، باعتبارها تعرف ما هو أفضل أن تعين أحدا غير من يحيون حيـــاة رتيبة جرداء جدباء . فلقد إكتشف حتى الصيادون البدائيون أنهم مضطرون الى اشعال الحرائق ، وكانت النيران التى قاموا باشعالها هى التى غيرت وجه الأرض (١٤) .

ومن السخف حقا الزعم بأن الانسان قادر على الاهتداء الى ما يحتاج اليه لكى يحيا حياة هنيئة . فلقد رأى أصحاب الاصحاح القديم أن الطبيعة من حيث المبدأ ـ مليئة « بأشواكها وعوسجها ، وأنه ليس أمام الانسان خيار سوى اقتلاع هذه الأشياء » وشن جون استيوارت ميل فى مقال له بعنوان Nature حملة شعواء على « الايعـــاز بوجوب تعـاون البشر والطبيعة » . اذ كثيرا ما تقف قوى الطبيعة « موقفا معاديا للانسان ، فيضطر الى مصارعتها بالقوة والحيلة والدهاء ، لانتزاع القليل مما قد يعود عليه بالنفع (١٥) » ولعلنا نشعر بالارتياح للحماسة التى هاجم بها ميل عشاق الطبيعة من العاطفيين . ومن يحيا على الشـــــواطىء غير الكريمة لاستراليا سيقدر ـ يقينا ـ مشاعر ميل . على أن النظر الى الطبيعة كعدو لا يعد البديل الصحيح للنظر اليها « كصديق » ، فكما أشرت مرارا أن ما يحدث فى الطبيعة يشق طريقه ، دون مبالاة أو اكتراث بالمصـــــالح الانسانية ، غير أننا سنكون قد أحسنا صنعا اذا تعلمنا كيف تعمل دون افتراض بأنها ستتجاوب تجاوبا مبـاشرا ونزواتنـــا ، أو تحدث معجزة تدفعها الى الكف عما تفعله بحيث تسمح لنا بتحويل غابات المناطق المطيرة الى أراض زراعية أو تحول الأنهار الى مصارف .

فما هو الرأى فى النظرة القائلة أن الغرب لم يعد يحتاج الآن الى تصورات جديدة عن الطبيعة فحسب ، ولكنه بحاجة الى مجموعة جديدة من المبادىء الأخلاقية لكى يسترشد بها فى علاقته بالطبيعة ؟ . ولقد سبق

---

(١٤) Fire as the great force used by man — O. C. Stewart.
وردت فى كتاب اشرف على تحريره W. L. Thomas الأصغر بعنوان
Man's Role in Changing the Face of the Earth.
(شيكاجو ٥٦) ص ١١٥ ـ ١٣٣ .

(١٥) Three Essays on Religion — J. S. Mill.

أن ذكرت أن مثـــل هـــذه النظرة لا تدل على أى انحراف ٠ فخلال معظم فترات تاريخ الغرب ـ كما لاحظنا ـ أنكر فلاسـفة الأخلاق من رواقيين ومسيحيين الادعاء بأن علاقة الانسان بالطبيعـة تخضـــع لأى مؤثرات أخلاقية ٠ واتبع الشكاك والانسانيون نظرة مختلفة ، ابتداء من مونتانى ، ولا داعى لذكر أسماء من سبقوه من أفلاطونيين جدد ٠ وما حلت نهاية القرن التاسع عشر ـ كما أشرت ـ حتى اتجه حتى المسيحيون الى القول بأن القسوة فى معاملة الحيوانات التى تتوجع خطأ أخلاقى ٠ ولقد قيل ذلك رغم المعارضة العنيفة من أقرانهم المسيحيين ، على أن القسوة فى معاملة الحيوانات لم تك المثل الأوحد ، لما حدث من تغير فى المشاعر ، فلقد رأينا منذ مائة عام أحد الكتاب ، وكان يرأس تحرير مجلة Melbourne Age ـ وان لم يك من رؤســاء التحرير المعروفين باهتمامهم بالمســتحدثات الأخلاقية ، رأيناه ـ يعلن «أن من يقطع شجرة بلا ضرورة مجرم» ، وتكفى نظرة واحدة الى بعض بقاع من انجلترا وفرنسا وايطاليا لكى ندرك مدى العشق الذى يكنه الناس للأرض ـ من أثر المشقة التى عانوها فى غرسها وتهذيبها ٠ وكما أدرك ليوبولد : ثمة « بذور » فى الغرب للأخلاقيات التى تدعو لذلك ، وفى هذه النظرة ، يعتقد أن التعلق الفعال بالطبيعة أمر خير ، وينظر الى المخاطرات اللاهية المدمرة لها على أنها شر ، حتى وان استشف من المخاطرة أن مثل هذه الأخلاقيات الجديدة ستسود الغرب ، وهذا أمر لا مفر منه ٠

على أن التعاليم الأخلاقية التقليدية للغرب ، سواء أكانت مسيحية أو نفعية ، قد علمت الناس دائما أن عليهم أن يحرصوا فى سلوكهم على عدم ايذاء جيرانهم ٠ ولقد اكتشفنا الآن أن التصرف فى النفاية بالقائها فى البحر أو الهواء ، وتدمير الأنظمة الايكولوجية ، واعالة عائلات تضم عددا كبيرا من الأفراد ، وانكماش الموارد ٠ هذه المسالك جميعا تؤدى الى الاضرار بأقراننا من البشر ، حاضرا ومستقبلا ، والى هذا الحد ، تكون الأخلاقيات التقليدية ، وبغير حاجة الى اضافة أى جديد اليها ، كافية لتبرير اهتماماتنا الايكولوجية ، ومطالبتنا بمحاسبة من يحدثون التلوث ، ومن يتسببون فى ضمور الموارد الطبيعية ، وما يلحق من دمار بالكائنات الحية والقفار ٠

ولقد أداننى أحد أقرانى من المتحمسين للحفاظ على البيئة ، ووصفنى « بالشوفية الانسانية » ٠ وما يعنيه هو أننى راعيت فى حجتى الأخلاقية المصالح البشرية ، وأعطيتها القدح المعلى ، ولست أعتذر عن هذه الحقيقة ، فان أى أخلاقيات تبحث فى علاقة الانسان بالأرض وما يحيا فوقهـــا من نباتات وحيوانات لن يقتصر أمرها على بحث سلوك الكائنات البشرية ، كما هو بين جلى ، وانما عليها أيضا أن ترتكن فى مبرراتها الى الاشارة الى

المصالح الانسانية . فالأرض التى تسبب فلاح جاهل فى تركها لكى تغمرها مياه النهر ، لم يك لها « حق » البقاء على هذا الحال ، وكما أشرت ، أن الزعم بأن الانسان وحـــده ، بين جميع الخلائق ، هو الذى يتمتع بكافة الحقوق مسألة لا تحتمل أى شك .

ولا يعنى الاصرار على أولوية الصالح الانســـانى اقرار القول بأن المسألة الوحيدة التى يدور حولها البحث هى ما يطرأ على « دخـل » أى انسان من نقصان ، من أثر ما يترسب فى النهر من أوحال . فاذا زادت نسبة العكارة والرواسب فى النهر ، أو قمنا بانتزاع أشـــجار الغابات القائمة فوق منحدر ، فان مثل هذا الاجراء سيلحق خسارة بالبشرية حتى اذا لم يترتب عليه انخفاض دخل أى شخص . ويوصف التسبب فى حدوث ذلك بأنه فعل من الأفعال التخريبية الهمجيـة (الفاندالية) . انه تدمير لشىء ما يتوجب أن يستمتع به فى ذاته . وعندما أشار علماء الأخلاق الى هذه القضية على نحو آخر فقالوا ان أية صورة من صور الأفعال البشرية لن يكون لها أية قيمة الا اذا اتصلت ضمنا بالله ، وعندما طالب الأخلاقيون أصحاب الاتجاه العقلى الدنيوى بضرورة ارتباط هـــذه الأفعال بالرخاء الاقتصادى ، تمشيا ونظرة ضيقة الأفق : فى مثل هذه الحالات يصح القول باحتياج الغرب الى أخلاقيات جديدة ، لأن ما يحتاجه الغرب فى الأغلب ليس أخلاقيات جديدة فحسب ، وانما هو زيادة التمسك العام بالأخلاقيات المألوفة الوطيدة .

اذ يرجع الجانب الأكبر من كوارثنا ــ اذا تركنا جانبا « الجهالة » ــ الى الجشع وقصر النظر ، ويعدان فى الواقع شـــيئا واحدا ، (فالجاهل يسعى وراء الشىء الذى يشتهيه دون مبالاة بالوسيلة المتبعة ، وبالعواقب الأبعد لما يسعى لتحقيقه ، أما قصير النظر ، الذى اعتدنا وصفه « بالانسان العملى » ، فانه يمثل شكلا خاصا من عدم الاكتراث بالعواقب ، يتمثل فى رفض النظر الى ما وراء الحاضر ، أو المستقبـل المبـاشر) ، ولا جديد فى القول بأن الجشع شر ، ولا حاجة لابتكار أخلاقيـات مستحدثة لتعريفنـا بذلك .

ومع هذا فان مجتمعنا قد نبذ الجشع من الناحية الرسمية ، ولكنه يشارك ــ عمليا ــ وفى زهو فى تطبيق حكمة الشاعر اللاتينى هوراس : « عليك أن تتبـع الحق لو أمكنك ذلك ، ولكن عليك أن تبحث عن الرزق باتباع أية وسيلة » (تماما مثلما ينبذ المجتمع العنف ، بينما هو فى واقع الأمر يعجب به ، ويمجده ــ كما يبين من شـــدة الاعجـاب بالأدب الذى يتجه هذا الاتجاه ــ الا اذا استعمل من قبل من يشجبهم المجتمع ، وارتكن

الى أسس أخرى) • واذا قلنـــا للناس أن عليهم أن يلتزموا الاعتدال فى حماسهم للملكية والتملك ، وأن عليهم أن يتنازلوا عن الاشغال والمهن التى تحقق أرباحا هائلة ، وأن يستغنوا عن الحقوق الاقتصادية الوطيـدة ، فاننا سنكون قد خاطرنا بتعريض أنفســنا للادانة بالتعصب • وليس من شك أنه قد سبق الاعتراف بوجود وسائل للكسب غير الشريف • غير أن اللص الناجح بالذات كثيرا ما يثير الاعجــاب ، أكثر من اثارته للامتعاض والتحقير • ويأمل أصحاب مشروعات النهوض بالأرض ، والذى قد يكون مصحوبا بأعمال تخريبية ، أن يكافئوا على جهودهم فى البلدان الانجليزية ، بالانعام عليهم بلقب « سير » أو « لورد » ، تعبيرا عن التقدير العـام • **وكما كتب كارل ماركس ، فى شـبابه : « أن المال أشبه باله اسرائيل الغيور ، الذى لايرضى عن وجود اله غـيره »** • وكمـا ذكـر أيضــا : **« لقد أدت عبادة المال الى ظهور احتقار فعلى للطبيعة ، وحط من قدرها من الناحية العملية »** (١٦) ، وليس من « أفكار النفاية » أن يشار الى تقدير مجتمعنا للضعف وقصر النظر والجشع ، وان كان لايرضى بهذه الرذائل كمبادىء أخلاقية • وما يفهم من ذلك هو أن الأساليب الجدية من السلوك أهم من المبادىء الأخلاقية الجديدة • وعندما استنكرت الجشع ، فانى لم استنكر الجرى وراء المال ، فلو فعلت ذلك لكانت فعلتى شبيهة باستنكار الأغوات للاتصال الجنسى • وكل ما استنكرته هو النظرة التى ترى أن كل جهد يعد قيما بمقدار نجاحه فى الكسب ، أو أن الكسب معيار عقلانى ، وبالمقارنة به تعتبر جميع وسائل السعى لاعقلانية وشاذة • ان أى مجتمع حر يمكن أن يوصف فى الوقت نفسه بأنه مجتمع تجارى ، وليست الصلة بين الشيئين مصادفة • غير أنه من المسلم به أننا لن نحصل على القليل من الأمل الا اذا لطفنا من حدة شهوة الاستحواذ (*) ، ولن ننجح فى تحقيق هذه الغاية الا اذا نجحنا فى تعلم كيف نزداد احساسا باتجاهنا نحو العالم، وازداد استعدادنا للاستمتاع باللحظة الحاضرة لذاتها باعتبارها شيئا يحقق المتعة المباشرة ، بدلا من اتجاهنا الى البحث المحموم عن السلطة والأمان اللذين يتحققان اعتمادا على الاستحواذ •

---

(١٦) كارل ماركس عن المسألة اليهودية ، تضمنها كتاب K. H. D. D. Easton Writings of the Young Marx on Philosophy and Society — Gudda. نيويورك ١٩٦٧ (ص ٤٥ ، ٤١) •

(*) ليست كلمة « نحن » التى وردت فى هذه الجملة هى كلمة « نحن » الدالة على المعاضدة ، والتى تعنى الجميع ما عداى وما عدا القلة المستنيرة الذين أخاطبهم • انهـا تعنى نحن جميعا : « أنت يا محاضرى المنافق الذى يتماثل معى فى هشاشته • mon fragere, mon semblable

فى هذه النقطة بالذات لا يقتصر الأمر على اتصاف النظرة الأخلاقية للغرب بعدم كفايتها فحسب ، ولكنها تتصف أيضا بخطورتها · ويرجع ذلك الى النزعة « البيورتانية » التى ورثناها من القديس أغسطين ، ومن أفلاطون قبله · ولقد رأينا بالفعل كيف أثرت هذه « البيورتانية » تأثيرا معاكسا على مشروعات الحد من الانفجار السكانى ، عندما قيدت نشر وسائل منع الحمل ، وشجبت جميع العلاقات الجنسية التى لاتهدف الى انجاب ذرية ، بيد أن الهجوم الأكثر « بيورتانية » على الحسيات والشهوات ، والذى ينكر الاستمتاع بالمتع الحسية لذاتها ، باعتبارها أمرا لايصح قبوله أو استصوابه ، كان له ــ كما أشرنا ــ عواقب أكثر شيوعا ، وان كانت أقل وضوحا ، ويجب أن نعترف بذلك ، ويكفى فى هذا الشأن أن نتأمل ما تركه الماضى الغربى من فن وعمارة وأدب وآثار تجميلية ، فى البيئة وتخطيط المدن ، لكى نلاحظ مدى غبطة البشر بادراك ظاهر الأشياء ، عن طريق النظر أو الشم أو الاستمتاع بالصوت والمذاق أو اللمس ، غير أنه كأن دخان الثورة الصناعية قد أتلف أذان الناس وأعمى عيونهم وأزكم أنوفهم وحرمهم من نعمة الاحساس باللمس ، وكأنهم عندما وضعوا أيديهم على النزعات المألوفة ، التى كانت وقفا على قلة من البيورتان ، وتبنوا آراءهم ، قد استباحوا لأنفسهم تبرير القبح الذى خلقوه فى شتى الأنحاء المحيطة بهم ، ان أى مجتمع يتمتع بحساسية أرهف ما كان ليتحمل أو يطيق المدن الكئيبة والبيوت القذرة الموحشة ، والكنائس التى تنفرد بقبحها وأكوام النفايات وساحات « الخردة » ، بمظهرها المنفر ، والتى شاعت فى أعقاب الثورة الصناعية فى الغرب ، الذى صدرها بعد ذلك الى الشرق ، ولن يتعلم الناس كيف يحرصون على العالم الا اذا تعلموا ــ أولا ــ كيف ينظرون اليه نظرة حساسة · ولا يكفى النظر اليه فحسب ، وانما يجب عليهم أيضا أن يلمسوه ويشمونه ويتذوقونه · وكما ذكرنا ، لقد أدان أفلاطون بشدة وقسوة الغارقين فى الحسيات وعشاق المناظر والأصوات · وفعل الشىء نفسه السلطويون الأخرون من أمثال ستالين وعالم النفس الأمريكى سكينر والكنيسة البروتستانتية ، التى اعتبرت نفسها مفوضة من قبل الاله السلطوى · وعلينا أن نسلم مع أفلاطون بأن أية حياة حسية خالصة ، لاتتوقد فيها الحساسية ، وتتبلور فى صورة حب ، يعنى الحب المصحوب بالشعور بالمسئولية ، وما يجره فى ذيله من رفق وعناية ، ستكون جدباء وأدنى من مستوى الانسان ، وستعجز عن حل المشكلات الايكولوجية أو أية مشكلات

اخرى • ولكن من ناحية أخرى ، فان محاولة العلو عن الانسان ، بالارتفاع والتحليق الى ما هو أعلى من المشكلات الحسية ، لن يقل اجدابا كانجــاه للحيــاة ، لأنه ســيؤدى الى الانحدار عن مســتوى البشر وتدمير علاقة الانسان بالطبيعة (*) •

ان التقاليد التى كشفت عنها حتى الآن ، وأعربت عن تعاطفى معهــا حينا ، ونفورى منها فى حين آخر ، لها تاريخ طويل • والى الآن أكاد أن لا أكون قد قلت شيئا عن عامل يعتقد كثيرون أنه أكثر أهمية من الناحية الايكولوجية ، وأنه يتفوق فى هذا الشأن على المبادىء الميتافزيقية والمعتقدات الأخلاقية • انه « النهضة الصناعية » • ولن أستطيع أن أنهى كلامى دون تمعن فى المشكلات التى أثارتها هذه النهضة ، حتى اذا جاء كلامى بعيدا عن الاستيفاء ، والنهضة الصناعية ظــاهرة جديدة ، كمــا أن الاتجاهات العقلية التى ولدتها ـ بالرغم من شدة قوتها ـ مازالت شيئــا مستحدثا بحيث يبدو غريبا تسميتها بالتقاليد ، فمنذ عهد قريب فحسب ، بدأت الأمم تتباهى بضخامة انتاجها القومى ، وبدأت المجتمعات تدين نفسهــا ، أو تتعرض للادانة لانخفاض معدلات انتاجها • وبدأنا نسمع عن توقعــات المستهلكين الحصول على سيل منهمر من نوع جديد من المنتج ، وأن الصناعة قد تم تجهيزها بحيث تواجه احتياجات مجتمع يعيش فى بحبوحة • وربما رأى كثيرون أن هذه الناحية تمثل اللب الحقيقى للمشكلة • وتبعا لهــذه النظرة ، لن يكون للتغــير الوجــدانى الذى نبهت اليه ، ولا للتلميحــات بحدوث اتجــاه جديد أكثر انصافا للطبيعة أية أهمية أساســية • وقد يصف نقادى أحكامى على مشاهد مثل مشهد أفراد الكشافة ، وهم يجمعون الزجاجات ، أو مشهد جماعات « أنصار الحفاظ على البيئة » وهم يمنعون المسئولين عن شــق طريق فى مكان أو آخر بأنهما لا يزيدان عن ألاعيب

(*) ان أمثال كانيوت Canute وحدهم هم الذين ينظرون الى من يتودد اليهم نظرة جادة ، ويتظاهرون بانهم يعيدون مجرى الأحداث للوراء • انهم وحدهم الذين قد يعتقدون أنه من الضرورى الدفاع عن الحساسية • ان هذا هو ما سيقال لى يقينا فى عصر شديد الاباحية مثل عصرنا • غير أن الاباحية لا يلزم أن تكون حسية • فكثيرا ما تتخذ شكل الابتذال ، الذى يعد نوعا من أنواع العنف • وهل هناك من شاهد أى فيلم أمريكى من أفلام الاثارة ، أو شاهد الأفلام العنيفة كتلك التى عرضت فى برلين فى الثلاثينات ، وتضمنت مشاهد المصارعة الأنثوية فى الوحل ، أو الغرائب الشاذة جنسيا ، والتى ظهرت فى أوضح صورها فى فيلم كاباريه المعروف • ومن حيث الروح ، بعد الابتذال والغلظة على حد سواء ، من آثار الروح الأغسطينية • وعليك أن تذكر أيضا أن كلمة « حسى » لا ترادف كلمة « جنسى » • واذا أردت المزيد عن أهمية ، « الحساسيات » ، وحدودها ، انظر الى كتابى : The Perfectibility of Man

صبيانية كتلك التى يتلهى بها أبناء الطبقة المتوسطة • والحق أن المشاركين فى مثل هذه الأعمال أشبه بأطفال ينشئون سدا من الرمال لحماية قلعتهم من مد البحر ، وفى أسوأ الأحوال ، فانهم قد يتسببون فى تشريد الانتباه عن المشكلات الأساسية • وقد يقال ان موطن الخطأ انما يرجع الى النظام فى جملته ، أى الى المركب العلمى التكنولوجى الصناعى ، الذى اعتمد عليه مصلحو الطبقة المتوسطة فى تعيشهم ومكانتهم الاجتماعية •

هذه واحدة من النقاط التى أشعر عندها بعدم الاطمئنان الى الأساس الذى أستند اليه • والقضايا التى تنضوى تحتها ضخمة جدا ومعقدة وصعبة ، بحيث يتعذر قيامى بأكثر من اثارتها • فالى أي حد يعد أى فحص أبعد للروح الانسانية فى الشرق والغرب على السواء ، مرتبطا ارتباطا محتوما بتقدم الصناعة ؟ هل بالاستطاعة استغلال الموارد استغلالا آمنا ، وتحويلها الى الأنشطة الثلاثة الأقل تلويثا ؟ هل بالمقدور تحجيمها وحصرها دون اضعاف لروح المبادرة والكفاح ، التى كانت وراء مولدها ؟ للوهلة الأولى ، بوسعنا بلا شك أن نجيب بالقول بأن الروابط التاريخية بين الصناعة والحرية ليست أمرا حتميا ، فقد توجد صناعات ثقيلة ــ كما هو الحال فى روسيا ــ ولا يوجد الا أدنى قدر من الحرية ، أو لا توجد بالمرة ، ولم تبزغ الديموقراطية الاغريقية ولا التنوير عند أى مجتمع بلغ الذروة فى عالم الصناعة • وفضلا عن ذلك ، فثمة أسباب قوية للاعتقاد بأن ظهور مجتمعات صناعية ضخمة يمثل تهديدا لأى مزيد من تحرر البشر ، أكثر من كونه شرطاً له ، غير أننا مازلنا نشعر بعدم الارتياح لقدرتنا على نشر قوانا بطريقة مؤثرة بغير تحطيم للحرية •

ولا يستبعد أن يقال لنا ان ما يتعين نبذه هو المثل الأعلى الذى يدعو الى التنمية الصناعية ، والذى يعشقه الساسة كثيرا • ومع هذا فان هذا التصور بعيد عن الاتصاف بالوضوح ، وجوانب ابهامه لها أهمية أولية • فلو عرفنا النمو الاقتصادى بأنه الاستخدام الأكثر فاعلية للموارد النادرة والحكمة وحسن التدبير فى المسائل الاقتصادية ، سيترتب على ذلك أن ما جرت العادة على وصفه بالنمو الاقتصادى سيكون ــ فى الحق ــ انحسارا اقتصاديا • ولنستشهد بمثل بسيط كالحديقة التى نزيلها لكى ننشىء مناطق للسكن الادارى • ولقد يسرت مثل هذه الحديقة بعض منافع ندر وجودها فى حياة المدينة كالفضاء والضوء والسكينة والهواء والمنظر الجميل، وعطر الزهور والأشجار والأعشاب ، ألا يصح اعتبار انشاء مثل هذه الأبنية نوعا من الانحسار الاقتصادى ، وأن تعد الحالة العكسية ، أى تحطيم الأبنية لانشاء حدائق عامة انماء اقتصاديا ؟ •

والاجابة بالنفي ، بلا شك ، اذا كان « النمو » سيقاس بمقياس ضخامة الانتاج القومي ، كما جرت العادة ، وهذا يثبت وجوب نبذ افتراض اعتبار ضخامة الانتاج القومي مقياسا مرضيا لقيمة الحياة في المجتمع . فثمة خطأ في أي مقياس يوحي بوجود « نمو اقتصادي » ، عندما تهدم الحدائق والدكاكين والفنادق والمسارح والأحياء السكنية . ويستعاض عنها ببنوك ومكاتب للتأمين ، على أنه في شتى أنحاء العالم المتقدم كاليابان والولايات المتحدة على سبيل المثال ، تجرى محاولات للاهتداء الى مؤشر أفضل للدلالة على النمو الاقتصادى ، من ضخامة الانتاج القومي ، كمؤشر المرفهات والبورصة . أو بالرجوع الى مؤشرات مثل القدرة على التدمير ، ووفرة الموارد الطبيعية وانسياب السلع واستهلاكها ، ومشكلات انشاء مثل هذا المؤشر متعددة ، ولقد سبق أن لمسنا بعضها . فأسهل معيار هو ما يعتمد على التقدير الرقمي ، والمقارنة بين قيم السلع القابلة للتسويق بدلا من مقارنة مقادير الفاقد المترتب على تدمير الحدائق ، والأرباح الاقتصادية التي ستكتسب من المباني الادارية التي حلت محل هذه الحدائق .

على أننا اذا افترضنا امكان العثور على حل لهذه المشكلة التقنية ، فمازال أمامنا السؤال الخاص بهل بمقدور مجتمعنا تحمل ما يترتب على انشاء أبنية ادارية عوضا عن الحدائق ، أو بوجه عام ، هل بمقدور مجتمعنا تحمل تخفيض انتاجه القومي (يجب أن لا يغفل احتمال حدوث زيادة في عدد السكان) . وهذه مشكلة لم ينتبه اليها بعض أتباع الاتجاه المحافظ على نحو ملحوظ . وكتب أحدهم عن المناهضين للايكولوجيين : « لقد استعملوا حججا خداعة كفقدان الوظائف وهبوط مستوى الحياة وارتفاع الأسعار ، وحاولوا تحويل جهد المواطن من السعي لانقاذ البيئة الحية بحجة حماية أجيال المستقبل (١٧) » . غير أن مشهد انسان متعطل عن العمل أو عجوز مسن نزيل الملاجىء أو بيوت المسنين ، وهو يواجه ارتفاع الأسعار ، لا يختلف في اثارته للشفقة عن مشهد قطعة لحم من الضأن ، وهي تقلى في الزيت . فليست الحجج التي تلفت الانتباه الى الأعباء الاقتصادية خداعة بالضرورة .

وعلى الجانب الآخر ، فان السؤال الآن هو هل بمقدور الغرب الديموقراطي الليبرالي أن يحتمل تعطيل نشاطه الصناعي ، أو تحويل اتجاهه ، وبوسعنا — في أغلب الظن — أن نقترح فترة انتقال ايكولوجي ،

---

(١٧) Protecting the Environment — Denis Puleston
مجلة The New Scientist (٢٨ سبتمبر ١٩٧٢) ص ٥٥٨ .

تمثل الحالة التى يؤدى فيها النشاط الصناعى الى هبوط مستوى معيشة الأفراد بدلا من النهوض بها ، وعلى أقل تقدير لا يكون فيهـا النشـاط الصناعى مربحا الا اذا أحتسبت تكاليفه باتبـاع طـرق حسابية لا تفى بالغرض ، أى الطرق الحسابية التى تتجاهل تماما ما يتخلف فى الصناعة من نفايات • فجميع المواطنين يحصلون على دخل يفوق الكفاية ويحقق أرغد عيش ييسره هذا الدخل ، ولديهم انتاج قومى يكفى لسد نفقات الخدمات الاجتماعية ؛ ولقـد تجـاوزت السويد واليابان والولايـات المتحدة ـ مع الاكتفاء بهذه الأمثلة الثلاثة ـ هذه الحالة • اذ بمقدور هذه الدول تخفيض جانب من دخلها لحل المشكلات الايكولوجية ، وتعويض الزيادة فى الأسعار عن طريق تحسين الخدمات الاجتماعية • وأما السؤال الخاص بهل ستقوم بذلك ، فمسألة أخرى بطبيعة الحال • ولكن الواقع أن معدل زيادة السكان فى هذه الدول يتجه صوب الصفر ، مع تفاوت بين كل حالة وأخرى . فاليابان تحرص على التأنى فى سرعتها • وقد أصدرت هذه الدول تشريعات قاطعة ضد التلوث • وازدادت درايتها بالحاجة الى الحفاظ على القفـار وأنواع الكائنات المتوحشة ، أكثر من ذى قبـل ، ويعكس المصلحـون الايكولوجيون من أبناء الطبقة المتوسطة القوى الاجتماعية العميقة ، بدلا من تمويهها واخفائها ، وليس من السخف أن نأمل فى تمكنها من الاهتـداء الى موارد لحل مشكلاتها الايكولوجية الرئيسية •

ومن بين الصعوبات ، مشكلة تجنب ما يتعرض له النشاط الصناعى من ارتخاء ، أو اعادة التنظيم الصناعى ، ونقل الصناعات من بيئة لأخرى . ومحاولات الحيلولة دون حدوث انهيارات غير مأمونة العواقب • فليس المصلحون هم الذين يفقدون وظائفهم اذا صدرت تعليمات تصف قيـام شركات السيارات بتغيير موديلاتها بأنه اجراء غير قانونى • اللهم الا اذا ترتب على حدوث ذلك توفير الموارد أو الاقلال من التلوث ، مع الاكتفـاء بمثل بسيط للغاية • وليس من شك أن كل مواطن مطالب بتحمل الزيادة فى الضرائب • غير أن هذا أمر غير ذى بال بالمقارنة بادراك شخص ما أن أسلوبه فى الحياة قد تلاشى من الوجود بين عشية وضحاها • ومن الحماقة والقسوة ، الظن بأن الناس سيبتهجون عندما يسمعون أن مخارط مصانعهم قد تحولت الى شوكات رنانة لتنغيم الموسيقى •

لقد بحثنا حتى الآن ما يطرأ من تغير على معدل النمو الصناعى من وجهة نظر البلدان المتقدمة فحسب ، غير أن هذه الحالة قد تؤثر أيضا تأثيرا كبيرا على البلدان النامية التى اقتنعت بمقدرتها على تحمل صدمات أيـة محاولة من قبل الأمم الغربية لحل المشكلات الايكولوجية للعالم • وقـد

انعكس ذلك فى عدد من احصاءات الحلول المطروحة فى مؤتمر استكهلم ١٩٧٢ · تأمل على سبيل المثال المبدأ الحادى عشر الذى ينص على ما يأتى : « يتعين أن تساعد السياسات البيئية لجميع الدول على تيســـير امكانات التقدم فى الحاضر والمستقبل فى البلدان النامية ، بدلا من أن تؤثر تأثيرا عكسيا عليها · ولعل المبدأ الثالث والعشرين أعظم دلالة ليس فى صورة اقتراحه الأصلى ، وانما كما عرض أثناء المناقشات : « دون أى تعصب لأى معايير قد يتفق عليها المجتمع الدولى ·· سيكون من الضرورى فى جميـــع الحالات بحث نظام القيم السائدة فى كل بلد ، ومدى تطبيق المعايير ، التى تتمتع بالصحة عند أغلب البلدان المتقدمة ، ولكنها ربما لا تكون مناسبة ، للبلدان النامية ، وليس هناك ما يبررها ، وبعبــارة أخــرى ، عليك أن لا تتوقع أن يكون مسلك البلدان النامية على النحو المتوقع عند بلد بلغ نقطة التحول الايكولوجى » !

أحيانا قد يقال ان الغرب غير قادر على تحمل معدل نموه الصناعى لأن ثمة مسئوليات ملقاة على كاهله تجاه البلدان النامية · ان هذا الكلام ــ وبمثل هذه الصيغة ــ محض نفاق · اذ لا يزيد العون المقدم للبلدان النامية عن نتفة لا تكاد تذكر من الدخل القومى عند أغلب البلدان المتقدمة · ومن غير المتوقع ازدياد هذه النسبة · وفضلا عن ذلك ، فان معظم هذا العون بلا نفع ، لأن ما يحدد طبيعته هو صالح المحسن (الواهب) وليس حاجات المتلقى · واذا تنازل الغرب عن منتجاته المركبـــة Synthetics المسئولة عن هذا التلوث ، وخفض ضرائبه الجمركية ، فقد يساعد على احداث تحسينات جوهرية فى أوضاع البلدان النامية ، وسيخفف من مشكلاتها الايكولوجية فى الوقت نفســه ، وان تطلب ذلك تضـــحيات حقيقية مع مراعاة المحاذير التى حذرنا منها ·

ومع هذا فمن واجبنا أن لا نغالى · نعم لقد كانت بعض أشكال المساعدات ذات نفع حقيقى ، وتسبب الجشع والفساد فى محو تأثير بعض الأشكال الأخرى من العون ، وحدث ذلك عند تلقى العون أكثر من حدوثه عند منح الهبة · وتخشى البلدان النامية مما سيترتب على نزوع البلدان المتقدمة للتركيز على مشكلاتهـا الايكولوجية من أثر قد يؤدى حتى الى توقف هذا القدر من العون · وهذا أمر غير مستغرب · كما أنهـا تخشى أيضا ما سيحدث لو أنها حاولت تحديد نموها الصناعى · اذ ربما ترتب على ذلك خفض البلدان الصناعية لمستورداتها من البلدان النامية · ولو أنى شعرت أثناء تأليف هذا الكتاب بأى بشائر للابتهاج تلوح فى الأفق ، فان مجرد تأمل للحظة واحدة لمحنة البلدان النامية ستكون كافية لازاحة هذه البهجة ·

واذا اكتفينا بالتركيز على الديموقراطيات الغربية الليبرالية وحدها ، سيبدو المستقبل أكثر اشراقا نوعا ، لأن حلول الكثير من المشكلات يبدو قريب الاحتمال • ولا ترجع الى الرغبة فى حل مشكلات الغرب وحدها الحاجة التى تظهر فى هذه البلدان لنقل الاعتمادات المالية من الصناعة الى « ثالوث » الخدمات . لأن مسائل مثل توفير وسائل النقل الحديثة ، والرغبة فى اللامركزية . وضبط التوزيع الديموجرافى للسكان ، تعد ضرورية للحياة فى المدن ، مثل ضرورتها لحلول المشكلات الايكولوجية • وحتى تحل هذه الطائفة من المشكلات ، التى وصفها جالبريت Galbraith فى جملتها بأنها مشكلات جماهيرية صارمة ، فان الغرب سيضطر الى الاقدام ، على اتباع اتجاهات عملية ضرورية للغاية لحل مشكلاته الايكولوجية •(ويصبح الموقف المضاد عن البلدان النامية) • وهنا تكمن المأساة •

على أن ما يزعجنى هو صعوبة ادراك على أى نحو باستطاعة الغرب تغيير عاداته الاقتصادية ، دون أن يترتب على ذلك انتقال عملية اصدار القرارات الخاصة بالاختيار من السوق الى الحكومات • ولقد حدث هذا بالفعل — بطبيعة الحال — بقدر كبير • فأولئك الممولون — أى أغلبنا — الذين لم يتعلموا فن التهرب من الضرائب سيرون أن جزءا كبيرا من دخلهم — ولعله القسم الأكبر من هذا الدخل — قد أنفق بمعرفة الحكومة • أما هل يتوقع الاستمرار فى هذه العملية الى ما هو أبعد على نحو لا يجر فى أذياله البزوغ التدريجى للبيروقراطية أو الدولة البوليسية وخنق روح المبادرة ، فانها مسألة المسائل ؟ • وهل يصح القول بأن السويد — كما قيل حديثا — هى أول مثل لزحف المذهب الشمولى ؟ •

قصارى القول ، وان كان من الصعب اجمال ما ذكرت ، والاهتداء الى نتائج دقيقة منسقة تصلح للاستشهاد بها والرجوع اليها ، فاننى بعد أن انتهيت من تأليف الكتاب ، قد أصبحت أكثر وعيا بشدة تعقيد جميع المشكلات التى لمستها . ولقد حاولت توضيح بعض الأسس الفكرية حتى تبدو البدائل أمامنا أقل غموضا من أثر ما يكمن داخلها • ولكن المشكلات قد ظلت باقية • على أنه ليس هناك ما هو أسوأ من سماحنا لأنفسنا بالانزلاق الى روح يوم الحساب ، وما يصحبه من مشاعر بارانوية سوداوية • والمسئولون — بوجه خاص — أقرب وأكثر استعدادا للتعرض لمثل هذه الحالة ، سواء كانوا يشعرون بالاستمتاع بتصور أنهم عند موتهم لن يفقدوا شيئا يأسفون عليه غير المصائب ، أو لكونهم يبحثون عن عظمة وهمية عن طريق التنبؤ بالموت والدمار • بيد أنه عند الشباب

أيضا قد يساعد التنبؤ بحدوث ردة ، على الحصول على عوض عن المسئولية الكاسحة للناحية العملية ·

ثمة بالتأكيد احتمال للتعرض لخطر الشعور بالاحباط مما تضمنه المبدأ الايكولوجي الأول عند باري كومنر ، والقائل أن كل شيء مرتبط بكل شيء آخر ، لأن هذا يعني ـ كما يظهر ـ أن الاقدام على أى عمل على الاطلاق من علامات بلوغ ذروة الحمق والسفه · ولكن من حسن الحظ ، فانني قبل أن أقتل بعوضة لا أرى هناك ما يدعوني لحساب النتائج المترتبة على فعلتي ، وتأثير ذلك على الأشعة الكونية ، التي تشع من الشمس ، أو على نقص الاكسيجين في بعض أيام الصيف في بحيرة « ايرى » · فليس صحيحا أن كل فعل لابد أن يؤثر على أى فعل آخر ، ان ما نحتاج الى تذكره دائما ـ وهذه مسألة مزعجة بقدر كاف ـ هو أن النتائج غير المقصودة لأفعالنا تجيء متأخرة في الزمان والمكان عن أفعالنا ، ومن ثم فانها كثيرا ما تثير دهشتنا · (اذ يظهر سرطان الجلد بعد أربعين سنة من التعرض للشمس ، والاسراف في استعمال المخصبات في حديقتي يساعد على تغذية الطحالب في بعض القنوات النائية) · ان قانون « كومنر » أشبه بالعبارة المأثورة لهيرقليطس التي تقول : « عليك أن تتوقع غير المتوقع » · وعلى الرغم من قيمتها كمخدر ، الا أنها بلا فائدة لهدايتنا من الناحية العملية ·

ان ما أردت أن أركز عليه بوجه عام هو أنه لو أريد حل المشكلات الايكولوجية في العالم ، فان هذا لن يتحقق الا اذا اتبعنا الاتجاه العتيق العريق المسمى « بالفعل المبني على التأمل » · بطبيعة الحال ، بمقدورنا أن نفكر بلا غاية · وربما أدى تصرفنا المستند الى تفكير عميق الى زيادة الأمور سوءا · وكما نعرف تماما في حياتنا الشخصية ، اننا قد ننجو أحيانا حتى عندما نتبع اتجاها طائشا · وربما كانت الحصافة سببا في وقوعنا في التهلكة · وقد يؤدى حرصنا على التحقق من موضع قفزنا ، قبل أن نقفز الى اصابتنا بالجبن · غير أنه لا وجود لبديل لذلك · فليس في مقدور التأملات الغيبية أن تطهر قنواتنا ، أو تطعم أهلنا · اذ لا وجود ليد خفية تساعد على هدايتنا ، سواء اتخذت اسم « النعمة الالهية » أو « التاريخ » · وكما ذكرت ففي عالم الأحياء ، ليس للانسان أى سند للاتكاء عليه · فقد تتسبب حماقته في فقدانه لملكيته ·

ومع هذا فان ما يحدد ما نفكر فيه وكيف نفكر ، ليس فقط طريقة تركيب أمخاخنا ، ولكنه أيضا طبيعة الامكانات التي يتيحها مجتمعنا لنا ، وألوان التفكير التي تسمح تقاليده بها وتشجعها · وكما ذكرت ، ان الغرب

الحديث قد ترك لنا أبوابا للاختيار أكثر من أية مجتمعات أخرى ، فله تقاليد معقدة ومتنوعة فى شتى النواحى الفكرية والسياسية والأخلاقية ، ورغم تعارضها وتنافرها ، الا أنها مثمرة • وهذا يساعد على منح القدرة على النمو والتغير • فقد تغذت فى باطنها بذور ثورات لا حصر لها ، نعم الغرب قادر على الابتكار والاختراع ، ليس فقط فى عالم التكنولوجيا ، وانما أيضا فى نواحى السياسة والادارة والفكر • وساعدت المرونة التى اتسم بها الغرب على تزويده بفرص أفضل لحل مشكلاته • ومن المعترف به أن تقاليده التى تمركزت على الرواقية والمسيحية ليست مناسبة لحل مشكلاته الايكولوجية • انها التقاليد التى تنكر ان علاقات الانســان بالطبيعة محكومة بأى مبادىء أخلاقية ، والتى تمنح الطبيعة أدنى قدر من الحياة المستقلة • ولكن هذه التقاليد ــ كما حاولت أن أبين ــ ليست التقاليد الغربية الوحيدة ، كما أن تأثيرها يتضاءل باطراد •

واذا قدر للبشرية أن تحيا بعد قرن من الزمان ، على نحو أسوأ من حياتها الآن ، فان هذا لن يرجع الى أن تقاليد الغرب قد استغفلتها ، لأن « الجشع » و « قصر النظر » و « التعصب » ، ليست مخترعات غربية • أما كيف يمكن أن يعيش فمسألة لم أجرؤ على تخمينها • اذ تركز اهتمامى على وجوب عدم اقدامنا على فعل أى شىء يقلل من قدرة الأجيال التالية على التحرر فى أفعالها وفكرها سواء بتحطيم العالم الطبيعى الذى ساعد على تحقيق هذه الحرية ، أو بتحطيم التقاليد الاجتماعية التى سمحت بذلك وشجعته •

مراجع مقدمة للاستزادة

مختـارات

Ammerman, Robert R. and Singer, Marcus G. (eds.). *Belief, Knowledge and Truth. New York* : *Scribners,* 1970. A rich selection, ranging from elementary to difficult, from philosophical writings on skepticism, empiricism, rationalism, and other issues in the theory of knowledge from ancient Greece to the present. An extensive bibliography of books and articles.

Braybrooke, David (ed.) *Philosophical Problems of the Social Sciences*. New York : Macmillan, Sources in Philosophy Series, 1965 . Contains a substantial introductory essay by the editor and a selection of recent philosophical writings treating problems suggested by psychology, history, economics, and the other social sciences. This book of readings is designed for the beginning student.

Caplan, Arthur L., (ed.). *The Sociobiology Debate. Read*ings on Ethical and Scientific Issues. New York : Harper & Row, 1978. A collection of classic scientific articles, important writings in the recent sociology controversy and new writings by philosophers, biologists, anthropologists, and political theorists.

Gardner, Martin (ed.). *Great Essays in Science.* New York; Pocket Books, 1957. A highly readable collection of writings on the nature of science and its social implications by scientists and philosophers. The book is more entertaining than many novels.

Mitcham, Carl and Mackey, Robert (eds.). *Philosophy and Technology* : *Readings in the Philosophical Problems of Tech*nology. New York : Free Press, 1972. A well-balanced selection of writings by American, British, and European thinkers on the nature of technology; ethical, political, and religious critiques of technology ; and metaphysical analyses of technology. A good selection and annotated bibliography of works

in English, French, and German enhances the value of this book.

Natanson, Maurice (ed.). *Philosophy of the Social Sciences.* New York : Random, 1963. This anthology provides examples of the application of the phenomenological method to the study of human society. Extensive bibliography. For the more advanced student.

Shapere, Dudley (ed.). *Philosophical Problems of Natural Science.* New York Macmillan, Sources in Philosophy Series, 1965. Contains a substantial introductory essay by the editor and a selection of recent philosophical writings dealing with the structural and historical analyses of science. This book of readings is designed for the beginning student.

Suppe, Frederick (ed.). *The Structure of Scientific Theories,* 2nd ed. Urbana, Illinois : Univ. of Ill. Press, 1978. A good anthology of recent writings in the philosophy of science. For the advanced student.

مؤلفات كاملة

Ayer, A. J. *The Problem of Knowledge.* Baltimore : Penguin, 1956. A more advanced yet clearly written philosophical investigation of the nature, scope, and limits of human knowledge. This book was designed not only for the professional philosopher but for the general reader as well. Particular attention is called to Chapter 2, "Skepticism and Certainty."

Cohen, Morris R *Reason and Nature,* 2nd ed New York: Free Press, 1964. A classic work by an American philosopher who was a champion of the supremacy of critical reason in human life. Cohen devotes considerable attention to the ethical, legal religious, and historic implications of scientific knowledge and method. A scholarly work, yet written so lucidly that the beginning student can read it with pleasure.

Gardner, Martin. *Fads and Fallacies in the Name of Science,* 2nd ed. New York : Dover, 1957. A fascinating examination of extrasensory perception, the hollow earth hypothesis.

dianetics, orgone boxes, and other theories and devices that the author criticizies as being pseudoscience.

Hospers, John. *An Introduction to Philosophical Analysis*. 2nd ed. Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall 1967. This expository text contains a clear, contemporary, and elementary discussion of rationalism and empiricism for the beginning student.

Huxley, Thomas Henry. *Selections from the Essays of T. H. Huxley*, edited by Alburey Castell, New York : Appleton. 1948. A collection of some of the most famous essays treating such topics as science and education, science and religion. and science and ethics.

Nagel, Ernest. *The Structure of Science*. New York : Harcourt, 1961. A recent comprehensive treatment of the nature of explanation in the natural and social sciences by an outstanding American philosopher of science. A book for the more advanced student.

Otto, Max C. *Science and the Moral Life. New York* : New American Library, Mentor Book, 1949. An unusually felicitous defense of a scientific humanism in the tradition of William James and John Dewey. With a sophistication developed to the point of simplicity, this book is designed for the layman in philosophy.

Popper, Karl. *Objective Knowledge : AnEvolutionary Approach*. New York : Oxford University Press, 1972. A recent work by an internationally outstanding contemporary philosopher of science.

Putman, Hilary .*Meaning and the Moral Sciences*. Boston: Routledge and Kegan Paul, 1978. A recent, provocative work illustrating new trends of thought by a prominent American philosopher of science.

Ravetz, Jerome R. *Scientific Knowledge and Its Social Problems*. New York : Oxford U.P. : 1973. A recent and influential discussion of the nature of science and its impact on society and nature.

Russell, Bertrand. *The Scientific Outlook*. New York : Norton, 1962. The first two parts of this book deal with the

natures of scientific knowledge and scientific technique. In the third part entited "The Scientific Society," Russell rewrites and updates Plato's *Republic*. In the course of his philosophical critique of the scientific society, Russell discusses all of the objections to such a society to be found in George Orwell's 1984, Aldous Huxley's *Brave New Yorld*, and other similar fictional and nonfictional critiques.

Stapledon. Olaf. *Last and First Men and Star Maker*. New York : Dover, 1968. Two science fiction novels by a philosopher that convey the haunting beauty and disturbing strangeness of the world revealed by science better than most abstract treatises. These powerfully imaginative works reveal why many men find the scientific understanding and manipulation of the world and man so fascinating and hopeful and many others find it so appalling and depressing.

Dictionary of the History of Ideas : Studies of Selected Pivotal Ideas. Philip P. Wiener, editor-in-chief. New York : Scribners, 1973. Substantial and clearly written essays emphasizing the historical development of topics discussed in this part. Designed to inform the nonspecialist, each essay concludes with a select bibliography.

Encyclopedia of Philosophy. Paul Edwards, editor-in-chief. New York : Macmillan, 1967. The beginning student will find many worthwhile articles on the subjects treated in this part, and excellent bibliographies.

• سادساً

الفن والمجتمع

مقدمة الفصل

يروى فى احدى الأساطير القديمة أن ملكا ثريا خرافيا دفعه الضيق بالحياة الى ايفاد مبعوثين الى شتى الأنحاء يعرضون مكافآت مادية سخية ، ويعدون بتحقيق الشهرة لمن ينجح فى اختراع أية متعة جديدة • وقد تقولون انها خرافة ذكية وخلابة وحميدة ، على أننا معشر الفنانين كثيرا ما نجعل هذه الأسطورة مسايرة للعصر بأن نحيطها برداء معاصر • افترض اذن أن رئيس الولايات المتحدة قد أعلن فى التلفزيون عن نيته تقديم ميدالية للحرية أثناء مهرجان يقام فى البيت الأبيض لأى مواطن أمريكى يخترع متعة جديدة ، فماذا يتوقع أن تكون ردود فعل مواطنى الرئيس وأبناء الأمم الأخرى فى العالم ؟ " فهل حقا يتوقع أن يناقش هذا النبأ بعد اذاعته مناقشة جادة رصينة وبموضوعية ومنطق ؟ • الحق أن أحدا لن يفعل ذلك - فكما يعرف الجميع أن رد الفعل فى الولايات المتحدة سيكون شعورا بالحيرة الممتزجة بالسخرية الضاحكة ، وسيتبعه استنكار غاضب فى أروقة الكونجرس لهذه الاهانة المعنوية ، التى لحقت بكل مواطن رشيد ومواطنة رشيدة فى البلاد • وسيندلع الفزع فى النشرات الاعلامية من أثر هذه الظاهرة الجديدة ، التى تثبت ما لحق الوظائف العليا فى الدولة من فساد ، بالاضافة الى تلميحات مقنعة من الحزب السياسى المعارض بأن الجهات الرسمية المسئولة قد أصيبت بلوثة ، وتهليلات غاضبة من الجمعيات الوطنية والرسمية وتعهدات بمحاربة هذه السياسة الى آخر قطرة من دماء أبنائها • وربما سمعنا مذيعا فى اذاعة لندن يقول : « لقد قدم رئيس الولايات المتحدة فى اذاعته التليفزيونية بالأمس ما قد يصح اعتباره أعظم برهان مقنع على الاتجاه المادى الفج ، الذى يهدد مستعمرتنا السابقة • ان أمريكا بحكم وضعها كبلد فتى لم تتعلم أن المتع التقليدية العريقة هى الأفضل » • وقد نسمع صوتا من باريس يقول : « لقد كنتم أيها الأمريكان تصفون فرنسا دائما بالبلد اللاأخلاقى » • وقد تتفق موسكو وبكين على القول « بان مطلب رئيس الولايات المتحدة باختراع متعة جديدة

يكشف عن حالة اليأس التى أصابت البورجوازية ، والتى دفعتهم الى الهروب من الواقع ، ومن حقيقة الثورة المحتومة » •

★★★

وترمز الدعوة الى اختراع متعة جديدة الى دعوة الفنان الى ابداع أعمال فنية جديدة • فنحن نرغب المتعة ، التى قد تحققها الأعمال الفنية ، وأحيانا نكافىء الفنان على ذلك بسخاء • على أنه من المفارقات • اننا نخشى هذا المتعة التى نصبو اليها ، ولا نثق فى من يزودنا بها ، فمن آن لآخر ، نكتشف شوائب قائمة فى خمر الفن الذهبى ، ونرتاب فى احتمـال احتوائه على سم زعـاف • وتمثل الكوميديا الموسيقية Hair عند بعضنا احد الأعمال الفذة فى عشرات السنوات الأخيرة ، وتبدو عند بعض آخر تحريضا صاخبا على الاثارة الجنسية وتدخين الماريوانا والفوضى الاجتمـاعية • بينما يمثل النجاح العارم لهذه الكوميديا الموسيقية فى شتى أنحاء العالم فى نظر آخرين دليلا جديدا على خطورة الفن • ولقد لاحظ جوزيف ستالين فى احـدى المناسبات ــ كما زعم ــ أن دوستويفسكى فنان عظيم ولكنه رجعى فظيع أيضا ، ومن الواجب استبعاد مؤلفاته • ويرى كثيرون أن الشـاعر ارزا باوند Ezra Pound أعظم شعراء أمريـكا فى العصر الحالى ، وان كانت الحـكومة قد أدانتـه بالخيـانة • ويمثـل فى القرن العشرين عند كثيرين ، ــ بوجـه عـام ــ عهـدا رائعا من التجريب والأصـالة والمنجزات الخالدة • بينمـا يبـدو فى نظر آخرين دخانا فى الهـواء ، ومن علامات التدهور • وليست هـذه العلاقة المحيرة بين الانسـان والفن وقفـا على زماننـا ، فبمقدورنا أن نردها الى اليونان القديمة •• فلقد شعر افلاطون بهذه العلاقة شعورا حادا • انها من نوع المشكلات التى تحتاج الى براعة الفيلسوف فى التحليل والنقد والتوضيح ، كى يلقى ضـوءا على القضايا الحقيقية ــ لو وجدت ــ وأين يستطاع الاهتداء الى حل لها ، وأى اتجاه يتعين سلوكه • ومن هنا رأينـا سقراط يتساءل مثـل الفلاسفة الآخرين : هل يحدث الفن أى تأثير على الاطلاق على السلوك البشرى ؟ ولو صح أن الفن يؤثر فى السلوك البشرى ، هل يعد هذا التأثير تافها أم هاما ، وكيف يتسنى تحديد ذلك عقلانيا ؟ ولو سلمنا أن الفن له تأثير هام على الأخلاق ، فهل يغلب على هذا الأثر الخير أم الشر ؟ واذا قلنا أن الغلبة للشر ، فهل تعد الرقابة أفضل سبيل لاستبعاد هذا الشر ، أو تخفيفه ؟ أم هل ترجح الأضرار الناجمة عن الرقابة على ما تحققه من نفع ؟ أظن أننا نعرف مزاعم بعض المذاهب الأخلاقية ، أو الايديولوجيات بأن من حقها أن تحكم على الفن دون

قيد أو شرط • ولعل أفضل مثل مفحم هو عكس هذه العلاقة بأن نجعل الفن فيصلا في الحكم على الأخلاق ، وأن نؤيد ما يقال عن أن مقولات الخير والشر مقولات استاطيقية أساسا • فهل يحق لنا منح خلق الفن والاستمتاع به أسمى مكانة ومنزلة في الحياة البشرية ، وأن تخضع جميع القيم الانسانية الأخرى للقيم الاستاطيقية ؟ وهل نعترف بالتجرد من الميول الاستاطيقية كأساس لفلسفة في الحياة ؟

★★★

وتناول افلاطون في محاورة « الجمهورية » الكثير من هذه المسائل ، وكانت الغاية العامة التي حددها للمحاورة هي تعريف العدالة عن طريق يوتوبيا عقلانية ، يتولى فيها الحكماء (يعني الفلاسفة) مهام الحكم • واستعان افلاطون بشخصية سقراط كلسان حال له لعرض ما شعر بأنه الدور الحقيقي للفن في مجتمع يكرس نفسه تكريسا تاما — وبلا هوادة — لتحقيق رفاهية البشر • فلما كان الانسان حيوانا عقلانيا لذا لن تتحقق رفاهيته الا باخضاع جميع القيم البشرية الأخرى لقدراته الفكرية في أكمل صورها • وليس من شك ، أن المشكلة الوحيدة في المجتمع الكامل ستتركز على ترسيخ هذه الحالة الكاملة • وخلص افلاطون من هذه المشكلة بتوكيد وجوب أن يكون الحكام من المفكرين ، اذا تسنى تطبيق نظام تربوى شامل للمجتمع برمته ، يضع كل فرد في أنسب مكان له ، وفقا لقدراته • ولابد أن يكون الاستناد الى التعليم كأساس لوضع الشخص المناسب في المكان المناسب من الأمور المألوفة لطلابنا المعاصرين • وبناء على ذلك ، جعل افلاطون دور الفن في المجتمع مرادفا لدور التربية والتعليم •

★★★

هنا يتوجب التنويه الى أن معنى الفن عند افلاطون لا يقتصر على ما أصبحنا ندعوه هذه الأيام « بالفنون الرفيعة » ، ولكنه يضم أيضا جميع المهارات الانسانية ، بدءا بتدريب الطلاب وبناء السفن الى رسم اللوحات ونحت التماثيل • وكما يرى افلاطون ، فان أسمى فن هو القدرة على الحياة الفاضلة أو العقلانية ، ويقيم افلاطون ما ندعوه بالفنون الرفيعة تبعا لمقدار عونها لتحقيق الحياة الفاضلة ، أو اعاقتها لها • وافلاطون مقتنع بأن الفن — أى ما نعنيه بالفنون الرفيعة ، أو ما يستهوى أساسا الحواس والرغبة في المتعة أكثر من استهوائه للعقل والرغبة في المعرفة — له قدرة هائلة على التأثير في السلوك الانساني ، وتشكيله ، وتوجيهه الى الخير أو الشر •

وبناء على ذلك ، قدم سقراط فى محاورة الجمهورية قضية السياسة الرسمية للرقابة التى ترمى فى مخططها لا الى استبعاد جميع الفنون الجميلة ، وانما للنهوض ، بقصد وبطريقة منهجية ، بآثارها الحميدة ، وللحيلولة دون احداثها آثارا ضارة ، ومن ثم يكون بمقدورها النهوض بأسمى فن يساعد على العيش على نحو عقلانى ٠

★★★

وفى القسم الثانى ، الذى نقلناه عن كتاب السياسة لأرسطو التلميذ النابه لافلاطون ، عرض أرسطو الدعوى التى تقام ضد اقامة نظام للرقابة على الفنون ، باعتبار هذه الوسيلة تسىء الى المجتمع ، فالفن يحدث تطهرا « كاثاراسيس ــ بلغة الاغريق » ، أى نوعا من تطهير انفعالاتنا ، ويخفف من حدتها ، بقدر يساعد على تقبلها الخضوع للعقل . وبذلك يحول دون احداثها أى تغيير هدام اجتماعيا وفرديا ٠ فالفن « يحاكى » الحياة ، لا بمعنى أنه ينسخ الحياة نسخا حرفيا ، وانما بمعنى أنه يحدث لدينا انفعالات متولدة عن المواقف التى تواجهنا فى الحياة الفعلية ٠ ولما كانت الموسيقى هى الأقدر على اثارة مثل هذه الانفعالات ، لذا تعد أكثر الفنون اتصافا بالقدرة على المحاكاة ٠ غير أن الفن يختلف عن الحياة ، لأن الأعمال الفنية لا تستحث على العمل ، ولكنها تستحث على عكس ذلك ٠ وبذلك يكون الفن نوعا من العلاج النفسى ، أو بمثابة صمام أمان ٠ على أنه من العسير حسم هذه القضية ، لذا فمن غير المستطاع أن يكون افلاطون قد أصاب فى رأيه ، وأن يكون أرسطو قد أصاب أيضا ٠ فلا يصح أن يوصف الفن بأنه سبب الجريمة والتدهور الأخلاقى العام ، وبانه أيضا ليس سببا لذلك ٠

★★★

وعندما ألفى الفلاسفة أنفسهم فى خضم نظريات متصارعة ومتضاربة ، يتعذر القطع باى النظريات هو الأصوب ، فقد أدى ذلك الى ظهور اتجاه عام يسعى للبحث عن نظرية بديلة ، فلقد اتفقت نظرية أفلاطون ونظرية أرسطو على افتراض أن الفن يؤثر تأثيرا عليا على السلوك البشرى ، واختلفا حول الطابع العام لهذا التأثير ٠ اذ ذكر افلاطون أن هذا الأثر غالبا ما يكون ضارا ، أما أرسطو فقال ان هذا الأثر حميد ، على الجملة ٠ ويرفض الفيلسوف الوجودى المعاصر جان بول سارتر هذا الافتراض الذى اشترك فى ترديده افلاطون وأرسطو ، ورأى أن هناك انفصالا كاملا بين الفن والأخلاق .

وبين الجمال والخير • فالعمل الفنى عمل قائم بذاته ومستقل ، ويتعين الحكم عليه تبعا للمعايير الاستاطيقية وحدها ، وليس بالرجوع الى معايير أخلاقية وسياسية أو لاهوتية ، أو غيرها من المعايير غير الاستاطيقية • ويحاجي سارتر ويذكر أن السلوك الانسانى مسألة « وجودية » ، كما لا يخفى ، وفقا للمعنى الذى تعنيه عنده كلمة « وجود » ، فان « توجد » يعنى أن تكون « واقعيا » أو حقيقيا • على أن تأمل العمل الفنى يتطلب تعليق القيام بأى اختيار ، أى يعنى التوقف عن الفعل وتجاهل الماضي والمستقبل والاستغراق فى الحاضر • بناء على ذلك ، يكون العمل الفنى غير « موجود » ، انه ماهية متحررة من الزمان ، وصورة لامادية • وباختصار انه أمر تخيلى صرف ، اذ ينتمى الفن الى الخيال • أما الأخلاق فتنتمى الى الوجود • « فالفن والأخلاق » و « والجمال والفضيلة » ان كل معنى من هذين المعنيين يشغل مستوى مختلفا عن مستوى المعنى الآخر • وهكذا تكون مشكلة : هل يعد تأثير الفن تأثيرا يغلب عليه الخير أم الشر مشكلة زائفة • فالفن لا يوصف بأنه أخلاقى أو لا أخلاقى • انه خارج ميدان الحكم الأخلاقى •

★★★

ويرى جون ديوى العلاقة بين الفن والأخلاق فى صورة جد مختلفة ، أى ليست علاقة اعتماد ، لطرف على الآخر ، أو كعلاقة استقلال لكل منهما على الآخر • وانما كصلة متبادلة التأثير • واذا توخينا الدقة ، قلنا أن العلاقة بين الفن والأخلاق يتوجب أن تكون علاقة تفاعل متبادل ، اذا لم يتصور الفن تصورا ضيقا ، أى كمتعة عابرة تافهة ، واذا لم ينظر الى الأخلاق نظرة فجة باعتبارها جزاء يتحقق آليا بالثناء أو اللوم وفقا لسنة جامدة وشديدة التبسيط • واذا فسرنا الفن والأخلاق تفسيرا معقولا ، فاننا لن نحصر أى طرف من هذين الطرفين حصرا مصطنعا فى نطاقين منعزلين ، وانما سنراهما كعنصرين يشتركان فى كل حضارة انسانية • فينصب دور الفن على رؤية المثل العليا • وينظر الى الأخلاق على أنها مصطلح يمثل جملة القيم الانسانية التى يشاركون فيها ، وقد تتركز مهمة الفن التقليدى «الأكاديمى» على مجرد تزيين القيم التقليدية ، والارتقاء بها ، ومع هذا فان الفن الجديد يكتسب صفة الجدة بفضل مساعدته لنا على زيادة الحساسية بالقيم الجديدة والمثل العليا الجديدة ، وبذلك يشجع التجديد فى عالم الأخلاقيات • ان الفن بوصفه ادراكا خياليا للامكانات قادر على تحرير الحياة الانسانية من لعنة الروتين والملل •

★★★

ويعنى سبارشوت الفيلسوف الكندى ببيان القضايا ، والتفرقة بينها ، وما يصحبها من حجج معارضة فى الخلاف الدامى حول الرقابة والفنون ، ويساعد التحليل الحصيف والشامل لسبارشوت على اثارة التاملات الفلسفية عند القارىء ، وتوضيحها فى مسألة القضية المعاصرة للفن و « الادب المنحل » pornography ويبين من ايضاح سبارشوت انه يتوجب أن لا ينظر الى السؤال الخاص بتأييد فرض رقابة على الفن ، أو الاعتراض على ذلك على أنه مسألة من نفس نوع قضية السود والبيض ، وبدلا من ذلك ، يتعين النظر اليه على انه مسألة خلافية معقدة وحادة وعميقة ،

★★★

ان القضية الخاصة التى تدور حول هل تخضع الفنون للرقابة قضية قديمة قدم أفلاطون ، كما أنها قضية شديدة الحداثة مثل اخبار اليوم ، ويقدم والتربيرنز صورة معقدة حديثة العهد لقضية الرقابة على الفنون ، ولا ينكر بيرنز ميل الكثيرين الى الأدب المنحل ، بل واستمتاعهم بالمبتذلات ، غير أن حقيقة شعور بعضنا برغبة ما ليست دليلا على أن هذا الشيء خير لزيد أو عبيد من الناس ، فلا يلزم أن يكون الشيء المرغوب أمرا مستحبا ، فكثيرون يتلهفون للحصول على الهيروين ، وان كان لا يعد شيئا حسنا لهذا السبب ، ويتعين على المجتمع التمسك بالمعايير الأخلاقية ، لأن تحطيمها يعنى تحطيم المجتمع نفسه فى نهاية الأمر ، ويتطلب الحفاظ على المعايير الأخلاقية سلوكا حميدا ، يتطلب بدوره انضباطا وقدرة على عدم انفلات العيار ، والانضباط مستحيل بغير الشعور بالحياء ، ويتعارض الشعور بالاستحياء وأى اتجاه يرى أن كل شيء مباح ، ويقر حق الكافة في فعل ما يحلو لهم ، وأدى الاعتراف بشرعية الأدب المنحل والأدب المبتذل الى تشجيع اتجاه ينادى باباحة كل شيء ، مما أدى الى ضعف الأخلاق ، ويضيف بيرنز نتيجة ترى أن الديمقراطية ، ويقصد بها الحكم الذاتى ، ترتكن الى القدرة على الانضباط ، ويستخلص من ذلك أن انتشار الأدب المنحل بلا رقابة قد ساعد على تهديد وجود الديموقراطية ، وفضلا عن ذلك ، فان التمسك بالمعايير الأخلاقية يدعم جميع المعايير ذات النفع ، ويشد من أزر التفرقة الاستاطيقية بين الفن والهراء ، وباختصار تعد الرقابة صورة من الانضباط والترويض النفسى ، لأن الانضباط ضرورة لحماية جميع المعايير ، سواء أكانت اخلاقية أم استاطيقية أم سياسية وغير ذلك ،

★★★

ويرى بيرنز فى تفسيره أن المبتذلات قد يكون لها ما يبررها فى الفن ، اذا استعملت كوسيلة لزيادة فهمنا للحقائق بحكم القانون ، ولما هو حق فى طبيعته ، أكثر من كونها وسيلة لتحطيم المعايير ، وغنى عن القول أنه تتعين معاملة الرقباء على أنهم غير معصومين ، فاذا أخطأوا ، فمن الأفضل أن يجىء خطأهم فى صف معايير الاحتشام والوقار ، بدلا من جنوحه نحو الابتذال • فثمة أشياء كثيرة موضع خلاف ، من بينها مستقبل الأخلاق الديموقراطية ، بل والفن ذاته •

☆☆☆

وفى معرض الاحتجاج على الرقابة على الفنون ، يرى مارشال كوهين أن الضرر الذى ينجم عن الرقابة أرجح فى كفته من أى ضرر يترتب على المبتذلات والأدب المنحل • والحق أن أغلب الآثار الضارة التى نسبها بيرنز الى المبتذلات متوهمة • ويعترف كوهين باستصواب حق المجتمع فى حماية بيئته الأخلاقية • غير أنه لا مناص من مواجهة ما تحدثه الرقابة من حجر على حرية الفكر والكلام • فما هو هدف الرقابة ؟ • هل هو الحفاظ على المعايير الأخلاقية ، أم منع توجيه أى نقد اليها ؟ ربما كان بعض معاييرنا الأخلاقية شديد الضرر فى تأثيره بحيث يتحتم لا مجرد الاكتفاء بتوجيه نقد اليه ، وانما يجب استبعاده نهائيا ؟ • واذا عجزت معاييرنا الأخلاقية ، وغير ذلك من المعايير الصمود أمام الهجوم ، فانها لن تكون جديرة بالحفاظ عليها • واذا راعينا غموض كلمة « مبتذلات » و « أدب منحل » ، سنرى أن الرقابة قد تحولت الى وسيلة لايقاف التغير الأخلاقى ، بل وعملية النهوض بمستوى الأخلاق بالتبعية ، بل ولعلها قد جعلت ذلك أمرا محتوما • فكلما سعينا لتحقيق ما هو أفضل ، فاننا نتعرض دائما لخطر زيادة الأمور سوءا •

ويعترف كوهين بأن الكثيرين ينفرون من الأدب المنحل • غير أن معارضة الرقابة لا تعنى فرض الأدب المنحل على من لا يريدونه • فبوسع الأدب المنحل أن يتمتع بحريته كاملة ، على أن يحرص على تجنب المساس بالخصوصيات • ولا يعترض كوهين على منع الاقلاق العام ، ويتساءل هل يحق للقانون تحريم الاستغلال التجارى للشغف المرضى بالجنس ؟ • ويعترض كوهين على مثل هذا التحريم متذرعا بصعوبة التفرقة بين ما هو « اهتمام مرضى » ، « وما هو اهتمام صحى » ، وبين ما هو « استغلال تجارى » ، وما هو أساليب مقبولة فى المعاملات فى النظام الرأسمالى » • فما الذى قد يحدث لو انتهى

الأمر بأن امتدت الرقابة على الفنون ، وتحولت الى رقابة على النظام الرأسمالى ذاته ؟ ان أخطار الرقابة أفدح كثيرا من نفعها .

الفن الأخلاقى والفن اللاأخلاقى لأفلاطون :

[أفلاطون (٤٢٧ ق.م ـ ٣٤٧ ق.م) أثينى أرستقراطى . تحول بفضل سقراط من الاهتمام بعالم الشعر الى الاهتمام بعالم الفلسفة . وباستثناء أرسطو ، لم يتفوق عليه أى فيلسوف آخر فى الأثر العظيم الذى تركه على الحضارة الغربية ، وغير من ملامحها ، ولقد استعين بسقراط فى الكثير من المحاورات الافلاطونية للتعبير عن معتقدات افلاطون . وهذه مسألة لا شك فيها] .

[ويناقش سقراط فى المختارات التالية قضـية الفن الاخلاقى والفن اللاأخلاقى هو واديمانتوس وجلوكون . وهما من الشباب . ومن رفاق أفلاطون . وسنرمز اليهم بالرموز الآتية : اديمانتوس (أ) وسقراط (س) وجلوكون (ج)] .

سقراط (س) الراوى ـ تعالوا اذن . ولنمضى ساعة من الزمان فى رواية الحكايات وستدور حكايتنا عن كيفية تربية أبطالنا .

اديمانتوس (أ) ـ بكل سرور .

س ـ وكيف ستكون طريقة تربيتهم ؟ هل بمقدورنا أن نهتدى الى طريقة أفضل من الطريقة التقليدية ؟ ، ولهذه المسألة شقان : شق خاص بتربية البدن . والآخر موسيقى يخص الروح .

أ ـ حقـا .

س ـ فهل نبدأ التربية بالموسيقى ، ثم ننتقل فيما بعد الى تربية البدن ؟ .

أ ـ بـلى .

س ـ وقد يكون الأدب حقيقيا أم زائفا ؟ .

أ ـ بلى .

س ـ ويتعين تدريب النشء على النوعين . ونحن نبدأ بالزائف ؟

أ ـ لم أفهم ما تعنيه .

س ـ لعلك تعرف اننا نبدأ بتعليم أطفالنا بعض حكايات ، حقا انها لا نخلو

(★) محاورة « الجمهورية » تاليف افلاطون ضـمن The Dialogues of Plato ترجمها الى الانجليزية Benjamin Jowett الطبعة الثالثة ١٨٩٢ .

من أشياء حقيقية ، ولكنها فى صميمها خرافية · وتروى لهم هذه الحكايات فى السن التى لا يتعلمون فيها التربية البدنية ·

أ ـ صحيح ·

س ـ هذا هو ما أعنيه عندما قلت بوجوب تعليم الموسيقى قبل التربية البدنية ·

أ ـ تمام ·

س ـ ولعلك تعرف أيضا أن البداية هى أهم خطوة فى أى عمل ، خصوصا فى حالة الاشياء الرقيقة الغضة ، لأنها تمثل الحالات التى يتشكل فيها السلوك ، والتى يكون فيها الشخص على أهبة الاستعداد لتلقى التأثيرات المنشودة ·

أ ـ تمام ·

س ـ فهل نسمح ـ بلا اكتراث ـ للأطفال بالاستماع الى حكايات عابرة من اختراع أشخاص عابرين ، وأن تغرس فى أمخاخهم أفكار تتعارض ـ فى أغلبها ـ وما نرغب فى حصولهم عليه عندما يكبرون ؟ ·

أ ـ لا يجب أن يحدث ذلك ·

س ـ عندئذ ، يكون أول شيء يتعين قيامنا به هو انشاء رقابة على كتاب الحكايات ، على أن تكون مهمة الرقباء قبول الحكايات الخرافية الجيدة ، ورفض ما هو سيء ، وسنطلب من الأمهات والمربيات أن لا يروين لأطفالهن غير الحكايات المصرح بها فقط ، فعليهن الاعتماد عليها فى تشكيل العقل ، بشغف يفوق شغفهن بتشكيل أجسامهم بأيديهن · ولكن الكثير مما هو منتشر الآن يجب أن يستبعد جانبا ·

أ ـ عن أى حكايات تتكلم ؟ ·

س ـ ان بمقدورك أن تصادف نموذجا للأدنى عند الأعظم، لأنهما من نفس النوع ، كما توجد فيهما معا نفس الروح ·

أ ـ محتمل ! · غير أننى لم أعرف حتى الآن ما الذى تعنيه بالأعظم ·

س ـ النوع الأعظم هو النوع الذى رواه هوميروس وهزيود ، وباقى الشعراء الذين يعدون أعظم رواة الحكايات ، عند البشر ·

أ ـ ولكن ما هى الحكايات التى تقصدها · وما الخطأ الذى اكتشفته فيها ؟ ·

س ـ انه خطأ خطير للغاية . انه خطأ الوقوع فى الكذب . فهل هناك ما هو أبشع من الأكذوبة السيئة .

أ ـ ولكن متى أرتكب هذا الخطأ ؟ .

س ـ انه يرتكب فى كل حالة تمثل فيها طبيعة الالهة والأبطال تمثيلا خاطئا ، مثلما يحدث عندما يرسم المصور صورة ليس بها أى ظل من التشابه والأصل .

أ ـ الحق معك . ان هذا النوع يستحق الكثير من اللوم . ولكن ما هى الحكايات التى تقصدها ؟ .

س ـ أولا ، هناك أبشع هذه الأكاذيب ، التى ذكرت عن أعظم المواضيع ، والتى رواها الشاعر عن أورانوس ، والتى تعد أكذوبة سيئة أيضا . وأعنى بذلك ما ذكر هزيود أن أورانوس قد فعـــله ، وكيف ثأر كرونوس منه (١) . ان أفعال كرونوس ، والمعاناة التى تسبب ابنه فى حدوثها له بدوره ، حتى اذا كانت حقيقية لا ينبغى أن تروى بكل استخفاف الى النشء والأشـــخاص القليلى الحظ من القدرة على التبصر ، ولو أمكن ، فمن الأفضل مواراتها فى صمت ، غير أنه اذا كانت هناك ضرورة مطلقة تقتضى ذكرها ، فينبغى ألا يستمع اليها غير قلة مختارة فى غير العلن . ويتعين عليهم لا أن يضحوا بخنزير من الخنازير العادية (Eleusinium) ، ولكن عليهم أن يختاروا أضخم ضحية يتعذر الحصول عليها . ويتوجب أيضا أن يكون عدد المستمعين قليلا جدا .

أ ـ لماذا تعتبر هذه الحكايات من الأشياء التى يعترض عليها بشدة .

س ـ حقا يا اديمناتوس . انها حكايات لا يتعين أن تتكرر فى دولتنا ، ويجب أن لا يذكر للنشء بأنه اذا ارتكب أورانوس أبشع الجرائم ، فانه لن يكون قد اقترف أى فحش . وحتى عندما قام بتأديب أبيه لارتكابه خطأ ما ، فانه لن يكون قد فعل ما هو أكثر ، من الاقتداء بالمثل الذى ضربه أول الآلهة وأعظمهم .

أ ـ أوافقك تماما . وأرى أن هذه الحكايات لا يليق تكرارها .

س ـ كما أننا اذا رغبنا أن يعتاد حراسنا فى المستقبل الحكم على ما يدور بينهم من عراك على أنه من أحقر الأشياء ، فان علينا أن نحرص على

---

(١) Theogony — Hesiod ١٥٤ ـ ٤٥٩ .

أن لا تقال لهم أية كلمة عن الحرب التى تنشب فى السماء والحيل والصراع الذى يدور بين الالهة ، لأن هذه المسائل غير حقيقية • كلا ! • ان علينا أن لا نروى شيئا البتة عن معارك المردة ، أو نغلفها بمظهر فخيم ، ويتعين علينا أن نلوذ بالصمت ، فلا نذكر شيئا عن المعارك التى لا نهاية لها التى حدثت بين الالهة والأبطال وأصدقائهم وأقربائهم • ولو أنهم صدقونا ، فان علينا أن تخبرهم أن العراك مسألة غير مقدسة ، وأنه حتى الآن لم ينشب أى عراك بين المواطنين، ان هذا هو ما يجب أن يتجه العواجيز ، رجالا ونساء ، لروايته لأطفالهم ، وعندما يكبرون يجب أن يعرف الشعراء وجوب اتباعهم لنفس الروح فى منظوماتهم ، أما حكاية هيفاستيوس ، وكيف قيد هير Here ، أو كيف قام زيوس فى مناسبة أخرى باطارته فى الهواء ، لأنه انحاز اليها عندما ضربت ، وجميع أخبار معارك الالهة عند هوميروس : ان جميع هذه الحكايات لا يجب السماح بها فى دولتنا ، سواء افترض أن لها معنى رمزيا أم لا • لأن أى فتى غر ليس بمقدوره أن يفرق بين المجـازى والحرفى • ان كل ما يدخل عقله فى هذه السن يحتمل أن يتحول الى شىء لا يمحى ولا يتبدل ، ومن ثم فمن المهم للغاية أن تكون الحكايات التى يستمع اليها النشء لأول مرة نماذج للأفكار الفاضلة ••••

واذا أعلن أحد من الناس ان انتهاك التعهدات والمعاهدات ـ والتى أقدم عليها بالفعل باناداروس (٢) ، قد كانت بتدبير أثينا وزيوس ، أو أن العراك والصراع بين الآلهة كان بتحريض ثيميس وزويس (٣) ، فاننا لن نقر ما يقول ، كما أننـا لن نسـمح لشبابنا بالاستماع إلى ما قاله اسخيلوس :

[بأن الاله يغرس الذنب عند البشر ، عندما يرغب فى تدمير دار من الديار] •

واذا كتب شاعر عن معاناة نيوبى ووضع مأساة عنها ، تضمنت الأبيات الأيامبية ، التى استشهدنا بها ، أو تحدث عن بيت بيلوبس أو طريق طروادة ، أو عن أى موضوع آخر ، فان علينا أن لا نسمح له بادعاء أن كلماته من صنع الاله • وعليه أن يقدم أدلة تثبت ذلك لكى يؤيد رأيه كأن يقول أن الله قد فعل ما هو عدل وحق ، وأن هذه الأفعال كانت

---

(٢) الالياذة ، ص ٦٩ •

(٣) نفس المرجع •

الأفضل كعقاب لنا · غير أن من يتعرضـون لهذا العقاب ، سيصـابون بالتعاسة ، ويكون الله هو الذى ألحق بهم هذا الشقاء ، ويجب أن لا يسمح للشاعر - برغم ادعاءاته - بالقول بأن الأشرار تعساء لأنهم يحتاجون الى العقوبة ، وأنهم سينالون خيرا كبيرا اذا تلقوا الجزاء من الله ، ولكن لما كان الله خيرا ، لذا يتعين علينا أن ننكر أنكارا باتا أنه وراء أى شر يلحق بنا · ولا يجب أن يتردد ذلك بالقول أو الغناء ، باستعمال الشعر أو النثر ، من قبل اى فرد سواء أكان شيخا أم شابا ، فى أية دولة حسنة النظام ، لأن متل هذه الخرافة انتحارية ومدمرة والحادية ·

أ - أنا متفق معك · وعلى استعداد للترحيب بالقانون ·

س - فلتكن اذن هذه احدى القواعد والمبادىء المتعلقة بالالهة ، التى يتعين على شعرائنا وقصاصينا مراعاتهـا : ان الله ليس صـانع جميع الأشياء ، ولكنه صانع الخير فقط ·

أ - هذا يفى بالغرض ·

س - وما رأيك فى هذا المبدأ الثانى ؟ · فهل يعد الله ساحرا ، بحيث تتخذ الطبيعة جملة مظاهر خداعة ، كأن تبدو حينا فى شكل ما ، وفى حين آخر على نحو مختلف ، وأحيانا يغير الله من هيئته ، ويتحول الى صور عديدة تؤدى الى خداعنا بمتل هذه التحولات ، أم أنه واحد ، وله صورة ثابتة هى هى لا تتغير ؟ ·

أ - ليس بمقدورى الاجابة ، بغير أن أفكر مليا ·

س - أجل ! · ولكن اذا افترضنا حدوث تغير فى أى شىء ، لوجب أن يتأثر التغير بالشىء ذاته ، أو بأى شىء آخر ؟ ·

أ - يقينا ·

س - والأشياء عندما تكون فى أفضل حالاتها ، فانها تضحى أقل عرضة للتغير أو التحلل · فمثلا عندما تكون البنية الانسانية فى أفضل حالاتها وأقواها ، فانها تكون أقل عرضة للتأثر باللحوم والمشروبات ، والنبات فى أكمل حيويته يعانى بقدر أقل من الريح أو الحرارة أو الشمس أو غير ذلك من الأسباب ·

أ - بالطبع ·

س - وأليست النفس فى أشجع حالاتها وأحكمها أقل تعرضا للبلبلة والاضطراب عندما تتأثر بأى مؤثر خارجى ؟

أ ــ حقا ٠

س ــ وينطبق المبدأ ذاته ــ كما أستطيع أن أفترض ــ على جميع الأشياء المركبة ، كقطع الأثاث والبيوت والأردية ٠ فعندما نكون جيدة الصنع ، سيقل تعرضها للتحول بفعل الزمان والظروف ٠

س ــ وهكذا يتضح أن أى شيء يتصف بجودته ، سواء كان من صنع الفن أو الطبيعة أو من صنعهما معا ، سيكون أقل عرضة للتغير من أثر العوامل الخارجية ؟

أ ــ حقا ٠

س ــ ولكن ــ يقينا ــ ان الله والأشياء التى صنعها تتسم بالكمال ــ من ناحية ٠

أ ــ بالطبع انها كذلك ٠

س ــ اذن فهو ليس مضطرا اذا تأثر بأى تأثيرات خارجية ، الى التشكل على أنحاء متعددة ؟ ٠

أ ــ انه لن يفعل ذلك ٠

س ــ ولكن ألا يحتمل أن يغير نفسه ويحولها ؟ ٠

أ ــ هذا واضح وحقيقى ، لو كان يقبل التغير على الاطلاق ٠

س ــ فهل يغير نفسه لما هو أفضل ، ولما يتسم بقدر أعظم من العدالة ، أم أنه يغير نفسه للأسوأ ، والى ما هو أقل روعة ؟ ٠

أ ــ لو أنه تغير ، فانه لن يتغير الا لما هو أسوأ ، لأننا غير قادرين على افتراض اتسامه بالنقص ، لا فى الفضل ولا فى الجمال ٠

س ــ تمام يا أديمانتوس ، ولكن هل يرضى أحد سواء كان الها أم انسانا بتغيير نفسه الى الأسوأ ؟ ٠

أ ــ مستحيل ٠

س ــ فى هذه الحالة ٠ فمحال أن يرضى الله عن التغير ٠ فبوصفه ــ كما يفترض ــ أعدل وأفضل ما بالمقدور تصوره ، فانه سيظل في صورته ذاتها الى الأبد ٠

أ ـ ان هذا سيتبع بالضرورة فى نظرى ٠

س ـ اذن يا عزيزى علينا أن لا ندع أحدا من الشعراء يقول لنا :

« ان الالهة قد تخفوا فى أقنعة غريبة تمثل بلدا آخر ، وتمشوا فى المدن فى جميع أنواع الصور » (٤) ٠

وعلينا أن لا ندع أحدا يشهر ببروتيوس وثيتيس ، لا فى التراجيديا أو فى أى نوع من الشعر ، أو يقدم « هير » متخفية فى شكل كاهنة تطلب الاحسان ٠

« للبنات واهبات الحياة فى اناخوس نهر الأرجوس » ٠

ان علينا أن لا نقبل مزيدا من الآكاذيب من هذا القبيل ٠ وعلينا أيضا أن لا تكون لدينا أمهات تتأثرن بالشعراء فتفزعن أطفالهن عندما تروين لهم هذه الأساطير بطريقة سيئة ، وتذكرن لهم كيف قامت الآلهة « بالتجوال ليلا فى هيئة شبيهة بهيئة الغرباء ، بعد أن تشكلوا فى أشكال مختلفة » ٠ ولكن عليهن مراعاة أنهن سيحولن أطفالهن الى جبناء ٠ بالاضافة الى ما سيتفوهن به بعبارات دالة على المروق فى حق الآلهة ٠

أ ـ الله يحول دون حدوث ذلك ٠

س ـ ولكن على الرغم من أن الآلهة ذاتها لا تتغير ، الا أنه بالاعتماد على السحر والخداع ، فانه بمقدورهم ايهامنا أنهم يتخذون أشكال شتى ؟

أ ـ ربما كان ذلك كذلك ٠

س ـ ولكن هل بوسعك أن تتخيل أن الله يرضى عن قول الكذب ، سواء بالقول أو الفعل ، أو أن يتخفى فى هيئة شبح ؟

أ ـ لا أستطيع قول ذلك ٠

س ـ وهل تعرف ان الاكذوبة الحقة ـ ان صح مثل هذا التعبير ـ مكروهة من الآلهة ومن البشر ؟

أ ـ ما الذى تعنيه ؟

س ـ ما أعنيه هو أنه لا أحد يرضى عن تعرض أصدق مكونات نفسه وأسماها فيما بعد للخداع ٠ وفيما يتعلق بأصدق الأشياء وأسماها ، ففوق كل شىء انه يخشى من أن تستحوذ عليه أية أكذوبة ٠

أ ـ ما زلت عاجزا عن فهمك ٠

---

(٤) هوميروس ـ Od xvii

س ـ السر فى ذلك انك قد نسبت لكلماتى معنى أعمق • بيد أن كل ما قلته هو أن خداع أسمى جزء منا أى النفس ، أو عدم التزود بمعلومات كافية عن أسمى الحقائق • وأن أقل شيء تميل اليه البشرية هو أن تسيطر على مثل هذا الجزء مثل هذه الأكذوبة • ان هذا ـ كما ذكرت ـ هو ما تنفر منه البشرية نفورا كاملا •

أ ـ ليس تمة ما يستحق المقت أكثر من ذلك •

س ـ وكما لاحظت ان هذا الجهل عندما ينعكس فى نفس من يخدع هو ما يصح أن يسمى « بالأكذوبة الحقة » ، لأن الأكذوبة فى صورة كلمات ما هى الا نوع من المحاكاة ، أو صورة من شعور سابق للنفس • انها ليست زيفا • ألا ترى انى محق ؟

أ ـ أنت محق تماما •

س ـ ان الأكذوبة الحقة لا تكرهها الآلهة فقط ، وانما يكرهها البشر أيضا ؟

أ ـ نعم •

س ـ ان الأكذوبة الحقة لا تكرهها الآلهة فقط ، وانما يكرهها البشر أيضا ؟ ولكنها ليست مكروهة فى حالة التعامل والأعداء ـ مثلا ـ أو أيضا عندما يقدم من ندعوهم بأصدقائنا اذا انتابتهم نوبة من الجنون أو الوهم على احداث أى ضرر • ففى هذه الحالة ، تكون الأكذوبة نافعة ، وكأنها دواء أو عمل وقائى • كذلك فى حواديت الأساطير ، والتى تحدثنا عنها من قليل ، فلما كنا لا نعرف حقيقة ما جرى فى العصور الغابرة ، فاننا نزيف عنها ظنونا أشبه بالحقيقة ، وبذلك نستطيع تسخيرها لنفعنا •

أ ـ حقا •

س ـ ولكن هل ينطبق أى سبب من هذه الأسباب على الله ؟ هل بمقدورنا أن نفترض أنه يجهل العصور الغابرة ، ومن ثم فانه مضطر الى الالتجاء للاختراع ؟

أ ـ ان هذا سيبدو مثيرا للسخرية •

س ـ من هنا ، فليس للشاعر الكذاب مكان فى فكرتنا عن الله ؟ •

أ ـ لابد أن أقول أنه لا مكان له •

س ـ أو لعله يلجأ الى الكذب خوفا من أعدائه ؟

أ ـ هذا أمر يتعذر تصوره ٠

س ـ أو قد يكون له أصدقاء بلا عقول أو مجانين ؟

أ ـ ولكن الحمقى والمحرومين من العقل لا يصح اعتبارهم أصدقاء الله ٠

س ـ اذن ليس هناك أى داع يمكن تخيله ، يدعو الله الى الكذب ؟

أ ـ لا على الاطلاق ٠

س ـ من هذا يتضح أن ما هو أسمى من البشر ويمتع بالقداسة عاجز بالاطلاق عن الزيف ؟

أ ـ نعم ٠

س ـ وهكذا يكون الله متميزا بالبساطة الكاملة والصدق الكامل ، فى كلمته وأفعاله ، كما يتميز بكونه لا يتغير ولا يخدع ، لا بالاشارة ولا بالكلمة ، وليس فى الحكم أو فى رؤياه أثناء يقظته ٠٠

وهل يمكن أن يخشى الموت ، أو يختار الموت فى المعركة بدلا من الهزيمة والعبودية ، من يعتقد أن العالم السفلى حقيقى وفظيع ؟

أ ـ مستحيل ! ٠

س ـ اذن علينا أن نفرض رقابة على رواة الحكايات من هذه الفئة ، وكذلك على الآخرين ، ونرجوهم لا مجرد التوقف عن السباب ، وانما أن لا يمتدحوا العالم السفلى ، وأن نلمح أو نوعز لهم بأن أوصافهم ليست حقيقية ، وأنها ستؤذى محاربينا فى المستقبل ٠

أ ـ ان هذه ستكون مهمتنا ٠

س ـ علينا اذن أن نمحو العديد من الفقرات المفزعة التى تبدأ بها أشعار مثل (أفضل أن أكون عبدا فى بلد الفقراء ، وأن أكون من المعوزين على أن أحكم على جميع الموتى الذين انتهوا الى الفناء) (٥) ٠

وعلينا أيضا أن نطمس بيت الشعر الذى يروى كيف كان بلوتـو Pluto يخشى ٠

(أن لا يتجهم البناءون ويصابوا بالكدر ـ وهذا أمر تمقت الآلهة أن ترى علاماته على وجوه الفانين والخالدين) (٦) ٠

---

(٥) IX Od ‏٤٨٩ ٠

(٦) XX II ‏٦٤ ٠

وأيضا : (أيتها السماء فى بيت هاديس هناك روح وشبح ولا عقل على الاطلاق) (٧) ٠

ولا ننسى ما قيل عن تيرسياس :

(وكيف منحته بيرسيفون عقلا بعد الموت ــ حتى يتمتع وحده بالحكمة ٠ أما النفوس الأخرى فانها لا تزيد عن أشباح متطايرة) (٨) ٠

وأيضا : « عندما طارت أعضاء الجسم فانها ذهبت الى هاديس ، وهى تندب مصيرها بعد أن ودعت رجولها وشبابها » (٩) ٠

كذلك : « وانتقلت الروح الى باطن الأرض كأنها دخان وتعالت صيحاتها » (١٠) ٠

و « كالوطاويط فى جوف الكهوف السحرية ، عندما يسقط أى منها من الوتر ويقع على الصخر فيطير متصايحا ، ويمسك كل منها بزميله ، كذلك لقد أمسك كل منهما بالآخر وهم يتصايحون » (١١) ٠

وعلينا أن نرجو هوميروس وغيره من الشعراء أن لا يغضبوا اذا شطبنا هذه الفقرة وغيرها من الفقرات المشابهة ، لا لافتقارها الى الشاعرية ، أو عدم اجتذابها للآذان الشعبية ، وانما لأنه كلما ازداد سحر الشعر ضعف توافقه وآذان الغلمان والرجال الذين يراد تحليهم بالحرية ، والذين يتوجب أن يخشوا العبودية أكثر من الموت ٠

أ ــ بغير شك ٠

س ــ أيضا علينا أن نرفض جميع الأسماء الفظيعة المروعة التى تستخدم فى وصف العالم السفلى مثل Cocytus و Styx, وما يقال عن وجود أشباح تحت الأرض أو ظلال لا عصارية Sapless أو ما يشبه ذلك من الصفات التى يكفى التلميح بها لاحداث ارتجاف يسرى داخل روح من يستمع اليها ٠ ولست أرى أن هذه الحكايات المريعة خالية من أى نفع يذكر ٠ وانما هناك خطر من احتمال احداثها

(٧) Xod ٤٩٤ ٠

(٨) X PO ٤٩٥

(٩) xvi II ٨٥٦ ٠

(١٠) xxiii Ib ١٠٠ ٠

(١١) xxiv Od ٦ ٠

لاضطراب فى أعصاب حراسنا قد يؤدى الى زيادة نزوعهم الى التخنث ·

أيضا يتعين أن تقدر الحقيقة تقديرا عاليا · فلما كانت ــ كما ذكرنا ــ الاكذوبة عديمة النفع للآلهة ، ويقتصر نفعها على احتمال استعمال البشر لها كدواء ، لذا يتوجب قصر استخدام مثل هذه الأدوية على الأطباء ، وأن لا يكون للأفراد بصفتهم الشخصية أية علاقة بها ··

أ ــ هذا واضح ·

س ــ فمن هنا لو كان من حق أحد أن يتمتع بامتياز الكذب ، فيتعين أن يكون حكام الدولة هم الأولى بذلك ، وأن يسمح لهم بالكذب من أجل الصالح العام ، سواء عند تعاملهم والأعداء ، أو عند تعاملهم ومواطنيهم · ولكن ليس من حق أى انسان آخر أن يتدخل فيما لا يعنيه ، أو يتطفل على مثل هذا الامتياز ··· وبالرغم من تمتع الحكام بهذا الامتياز ، فان الشخص العادى اذا كذب فى تعامله معهم فى المقابل (واقتداء بهم) سيتعين النظر الى فعلته على أنها خطأ فاحش يفوق خطأ المريض أو التلميذ فى المدرسة اذا لم يذكر حقيقة مرضه الجسمانى للطبيب أو المدرب ، أو خطأ البحار اذا لم يخطر قبطانه بما يجرى فى السفينة ، وبين باقى النوتية ، وما الذى يحدث له ولأقرانه البحارة ·

أ ــ حقيقى تماما ·

س ــ وعلى هذا فاذا ضبط الحاكم أحدا متلبسا بالكذب فى الدولة « بغض النظر عن المهنة التى يمتهنها ، أى سواء أكان كاهنا أو طبيبا أو نجارا » (١٢) ، فانه سيعاقبه لأنه تسبب فى اساءة للدولة لاتختلف من حيث أضرارها بالسفينة عما تحدثه من ضرر للدولة »·

أ ــ بالتأكيد اذا اتبعنا فكرتنا عن الدولة (١٣) ·

س ــ وفى المقام التالى ، يتعين أن يتصف شبابنا بالعفة ؟

أ ــ بالتأكيد ·

س ــ أليس العنصران الأساسيان للتعفف ــ اذا تحدثنا بوجه عام ــ هما طاعة القادة ، وضبط النفس فى مواجهة المتع الحسية ؟

---

(١٢) ١٧٦ xx po ·

(١٣) أو اذا كانت كلماته مصحوبة بالأفعال ·

أ ـ حقا ! ٠

س ـ فى هذه الحالة ، فاننا سنقر عبارات كتلك التى استخدمها ديوميد عند هوميروس !

« أيهــا الصــديق عليك أن تجلس صــامتا وتلتزم باطـاعة ما أقول » (١٤) ٠

والأبيات التالية :

لقد سار اليونانيون بكل جسارة (١٥) ٠

فى تهيب صامت لقادتهم (١٦) ٠

ومشاعر أخرى من نفس النوع :

سنكون ٠

مثل أولئك الذين ساروا فى هذا النهج ٠

سيبدو ثقيلا من أثر النبيذ ، من له عينا كلب ، وقلب وعل (١٧) ٠

وما رأيك فى الكلمات التى جاءت بعد ذلك ؟ هل تصفها بأنها بذاءات مماثلة يفترض أن الأشخاص يوجهونها لحكامهم ، نثرا أو شعرا ٠ هل هى تعابير حسنة أو سيئة ؟

أ ـ انها تعابير سيئة ٠

س ـ ثمة احتمال أن تحقق شيئا من المتعة ، ولكنها لن تؤدى الى التعفف ، ومن ثم ـ فمن المحتمل أن تلحق ضررا بشبيبتنا ـ لعلك تقر ذلك ؟

أ ـ نعم ٠

س ـ وأيضا اذا انساق أحكم البشر الى القول : بأنه لا شىء فى رأيه أمجد من حالة « تكون فيها المناضد حافلة بالخبز واللحم ، ويرى فيها السقا حاملا النبيذ ، ويمر به على الجالسين ، الذين يغترفون منه ما يصبونه فى فناجينهم » (١٨) ٠

---

(١٤) II ١٧ ـ ٤١٢ ص ٠

(١٥) PO III ٨ ٠

(١٦) نفس المصدر IV ٤٣١ ٠

(١٧) Ib ص ٢٢٥ ٠

(١٨) xiv II ٢٨١ ٠

وهل يساعد على تحقيق العفة لأى شاب اذا استمع الى مثل هذه الكلمات : « ان أتعس مصير هو أن نلفظ أنفاسك وأن تلقى حتفك جوعا » (١٩) ·

وما قولك أيضا فى حكاية زوس ، الذى كان نائما كباقى الآلهة · وكان هو الشخص الوحيد اليقظان الذى يرسم ويضع مخططات ، نسيها جميعا فى لحظة واحدة ، عندما انتابته الشهوة ، وغلب على أمره لدى رؤيته « لهير » حتى أنه لم ينتظر الى أن يصل الى الكوخ ، وآثر مضاجعتها على الأرض قائلا :

انه لم يصادف قط مثل هذه الحالة المنتشية ، حتى عندما تقابلا لأول مرة ، « ودون معرفة والديهما » (٢٠) ·

أو تلك الحكاية عن كيف أقدم هيفاستيتوس متأثرا بشهوات مماثلة على تطويق أريس وأفروديت (٢١) ·

أ ـ حقا اننى شديد الاعتقاد بوجوب عدم استماعهم الى أشياء من هذا القبيل ·

س ـ أما الأفعال الدالة على الجلد ، التى قام بها أو رواها مشهورون · ان مثل هذه الأفعال يجب أن ترى وأن تسمع ، كهذين البيتين على سبيل المثال :

لقد وكز صدره ، وبذلك أنب قلبه ·

تجلد يا قلبى · فلقد تحملت ما هو أبشع من ذلك (٢٢) ·

أ ـ بالتأكيد ·

س ـ وفى المقام التالى ، لابد أن لا نسمح لهم بقبول الهدايا ، أو بعشق المال ·

أ ـ بالتأكيد ·

س ـ كما أن علينا أن لا ننشد لهم مثل هذا الكلام :

---

(١٩) ibxii ٣٤٢ ·

(٢٠) ٢٨١ IIxiv

(٢١) ٢٦٦ Od viii

(٢٢) ٢٦٦

« الهدايا تقنع الملوك ، والاقناع يوقر الملوك » (٢٣) ٠

كما يجب أن لا نقر ما فعلته العنقاء معلمة أشيل ، أو نظن أنها أخلصت النصح لتلميذها عندما أخبرته بامكان تقبله لهدايا اليونانيين (٢٤) ، ومساعدتهم ، ولكنه اذا لم تعرض عليه مثل هذه الهدية ، فان عليه أن لا يتخلى عن غضبه ٠ وعلينا أيضا أن لا نعتقد أو نعترف بأن أشيل كان بالذات مثل هذا العاشق للمال ، بحيث يقبل هدايا أجاممنون ، أو أنه عندما تلقى أجره ، فانه استعاد جثة هكطور ٠ ولكنه لولا هذا العطاء ، ما قبل أن يفعل ذلك (٢٥) ٠

أ ـ بغير شك ٠ فهذه عواطف أو مشاعر غير مقبولة ٠

س ـ وعلينا أن نعمل على فهم فن « الميميمك » ٠ وأن نقرر هل يجوز السماح للشعراء عندما يقصون حكاياتهم علينا أن يحاكوا ٠ ولو كان ذلك كذلك ، هل يصح أن يكون هذا عملا شاملا او جزئيا ٠ ولو كان جزئيا ٠ فما هى الأجزاء التى يسمح فيها بالمحاكاة ، أم أن الواجب يقتضى تحريم جميع أنواع المحاكاة ٠

أ ـ لعلك تعنى هل يسمح بعرض « المأساة » و « الملهاة » فى دولتنا ؟

س ـ أجل ٠ وربما تضمن السؤال ما هو أكثر من ذلك ٠ وان كنت لم أدرك ذلك حتى الآن ٠ ولكن حيثما ستسوقنا الحجج . فاننا سنسير معها ٠

أ ـ اذن علينا أن نسايرها ٠

س ـ دعنى أسألك يا أديمانتوس : هل يتعين على حراسنا أن يكونوا مقلدين ؟ ٠ ألم نحسم هذه المسألة عندما ذكرنا القاعدة القائلة بأن أى شخص بمقدوره أن يؤدى شيئا واحدا فقط أداء حسنا ، وليس جملة أشياء ، وأنه لو حاول أداء كثرة من الأشياء ، فانه سيفشل تماما فى تحقيق أية شهرة فى أى منها ؟

أ ـ بالتأكيد ٠

س ـ وهذا يصح أيضا عن المحاكاة ٠ فلا أحد باستطاعته تقليد جملة أشياء ، مثل قدرته على تقليد شىء واحد ؟ ٠

---

(٢٣) استشهد بها سويداس وذكر أنها منسوبة لهزيود ٠

(٢٤) Od vii ٥١٥ ٠

(٢٥) xxiiv Ib ١٧٥ ٠

أ ـ ليس بمقدوره ٠

س ـ فى هذه الحالة سيتعذر على نفس الشخص القيام بدور جاد فى الحياة ، وأن يكون مقلدا ، يقلد جملة أدوار ، فى نفس الوقت أيضا ٠ فحتى اذا بدا أن هناك اى توافق تقريبى بين نوعين من المحاكاة ، فان نفس الأشخاص لن ينجحوا فى كليهما كما هو الحال على سبيل المثال فى حالة كتاب التراجيديا والكوميديا ٠ ألم نطلق عليهم الآن اسم المحاكين ؟

أ ـ نعم هذا ما فعلته ٠ والحق معك عندما اعتقدت أن نفس الأشخاص لن ينجحوا فى كليهما ٠

س ـ مثلما لا يفلحوا فى الجمع بين درر الشاعر المتجول ودور الممثل معا ٠

أ ـ حقـا ٠

س ـ كما أن ممثل الكوميديا شىء ، وممثل التراجيديا شىء آخر ٠ غير أن جميع هذه الأشياء لاتزيد عن ضروب من المحاكاة ٠

أ ـ انها كذلك ٠

س ـ والطبيعة البشرية يا أديمانتوس يبدو أنها قد صبت فى شكل قطع صغيرة ، مما يجعلها عاجزة عن محاكاة جملة أشياء محاكاة حسنة مثل حسن أداء الأفعال التى تعد المقلدات مستنسخة منها ٠

أ ـ حقـا ٠

س ـ فاذا تمسكنا بفكرتنا الأصلية ، وتذاكرنا أن حراسنا عندما يطرحون جانبا المهام الأخرى ، يجب أن يتفرغوا لصون الحرية فى الدولة وأن يتخذوا هذه المهمة حرفة لهم ، وأن لاينشغلوا بأى عمل آخر لا يتجه الى هذه الغاية ، ومن ثم سيتعين عليهم أن لا يمارسوا أو يحاكوا أى شىء آخر ٠ واذا اضطروا الى المحاكاة ، فان عليهم أن يحاكوا منذ حداثتهم تلك الشخصيات التى تناسب مهمتهم ، يعنى شخصيات الشجعان والمتعففين والأحرار وأصحاب النبل والوقار وما أشبه ٠ ولكن عليهم أن لا يصوروا أو يبرعوا فى محاكاة أى نوع من الخسة والحطة حتى لاتؤدى المحاكاة الى أن يصبحوا مشابهين لما قاموا بمحاكاته ، ألم تلحظ أبدا كيف تنمو المقلدات ، التى تبدأ من فترة الحداثة ، وتستمر طويلا فى الحياة ، وتتحول فى نهاية الأمر الى عادات وطبيعة ثابتة ، تؤثر فى البدن والصوت والعقل ؟

أ ـ نعم بالتأكيد ٠

س ـ اذن فعلينا أن لا نسمح لأولئك الذين نوليهم عناية خاصة ، والذين نقول عنهم أنه من الضرورى أن يكونوا أخيارا بمحاكاة امرأة ، شابة أو عجوز ، تتشاجر وزوجهـا ، أو تسعى للتباهى ضـد الالهة ، انخداعا بما تشـعر به من سعادة ، أو عندما تصاب بكرب أو أسى أو بنوبة بكاء ، وان كان يقيننـا لن يسعى لمحاكاة امرأة تعـانى من مرض ، أو فى حالة شبق أو مخاض ٠

أ ـ صـحيح ٠

س ـ وليس من شك أن عليهم أن لا يحاكوا الأردياء من الأشخاص ، سواء كانوا جبنـاء أم غـير ذلك ، أو من أولئك الذين يسلكون مسلكا مغايرا لما ذكرنا ، أو من بين أولئك الذين يؤنبون الآخرين أو يسخرون منهم ، أو يسبونهم أثناء معاقرة الخمر ، أو ممن يأثمون ضـد أنفسهم وجيرانهم بالكلمة والفعل تمشيا مع طباع هذا الصنف من الناس ٠ كما يجب أن لايتدربوا على محاكاة أفعال أو أقوال الرجال أو الاناث ، من المجانين أو الأوباش ، لأن الجنون مثل الشر لابد أن يعرف أمره ، وان وجب أن لا يمارس أو يحاكى ٠

أ ـ حقـا ٠

س ـ كما أن عليهم أن لا يقلدوا الحدادين أو غيرهم من أصـحاب الحرف أو المجدفين أى رؤساء النوتية وأشباههم ٠

أ ـ كيف يكون بمقدورهم ذلك ، اذا كان لايباح لهم استخدام عقولهم وفقا لمتطلبات أية مهنة من هذه المهن ؟

س ـ كما أن عليهم أن لا يقلدوا صهيل الخيول وزمجـرة الثيران وخرير المياه وهدير الرعد ، وأى شىء من هذا القبيل ٠

أ ـ ما دام الجنون سـيكون محرما ، سيتعين أيضا تحريم استنساخ سلوك المجانين ٠

س ـ لعلك تعنى ، لو كنت قد أحسنت فهمك أن هناك نوعا واحدا من الأسلوب السردى الذى يمـكن أن يتبعه أى انسان خير صادق ، عندما يكون لديه ما يستحق القول ، وأن النوع الآخر لن يستخدم الا من قبل أصحاب السلوك المتعارض والتعليم المتعارض ٠

أ ـ وما هما هذان النوعان ؟

س ـ افترض أن انسانا عادلا وخيرا ، صادف أثناء حديثه مع انسان خير آخر قولا أو فعلا أعجبه . لو حدث هذا فانى أتخيل أنه سيميل الى تشخيصه وتقليده ، ولن يخجل من هذا النوع من المحاكاة ، وسيكون على أتم استعداد للقيام بدور الانسان الخير ، عندما يمثل تمثيلا راسخا وحكيما . وسيتحقق ذلك بقدر أقل عندما ينتابه مرض أو يقع فى أسر الحب أو الشراب . أو عندما تدهمه احدى المصائب ، غير انه اذا صادف شخصية لها صفات لا تليق به ، فانه لن يدرس حالتها ، لأنه سيحتقر مثل هذا الشخص . ولن يحاول محاكاته ـ لو حدث ذلك ـ الا عندما يضطلع بأداء فعل خير ما . وفى احيان أخرى ، سيشعر بالخجل من القيام بدور لم يسبق له ممارسته قط ، كما أنه لن يميل الى تشكيل نفسه ، وتقمص شخصية النماذج الأدنى ، لأنه سيشعر أن اتباع مثل هذا الفن ـ اللهم الا فى حالات المزاح والدعابة ـ أدنى من مكانته .وسيبدون منفرين لعقله .

ولكن ألا يجب أن يذهب اشرفنا الى ما هو أبعد ، وهل يقتصر مطلبنا من الشعراء على مطالبتهم بالتعبير عن صورة الخير فى أعمالهم خشية طردهم من الدولة ، اذا فعلوا شيئا آخر بعيد الاختلاف ؟ ، أم أن الرقابة نفسها ستمتد بحيث تشتمل على الفنانين الآخرين ، وهل سيمنعون أيضا من عرض الأشكال المقابلة من الشر والخلاعة والحطة والابتذال فى أعمال النحت والبناء ، وغيرهما من الفنون الخلاقة . وهل يمنع من لا يتجاوب وهذه القاعدة التى وضعناها من ممارسة الفن فى دولتنا خشية تعرض ذوق مواطنينا للفساد ؟ . ان علينا أن لا نسمح لحراسنا بالنشوء وسط صور المسخ الأخلاقى الأشبه بمرعى مسمم ، يرعون فيه ويتغذون منه على الأعشاب والارض الضارة . اذ ستتعرض أرواحهم من أثر ما يتجمع فيها من أوصاب ، شيئا فشيئا ، ويوما بعد آخر ، الى التقرح . فلنحرص اذن على أن يكون فنانونا من أولئك الموهوبين القادرين على ادراك الطبيعة الحقة للجميل والجليل ، عندئذ سيتمكن شبابنا من العيش فى أرض صحية وسط المناظر الفاتنة والأنغام الشجية ، ويلتقون بالخير فى كل شيء ، وبذلك يتدفق الجمال والوفرة من الأعمال الخلابة ، الى العين والأذن ، كأنهما الأنسام العليلة التى نستنشقها فى الأرض الطيبة ، ومن ثم تنساق الروح ـ دون أن تشعر ـ من براءة السنوات الباكرة ، الى أشباه الجمال العقلى ، فنتعاطف معها .

ج ـ (جلوكون) ـ ليس هناك تعلم أسمى من هذا التعلم .

س ـ لذا يا جلوكون يعد تعلم الموسيقى وسيلة تفوق أية وسيلة أخرى ،

لأن الايقاع والهارمونيـة سيشقان طريقهما الى المواضع الجوانية من الروح ، وينبتان فيها بقوة ، ويبثان الشعور بالجلال ، حتى تتحلى به روح من تعلم على خير وجه ، ويحرم منه من أسيء تعلمه • ولما كان من تلقى هذا التعليم الصحيح للوجود الجوانى ، سيكون أقدر على حدة ادراك أوجه النقص والخطأ فى الفن والطبيعـة ، كما سيتمتع بذوق حق يتمثـل فيما ينبنى عليـه . أو ما يشعره بالاغتبـاط ، عندما تلتقى روحه بالخير فتتحلى بالنبـل والفضل ، مما يشعره بالازدراء والبغض بحق لما هو سيء ، وسيتحقق كل ذلك فى صباه حتى قبل أن تتسنى له معرفة السر وراء ما حدث • وعندما ينضج العقل سيكون بوسعه التعرف على الصديق الذى ساعده على الشعور بألفة هذه الحالة وسيكون بمقدوره تحيته •

ج ـ أجل . وأنا موافق على الاعتقـاد بأن على شـبابنا أن يتـدربوا على الموسيقى ، وفقا للأساس الذى ذكرته •

س ـ تماما مثلما شعرنا بالرضا عند تعلمنا كيف نقرأ ، وعندما تعرفنا على حروف الأبجدية القليلة وكيف تبدو فى تراكيبها المختلفة ، دون أن نشعر حيالها بالازدراء ، سواء شغلت مساحة صغيرة أو كبيرة • ولكنا شعرنا بالشوق لمتابعتها ، ولن نعتقد أننا بلغنا الكمال فى فن القراءة ، الا اذا تمكنا من التعرف اليها حيثما وجدت •

ج ـ حقـا •

س ـ ومثلما لانتعرف على انعكاس الحـروف فى الماء أو فى مـرآة الا اذا عرفنا الحروف نفسها ، كذلك فان نفس الفن والدراسة سييسران لنا القدرة على معرفة كليهما •

ج ـ تمـام •

س ـ وكما ذكرت ، وحتى لو كان الأمر كذلك ، فلسـنا بقـادرين نحن أو حراسنا ، الذين قمنا بتعليمهم ، على أن نصبح موسيقيين ، الا اذا عرفنا وعرفوا الأشكال الأساسية فى كل تكويناتها ، وأمكنهم وأمكننا التعرف اليها وصورها ، حيثما وجدت دون استهزاء بها اذا رأيناها فى الأشـياء الصغيرة والكبيرة ، انما سنعتقد أنها تنتمى جميعا الى مجال فن واحد ودراسة واحدة •

ج ـ بالتأكيـد •

س ـ وعندما تتناغم روح جميلة وشكل جميل ، ويصاغ الاثنان فى قالب

واحد سيكون هذا القالب أجمل ما باستطاعة من له عينـان قادرتان على الرؤية أن يرى ؟

ج ــ الأجمل بالتأكيد ٠

س ــ وأليس الأجمل هو أيضا الأحب لقلوبنا ؟ ٠

ج ــ هذا أمر مسلم به ٠

س ــ ومن تتوافر له روح الهارمونيـة سيشعر بعشـق أشد للأحب ٠ ولكن من ليس لديه روح هارمونية ، لن يشعر ناحيتها بأى حب ؟

ج ــ حقا ٠ لو كان النقص فى الروح ٠٠ ولكن لو كان هناك نقص جسمانى عند آخر ، فانه سيصبر عليه ، وسيحبه أيضا ٠٠٠

الفن كعلاج اجتماعى لارسطو ٠

[ارسطو (٣٨٤ ق٠م ــ ٣٢٢ ق٠م) ابن طبيب من مقدونيا ، وأشهر تلاميذ افلاطون ، ومعلم الاسكندر الأكبر ٠ اشـتهر بلقب « الفيلسوف » فحسب فى الجامعـات الوسيطة ، اذ تمتع بمكانة عظيمة ، واتخـذت كتاباته صـورة الملاحظات التى كان يعـدها للالقاء كمحاضرات ، أما كتاباته ــ وقد نفدت الآن ــ فيقال انها قد كشفت عن مقدرة ادبيـة ٠ ولولا فلسفة ارسطو ما بلغت الحضارة الغربية هذا الشأو العظيم]

لا أحد يرتاب فى وجوب توجيه المشرع انتباهه الى تربية الشباب ، لان اهمال التربية يضر النظام العام ٠ فيجب أن يتشكل المواطن على نحو يتواءم وصورة الحكومة التى يحيا فى ظلها ، فلكل حكومة طابع تتميز به ، وتحرص على الحفاظ عليه ٠ والمسـلك الديموقراطى من خلق النظـام الديموقراطى ، كما أن المسلك الأوليجاركى من خلق النظام الأوليجاركى ، وتتناسب أفضلية طابع الأفراد تناسبا طرديا هى وأفضلية الحكومة ٠

وتتطلب ممارسة اى قدرة من القدرات أو فن من الفنون سبق التدرب والاعتياد ، وهذا أمر لا يخفى لو أريدت ممارسـة الفضـيلة ٠ ولما كانت المدينة برمتها تهدف الى غاية واحدة ، لذا يتعين أن تتصف التربية بالعمومية ، وليس بالخصوصية ، أى على نحو مختلف عما يحدث فى الحـاضر حيث يبحث كل فرد عن صالح أبناء عشيرته دون نظر الى

(★) من كتاب السياسة ٠

الآخرين ، ويزودهم ـ على حدة ـ بالتعاليم ، التى يظن أنها الأفضل . نعم يجب أن يكون التدرب على الأشياء ذات الصالح المشترك متماثلا للكافة . كما أن علينا أن لا نفترض أن أى مواطن من المواطنين ينتمى لنفسه فحسب، لأنهم جميعا ينتمون للدولة ، ويعد كل منهم جزءا من الدولة ، ولا انفصال بين رعاية كل جزء ورعاية الكل . وفى هذه الجزئية ، كما هو الحال فى بعض الجزئيات الأخرى ، يستحق اللاكيدوميون الثناء ، لأنهم بذلوا أقصى جهد فى رعاية أطفالهم ، ولأنهم جعلوا التربية والتعليم واجبا من واجبات الدولة .

وأما أن الواجب يقتضى تنظيم التعليم وفقا للقانون ، وأنه من الضرورى أن تضطلع الدولة بمهام التعليم فمسألة لا سبيل لانكارها ، ولكن كيف يتوجب أن يكون طابع هذه التربية العمومية ، وكيف يتعين تربية النشء ، هاتان مسألتان تستحقان التأمل . وثمة اختلاف حول الموضوعين فى الحالة الراهنة . فليس هناك اتفاق بين أبناء البشر حول الأشياء التى ينبغى أن تعلم فى ناحيتى الفضيلة والحياة فى أفضل أحوالها . كما أنه ليس من الأمور الواضحة هل توجه التربية اهتماما أكبر الى الفضائل العقلانية أم الى الفضائل الفكرية أم الى الفضائل الأخلاقية . والممارسة الأخلاقية السائدة تثير الحيرة . فلا أحد يعرف على أى مبدأ نسير ، وأية غاية للتربية نختار : ما ينفع فى الحياة ، أم الفضيلة أم أسمى قدر من المعرفة ، ولا يوجد أى اتفاق حول الوسائل، فالأشخاص المختلفون عندما يعتمدون على معتقدات مختلفة حول طبيعة الفضيلة ، فانهم يختلفون بالطبع حول طريقة ممارستها . وما من شك فى وجوب تعلم الأطفال هذه الأشياء النافعة ، التى تعد ضرورية حقا . ولا يقتصر الأمر على الأشياء النافعة ، لأن المهن تنقسم الى مهن حرة ، وأخرى غير حرة . ويجب أن يقتصر اطلاع الأطفال الصغار على أنواع المعرفة ، التى تكون نافعة دون أن تدفعهم الى التصعلك . وتوصف بالخسة أية مهنة ، فنية أو علمية ، تؤدى الى الاساءة الى اللياقة البدنية للانسان الحر أو روحه أو عقله ، أو تنتقص من قدرته على ممارسة الفضيلة أو مزاولتها ، أما الفنون فتوصف بالخسة اذا جنحت الى تشويه الجسم ، كما توصف الوظائف الأجيرة بنفس الصفة ، لأنها تشغل العقل شغلا كاملا وتحط من قدرته ، وهناك أيضا فنون حرة أنسب للانسان الحر ، ولاكتسابه لها وانما بقدر معلوم ، واذا انتبه لها انتباها كاملا حتى يتقنها الى درجة الكمال ، فان نفس العواقب الذميمة ، ستتبع ذلك ، وثمة اختلاف كبير يترتب على ما يضعه الانسان نصب عينيه . فاذا فعل أو تعلم شيئا ما من أجل نفسه ، ومن أجل

أصدقائه ، أو قاصدا بلوغ الامتياز فيه ، فان الفعل لن يبدو خسيسا . أما اذا فعل ذلك من أجل الآخرين ، فان الفعل سيبدو حقيرا أو أنسب للعبيد . والموضوعات التى تختار للتعليم ـ كما سبق أن لاحظت ـ اما أن تكون موضوعات نبيلة ، أو موضوعات خسيسة فى طابعها .

وعدد الفروع المألوفة للتعليم أربعة : (١) القراءة والكتابة (٢) التدريبات البدنية (٣) الموسيقى . ويضاف اليها أحيانا (٤) الرسم ، ومن بين هذه الفروع ، تعد القراءة والكتابة والرسم نافعة لاغراض الحياة بمختلف أنواعها ، وينظر الى التمارين البدنية على أنها تبث الشجاعة . وفيما يتعلق بالموسيقى ، فقد يثير بعض الشك فى أهميتها ، لأن معظم الناس فى يومنا هذا يتعلمونها من أجل المتعة ، ولكنها كانت تضاف فى الأصل الى مناهج التعليم ، لأن الطبيعة ذاتها ـ كما قيل فى كثير من الأحيان ـ تتطلب أن نكون قادرين على اجادة العمل ، وأيضا على كيفية الاستفادة من وقت الراحة ، فيجب أن أكرر مرة أخرى أن المبدأ الأول لكل عمل هو ما يحققه من راحة . فالعمل والراحة كلاهما ضرورى . ولكن الراحة أفضل من العمل ، باعتبارها الغاية التى ينشدها العمل ، ومن ثم فيجب أن يسأل السؤال الآتى : ما الذى يتوجب علينا فعله عندما نكون فى راحة ؛ ومن الواضح أن مثل هذه الأوقات لاينبغى أن نمضيها فى الترفيه عن أنفسنا ، فلو فعلنا ذلك ، سيكون الترفيه هو غاية الحياة . غير اننا اذا اعتبرنا هذه الناحية بعيدة عن التصور ، وكان الترفيه مطلوبا عندما نكون منهمكين فى أعمال جادة ، أكثر من طلبنا له فى الأوقات الأخرى (لأن من يجد فى العمل يحتاج الى الاستجمام ، والترفيه يحقق الانسجام ، بينما الانهماك فى العمل يكون مصحوبا دائما بالكد والاجهاد) . فان علينا أن لانلجأ الى المرفهات الا فى الوقت المناسب ، وأن تكون بمثابة دواء لنا ، لأن المشاعر التى تحدثها فى النفس هى الشعور بالانسجام ، ونحن نحصل من المتعة على الراحة ، لأن من يشغل نفسه يضع نصب عينه غاية لم يهتد اليها . أما السعادة فهى غاية صحيحة ، لأن جميع البشر يحتسبونها مصحوبة بالمتعة وليس بالألم . على أن مختلف الناس ينظرون الى هذه المتعة نظرات مختلفة ، تختلف باختلاف عاداتهم ، فمتع أفضل الناس هى الافضل ، وتنبع من أسمى المصادر . وهكذا يتضح أن هناك فروعا فى التعلم والتعليم يتعين علينا دراستها ، لمجرد أنها تحقق الراحة من العناء المبذول فى النشاط الفكرى ، ومن ثم فانها تقدر لذاتها ، بينما تلك الأنواع من المعرفة التى تتصف بنفعها للأغراض العملية ، ينظر اليها على أنها ضرورية ، وموجودة من أجل أشياء أخرى . لهذا السبب ، سمح أباؤنا بتضمن التعليم

للموسيقى ، لا اعتمادا على ضرورتها أو نفعهـا ، لأنها ليست ضرورية . كما أنها حقا ليست نافعة على نحو شبيه بما يحدث فى القراءة والكتابة ، واكتساب المعرفة والحياة السياسية ، وليست الموسيقى مماثلة أيضا للرسم ، الذى ينفع فى اكتسابنا لصحة الحكم على أعمال الفنانين . ولا تتماثل الموسيقى أيضا والتربية البدنية ، التى تزود بالصحة والعافية . فجميع هذه الصفات لاتكتسب عن طريق الموسيقى . تبقى اذن فائدة الموسيقى فى الاستمتاع الفكرى بأوقات الراحة ، ويرجع الى هذا السبب فى الحق اضافتها الى مناهج التعليم ، باعتبار هذه الوسيلة احدى الوسائل التى يعتقد أنها تلزم الأفراد الأحرار فى تمضية أوقات فراغهم . فكما قال هوميروس :

(ولكنه وحده (الانسان الحر) الذى يتعين أن يدعى لأية وليمة مستحبة) .

وفيما بعد تحدث هوميروس عن آخرين وصفهم بأنهم يدعون (الشاعر المغنى ، الذى سيبهجهم جميعا) .

وفى موضع آخر قال أوديسوس : (ليست هناك طريقة أفضل لتمضية الحياة تفوق شعور أفئدة البشر بالغبطة . واجتماع المدعوين فى القاعة وجلوسهم للاستماع الى صوت المنستريل) (*) .

من هذا يتضح وجود نوع من التعليم يتعين على الآباء تدريب أبنائهم عليه ، لا لنفعه وضرورته فحسب ، وانما لأنه يتميز بنبله وسموه أيضا ، اما هل يتألف هذا المنهج التعليمى من نوع واحد من التعليم ، أو من أكثر من نوع ، واذا كثرت هذه الأنواع ، فما هى ماهيتها ، وكيف يتسنى نشرها ، فهذه مسألة ستنظر فيما بعد . على أننا قد أصبحنا فى موقف يبيح لنا الاستشهاد بما قاله القدماء . اذ بالاستطاعة استخلاص أرائهم من حقيقة اعترافهم بالموسيقى كفرع من الفروع المتلقاة والتقليدية للتعليم . وفضلا عن ذلك ، فلا يخفى وجوب تعليم الأطفال بعض الأشياء النافعة — كالقراءة والكتابة مثلا — لا لمجرد فائدتها ، وانما أيضا لأن أنواعا كثيرة من المعارف تكتسب بالاعتماد عليها . وتبعا لنظرة مماثلة من الميسور تعليمهم الرسم ، لا بغرض الحيلولة دون ارتكابهم أى أخطاء فى مشترياتهم ، أو حتى لا يغلبوا على أمرهم فى عمليات البيع والشراء ، ولكن — فى أغلب الظن — لأن هذه المعرفة تساعدهم على الحكم على أفضل وجه على جمال الشكل الانسانى . اذ لا يساعد الاكتفاء بالبحث عن الأشياء النافعة وحدها على

(*) الشاعر المغنى .

خلق الروح الحرة المتميزة المتسامية • على أنه من الواضح وجوب الاعتماد على الممارسة العملية قبل المعرفة النظرية ، فى مسائل التربية والتعليم ، وضرورة تدريب الجسم قبل تدريب العقل ، ومن ثم يجب أن يعهد بالغلمان الى مدربيهم لكى يخلقوا عندهم العادات الصحيحة للجسم على أن يتولى مدرب المصارعة تعليمهم تمارينها •

وفيما يتعلق بالموسيقى ، ثمة بعض أسئلة قد سبق أن أثرناها • وبمقدورنا الآن أن نستانف الكلام عنها ، ونتوسع فى شرحها • وستساعد ملاحظاتنا على التمهيد لأى نقاش آخر فى هذا الموضوع • وليس من السهل تحديد طبيعة الموسيقى ، ولماذا يتعين على المرء التعرف عليها • فهل بمقدورنا القول ان هذه الغاية هى التسلية والاستجمام ، أى تعد الموسيقى مشابهة للنوم أو الشراب اللذين يعتبران حسنين فى ذاتهما ، وان كانا يحققان متعة ويساعدان على ايقاف الهم ـ كما قال يوريبيديس ؟ • واختار الناس الموسيقى لتحقيق نفس هذه الغاية ، أى استعملوا أشياء ثلاثة (النوم والشراب والموسيقى) استعمالا متماثلا • وأضاف بعض الرقص الى هذه الأشياء • أم هل نتبع اتجاها آخر يعتقد أن الموسيقى تساعد على توطيد الفضيلة ، باعتبارها قادرة على تشكيل عقولنا وتعويدنا على الاستمتاع بالمتع الحقة ، مثلما تفعل التربية البدنية بالنسبة لأجسامنا ؟ • أم هل نقول انها تساهم فى الاستمتاع بوقت الراحة والتهذيب الذهنى • وهذا بديل ثالث ؟ ولا يخفى وجوب عدم تعليم الشبيبة سعيا وراء ما يحقق لهم المتعة . لأن التعلم ليس ترفيها ، ولكنه يكون مصحوبا بالألم • كما أن المتع الفكرية لا تناسب الغلمان فى هذه السن ، لأنها بمثابة غاية • وما يتصف بعدم اكتماله ليس بمقدوره بلوغ الكمال أو الغاية ، ولكن لعله بالاستطاعة القول بأن الغلمان يتعلمون الموسيقى من أجل الترفيه ، الذى سيحصلون عليه عندما يكبرون • ولو صح ذلك ، فلماذا يعلمون أنفسهم ، ولا يكتفون بالاستمتاع والتهذيب من أثر الاستماع لغناء الآخرين ؟ ، كما كان ملوك الفرس وميديا يفعلون (فليس من شك أن الأشخاص الذين اتخذوا صناعة الموسيقى حرفة ومهنة فى الحياة ، سيتفوقون فى الأداء على أولئك الذين مارسوا الموسيقى بالقدر الذى يكفيهم للتعلم فحسب) • ولو وجب تعلمهم الموسيقى ، فتبعا لنفس المبدأ ، فان عليهم أن يتعلموا الطهو أيضا • وهذا سخف • وحتى اذا سلمنا بأن الموسيقى قادرة على تشكيل الخلق والسلوك ، فان الاعتراض سيظل باقيا : لماذا نتعلمها نحن أنفسنا ؟ ، ولماذا لا نهتدى الى المتعة الحقة ، والى صحة الحكم اعتمادا على سماع الآخرين ، مثلما كان اللاكيدمونيان يفعلون ؟ • فهم ، وبغير أن

يتعلموا الموسيقى ، كانوا قادرين ـ رغم ذلك ـ على صحة الحكم على الألحان ، والتفرقة بين الحسن منها والردىء ، كما يقولون ، واذا كان بالاستطاعة استعمال الموسيقى كوسيلة لزيادة الشعور بالمرح ولتهذيب المتع الفكرية ، فان الاعتراض سيظل باقيا : لماذا نتعلم الموسيقى ، بدلا من الاستمتاع بأداء الآخرين لها ؟ وبوسعنا أن نصور ما نقول اذا رجعنا الى تصورنا للالهة . فكما ذكر الشعراء ، لم يك زوس نفسه يغنى أو يعزف الكنارة . كما أننا نصف المؤدين المحترفين بالحقارة ، اذ لن يقدم أحد من الاشراف على العزف والغناء ، ما لم يك فى حالة سكر أو من قبيل الدعابة ، غير أن هذه المسائل يمكن تركها فى الحاضر .

وأول سؤال يتبادر لأذهاننا هو هل تختار الموسيقى ، ضمن منهج التعليم أم لا ؟ فمن بين الغايات الثلاث التى سبق ذكرها فى مناقشتنا ، فأى الغايات بمقدور الموسيقى أن تحققها ؟ . التعليم أو الترفيه أو الاستمتاع الفكرى . وبوسعنا أن نحتسبها تحقق الغايات الثلاث ، فالظاهر أنها قادرة على المشاركة فيها جميعا ، فالترفيه يحقق الاستجمام ، والاستجمام مستحب بالضرورة لأنه يعالج الألم ، الذى يحدثه الكد . والاستمتاع أمر معترف به عند الجميع ، باعتباره يحتوى على ناحية من السمو ، ومن المرغوبات أيضا ، لأن السعادة تجىء كحصيلة للعاملين . ويجمع البشر على أن الموسيقى من أمتع الأشياء ، سواء أكانت مصحوبة بالكلمات أو بدونها فكما قال موزايوس Musaeus :

(الأغنية بالنسبة للفانين هى أمتع الأشياء جميعا) .

ومن هنا وتبعا لمبررات مقبولة ، استعين بالموسيقى فى اللقاءات الاجتماعية والمرفهات ، لأنها قادرة على ادخال البهجة فى قلوب البشر ، ومن ثم وبناء على هذا الأساس وحده بوسعنا أن نفترض وجوب تدرب النشء على ممارستها والاستمتاع بها . ولا يقتصر الأمر على اعتبار المتع البريئة متناغمة هى والغاية الكاملة للحياة ، ولكنها تحقق أيضا الاستجمام والاسترخاء . ولما كان الناس قلما يبلغون هذه الغاية ، ولكنهم غالبا مايتوقفون فى منتصف الطريق ، ويرفهون عن أنفسهم ، لا من أجل غاية بعيدة فحسب ، وانما أيضا لغاية المتعة ، ومن ثم قد يكون من المستصوب أحيانا أن يسمح لهم بتجديد نفوسهم عن طريق الموسيقى . وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يتخذ البشر التسلية غاية لهم ، باعتبار الغاية تحتوى بعض عناصر من المتعة ، وان لم تك متعة دارجة أو متدنية ، على أنهم قد يخطئون فيخلطون بين المتعة الدنيا والمتعة الأسمى ، وعندما يبحثون عن احداهما فانهم يجدون الأخرى لأن هناك

تشابهـا بين المتعة وبين الاهتداء الى الغاية · غير أن الغاية لاتتوافق هى وأى خير يتحقق فى المستقبل · ولا تخص المتع التى تحدثنا عنها أى خير يحدث فى المستقبل ، ولكنها تتعلق بالماضى ، يعنى أنها تقوم بالتخفيف عن كد مضى وأوجاع مضت · وربما استخلصنا من هذا الكلام السـبب الذى يدفع البشر الى البحث عن السعادة بعيدا عن هذه المتع · بيد أن الموسيقى لاتتابع باعتبارها تخفيفا من أعبـاء مضت ، ولكن لأنها أيضا قادرة على التهيئة للترويح عن النفس · ومنذا الذى ينكر أنه لما كانت الموسيقى تتمتع بهذه الميزة ، فهل يستبعد أن تـكون قادرة أيضـا على تحقيق فائدة أسمى ؟ · وبالاضـافة الى هذه المتعـة الشائعة ، التى يشعر بها الجميع ويشاركون فيها (لأن المتعة التى تحققهـا الموسيقى أمر طبيعى ، ومن ثم فانها تناسب الأعمار والشخصيات كافة) ألا يصح القول بأن لها أيضـا بعض التأثير على السلوك والروح ؟ ، لابـد أن يكون لها مثل هذا التأثير ، مادام الأشخاص يتأثرون بهـا · وأما أنهـم يتأثرون بها ، فأمر يمـكن اثباته على أنحاء شتى ، ليس أقلها شأنا التأثير العـارم الذى تحدثه أناشـيد أوليمبوس ، فلا جدال أنهـا تثير الحماسة ، والحماسة من بين انفعالات الجزء الأخـلاقى من الروح · والى جانب ذلك ، فعندما يستمع الناس الى المقلدات ، بغض النظر عن الايقاعات والنغمات ذاتهـا ، فان مشاعرهم تهتز طربا · فلما كانت الموسيقى متعة ، والفضيلة تعتمد على الاستمتاع والاعتدال فى المشاعر ، من حب وبغض ، فلا يخفى أنه لا وجود لشىء ما نعنى بالحصـول عليه عناية فائقة ، وانمائه مثل القدرة على تكوين الأحكام الصائبة والشعور بالاغتباط من الأوضاع الحسنة ، والأفعال السامية ، ويزودنا الايقاع والميلوديا بمقلدات للغضب والرقة ، وأيضا للشـجاعة والعفة وجميع الصفات المتعارضة مع ذلك ، والخصـائص الأخرى للسـلوك ، التى يصعب القول بقصورها عن المشاعر الفعلية ، كما نعرف من تجربتنا ، لأننا عندما نستمع الى مثل هذه الأناشيد ، فان أرواحنا تتعرض للتغير· وليست عادة الشعور بالمتعة والألم فى حضرة ما هو مجـرد متمثلات ببعيدة كثيرا عن نفس الشعور بالأشياء الحقة ؛ فمثلا اذا شـعر أحد بلغبطة لدى مشاهدته لتمثال ، بعد تأثره بجماله وحده ، فان ما يتبع ذلك بالضرورة هو أن تكون رؤية الأصل من الأشياء المستحبة ، وليس بين موضوعات أية حاسـة أخرى كالتذوق أو اللمس ، أى تشـابه والصفت الأخلاقية · وفى المرئيات ، ثمة قليل من هذه الصفات ، لأن هناك أشكالا ذات طابع أخـلاقى ، وانما بقـدر ضئيل ، وهى جميعا لاتشارك فى الشعور المحيط بها · كما أن الأشـكال والألوان ليست

مقلدات ، ولكنها مؤشرات للعادات الأخلاقية ، وأدلة يعبر بها الجسم عن حالات شعورية • والاتصال بينها وبين الأخلاق واهن • غير أنه عندما يوجد أى اتصـــال ، فان على الشـــباب أن يعلم كيفيـــة تأمل أعمال بوليجنوتوس ، أو أى مصور أو نحات آخر يعبر عن المعانى الأخلاقية ، بدلا من أعمال بوسون Pauson • ومن ناحية أخرى ، فحتى فى الألحان ذاتها ، ثمة محاكاة للسلوك ، لأن كل مقام موسيقى يختلف عن المقام الآخر • ومن يتأثرون بهذه المقامات عند الاستماع اليها ، يختلفون من شخص لآخر ، فبعضها يثير الشجى عند المستمعين ، كما هو الحال فى النغمات الميكسوليدية • وبعضـــها تضعف العقـــل مثل المقـامات المتراخية • وبعضها يساعد على اعتدال الروح ، وتنشيطها • والظاهر ان هـــذا هـــو التـأثر الذى تتميز به الألحـان الدوريانية • أما الألحـان الفريجية فتثير الحماسة • ولقد تناول هذا الموضـــوع برمته ، تناولا حســنا الكتاب الفلسفيون فى هـــذا الفرع من فروع التعليم • وقد عززوا أحكامهم بأمثلة من الواقع ، وتنطبق المبادىء نفســها على الايقاعات • فبعضها له طابع السكينة • وبعضها له طابع الحركة ، التى قد تتخذ احدى حالتين : فاما أن تـكون حركات مبتذلة ، أو حركات ســامية ، ولقد قيل مافيه الكفاية لبيان كيف تتمتع الموسيقى بالقدرة على تشكيل السلوك ، ومن ثم يتعين ادخالهـا فى مناهج تعليم النشء • وتناسب هذه الدراسة مرحلة الشباب ، لأن صغار الأشخاص ليس فى مقدورهم تحمل أى شىء اذا لم يحلى بطلاء ممتع • وللموسيقى حـــلاوة طبيعية • والظاهر أن لدينـــا نـوعا من القرابة بالمقامات والايقاعات الموسيقية ، مما دفع بعض الفلاسفة الى القول بأن الروح لها قدرة تنغيمية • وقال آخرون أنها قادرة على التنغيم •

والآن علينـــا أن نحدد السؤال الذى سبقت اثارته : هـل يتعين على الأطفال أن يتعلموا كيف يغنون وكيف يعزفون أم لا ؟ • ومن الغنى عن البيان أن ثمة تغيرا ملحوظا يطرأ على السلوك من أثر الممارســـة الفعلية للفن • ومن العسير ، ان لم يك من المستحيل ، لمن لم يمارسوا الأداء أن يكونوا حكاما موفقين قادرين على الحكم على أداء الآخرين • والى جانب ذلك ، فيجب أن يكون لدى الأطفـال شىء يشغلهم • ولقـد كانت رتالة أرخيتاس ، التى كان الناس يعطونها لأطفالهم لتسليتهم ومنعهم من كسر أى شىء فى المنزل من المخترعات المدهشـــة ، لأن الصـغار معروفون بالعجز عن التزام الهدوء ، والرتالة لعبـة تناســـب عقول الصغار • والتعليم ما هو الا رتالة أو لعبة يستعملها الأطفال ، عنـدما ينمون ويكبرون • وننهى كلامنا اذن بالقول بوجوب تعليم الأطفـــال

الموسيقى على نحو يساعدهم كى يصبحوا قادرين على الاضطلاع بدور النقاد والمؤدين جميعا ٠

وليس من العسير الاجابة على سؤال ما هو الشيء المناسب أو غير المناسب لمختلف الأعمار ٠ كما أنه ليس ثمة صعوبة فى مواجهة اعتراضات أولئك الذين يقولون أن دراسة الموسيقى أمر مبتذل ٠ ونجيب على السؤال الأول فى المقام الأول بأن أولئك الذين يصلحون للحكم يجب أن يكونوا مؤدين أيضا ، ويتعين أن يبدأوا الممارسة من الصغر ، على الرغم من أنهم عندما يكبرون قد يعفون من مهمة الأداء ، اذ سيكونون - بالضرورة - قد تعلموا كيف يتذوقون ما هو حسن ، ويشعرون بالغبطة من جراء ذلك بفضل ما اكتسبوا من معارف فى شبابهم ، أما السؤال الثانى عن الأثر المبتذل الذى يزعم أن الموسيقى تحدثه ، فانه سؤال لن يصعب علينا أن نقرر الرأى فيه ، بعد أن نبحث الى أى حد يتعين على الأحرار الذين تدربوا على الفضائل السياسية أن يتابعوا الفن ، وما هى الألحان والايقاعات التى يسمح لهم باستعمالها ، وأى الآلات بمقدورهم استخدامها لتعليمهم كيف يعزفون ٠ اذ ثمة خلاف ، حتى فيما يتعلق بالآلات ، وتستند الاجابة على الاعتراضات على هذه الفروق ٠ اذ ربما كان لبعض طرائق التعليم وتعلم الموسيقى آثار محطة ٠ واضح جلى اذن أنه من الواجب أن لا يعوق تعليم الموسيقى مهام سنوات النضج ، أو أن يكون له آثار تضر الجسم ، أو يجعله غير لائق للتدريبات المدنية أو العسكرية ، سواء للتمارين البدنية المطلوبة للحاضر أو لأى دراسات مستقبلية ٠

وبالاستطاعة الاهتداء الى التوازن الصحيح ، اذا انقطع طلاب الموسيقى عن الاشتراك فى الفنون التى تمارس فى مسابقات المحترفين ، واذا لم يسعوا لتحقيق براعة قياسية فى الأداء ، تمشيا مع « الموضة » السائدة فى مثل هذه المسابقات ، والتى انتقلت منها الى التعليم ٠ فلندع الشباب اذن يمارسون حتى أنواع الموسيقى التى وصفناها الى أن يتمكنوا من الشعور بالاستمتاع بالألحان والايقاعات السامية ، وليس مجرد الأجزاء الدارجة من الموسيقى ، التى قد يستمتع بها أى عبد أو طفل ، أو حتى بعض الحيوانات ٠

من هذه المبادىء ، بمقدورنا أن نستخلص نوع الآلات المناسبة ٠ فالفلوته أو غيرها من الآلات التى تتطلب مهارة فائقة كالهاربة على سبيل المثال ، يجب أن لا يسمح بها فى التعليم ، وانما يكتفى بتلك الآلات التى تساعد على خلق دارسين أذكياء للموسيقى ، أو أى قسم آخر من أقسام

التعليم · والى جانب ذلك ، فان الفلوته ليست بالآلة التى تعبر عن أى روح أخلاقية · فهى شديدة الاثارة · وأنسب وقت لاستعمالها هو عندما يهدف الأداء الى التنفيس عن المشاعر ، وليس الى التعلم · وثمة اعتراض آخر ، هو ما تحدثه آلة الفلوته من تعويق لاستخدام الصوت ، لأنه ينقص من قيمه التعليمية أو التربوية · ومن هذا يتضح أن القدماء كانوا محقين عندما حرموا استخدام الشباب والأحرار للفلوته ، وان كانوا قد سمحوا به أحيانا · فعندما أتاح لهم الثراء ميلا أكبر للفراغ ، وتوافرت لهم أفكار أسمى ، ساعدتهم على الامتياز ، ولما كانوا قد شعروا بالانشراح بعد نجاحهم قبل وبعد الحرب مع الفرس ، فانهم بدافع الغيرة والحمية أكثر من تأثير الحكمة ـ قد قاموا بالسعى وراء كل نوع من المعرفة ، ومن ثم أدخلوا تعلم الفلوته فى منهج التعليم · وفى لاكيدمونيا ، كان هناك قائد كورس يقود جوقته وهو يعزف الفلوته · وفى أثينا ، اكتسبت الآلة شعبية كبيرة ، مما حث أغلب الأحرار على عزفها ، وتبين هذه الشعبية من اللوحة التى أهداها ثراسيببوس ، عندما قدم الكورس الى ايفانتيدس ، ويسرت التجارب المتأخرة للناس الحكم على ما يؤدى الى الفضيلة ، وما يتعارض معها ، ومن ثم فانهم رفضوا آلة الفلوته ، كما رفضوا العديد من الآلات غير المسايرة للعصر كالهاربة الليدية والكنارة المتعددة الأوتار والمثلث heptagon والسامبوكا ، وما أشبه · انها الآلات التى لا تهدف الى غير امتاع السامع ، وتتطلب مهارة يدوية فذة · وهناك بينة أخرى يمكن أن نستخلصها من احدى الأساطير القديمة ، التى تحكى عن كيف اخترعت أثينا الفلوتة ، ثم استغنت عنها ، ولم يك تصورهم بعيدا عن الصواب ، عندما قالوا ان الالهة تبغض الآلة ، لأنها تتسبب فى تقبيح منظر الوجه · غير أننا اذا زدنا هذه المسألة تعقلا ، سيكون بمقدورنا القول ان الالهة قد رفضتها ، بعد أن تبينت ان اكتساب المهارة فى عزفها ، لن يزيد العقل شيئا ، لأننا ننسب الى أثينا المعرفة والفن ·

وهكذا أصبحنا نرفض آلات المحترفين وأساليب المحترفين فى عزف الموسيقى (والمقصود بالمحترفين هم من يشتركون فى المسابقات) · ففى هذه الحالات ، يمارس المؤدى الفن ابتغاء لامتاع مستمعيه وليس بهدف الارتقاء بذاته · وهذا نوع مبتذل · وبناء على ذلك ، فان أداء مثل هذه الموسيقى لايدخل فى مقومات الرجل الحر ، ولكنه يخص المؤدى الأجير ، ويترتب على ذلك ، خضوع المؤدين للابتذال ، لأن الغاية التى يسعون اليها غاية سيئة ، اذ تؤدى خسة المستمعين الى الحط من مستوى الأداء ، ومستوى المؤدين بالتبعية ، الذين يتركز عليهم

انتباههم ، وهم يتلاعبون بهم كما يشاءون ، بل ويحركون أجسامهم على أى نحو يريدون .

علينا أيضا أن نبحث الايقاعات والمقامات ، ودورها فى التعليم ، فهل نستعملها جميعا ، أم نفرق بينها ؟ وهل تناسب التفرقة من يمارسون الموسيقى لأغراض تربوية أم أن هناك اختلافا ؟ . على أننا قد رأينا كيف تعتمد الموسيقى على اللحن والايقاع ، وعلينا أن نبحث مدى تأثيرهما على التعليم ، وهل نؤثر أن يكون الامتياز للحن أم للايقاع . غير أنه لما كان هذا الموضوع قد بحث على خير وجه من قبل جملة موسيقيين فى الوقت الحاضر ، وكذلك من قبل فلاسفة أصحاب خبرة لا بأس بها بالتعليم الموسيقى ، فان علينا أن نحيل راغبى المزيد من الدقة اليهم ، ومن ثم فاننى سأكتفى بالتحدث عن هذا الموضوع على طريقة المشرعين ، فأذكر المبادىء العامة .

ولعلنا نقبل قسمة الألحان التى أشار اليها بعض الفلاسفة الى ألحان أخلاقية ، وألحان عملية ، وألحان عاطفية وألحان ملهمة . ولكل نوع من هذه الأنواع الاسلوب المناظر له . بيد أننا نعتقد أيضا بوجوب دراسة الموسيقى ليس من أجل غاية واحدة ، وانما لما تحققه من منافع جمة . يعنى أولا ـ من حيث أثرها التربوى ، وثانيا ـ من ناحية أثرها التطهيرى (ولقد استعملنا كلمة « تطهير » هنا دون تفسير لها . غير أننا عندما سنتحدث فيما بعد عن الشعر ، فاننا سنتناول الموضوع بالمزيد من التدقيق) . وقد تساعد الموسيقى ـ ثالثا ـ على احداث متعة فكرية . اذا قصد بها الاستجمام والترويح عن النفس بعد الكد والجهد . ومن هنا فلا يخفى اننا فى حاجة الى استعمال جميع المقامات ، وان كنا لن نستعملها جميعا على نفس النحو ، ففى التعليم ، من الأفضل استعمال المقامات الأخلاقية ، وان كنا عند الاستماع الى أداء الآخرين ، ربما سمحنا بالمقامات العملية والعاطفية أيضا . اذ أن مشاعر مثل الشفقة والخوف والحماسة موجودة فى صورة قوية عند بعض الأرواح ، ولها تأثير متفاوت عند الجميع . ويتعرض بعض الأشخاص لنوع من الهوس الدينى ، الذى يترتب على الاستماع الى الألحان الدينية التى تثير الروح ، وتدفعها الى حالة من حالات الاثارة الدينية . ويشعر هؤلاء الأشخاص بأن هذه الموسيقى قد أعادت حيويتهم ، وكأنهم قد اهتدوا عن طريقها الى الشفاء والتطهير ، أما أولئك الذين يتأثرون بالشفقة والخوف وجميع أصحاب الطبائع العاطفية ، فيجب أن يحصلوا على تجربة مماثلة ، وتجارب أخرى تتناسب ومقدار استعدادهم لمثل هذه

المشاعر . فهم يشعرون جميعا بحـالة تطهر تتمثل فى شعورهم بالاغتباط ، وبأن أثقـالا قد انزاحت من أرواحهم . والألحان التطهيرية تحقق بالمثل متعة بريئة للبشرية . هذه هى المقامات والألحان التى ينبغى أن يدعى من يؤدون الموسيقى على المسرح الى التنـافس عليها . غير أنه لما كان المستمعون ينقسمون الى نوعين : نـوع حر ومثقف وآخر يتألف من قطعان السفهاء ، التى تضم عمالا ومشتغلين بأعمال آلية وما أشبه ، لذا تتعين اقامة مسابقات ومعارض تهدف الى الترويح عن أبناء الطبقة الثانية أيضا . وستكون الموسيقى فى هذه الحالة مناظرة لعقول المتلقين . فلما كانت عقولهم قد ضلت سواء السبيل ، وابتعدت عن

الحالة السوية ، لذا ظهرت المقامات المنحرفة والألحان الصارخة بألوانها غير المألوفة ، لكى تناسب أذواقهم ، فالمتعة التى يتلقـاها أى انسان تتناسب مع ما يبـدو مناسـبا لذوقه ، ومن ثم فبمقدور الموسيقيين المحترفين أن يمارسـوا هذا النـوع الأحط من الموسـيقى فى حضرة مستمعين من الفئة الدنيا . أما فى حـالة الأغـراض التربوية ــ كمـا أسلفنا ــ فيتعين استخدام المقامات والألحان التى تتسـم بأخلاقياتها كالمقام الدوريانى مثلا ، كما ذكرنا من قبل ، وان كان بوسعنا أن نضيف مقامات وألحان أخرى ، أقرها الفلاسفة من أصحاب العـلم بالموسيقى ، ولقد أخطأ سقراط فى محاورة افلاطون (الجمهورية) عنـدما اكتفى بالمقام الفريجانى ، الى جانب المقام الدوريانى . ويرجع ذلك على الأغلب لأنه رفض استعماله الفلوته ، لأن المقـام الفريجانى بالنسبة للمقامات يتماثل والفلوته بالنسبة للآلات الموسيقية . فكلاهما (الفلوته والمقام الفريجانى) يتصفان بالاثارة والروح الانفعالية ، كما أثبت الشـعر . فآلة الفلوته هى أنسب ما يعبر عن الحركات الهسـتيرية المعهـودة عند المخمورين ، وغيرها من المشاعر المماثلة ، وأوفق ما تواءم وهذه الآلة هو المقام الفريجانى . ومن المعروف أن الديثرامب يتبع المقـام الفريجانى . وهذه حقيقة برهنهـا أرباب الدراية بالموسيقى على جملة أنحاء ، فقالوا ضمن أشياء أخرى أن فيلوكسنوكس Philoxenux بعد أن حاول تأليف Mysians كديثرامب فى المقـام الدوريانى ، رأى استحالة تحقيق ذلك ، واضطر الى الرجوع خضـوعا لطبيعة الأشياء الى المقام الفريجانى الأكثر صلاحية . ويتفق الجميع على أن الموسيقى الدوريانية هى أكثر الموسيقات جدية وفحولة . واذا كنا قد بينا وجوب الابتعاد عن الحدود القصوى ، واتباع الحدود الوسطى ، ولما كان المقـام الدوريانى وسطا بين باقى المقامات ، لذا يتعين تعليم شبابنا الموسيقى الدوريانية .

لابد من مراعاة مبدأين : « الممكن » والمبدأ الممثل « للصيرورة » ، أو ما ستتجه اليه الأشياء ، وينبغى أن يراعى كل انسان المبدأين معا • غير أن هذين المبدأين نسبيان بالنسبة للسن ، اذ يتعذر على الطاعنين فى السن ، من أولئك الذين فقدوا القدرة أن يحسنوا غناء المقامات الصاخبة الدالة على العنفوان • والظاهر أن الطبيعة توحى لنا بأن أغانيهم يتعين أن تتصف برخاوتها • واذا كان الموسيقيون بالمثل قد لاموا سقراط — وكان هذا أمرا منصفا — لأنه رفض المقامات المتراخية فى التعليم بدعوى أنها مسكرة ، لا بالمعنى المألوف للسكر (لأن للنبيذ تأثيرا مثيرا) وانما لأنها خالية من القوة ، ومن ثم ، وبعد مراعاة السن التى يبدأ فيها الناس من الاقتراب من الشيخوخة ، فان عليهم أن يمارسوا المقامات والألحان الأرق ، الى جانب المقامات والألحان الأخرى ، ثم يمارسون بعد ذلك مقاما مثل المقام الليدى ، الذى يفضل المقامات الأخرى ، فى أغلب الظن ، لأنه يناسب الأطفال ، ورقة بنيانهم ، ويتوافر له عنصر النظام والعنصر التربوى . وهكذا سيتضح أن التعليم يتعين أن يستند الى ثلاثة مبادىء : « الوسط » و « الممكن » و « الصيرورة » أو ما ستصير اليه الأشياء مستقبلا •••

استقلال الفن ••• بقلم جان بول سارتر (*) :

[جان بول سارتر (١٩٠٥ — ١٩٨٠) فيلسوف وجودى فرنسى واستاذ سابق للفلسفة ، وأحد زعماء المقاومة الشعبية فى الحرب العالمية الثانية • وهو مؤلف روائى مشهور الى جانب كونه فيلسوفا • ولقد رفض فى عام ١٩٦٤ قبول جائزة نوبل للآداب] •

فى الواقع ، كثيرا ما نسمع أن الفنان يحصل على فكرة فى شكل تخييله image يجسمها بعد ذلك على الخيش (الفرساليا) • ويرجع هذا التصور الخاطىء الى أن الفنان يبدأ ابداعه بتخييلة ذهنية لا تقبل بحكم طبيعتها التوصيل للآخرين ، وأيضا لأنه بعد فراغه من عمله يقدم للمتلقين شيئا أو موضوعا بمقدور الجميع مشاهدته • وقد دفعتنا هذه الظاهرة الى الاعتقاد فى حدوث نقلة من « المتخيل » الى « الحقيقى » • غير أن هذا الاعتقاد بعيد عن الحقيقة • فعلينا أن لا نخفق فى ملاحظة أن ما هو حقيقى ، لا يزيد فى الحق عن لمسات الفرشاة ولزوجة الخيش

(*) نقلا عن كتاب سيكولوجية الخيال تاليف Jean Paul Sartre

والطلاء اللامع الذى تطلى به الألوان · غير أن هذه الأشياء كافة ليست من مقومات التـــذوق الاستاطيقى · فما يتصف « بالجمال » شىء لا يمكن تجربته ، كما يحدث فى المدركات الحسية · انه شىء خارج العالم ، ولقد بينا أنه ليس بالاستطاعة زيادة هذا الشىء بريقا ، بأن نعكس شعاعا من الضوء ـ مثلا ـ على الخيش ، لأن ما سيبرق فى هذه الحالة سيكون الخيش وليس اللوحة المرسومة · وواقع الأمر هو أن المصور لم « يجسم » تخييلته الذهنية على الاطلاق · وكل ما فعله هو أنه أنشأ مثيلا عقليا نوعا ييسر على المتلقى ادراك التخييلة عندما ينظر الى المثيل analogue · غير أن التخييلة التى يحصـــل عليها على هـــذا الوجه ، ولها مثيل خارجى تظل تخييلة · فليس هناك تجسيم للمتخيل ، كما أنه ليس باستطاعتنا التحدث عن حدوث « موضعة » · ان كل لمسة من لمسات الفرشاة ، لم تجرى لذاتها ، ولا حتى لانشاء ظل حقيقى (مثلما يحدث عندما نقول أننا قد تصورنا وصلة ما فى آلة لصالح الكل وليس لذاتها) · فلقد أجريت هذه اللمسة ضمن كل تركيبى غير حقيقى ، وكان هدف الفنان هو انشاء كل من الألوان الحقيقية ييسر لهذا اللاحقيقى الكشف عن نفسه · ومن هذا يتضح أنه يتعين النظر الى اللوحة المرسومة على أنها شىء مادى يزار من حين لآخـر (أى فى كل مرة ينظر فيها المشاهد نظرة تخيلية) ثم عن طريق شىء لاحقيقى ، هو بالضبط الموضوع المرسوم أو الشىء المرسوم · وما يخدعنا هنا هو المتعة الحسية الحقــة ، التى تحققهـــا ألوان حقيقية على اللوحة الخيشية · فبعض الألوان الحمراء عند ماتيس ـ مثلا ـ تحدث متعة حسية عند من يشاهدونها · ولكن علينا أن ندرك أن هذه المتعة الحسية ـ اذا نظر اليها بمعزل عن باقى الأشياء ـ كأن تكون من استثارة لون فى الطبيعة ـ ليس لها علاقة بما هو استاطيقى · انها متعة حسية بحتة. ليس الا ، ولكن اذا أدرك اللون الأحمر فى اللوحة ، فانه يدرك بغض النظر عن أى شىء آخر كجزء من كل لا حقيقى ·· وتكتسب صفة الجمال من تضمنها فى هذا الكل ، كالحمرة فى المفرش الموضوع على المنضدة على سبيل المثال · فالحق ليس هناك شىء يسمى اللون البحت · فحتى اذا عنى الفنـــان بالعلاقة الحسية وحدها بين الأشـــكال والألوان ، فانه يختـــار لهـــذا السبب بعينه مفرشـــا كموضوع اللوحة ، كى يزيد القيمة الحسية للحمرة · انه أحمر « وبرى » ، لأن المفرش مصنوع من مادة وبرية · وبغير « وبرية » اللون هذه ، سنفتقد شيئا ما فى اللوحة · وليس من شك أن ما برر رسم هذا المفرش هو اللون الأحمر ، وليس عكس ذلك · واذا كان ماتيس قد اختار مفرشا بدلا من غطاء من الورق المصقول ، فانما يرجع ذلك الى الخليط النزوائى للون ، ولما للصوف من ملمس وتكثف · ويترتب على ذلك أن الحمرة لا يستمتع

بها استمتاعا حقيقيا ، الا اذا أدركت كحمرة المفرش ، وبذلك تكون هذه الحمرة غير حقيقية • ولا يستبعد أن يفقد المفرش تباينه القوى وخضرة لون الحائط ، لو أن هـذه الخضرة لم تتصف ببرودتها بحـكم كونها خضرة الحائط • ومن هذا يتضح أن العلاقة بين الألوان والأشكال تكتسب معناها الحق فى عالم اللاحقيقة • وحتى عندما يتضاءل المعنى المألوف للموضوعات المرسومة الى أدنى حد ، مثلما يحدث فى لوحات التكعيبيين ، فان اللوحة

ـ فى أقل تقدير ـ لا تتصف بانبساطها • فالأشكال التى نراها ليست ـ بالتأكيد ـ أشكال المفرش أو المنضدة او اى شىء آخر نراه ، وعلى الرغم من هذا فان لديها كثافة وكيانا ماديا وعمقا ، وترتبط بعلاقة منظورية هى والأشياء الأخرى • انها **أشياء** • ويرجع الى هذا المعيار بالضبط ، الذى جعلها أشياء أنها غير حقيقية • لقد أدخل المذهب التكعيبى « موضة » الزعم بأن اللوحة يجب أن لا **تمثل** أو **تحاكى** الواقع ، وانما يجب أن تكون موضوعا قائما بذاته • ويقبل مثل هذا المنهج الدفاع عنـــه دفاعا تاما كمذهب فى الاستاطيقا • ونحن مدينون له بالكثير من آيات الفن ، ولكنه يحتاج الى الفهم • فالقول بأن اللوحة ، بالرغم من خلوها من المعنى ، الا أن لها موضوعا حقيقيا ، خطأ فادح • فهى بالتأكيد ليست موضوعا من موضوعات الطبيعة ، فالموضوع الحقيقى لم يعد كمثيل لصحبة من الورود أو لتكوينات من الأجزاء اللامعة والمظللة ، غير أنى عندما أتأمله ، فانى ـ رغم ذلك ـ أنظر اليه نظرة واقعية • اذ ستظل اللوحة مجرد مثيل analogue ، وكل ما هناك هو أن ما سيتكشف من خلالها سيكون مجموعة لاحقيقية من **الأشياء الجديدة** • أى أشياء لم أشاهدها قط ، ولن يتوقع أن أراها ، وان كان هذا ليس سبب اتصافها باللاحقيقة • انها من الأشياء التى لا وجود لها فى اللوحة ، أو فى أى مكان آخر من العالم ، ولكنها تعرض نفسها عن طريق الخيش ، وقد أمسكت بها فى شىء شبيه بالاستحواذ . ان هذه التكوينات المؤلفة من أشياء غير حقيقية هى ما أصفه **بالجمال** • فالمتعة الاستاطيقية أمر حقيقى ، ولكنها لا تدرك لذاتها ، وكأنها قد نتجت عن لون حقيقى • انها مجرد حالة من حالات ادراك الشىء اللاحقيقى • وهى بعيدة تماما عن أن تكون موجهة الى اللوحة الحقيقية ، انها تقوم بدور تأليف الموضوع المتخيل من خلال الخيش الحقيقى • ان هذا هو مصدر ما فى التجربة الاســـتاطيقية من تنزه عن الغرض (وهو المبدأ الذى اشتهر بعد كانط) وهذا يفسر لماذا استطاع كانط أن يقول أنه لا يهم عندما نكون فى حضرة موضوع جميل ، ويتأمل كشىء جميل ، أن يكون حقيقيا أو غير حقيقى من الناحية الموضوعية • ويفسر لماذا استطاع شوبنهاور أن يتحـدث عن وجود ما يسمى بتعليق الارادة . ان هـذا لم يترتب على وسيلة خفيـة للادراك الحقيقى بوسعنا

اللجوء اليها من حين لآخر . ان ما حدث هو أن الموضوع الاستاطيقى يؤلف ويدرك بوساطة وعى خيالى يطرحه كشىء غير حقيقى .

وما ذكرناه عن التصوير يصح أن ينطبق أيضا على فن القصة والشعر والدراما . فمن الجلى ان القصاص والشاعر والكاتب الدرامى ينشئون موضوعا لاحقيقيا اعتمادا على مثيلات من الكلمات . كما أنه من الواضح أيضا ان الممثل الذى يؤدى دور هاملت يسخر نفسه وجسمه بأكمله كمثيل للشخص المتخيل . كما أن النظرة المبينة هنا تلقى ضوءا على الخلاف الشهير من المفارقة التى تدور عن الممثل الكوميدى . فمن المعروف ان بعض الهواة يصرحون أن الممثل لا يؤمن بالدور الذى يصوره . وثمة آخرون يرجعون الى شهود عديدين يزعمون أن الممثل يشعر بوجود هوية بينه وبين الدور الذى يمثله على نحو ما . وفى نظرنا لا يستبعد أى رأى من هذين الرأيين الرأى الآخر . فاذا عنى بكلمة « يؤمن » الايمان بشىء حقيقى بالفعل فالرد على ذلك بكل جلاء هو أن الممثل لا يعتبر نفسه أنه هاملت بالفعل . غير ان هذا لا يعنى أنه لا يعبىء كل قدراته لكى يجعل هاملت أمرا حقيقيا . فهو يسخر جميع مشاعره وقواه وايماءاته لتمثيل مشاعر هاملت ومسلكه . ولكنه عندما يفعل ذلك فانه ينتزع ما فى هذه الأشياء من صفة الحقيقة . فهو يحيا على نحو غير حقيقى تماما . ولا يهم اذا كان يبكى بالفعل عندما يمثل الدور . ان هذه الدموع التى تسيل من عينيه بالفعل — مثلما تسيل من عيون المتفرجين وكأنها دموع هاملت — لا تزيد عن مثيل لدموع غير حقيقية . ان التحول الذى يجرى هنا يتشابه هو وما ذكرناه عن الأحلام . فالممثل يشعر فى حالة الهامه ، وكأنه فى قبضة اللاحقيقى (١) .

ولكن ألا توجد بعض فنون تتحاشى اللاحقيقة بحكم طبيعتها ؟ .. فاللحن على سبيل المثال لا يشير الى أى شىء غير نفسه . وهل تعد الكاتدرائية شيئا أكثر من كتلة من الأحجار الحقة التى تعلو على قمم البيوت المحيطة بها ؟ ولكن علينا أن نتمعن عن كثب فى هذه المسألة ، مثلما يحدث عندما أستمع الى أوركسترا سيمفونى ، وهو يعزف السيمفونية السابعة لبيتهوفن مثلا . ولنستبعد الحالات الاستثنائية ، كما يحدث عندما أذهب عامدا لكى أستمع الى أداء توسكانينى لبيتهوفن

---

(١) يمكن أن يفهم وفقا لذلك ، لماذا تذكر الممثلة الحديثة العهد أن رهبة المسرح قد أفادتها فى تمثيل هلع أوفيليا ، وتفسير ذلك هو أنها قد تحولت بغتة الى لا حقيقة ، أى أنها نزعت عن ادراكها فى ذاتها . وأنها أصبحت تدرك الهلع على أنه « مثيل » لهلع أوفيليا .

بطريقته الخاصة ، لأن هذه مسألة على هامش التـــأمل الاستاطيقى ·
وكقاعدة عامة ، ان ما اجتـذبنى للكونسير هو الرغبة فى الاستماع الى
السيمفونية السابعة . وبطبيعة الحال ، فان لدى اعتراضا على الاستماع الى
أدائها من قبل أوركسترا من أوركسترات الهواة ، وأفضل على ذلك أداء
احدى الفرق الموسيقية المعروفة · غير أن هذا انما يرجع الى رغبتى فى
الاستماع الى السيمفونية وهى « تعزف على أكمل وجه » . لأن السيمفونية
فى هذه الحالة ستكون فى أكمل حالاتها ذاتها · وسيبدو لى أى نقص
يحدث عند أى أوركسترا هزيل ويتمثل فى زيادة السرعة أو انقاصها أو
ابتعادها عن « التمبو » الصحيح ، قد سلب أو « خان » العمل الذى يعزفه،
وفى أفضـل الحالات ، فان الأوركسترا يمحو نفسه أمـام العمل الذى
يقدمه · واذا سلمنا بأن لدى مبررات تدفعنى الى الوثوق فى القائمين
بالأداء وقائدهم ، فاننى سأكون فى حضرة السيمفونية ذاتها · ان هذا
أمر يسلم به الجميع · ولكن الآن ما هى السيمفونية السابعة ذاتها ؟ انها
ـ كما لا يخفى ـ شىء ، اى شىء أمامى له ديمومة ، واستمرارية · وبطبيعة
الحال ، ليس هناك ما يدعـو الى بيان أن هذا الشىء هو كل تركيبى ،
لا يتألف من نغمات ، وانما من صيغ لحنية · ولكن هل يعد هذا « الشىء »
حقيقيا أم لاحقيقى ؟ علينا أولا أن نذكر أننى أسـتمع الى الســيمفونية
السابعة ، وفى نظرى أن هذه « السيمفونية السابعة » ليست موجودة فى
زمان ، فأنا لا أدركها كحادثة تقع فى تاريخ معين ، أى كعرض فنى ينساب
أمامى فى قاعة الموسيقى شاتليه فى ١٧ نوفمبر ١٩٣٨ · واذا استمعت
الى المايسترو فورتفنجلر غدا أو بعد ثمانية أيام ـ وهو يؤدى السيمفونية،
فانى سأكون فى حضرة السيمفونية نفسها مرة أخرى ، وكل ما هناك
هو أنها تعزف اما عزفا حسنا ، أو عزفا رديئا · فلنحاول أن ننظر الآن
فى كيفية استماعنا للسيمفونية · فبعض يغمض عينيه · وفى هــذه
الحالة فانهم يعزلون أنفسهم عن الحادث المرئى ، الذى له تاريخ هو تاريخ
أداء هذه الحفلة بالذات · أنهم يستسلمون للنغمات الخالصة · وينظر
بعض آخـر الى الأوركسترا أو الى ظهـر المايســترو ، ولكنهم لا يرون
ما ينظرون اليه ، ان هذا هو ما دعاه ريفو دالون Revault D'Allones
بالتأمل المصحوب بانبهار اضافى · وفى مثل هذه الحالات ، فان المتلقى
يشعر وكأن جميع الأشياء قد اختفت : القاعة الموسيقية والقائد ، بل
والأوركسترا ، وكأنه قد أصبح فى حضرة السيمفونية السابعة ، وانما فى
حالة عدم فهم أى شىء عنها ، لأنه لا يتصور أنه يعتقد أن هذا الشىء فعلى،
يقع فى تاريخ محدود ، ولكنه يتصوره مرتبطا بشرط خاص وهو استماعه
اليه فى ألحان متعاقبة كتعاقب مطلق ، وليس تعاقبا فعليا ينساب فى احدى

المناسبات الخاصة كزيارة لصديق معين ٠ وبقدر تركيزى على الاستماع للسيمفونية ، فانها **لا تكون هناك** ، أى بين هذه الجدران الأربعة أو على أطراف أقواس الفيولينات ، كما أنها لا تتراءى لى فى الماضى أيضا « كأن تخطر ببالى كعمل نضج فى وجدان بيتهوفن فى تاريخ بالذات » ٠ انها شىء يتجاوز ما هو حقيقى تجاوزا تاما : ان لها زمنا خاصا بها ، يعنى ان لها زمانا جوانيا ، ينساب من أول نوتة ، فى الاليجرو الى آخر نوتة فى النهاية ٠ غير أن هذا الزمان ليس زمانا يعقب زمانا أسبق ، ويتصل به ، اى الزمان الذى حدث « قبل » بداية الاليجرو ٠ كما أنه ليس معقوبا بزمان سيجىء « بعد » النهاية ٠ فليست السيمفونية السابعة بأى حال فى زمان ، وبذلك لا تكون حقيقية بأى معنى ٠ انها تحدث فى ذاتها ، ولكن كشىء غائب ، باعتبارها فى غير التناول ٠ ولست قادرا على احداث أى تأثير فعال فيها ، أى تغيير أية نوتة من موسيقاها أو ابطاء حركتها ٠ غير أنها تعتمد على ما هو حقيقى لظهورها ، كعدم اصابة المايسترو باغماء ، أو عدم نشوب حريق فى القاعة ينهى العرض ٠ ولا نستطيع أن نستخلص من حدوث هذه الأشياء الحقيقية أنها ستكون بمثابة نهاية السيمفونية السابعة ٠ كلا ! ان كل ما سنفتقده هو أن أداء السيمفونية قد توقف ٠ ألا يبين من هذا بوضوح أن أداء السيمفونية كان بمثابة مثيل analogue فهى لا تتكشف الا اعتمادا على تقديم مثيل ذى تاريخ ، ينساب فى زماننا ٠ غير أننا اذا أردنا أن نجربها تبعا لهذه المثيلات يتعين أن تكون عملية الرد الخيالى ، قائمة بعملهـا ، أى يجب أن تدرك الأنغام الحقيقية كمثيلات ٠ فعلينا أن لا نتصورها (كمـا فعل سـباندرل فى رواية الدوس هكسلى Point Counter Point ، وكما يفعل كثير من الافلاطونيين) كشىء موجود فى عالم آخر ، أى فى سماء عالم المعقولات ٠ فهى ليست خارج الزمان والمكان فحسب ، أى كعالم المثل مثلا ٠ انها خارج « الحقيقى » ، أى خارج الوجود ٠ انى لا أسمعها بالفعل ، اننى أسمعها فى المخيلة ٠٠ هنا نصادف تفسيرا للصعوبة الجمة التى نلقاها دائما عند الانتقـــال من عالم المسرح أو الموسيقى الى عالم أحداثنا اليومية ٠ والحق ، ليس هناك حالة انتقال من عالم الى عالم آخـر ٠ وكل ما هنـاك هو انتقال من حالة التخيل الى الواقع ٠ ان التـأمل الاستاطيقى عبـارة عن حلم من استثارة ميولنا ، والانتقال منه الى العالم الحقيقى هو بمثـابة اليقظة الفعلية ٠ وكثـيرا ما نتحدث عن الانخداع الذى نشعر به لدى عودتنا الى الواقع ٠ غير أن هذا لا يفسر لماذا يوجد شعور بالارتياح أيضا ، كما يحدث مثلا بعد أن نشاهد رواية واقعية مؤلمة ٠ ففى هذه الحالة ، سيكون الشعور بالواقع مصدر ارتياح ٠ ان عدم الارتياح ما هو الا عدم ارتياح الحالم عند اليقظة ٠

أن الوعي الواقع في غيبوبة ، بعد أن استغرق في المتخيلات قد شعر بغتة بالتحرز بالنهاية المباغتة للرواية أو السيمفونية ، ورجع على حين غرة الى الاتصال بالوجود · ولبست هناك حاجة لما هو أكثر لاثارة الشعور بالقرف والتقزز ، الذى يتصف به الوعى بالواقع ·

من هـذه الملاحظات القليلة ، نسـتطيع أن نستخلص ان الحقيقى لا يتصف بالجمال قط · فالجمال قيمة لا تنطبق على غير المتخيل ، وتعنى نفى العالم بتكوينه الأساسى · وهذا يبين لماذا يعد من الغباء الخلط بين « الأخلاقى » و « الاستاطيقى » · فقيم الخير تزعم أنها موجودة فى العالم ، لأنها تخص العمل فى مجالات حقيقية · ومن ثم فهى غير خاضعة من البدء للسخف الأساسى فى الوجود · والقول بأننا نتبع اتجاها استاطيقيا فى الحياة يعنى الخلط المستمر « للحقيقى » و « المتخيل » · ومع هذا فقد يحدث قيامنا بتأمل الأحداث الحقيقية أو الأحداث الحقيقية تأملا استاطيقيا· غير أنه فى مثل هذه الحالات ، فاننا نشعر بنوع من التراجع فى علاقتنا بالموضوع المتأمل الذى ينزلق الى لا شىء · وفى مثل هذه اللحظات وبعدها ، فان الموضوع المتأمل يتوقف عن الاتصاف بأنه شىء مدرك ، لأنه سيعمل كمثيل لذاته ، يعنى كصورة غير حقيقية (تخييلة) لما يظهر لنا من خلال وجوده الفعلى · وقد تكون هذه التخييلة بكل بساطة الموضوع ذاته بعد تحييده وتحطيمه ، مثلما يحدث عندما أتأمل امرأة جميلة أو الموت فى مصارعة الثيران · وقد تكون هـذه التخييلة أيضا المظهر غـير الكامل والمشوش لما قد تكونه من خـلال كينونتها ، مثلما يدرك المعوز أن تناغم لونين سيكون أعظم وأشد حيوية بعد مشاهدته للطع لونية حقيقية فوق الجائط · ان الموضوع يظهر وكأنه قد غدا خلفية لنفسه ، وتحول الى شىء غير قابل للمس ، أو فى غير متناول أيدينا ، ومن ثم ينبعث منه نوع من الزهد الحزين فى الاهتمام به · ووفقا لهذا المفهوم ، باستطاعتنا أن ندرك لماذا يقتل الجمال العظيم عند المرأة اشتهائنـا لهـا · والحق أنه ليس بمقدورنا أن ننظر لهـا فى المستوى الاستاطيقى ، أى كشىء غير حقيقى نعجب به ، وأن نضع أنفسنا ـ فى الوقت نفسه ـ فى المستوى الواقعى ، الذى يدفعنا الى تصور استحواذنا عليها فزيائيا ، فاذا أردنا اشتهاءها . فان علينا أن نتناسى اتصافها بالجمال ، لأن الرغبة تمثل انغمارا فى خضـم الوجـود ، أى فيما هو حادث ، وفيما يتصف بشـدة سخفه ، ويتماثل التأمل الاستاطيقى للموضوعات الحقة فى تكوينه والبارامنزيا ، الذى يتحول فيه الموضوع الحقيقى الى مثيل له فى الماضى ، غير أنه فى احدى الحالتين ، تكون هنك عمليـة نفى ، وفى الحالة الأخرى ، يوضع

الشيء في الماضي • وتختلف البارامنزيا عن الاتجاه الاستاطيقي اختلاف الذاكرة عن الخيال •

الفن في الحياة والفنانون في المجتمع : تاليف دافيد وايت برال

[كان دافيد وايت برال (١٨٨٦ ـ ١٩٤٦) ، أستاذا أمريكيا للفلسفة تأثر بكتاباته في الاستاطيقا الفنانون والنقاد والفلاسفة أيضا] •

••• ولكن ما هو ••• هذا الخير الناضج والباقي ، الذي يحققه الفن للحياة ؟ • والاجابة بسيطة للغاية وواضحة للغاية بحيث لا تبدو مقنعة على الاطلاق ، لأن كل ما يحققه الفن للحياة يتلخص في كلمة واحدة • فاذا كان فنا ناضجا ، فانه يزود عالم البشر بالجمال ، وهذه ناحية قد يتصورها الجادون من بيننا ـ في أفضل الأحوال ـ ترفا ممتعا ، بدلا من كونها احدى الضرورات ، وقد يظنون أنها اسراف وليست استثمارا ، مع استعمال مصطلحات أقرب الى الكلمات الدارجة • وما يفعلونه أشبه بالحكم بادانة الفن ، على نحو مماثل لما يفعله رجال القانون عندما يدينون الجامعات التي يستعمل رؤساؤها نفس الألفاظ الدارجة في اجاباتهم • على أنه حتى اعتمادا على مثل هذه الألفاظ ، فانه لن يتعذر تبرير وجود الفن ، فبوسعنا أن نقتصر على ملاحظة ما يحدث من استثمار تقليدي وشائع للثروات الضخمة لاقتناء الأعمال الفنية ، باعتبار هذا الاقتناء غاية تستأهل انفاق المال في سبيلها ، أو غاية تصلح لذلك شريطة توجيه الاستثمار صوب الأشياء الثمينة ، بدلا من الاتجاه الى جوانب وضيعة ، لمضاعفة الثروة ، أو اللجوء الى وسائل غير مباشرة لصالح الآخرين ، أو للتظاهر الاجتماعي ، وأسر انتباه الأخرين ، باعتبار هذه الأشياء الثمينة من دلائل الجاه والقوة ، ولكن ربما كان بوسعنا أن نحقق ما هو أفضل اذا لم نرتكن الى مثل هذه الحجج ، واتجهنا عوضا عن ذلك الى البحث عن دليل فكري واضح ، اذا تأملنا كيفية الاشباع الحق للحياة ، عندما يحتل الجمال مكانه الصحيح في تقديرنا • والاقناع لا يدخل في نطاق الاستاطيقا ، اذ تتبع هذه المسألة مسائل القيم بوجه عام ، والقيم النسبية في المجتمع ، لأنها ليست مسألة استاطيقية وحسب ، والاعتبارات الاستاطيقية هي اعتبارات تخص الطبيعة المباشرة ، وكثيرا ما تمثل الطبيعة القصوى للعالم

(★) نقلا عن كتاب Aesthetic Judgement تاليف David Wight Prall (هاربر وراو ١٩٦٧) •

الذى نعيش فيه • فاذا كانت هذه الخاصية فى أفضل أحوالها مرضية ، فان العالم سيوصف بالجمال • ولما كان خلق الجمال هو هدف الفن ، ولما كانت منجزات الفنانين تقدر بمقدار جمال منجزاتهم ، لذا فان هنك مبررا للاعتراف بالقيمة الفعلية العظمى لجميع الفنانين ، وانجازاتهم ، وما يحققون من أثر يعم جميع البشر فى كل مكان •

وثمة اعتبار آخر يفرض هذه النقطة ، ويدفعها الى ما هو أبعد من ذلك ، فالمعيار الاستاطيقى هو فى « آخر المطاف الفيصل النهائى فى الحكم على قيمة الأشياء جميعا ، بما فى ذلك الظواهر الاجتماعية والقوانين . ومظاهر المجتمع بوجه عام » • ان هذا المعيار هو الانتباه الاستاطيقى المباشر القادر على ادراك ملامح المجتمع ، كما هو فى أفضل صورة واقعية • فالفنان بوصفه فنانا لا يسعى لتحقيق أية أهداف بعيدة ، فهو ينظر الى العالم لكى يراه كما يظهر بالفعل • والأحكام التى يصدرها باعتباره ناقدا ، بالاضافة الى البيانات التى يعبر عنها ويجهر بها والتى تتعلق باللغة الفنية الخاصة بها ، ربما أحدثت اضطرابا فى تصوراتنا المعتادة لطابع الفن ، وهذا يرجع الى أن هذه التصورات نابعة الى حد كبير من أهواء اجتماعية ودينية ، ومن تصورات زائفة وميول شخصية ، ومعان دوجماطيقية مستقطرة من التعاليم والعادات التقليدية • ان سذاجة الفنان ذاتها هى التى تحدث التشويش والبلبلة هنا ، فما أشبهه بطفل يعجز عن ادراك السبب المتعقل فى أى نظام لا عقلانى للأشياء الى أن يلقن ما لدى البالغين من مخاوف اقتصادية وعقائد دينية وخزعبلات اجتماعية • ومن هنا يعجز الفنان عن رؤية المظاهر القبيحة لعالمنا ، ويعجز عن تصور مجتمعنا فى صورة جميلة ، أو ربما رأى جماله قبحا • على أنه يختلف عن الطفل الذى يستطاع ترويضه رويدا رويدا ، الى أن يتحقق له التوافق ، لأنه يصر اصرارا دائما على رفض تزييف مدركاته الواثقة المدربة لكى تتواءم هى والأوهام الغيبية والأوهام المضطربة التى تبثها فيه جميع الأطراف • ويرفض أن يلقن نظرة للحياة والعالم ترفض هذه المظاهر ، والتى يدركها ادراكا واضحا لصالح مجردات غالبا ما تكون مخترعات حمقاء أو وهمية ، لا تتضمن دلالات كافية لتفسيرها ، ومن ثم فانها تتصف بالسطحية ، ولا تمثل أكثر من مظاهر عديمة الأهمية لواقع ورثناه عن أسلافنا ، أو قام بانشائه نفر من أصحاب الاجتهاد والطموح والوطنية •

وكثيرا ما يفتقر المصلحون الراديكاليون أيضا الى الادراك المنزه عن الغرض ، والمباشر ، الذى يتمتع به الفنانون ، والذى يساعدهم على ادراك الجمال الفعلى والقبح الفعلى ، لنفس السبب ، الذى يقال فى حالة المحافظين

من رجال الأعمال ورجال السياسة • اذ يحتمل أن ينصب اهتمامهم بمقدار أقل على المظاهر الحقة التى تعد الدلالات الوحيدة على وجود حقيقة كامنة محتملة ، من تركزه على التفسيرات الفطرية لأوضاع ربما لم تك حتى قائمة ، ولكنها مجرد أمثلة لنظرياتهم ، ومن ثم فانها لا تكون بحاجة الى أى علاج • أو قد تتركز اهتماماتهم على جانب واحد مفرد من الجوانب التى تستحق الاعتراض فى الحضارة يتعذر اصلاحه بطريقة معقولة الا بعد أن يدرك ادراكا كاملا كجانب من جوانب كل مركب ، من ناحية شكله وطابعه • وعندما يوجه أمثال هؤلاء النقاد والمصلحون انتباههم للشكل والملامح الخاصة بهذا الكل فانهم يوفقون فى توجيهه الى ما هو أفضل ، اذا استطاعوا عرض محتوى هذا العالم الأفضل أمام العقل المحتوى الذى ينظر اليه بنظرة الخيال تحت صورة دنيوية ، اعتمادا على شغله بشحنة يمكن تحديدها بلغة الاستاطيقا كرؤيا لحالة من الكمال الأعظم • وثمة شرور صارخة واضحة بمقدور البشر تخفيفها دون تردد طويل حول الآثار الأبعد للتحولات البعيدة ، التى تحتويها ضمنا ، ولكن بمجرد قيام الناقد أو النبى أو المصلح بتوجيه انتباهه الى المستقبل ، فان أحلامه ذاتها ستكون بمثابة صيغ استاطيقية مصنوعة من نفس العناصر التى اكتشفها فى مدركاته التمييزية للظاهر الاستاطيقى للعالم المنظور بالفعل •

وفوق كل هذا ، فان العالم الذى يحلم به ، ويعمل من أجله ، لن يكون كافيا لأى حياة انسانية كاملة ، ولن يكون مرغوبا – عقلانيا – من قبل الآخرين من البشر ، ولن يكون انجازا مرضيا لو تم انجازه ، ما لم يك الحالم قد حلم بالجمال كشىء كامن فيه ، ويكون قد حلم بالفن والفنانين باعتبار مهمة الفن فى الحياة ، ومهمة الفنانين فى المجتمع ذات أهمية أولية لسعادة البشر فى أى حال من الأحوال •

واذا رجعنا الى المعايير الأخلاقية والاجتماعية ذاتها ، التى نحاول اعتمادا عليها قياس مدى ارضاء أى مجتمع ، فعلى أو متخيل ، سيتضح لنا أن هـذه المعايير الأخلاقية والاجتماعية ، تتماثل هى وجميع المعايير الأخرى فى كونها كيفيات أو درجات من الكيفيات ، وفيما يتعلق بالخصائص الحسنة والكيفيات الحسنة ، ليس من شك فى وجوب رفع هذا المستوى • ولكن ما هى هـذه الكيفيات والخصائص ، وما هو محكنا لقياس مدى جودتها ؟ ان هذا المحك أيضا عبارة عن رؤيا استاطيقية ، أى شعور مباشر بمدى ارضاء هذه الكيفيات وهذه الخصائص من الناحية الجوهرية • وهذا شىء تصعب التفرقة بينه وبين الجمال الذى عرفه عظماء المفكرين دائما باستعمال مصطلحات استاطيقية ، فالعدالة نفسها لا تزيد عن نوع من

أنواع الهارمونية ٠ وعند الحكم على أية دقائق أو تفاصيل خاصة ، فان هذه المقولات الاستاطيقية ستكون لها أهمية مساوية ٠ فلو أرغم الأغنياء على النظر الى قاذورات الفقراء ، وما يعانون ، فانهم لن يطيقوا ذلك ، مثلما لا يرتضى المسئولون عن المؤسسات الكبرى حتى تخيل ما يظهر من شقاء فعلى أو قبح وحقارة فى محيط البشر فى قاع الصروح العظمى للصناعة ، وان كانوا يظلون راضين عن المخططات والمؤثرات التى تسببت فى هذه الأوضاع ، فبفضل ما لدى البشر من مشاعر استاطيقية ، أمكنهم — فى نهاية الأمر — ادراك مدى ايذاء هذه الأوضاع وصعوبة احتمالها ٠ ان هذا القبح هو الذى يعرفنا تعريفا مطلقا بضرورة الخلاص منها ، لو أراد أى فرد منا أن يحيا متحررا من التقزز والقرف فى الدنيا ٠

ومن هنا تكون القوة الحقيقية للمبدأ الديموقراطى الذى يذكرنا بكل بساطة بأننا نعيش فى العالم مع آخرين ، أو بمعنى أصح مع هؤلاء الآخرين فى الأوضاع المختلفة التى ليس بمقدورنا أن نخفيها الى الأبد ٠ فمادمنا نعتمد عليها فلابد أن تلفت انتباهنا ، وسنكتشف أنها جزء متكامل من حياتنا وعالمنا ٠ ولو أردنا أن ننعم بالسعادة فى العالم ، كما هو كائن أمامنا ، وكما هو محيط بنا ، فى مظهره العقلى ، فان هذا الوضع لن يظل غير مرض لتأملنا ، أى لن يظل غير مرض استاطيقيا ، أى سيتعرض للاستهجان باخلاص فيما نسجله من أحكام استاطيقية ، ولو اتخذ الفقر والمرض مظهرا لطيفا مستحبا عند أى ادراك قادر على التمييز ، ولو كان الظلم قادرا على ارضائنا عندما نجربه استاطيقيا بطريقة مباشرة ، وأمكننا التعايش وهذه الأوصاف ، فهل سيبقى بعد ذلك أى شىء يستحق الادانة فى نظر أى مخلوق عقلانى ؟ ٠ ان ما جعل هذه الأشياء تظهر فى شكل غير مستحب وقبيح وسىء ، هو تجسم هذه المعانى المجردة فى قطعيات استاطيقية مشخصة ، أى كظلم ومعاناة وفقر ، ولمجرد أنها تمثلت فى العالم فى شكل أشياء تدعو الى النفور عند النظر اليها نظرة استاطيقية ٠ وهكذا تكون المعايير الاستاطيقية — فى نهاية الأمر — هى التى تسمح لنا باصدار مثل هذا التقبيحات الأخلاقية والسلوكية ، التى نتفق عليها ، ان عاجلا أو آجلا ، وما يحتاج اليه هو القدرة على التمييز الاستاطيقى ، حتى يتسنى ادراك شرور العالم وتصور عالم أفضل يمكن أن يوصف بأنه قد تخلص من هذه الأوصاب ، وعدم الاكتفاء بمجرد تغييرها الى شرور أخرى أو أسوأ أو أوهى ٠ واذا تحقق ذلك سيكتسب هذا العالم الجديد مظهرا جديدا وقيما موجبة فى ناحية الجمال ٠

على أن مثل هذا النقد ، أو مثل هذا الفكر والتخيل الاجتماعى

البناء . والذى اتجه اما الى ادانة الفنانين . أو استنكر منجزاتهم ، أو أثنى عليهم ورفع من قدرهم ودورهم فى المجتمع ، ان مثل هذا النقد سيقوم بالحكم على الفنانين ليس بوصفهم صناع الفن وحسب ، ولكن باعتبارهم بشرا ، فبحكم ما يتمتع به الفنانون من حيوية وحساسية وعاطفية ، فلا مفر تقريبا من قيامهم بمهام فى الحياة لا تستأهل الثناء استاطيقيا أو أخلاقيا على السواء ، ولا يعد النقد الذى يترتب على أفعالهم مهما كانت مزاياهم وعيوبهم ، ومهما كانت براعة النقد ، لا يعد نقدا للفن بطبيعة الحال ، ولا حتى نقدا للفنانين كما هم كذلك • وليس له أيضا أى موضع فى أية نظرية استاطيقية ، وان كان النقد الفنى ، المثقل بالكثير من الأعباء قد حشر هذه النواحى فى أحكامه الاستاطيقية ، أو ذكرها كبديل لهذه الأحكام ، وربما أعتبر من الأخطاء الحمقاء الخلط بين أوجه النقص الأخلاقية وأوجه النقص الاستاطيقية ، حتى وان كان المعيار فى الأخلاق والنظرية العلمية فى نهاية المطاف ، معيارا استاطيقيا • وتبعا لهذا المعنى يكون الجمال مرادفا للخير البحت ، بغض النظر عما ينسب اليه ، الجمال ، وأيا كان صاحبه ، والجمال قادر على تحويل أى مظهر قد يتصف فى ذاته بالقذارة والنجاسة أو الخلو من الطهر الى شىء آخر . قد يظل غير مستحب ، فى ذاته ، ولكنه قادر على جذب أعيننا وابهارها بمظهره الجميل ، بحيث يبدو وكأنه قد تطهر من أدناسه . كما يحدث بالفعل فى العمل الفنى ، حيث يفلح المظهر فى اكساب هذا الشىء الجمال وتحديد مدى أهميته •

وصانعو الجمال الفنى بحكم انتمائهم للبشر ربما كانوا أشرارا فى كل مجال غير مجال ما أبدعوا من جمال ، أى فى الكثير من أفعالهم التى حققوا فيها أمجادهم الفنية على خير وجه ، وما يفعلونه فى هذا السبيل له قيمة مطلقة للغاية ، لأن وظيفتهم كفنانين تتصف بعظم نفاستها ، مما دفع مجتمعاتهم الى غفران خطاياهم ، غير المرتبطة استاطيقيا بمهمتهم كفنانين • وهذا اجراء حكيم ، وبخاصة لأن ما نعتبره خطايا عند هؤلاء الناس غالبا ما يكون التعبير الطبيعى والمنزه عن الغرض لهذه الحيوية ، والقدرة التى جعلتهم فنانين ذوى أهمية • وفى المجتمعات الكاملة التحضر ، يترك الحبل على الغارب للتعبير عن الغرائز الطبيعية البشرية ، أو تحدث محاولات للتزويد بمثل هذه التعابير كأساس لسياستها . فلربما ثبت أن أمثال هذه الخطايا المزعومة لا تزيد عن أفعال بريئة أشبه ببراءة الطفولة ، أو ضربا من المبتكرات المرحة ، وليس الفنانون بحاجة الى الترخيص لهم بارتكاب جرائم مثل القتل أو السرقة ، غير أن هاتين الجريمتين ليستا من الجرائم التى يحتمل أن يتهموا بها كنقائص يتصف

بها الفنـانون ، ففى عالم قد اكتشفنا فيـه بالكاد مدى اتصـاف أغلب مؤسساتنا الاجتماعية بعدم مسايرتها للعصر وافتقارها الى الانسانية ، وكيف تتنـافر هى والطبيعة الضرورية للبشر ـ بل والممكنة ـ وكيف أصبحت بالتبعية معادية لسعادة أبنائها فى هذا العالم ، بمقدورنا أن نحتمل التسامح مع أى فرد أو اى شىء فى العالم ، وبوسعنا أن نؤكد قيما انسانية عظيمة • وفى مقـــدورنا أن نفعـل ذلك فى حالة الفن والفنانين ، ولو افترضنا وجوب وجود كهانة فى المجتمع ، فباستطاعتنا أن نستعيض عن هؤلاء الكهنة بعظماء الفنانين ، باعتبارهم ـ فى أقل تقدير ـ يتفوقون على الفلاسفة الذين أراد افلاطون جعلهم ملوكا ، فى صلاحيتهم للقيام بدور فى هذا المعبد •

الفن والحضارة : بقلم جون ديوى

[كتب جون ديوى (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢) مباحث منهجية فى جميع ميادين الفلسفة واكتسب شهرة واسعة فى جميع أنحاء العـالم بوصفه واحدا من أعظم فلاسفة أمريكا] •

بالاستطاعة بحث المهمة الأخلاقية والدور الانسانى للفن بحثا عقلانيا فى سياق الحضارة فقط • فلربما كان لعمل فنى بالذات تأثير محـدد على شخص بالذات ، أو على عدد من الأشخاص • والأثر الاجتماعى لروايات ديكنز أوسنكلر لويس لا يستهان به ، بيد أن هناك توافقا مع التجربة أقل وعيا وأكبر مقدارا ينبعث من البيئة الشاملة التى يخلقها الفن الجماعى فى أى عصر • وكما يتعذر وجود الحياة الفزيائيـة بغير عون من البيئة الفزيائية ، كذلك ليس باستطاعة الحياة الأخلاقية أن تستمر بغير عون من البيئة الأخلاقية ، فحتى الفنون التكنولوجية فى جملتها وشمولها ، فان لهـا دورا أكبر من مجرد التزويد بعدد من التيسيرات والمســاعدات المنفصلة • فهى تشكل المهن والوظائف الجماعية ، وبذلك تحدد اتجاه الاهتمام والانتباه ، وتؤثر على الرغبات والغايات بالتبعية •

ان أنبل انسان يحيا فى الصحراء يستوعب شيئا ما من خشونتها وجدبها • بينما يثبت حنين من نشأ فى الجبال ، عندما تنقطع الأواصر التى تربطه ببلده مدى عمق تأثير البيئة ، والى أى حد أصبحت جزءا من كيانه • فلا الهمجى ولا المتحضر ، قد أصبحا على هذه الحال بحكم تكوينهما

(★) نقلا عن كتاب Art and Experience تأليف John Dewey (١٩٦٣) •

الاصلي ، ولكن السبب الأصلي يرجع الى الحضارة التى يشاركان فيها • والمعيار النهائى لسمو أية حضارة وارتفاع شأوها ، هو الفنون المزدهرة فيها . وبالمقارنة بتأثيرها ، ستبدو الأشياء التى تعلم تعليما مباشرا ، والكلمة والقانون ، باهتة عديمة التأثير ، ولم يغال شيللى عندما قال ان دور العلم الأخلاقى لا يتجاوز « تنظيم العناصر التى خلقها الشعر » ، لو توسعنا فى تحديد مفهوم الشعر ، وجعلناه يشتمل على جميع مناحى التجربة الخيالية ، وتعد الحصيلة الكلية لتأثير جميع المباحث الأخلاقية النظرية عديمة الأهمية بالمقارنة بالأثر الذى يحدث عندما تصوغ الحصيلة الفكرية « اتجاهات هذه الفنون ، وتزودها بقاعدة فكرية ، ويعتبر أى كبح عقلانى (جوانى) علامة على الانسحاب من الواقع ، اللهم الا اذا كان انعكاسا لقوى جوهرية بيئية • ولا تعد الفنون السياسية والاقتصادية التى قد توفر الأمان والمقدرة ضمانا لازدهار الحياة الخصيبة الوفيرة الا اذا كانت مصحوبة بازدهار الفنون التى تحدد الحضارة •

والكلمات تزود بسجل لما حدث ، وتمنح الاتجاه عن طريق الرجاء والأمر الى الناحية العملية مستقبلا • وينقل الأدب معانى الماضى ذات الدلالة الى تجربة الحاضر ، وتنبىء بالاتجاه الأعظم للمستقبل ، وتكشف الرؤيا الخيالية وحدها عن الامكانات المتشابكة فى نسيج ما هو فعلى • وتحتوى الأعمال الفنية دائما على أول الاهتزازات الدالة على عدم الرضا ، وأول تلميحات لمستقبل أفضل ، ويعد تخصيب المميزات التى يتميز بها الفن الجديد لعصر ما ، بعد الاحساس بوجود قيم مختلفة عن تلك القيم السائدة هو السبب وراء شعور المحافظين بأن مثل هذا الفن لا أخلاقى وهزيل ، كما يعد سبب لجوئهم الى فن الماضى لاشباع احتياجاتهم الاستاطيقية • وقد يجمع العلم الواقعى احصاءات ويرسم خرائط ، غير أن نبؤاته — كما قيل فى قول بليغ — مجرد تاريخ مضى قد عرض بطريقة معكوسة • ويبشر التغير فى مناخ الخيال بالتغيرات التى تحدث تأثيرا على ما هو أكثر من تفاصيل الحياة •

ولقد أخفقت النظريات التى نسبت للفن آثارا وأهدافا أخلاقية مباشرة ، لأنها لم تعمل حسابا للحضارة الجماعية ، التى تقوم بدور السياق الذى تبدع فيه الأعمال الفنية ، ويستمتع بها • ولم أقصد بذلك القول بأن عليها أن تنظر الى الفن كشىء أشبه بخرافات ايزوب المتسامية ، غير أنها جميعا تنزع الى استخلاص أعمال بالذات من بيئتها ، بعد النظر اليها على أنها ذات قيمة تهذيبية ، كما تجنح الى النظر الى المهمة الأخلاقية للفن على ضوء العلاقة الشخصية الخالصة بين الأعمال المنتقاة وبين فرد

بالذات . ان نظرتها للأخلاق فى جملتها غارقة فى اتجاهها الفردى ، مما جعلها تفتقد الاحساس بالوسيلة التى يتبعها الفن لتحقيق دوره الانسانى .

ان القول المأثور الذى جاء على لسان ماتيــو أرنولد : « **الفن نقــد الحياة** » من الأمثلة المؤيدة لذلك ، انه يبين للقارىء المقصد الأخلاقى عند الشاعر ، والحكم الأخلاقى من قبل القارىء ، بيد أن هذا القول قد أخفق على أى حال فى ادراك كيف يعد الشعر نقدا للحياة ، يعنى ليس بطريقة مباشرة . وانما اعتمادا على الكشف من خلال الرؤيا الخيالية الموجهة الى التجربة الخيالية للامكانات التى تتباين والأحوال الفعلية ، ويعد الاحساس بالامكانات التى لم تدرك ، والتى يمكن أن تدرك ، ـ عندما توضع فى صورة مباينة للأحوال الفعلية ـ أشد حالات النقد نفاذا التى يمكن القيام بها ، فعن طريق الاحساس بالامكانات المفتوحة أمامنا ، بمقدورنا أن نصبح على بينة بما يعوقنا من قصور ، وبما على كاهلنا من أعباء .

لقد ذكر المستر جارود ـ وهو من اتباع ماتبو أرنولد فى أكثر من مقام ـ بروحه الفكهة ان ما يشعرنا بالاستياء من الشعر التعليمى ليس لأنه يعلم ، وانما لانه لا يعلم ، ولأنه قاصر . وأردف بالقول بأننا نتعلم من الشعر مثلما نتعلم من الأصدقاء والحياة عن طريق الوجود ، وليس بقصد مباشر صريح . وقال فى موضع آخر : « ان القيم التى (بالقوة) هى فوق كل شىء قيم فى الحياة البشرية ، وليس بمقدورك أن تفصل بينها وبين القيم الأخرى ، وكأن طبيعة الانســـان مقســـمة الى خانات « منفصلة » . ولست أعتقد أنه بالامكان التفوق على ما قاله الشاعر كيتس فى احدى رسائله عن كيف يحدث الشعر أثره ، فقد تساءل عما سينجم اذا استطاع كل انسان أن يغزل من تجربته الخيالية « قلعة فى الهواء » كالنسيج الذى ينسجه العنكبوت « أى بملء الهواء بحلقات جميلة » . كما قال أيضا : « ان عليه أن لا ينازع أو يجهر بصوت مرتفع ، وانما عليه أن يكتفى بالهمس لجاره . وأن يمتص العصارة بكل ذرة من روحه من الحبيبات الأثيرية ، وبذلك يكتسب الكائن الحى العظمة ، بدلا من أن تكون البشرية بادية ممتدة الأطراف من البرارى والأعشاب تنتشر فيها الأشجار الصنوبرية هنا وهناك فتتحول الى ديموقراطية عظمى من أشجار الغابات ! » .

ان الاتصال بين الأفراد هو الذى يســـاعد على جعل الفن وسيلة تعليمية لا تضاهى . غير أن الطريق بعيد عن تلك الحالة التى تقرن عادة بفكرة التعليم . انه الطريق الذى يرتفع فيه الفن فوق ما اعتدنا أن نسميه تهذيبا ، مما يدفعنا الى التنور من أية اشارة للتعليم والتعلم فى معرض

الكلام عن الفن . غير أن ثورتنا هى فى الواقع انعكاس على التعليم الذى يتبع وسائل حرفية للغاية تؤدى الى استبعاد دور الخيال ، وتتجاهل رغبات البشر ومشاعرهم . قال شيلى : « ان الخيال أعظم وسيلة للخير الأخلاقى . والشعر يهتدى الى مبتغاه بالتأثير على الأسباب والعلل » ، وأردف قائلا « ومن هنا فان الشاعر يكون قد أساء اذا جسم معتقداته عن الصواب والخطأ فى مبدعاته الشعرية . اذ لا تزيد هذه المعتقدات عادة عن كونها هى هى معتقدات زمانه وموقعه الجغرافى ... فاذا اتبع هذه المكانة الوضيعة ، فانه يكون قد تنحى عن المشــاركة فى القضية بخياله .. ان الشعراء الأحط هم الذين كثيرا ما يتكلفون الهدف الأخلاقى ، ويتناسب أثر شعرهم تناسبا عكسيا هو ومحاولتهم ارغامنا على التفطن لهذه الغاية » . غير أن القدرة على الاسقاط الخيالى تكون كبيرة للغاية مما حث شيلى على وصف الشعراء « انهم أصــحاب فضل انشــــاء المجتمع المتحضر » .

كثيرا ما تعالج مشكلة العلاقة بين الفن والأخلاق ، وكأن المشكلة قد وجدت من ناحية الفن وحده . ويشيع الزعم بأن الأخلاق وافية من ناحية أفكارها ، ان لم يك من ناحية الأفعال ، وأن السؤال الوحيد يتركز حول على أى نحو يتعين على الفن أن يتوافق هو وأى مذهب أخلاقى موجود بالفعل . غير أن ما قاله شيلى قد أصاب المسألة فى الصميم . فالخيال هو الأداة الرئيسية للخير . ومن البديهيات المسلم بها القول بأن أفكار الشخص ، وطريقة معاملاته لأقرانه يعتمدان على قدرته على وضع نفسه ـ خياليا ـ فى موضعهم ، غير أن أولوية الخيال تمتد الى ما هو أبعد من نطاق العلاقات الشخصية . وباستثناء الحالة التى تستخدم فيها كلمة « مثالى » بحكم العرف فى مقام التبجيل والتعظيم ، أو تطلق على حالات الاستغراق العــاطفى ، فان العواطف المثالية تكون خيالية فى أية نظــرة أخلاقية ، وعند التعبير عن الولاء البشرى ، ويرد الاشتراك فى الغاية الذى حدث طيلة التاريخ بين الدين والفن الى هذه الخاصية المشتركة . ومن هنا يعد الفن أكثر أخلاقية من الأخلاقيات . اذ تنزع هذه الأخلاقيات الى التحول الى مقدسات للأمر الواقع Status quo وانعكاسات للعادات ، ومعززات للأوضاع الراهنة ، ولقد كان الشعراء الأخلاقيون للبشرية دائما من الشـــعراء ، حتى وان استخدموا فى كلامهم الشــعر الحر والأمثلة والرموز . ومع هذا فسرعان ما تحولت رؤيا امكاناتهم ـ بصفة مطردة ـ الى بيانات عن الوقائع الموجودة بالفعل ، وتجمدت فى شكل مؤسسات شبه سياسية ، ونظر الى عروضهم الخيالية للمثل العليا ، التى كان من الواجب أن تقود الفكر والرغبات ، على أنها قواعد للسياسة . لقد كان الفن وسيلة

الحفاظ على الاحساس بالأهداف الحيوية ، الذى يسبق فى سرعته الأدلة والحفاظ على المعانى التى تعلو على العادات المتصلبة ٠

لقد خصص للأخلاق موضع خاص فى النظريات والناحية العملية ، لأنها تعكس الانقسامات المتجسمة فى الأنظمة الاقتصادية والسياسية ٠ فحينما توجد انقسامات اجتماعية وحواجز اجتماعية ، فان الممارسات والمعتقدات التى تناظرهما تضع تخوما وحدودا تقيد الأفعال الحرة ، وينظر الى الذكاء الابداعى نظرة ارتياب ، وتخشى المستحدثات التى تعد جوهر الفردية ، وتقيد الدوافع الكريمة خشية تعكيرها صفو السلام ٠ ولو أن الفن نظر له كقوة معترف بها فى الجماعة الانسانية ، بدلا من أن يعامل كوسيلة للترفيه والامتاع فى بعض اللحظات ، وكوسيلة للعروض المظهرية ، ولو أن الأخلاق قد فهمت على أنها متماثلةهى وأى جانب من جوانب القيمة التى تشارك فى التجربة ، لما وجدت مشكلة خاصة بالعلاقة بين الفن والأخلاق ٠

ان فكرة الأخلاق وممارستها مشبعة بمفاهيم ترتد الى المديح والذم والثواب والعقاب ٠ انقسمت من جرائهـا البشرية الى أخيار وأشرار ، وطيعين ومجرمين ٠ والعلو الى ما فوق الخير والشر أمر مستحيل للانسان ٠ غير أنه ما دام ما هو خير يدل وحده على ما يستأهل المديح والثواب ، وما دام ماهو شر يدل على ما يستنكر ويحرم فحسب ، فان العوامل المثالية للأخلاق ستظل دائما فى كل مسألة تتجاوز معنى الخير ومعنى الشر ٠ فلما كان العقل مبرئا تماما من أى أفكار مستمدة من المديح واللوم ، فانه سينظر اليه نظرة ارتياب من قبل حراس العادات ٠ وسيقتصر الأمر على الفن شريطة أن يكون عتيقا وكلاسيكيا ، بحيث يستحق الثناء التقليدى ٠ ولن يسمح به الا من باب التبرم وبخاصة اذا توافرت له ، كما هو الحال عند شكسبير علامات دالة على مراعاته للأخلاقيات التقليدية ، التى بالمقدور استخلاصها من أعماله اعتمادا على الفراهة ٠ على أن ما يقال عن عدم المبالاة بالمديح أو اللوم ، من أثر الاستغراق فى تجربة خيالية هو صميم الدور الأخلاقى للفن ٠ فمنه تنبع القدرة التحررية والموحدة للفن ٠

قال شيللى : السر الأعظم للأخلاق هو المحبة ، أو الخروج عن طبيعتنا وشعورنا عندما تتحقق هوية الجمال الموجود فى الفكر والفعل وعنـد شخص آخر غيرنا ٠ وما يصح عن الفرد يصبح أيضا عن المذهب الكامل للأخلاقيات فى الفكر والعمل ٠ وبينما يعد ادراك الاتحاد بين الممكن والفعلى فى العمل الفنى فى ذاتـه خيرا عظيمـا ، فان الخير لا ينتهى عند ما هو مباشر ، وعند المناسبة الخاصة التى ظهر فيها ٠ ان الاتحاد الذى يبين

فى المدركات يستمر موجودا فى اعادة صنع الدافع والفكر ، اذ تغد التلميحات الأولى لاعادة التوجيه الواسعة والكبرى للرغبة والغاية بالضرورة مسألة خيالية ، ان الفن نوع من التنبؤ لا تعرفه الخرائط والاحصاءات • انه يتسلل برفق فى امكانات العلاقات البشرية بطريقة لا وجود لها فى القواعد والمواعظ والتعليمات •

الفن والرقابة : بحث نقدى للقضايا : بقلم فرانسيس ادوارد سبارشوت •

[فرنسيس ادوارد سبارشوت (١٩٢٦ —) أستاذ الفلسفة فى جامعة تورنتو بولاية أونتاريو بكندا • والى جانب كتاباته فى الفلسفة ، فانه قد نشر بعض الأشعار ووصف نفسه بأنه كان يعتقد دائما أنه شاعر فى المقام الأول] •

يعمل الرقباء باسم الأخلاق ، وليس باسم الصالح العام ، ويعتقد بعضنا أن تحريم الأشياء التى تسىء الى الأخلاق أمر خاطىء من حيث المبدأ ، وكأنه لا توجد أحوال يكون فيها وجود هؤلاء الرقباء أمرا مرغوبا • ومن المتعذر قبول مثل هذا الموقف ، ويعكس الموقف المنيع للأخلاق فى نظام القيم السائد بيننا الاعتراف بأنه اذا أريد حدوث تماسك مستمر فى النظام الاجتماعى ، فلابد من وجود أفعال يحظر على أبناء المجتمع القيام بها • واذا دفعت أية حالة الأفراد لارتكاب مثل هذه الأفعال ، سيتعين الحيلولة دون تورط هؤلاء الأفراد فى مثل هذه الحالات • واذا ثبت أن أى انسان قد انساق بعد مشاهدته لتمثال فنى معين الى اقتراف عملية سطو أو قتل ، ما كان ليقترفها لولا ذلك ، فلا أحد ينكر وجوب استبعاد هذا التمثال من أى معرض عام ، واذا تبين حدوث هذا الأثر عند جميع الناس الذين ينتمون الى فئة ما ، أو عند معظمهم ، فلا أحد سينكر وجوب منع مشاهدة الناس لتمثال من هذا النوع ، غير أن الاعتراف بذلك يعنى الاعتراف بمبدأ الرقابة ، لأن الرقابة قد وضعت من أجل الدفاع عن معايير الأخلاق •

فلماذا اذن يثور الخلاف حول مبدأ الرقابة ؟ أولا — لأن مزاعم الأخلاق قد عرضت عرضا قويا ، و لايصح القول بأن جميع الأفعال التى توصف بأنها مخالفة للسنن الأخلاقية مهلكة ، ولا جدال أن أى اغفال

(★) نقلا عن كتاب The Structure of Aesthetics
تاليف Francis Edward Sparshott (١٩٦٣)

شامل للقانون الأخلاقى سيؤدى الى تصدع العلاقات الاجتماعية • غير أنه ليس بمقدور أحد أن يزعم ــ قبليــا ــ أنه ليس بالاستطاعة تبرير أية مخالفة للقانون الأخلاقى الا اذا فسرت الأخلاق تفسيرا واسعا ، بحيث تشتمل على جميع القيم ، بما فى ذلك القيم الاستاطيقية ، والسبب الثانى فى الارتيـــاب فى أحقية الرقابة سبب أقوى ، وهو أن المبــدأ لا يبرر الممارسة • فلا وجود لأية فتاة أغتصبت لمجرد أنها قرأت كتابا من الكتب • فكثيرا ما زعم وجود صــلة علية بين جرائم بالذات ، والتعرض لحالات بالذات ، غير أن هذه الصلة لم تثبت • وبدلا من ذلك ، يذكر الناس ان هناك أعمالا لها صبغة معينة يجب أن تكون ضارة ، أو لابد أن تكون قد أدت الى نتائج معينة • وليس من شك أن هناك بعض أعمال تضر ضررا واضحا ، لأن الأعمال ذاتها تمثل ضررا ، خصوصا أعمال القذف والتشهير ، وما ينشر ويؤثر على أية محاكمة عادلة • وفيما يتعلق بغير ذلك ، فان الخلاف لا ينصب على المبدأ ، ولكنه يتركز على الاحتمال المقدر لوجود صلة لم يتم اثباتها ، وعلى أحقية اعتماد أفعال حاسمة على مثــل هذه الظنــون القابلة للطعن فى صحتها •

ويتوجب أن يلاحظ أن الأفعال التى أعتقد أن احداثها يبرر قيام الرقابة لم تك ــ بالضبط ــ أفعالا لا أخلاقية ، ولكنها جرائم وأفعال هى ذاتهــا محرمة ، ويعاقب عليها القانون • ومن المعقول القول بأن القانون ، من واجبه أن يحرم كل ما يسبب أفعالا هى نفسها محرمة كالخيانة والاغتصاب ، والاحراق المتعمد • غير أنه فى حالات مماثلة للزنا أو الفسوق ، أى الحالات التى لم يحرمها القانون فى ذاتها ، سيكون من الغريب الادعاء بأن الشىء الذى أرغم مرتكبى هذه الفعلة على اقتراف مثل هذا الشىء يعد سببا كافيا لاقامة دعوى لمنعه من الانتشار • فاذا سمح القانون لى بأن أكون داعرا وفاســدا ، فهل هناك مبرر لمنعى من الحصــول على الكتب التى تغوينى وتفسدنى ؟ • والمبرر الوحيد الذى يمكن أن يذكر هو أن الكتاب له قوة خفية ليس باستطاعتى اكتشافها ، واننى بحاجة الى حمايتى منها ، مثلما أحتاج للحماية من الأغذية التى تحتوى سموما خفية • أما القول بأن أداة ما لها تأثير شديد على السلوك يتعذر اكتشافه ، فمسألة صعبة التصديق •

واذا سلمنا بأن الأعمــال الفنية قد يكون لهــا مثل هــذه القدرة ــ بالضرورة ــ على الانسان ، فثمة حجتان يمكن أن تساقا لتبرير الرقابة • الأولى ــ ان هناك اناسا ذوى بصيرة أخلاقية عليا قادرون على اكتشاف السموم الأخلاقية التى لا تتكشف للآخرين الأقل موهبة ، أو الأسوأ تعلما ، واحيانا تطرح هذه الحجة من قبل رجال الدين لتبرير تدخل الكنيسة ،

وفرض رقابتها · فهم يضربون مثلا عن الأطفال الذين يلعبون بالقرب من شاطىء صخرى ، وكيف يزدادون أمنا وسعادة اذا أقدم أحد الراشدين من كبار السن على اقامة سور يفصل بينهم وبين هذا الشاطىء ، كذلك بمقدور معظمنا أن يستمتع استمتاعا جماليا أفضل ، وأن يشعر بالأمان والسعادة لو قام أحد القسس المسئولين باقامة حاجز يفصل بينه وبين التهلكة، وهكذا يكون هناك وجه شبه قد استند الى تصور وجود تشابه بين العلاقة بين الطفل والبالغ ، والعلاقة بين البـــالغ والرقيب . على أن البالغين ليسوا أطفالا · ومن المعقول أن يفترض أن الأطفال باعتبارهم غير بالغين عاجزون عن التزام الحرص في تصرفاتهم ، على أن علينا أن نفترض أن الحرص ليس كافيا ، وأن البالغين سيظلون فى حاجـة الى درجـة أعلى من الحرص لا تتوافر للرقبـاء ، ويكون الرقبـاء قد تمتعوا بهـذه الصفة بحكم الواقع ، وبحكم القـانون · فاذا اتصفوا بارتفاع درجـة حصـافتهم ــ بحكم الواقع ــ فمن الواجب أن تتمثل هذه الميزة فى حكمة قراراتهم · ومن يفتقر الى الحصافة بمقدوره أن يتعرف عادة الى الحصافة عند الآخرين · وأما هل يوحى أولئك الذين يصلحون لأعمال الرقابة ، والذين ذكرت هذه المبررات بشأنهم ، بصلاحيتهم على هذا الوجه ، فمسألة لست بحاجة لحلها · على أن هذه الحصافة العالية ربما كانت قد نسبت اليهم ، بحكم القانون · فقد يعهد اليهم ، بحكم مرتبتهم الدينية بمهمة اتخاذ القرارات الأخلاقية الخاصـــة بأتباعهم · ويضطلع اللاهوت الأخلاقى بمهمة تبرير قيام مثل هذه السلطة · ان الغاية التى أسعى لذكرها هى أنه ليس من الكياسة تزكية مثل هذا النظام اعتمادا على نتائجه المفترضة ما لم يعتقد أن الأشخاص المكلفين بذلك يضطلعون بأعمالهم بحكمة · فلو وضع « السور » فى الموضع الخاطىء ، فانه لن يحمينا من السقوط ، ولكنه سيشل أفعالنا فحسب ·

والحجة الأخرى التى تســاق لتبرير الرقابة تصــدق حتى اذا لم تتوفر الحصافة المطلوبة لأحد ، وان كان لا يلزم أن يكون رقباؤنا اناسا أفضل منا حالا · وربما حاجى فلان وقال ان أى مجتمع يتألف من أحرار قد يفوض أحد أبنائه للتفتيش على مرفهاته ، على نفس النحو مثلما يفعلون عندما يعينون مفتشين للموازين والمكاييل حتى يوفروا على أنفسهم عناء الاطمئنان على كل شىء بأنفسهم ، والحق انه اذا كانت الأداة المؤدية الى مثل هذه النتائج الضارة لها مثل هذا الأثر الذى لا مفر من وقوعه ــ كما افترضنا ــ فاننا نكون قد أحسنا صنعا اذا عينا مثل هؤلاء الأشخاص ، وعلينا أن نفعل ذلك بلا شك ، وأن نطمئن الى كونهم قد حصلوا بحريه على جرعة من ترياق الروحانيات ، أو أوصدوا أبوابهم ضد تيارات الاباحية·

أن الوقت قد حان لكى نتذاكر أنه لا وجود لأى عمل قد توافرت له مثل هذه القدرات .

وقليلا ما تساق الحجج القائلة بأن ثمة أعمالا معينة تتسبب فى حدوث الجرائم أكثر من الأعمال ذات الطابع الخاص التى تنزع الى التشجيع على الجريمة ، أو تجعل الناس أكثر اقداما على ارتكابها . وحتى او أمكن اثبات ذلك ، فان معظم الناس قد يعترفون بأن الرقابة أمر مرغوب فيه اذا كانت ممكنة عمليا (١) . غير أنه حتى مثل هذا الارتباط لم يثبت . والدفاع عن النفس بالقول « بأننى رأيت كذا فى التليفزيون » يدل على محاولة مأمولة للتبرير أو التبرؤ أكثر من كونه أمرا واقعيا . فهل حقا شجعت روايات العنف على ارتكاب أعمال العنف ، أم أن الاستعداد للأفعال العنيفة هو الذى ساعد على ظهور روايات العنف ؟ والمفروض أن مثل هذه الروايات قد ساعدت على التعبير عن ميول للعنف موجودة بالفعل ، ولكن هل يعنى قيامها بدور « لسان حال » هذا الميل ، أنها شجعته ؟ أم أنها بالأحرى عندما قامت بدور صمام الأمان ، قد حالت بينها وبين تحولها الى أعمال عنيفة ؟ لعل العمل نفسه قد يبين لبعض الناس كحافز للجريمة ، ويظهر لبعض آخر كبديل لا ضرر منه ، أو ربما تتحول الأعمال الى أشياء فعالة فى عالم الفانتازيا ، أى فى سياق جد مختلف عن الناحية العملية التنفيذية ، أى أنه لن يؤثر فيه أو يتأثر به ، ان جميع هذه الامكانات تدعم بالكثير من الآراء الموثوق منها ، وان كانت تفتقر حتى الى القليل من الأدلة التى يعتمد عليها .

ويعتقد بعض أنه لما كانت الأعمال الفنية تتطلب التأمل . ومن العسير أن يجمع المرء بين الناحية العملية والناحية التأملية فى نفس الوقت ، فان الفن بوجه عام ينزع الى تعويق الناحية العملية (٢) ، وبالتأكيد ومهما

---

(١) ان شروط الصلاحية للناحية العملية هام ، والأعمال الادارية ، التى يتعذر التحكم فيها ـ ويكرهها الكثيرون ـ ليس بالمقدور تجنبها الا اذا عرف قانونا ما الذى يخضع للادانة، غير أن التحديد الدقيق يمكن تجنبه عن طريق التشريع ، وان كان لا يقع فى براثنه غير الأشياء البعيدة عن الاضرار ، وان كانت قليلة الحيطة . ولا تساعد التحديدات المهمة على ارشاد الرقيب على الاطلاق .

(٢) ذكر باركر (فى كتاب صدر ١٩٢٤ ـ ص ٣٣٤) أنه لما كان الفن معنيا بالخيال أكثر من عنايته بالارادة ، وأنه يستهوى العقل ويتعاطف كذلك والمشاعر ، لذا فانه لا يساعد على الهياج . وكتب كيتس بالمثل الى وودهاوس (١٨١٨) : « ان ما يصدم الفيلسوف الفاضل يبهج الشاعر القلب » . فهو لا يحدث أى ضرر من جراء استملاحه للجانب القاتم من الأشياء ، ولا من تذوقه للجوانب البراقة منها . لأنهما الى السواء ينتهيان باستغراق الشاعر فى التأمل (كيتس ١٩٥٦ ـ ص ١٦٦) .

كانت آثار روايات الرعب ، فعندما يتلهى المرء بقراءتها ، فانه لن يقدم على اقتراف أفعال وحشية ، أو يقدم على تدبير أفعال من هذا القبيل ، وقد يكون مثل هذا التحريم خيرا ، لو كان الفعل المحرم شرا ، أو يكون شيئا سيئا لو كان الفعل أمرا محمودا (٣) • وفى كلا الحالين ، تشير الحجة الى وجوب تفرقتنا بين الفن والدعاية ، وبين الأدب المنحل • فالأعمال الخاصة بالدعاية أو أدب الاثارة مصممة لالهاب الشهوات أو الاستحثاث على العمل • اما الأعمال الفنية فمصممة كموضوعات للتأمل (٤) • ولو وجدت الرقابة ، ستكون مختلف الأفعال والاتجاهات محقة بالنسبة لفئتى الموضوع • غير أنه ليس من السهل دائما أن نقرر الى أية فئة ينتمى العمل ، وان كان هذا الاجراء سهلا للغاية أحيانا ، واذا أريد الحصول على قاعدة يرتكن اليها ، فى مثل هذه القرارات يتعين علينا أن نفرق بين التأثير الصحيح للعمل وآثاره الجانبية • وبالاستطاعة تحقيق هذه التفرقة على ضوء العلاقة بين المتمثلات والموضوع المتمثل ، أو الشفافية النسبية للغة الوسيطة • فقد ترسم صورة أو يؤلف كتاب ، أو قطعة موسيقية ، ويأتى رد الفعل منصبا على المشهد الذى عرض أو أحداث الرواية التى وضعت ، ولا ينصب على العمل الفنى ، من حيث قيمته الفنية ، ومن أمثلة هذه الحالة الأدب المنحل ، الذى قد تكون دراسته بلا معنى ، لأن أهم ما فيه هو الاثارة الجنسية التى يحدثها • بيد أن هناك أعمالا أخرى قد يبحث فيها عن جوانب الاثارة الجنسية ، ولكن هذه الأعمال أكثر نزوعا لتزويد المتلقين بالاشباع الاستاطيقى • والمتلقون لا يتفقون على حال ، وقد يسلكون مسالك غريبة • فقد يلهث بعضهم عند قراءته لكتاب يوليزس لجيمس جويس

---

(٣) شجب الماركسيون الفن البورجوازى لأنه يحرم العمل الأخلاقى (يقصدون الثورى) ، ومن ثم كتب المستر هاراب (١٩٤٩ ـ ص ١١٥) ان الأشكال الفنية المعقدة ، التى ترتب تعقدها على فحواها الرجعى « تؤثر فى الاتجاهات الاجتماعية ، والأفعال الاجتماعية بالتبعية ـ غالبا لأنها تشجع سلبيات الأعمال الاجتماعية ، بينما يعد الفن الشعبى « صورة من صور المخدر الذى يدفع الى قبول الرأسمالية » ، وكان بوسعه ـ ولكنه لم يفعل ـ أن يمد تحذيراته من فحوى الفن ، بحيث تمتد الى « الفاصل » بلغة الاستاطيقيين •

(٤) الاختلاف بين الاثارة والتأمل يرجع الى أفلاطون ، وقد طرح بالفعل فى عبارات عتيقة ، فقيل أن الأعمال الفنية تستحق الشجب اذا تسببت فى احداث اضطراب فى العقل او المدينة ، أو أحدثت اشتهاء (porn) ، أو ميلا للعنف (كما يحدث فى حالة روايات الرعب) أو التمرد (Sedition) ، أو فسوقا • وتستأهل الأعمال الفنية •• الخ المديح اذا كان العمل الفنى يتبع نظاما معقولا ، ويحث على اتباع النظام • وبالاستطاعة القول بأن الاضطراب الخيالى ، يساعد على اعطاء حصانة ضد الاضطراب الحقيقى ، ومن ثم يعد أمرا صحيا • وخلاف ذلك ، فان الحكم على قيمة العمل الفنى يعتمد على مبدأين : هل أحدث هذا العمل أثرا فعالا ، وهل هو يمثل النظام أم الفوضى » •

لاملاله ، بينما يتلذذ بعض آخر من أسلوب « فانى هيل » ، غير أنه من المشروع الحكم على أى عمل فنى تبعا لاستعماله الصحيح ، وليس تبعـا لاساءة استعماله ، وربما قيل عكس ذلك ، أى بوجوب عدم التفرقة بين الآثار المخططة والآثار العرضية للأفعال العامة ، فاذا أثبتت الاجراءات التى قصد بها منع مرض الغدة الدرقية أنها تحدث السرطان ، سيكون غير ذى موضوع القول بان النتيجة الأخيرة لم تك مقصودة • ومن سوء الحظ ، أنه حتى اذا لم يقبل مبدأ التفرقة بين ما هو فنى وما هو ليس كذلك ، فانه لن يسهل تطبيقه • فلقد تركزت الخلافات الحديثة حول دور الرقابة على أعمال ثمة لبس حول مكانتها والمقصود منها ، لأنها تقبل التجاوب بسهولة والاتجاهات المختلفة •

واذا لم يخضع أى شىء للحظر ، فان هذا لن يساعد ــ يقينا ــ على تشجيع الجريمة • اذ يتعين أن يكون واضـحا الآن أن الرقابة لايمكن تبريرها فى الحق • واذا وضعت « اللا أخـلاق » • مكان اللاشرعيـة كأساس لتبرير قيام الرقابة ، فان الصعوبة ذاتها ستظهر وتزداد تعقدا من جراء عدم لياقة منع تشجيع ما هو ليس محظورا ، ولا يخفى أنه اذا وجد رقباء ، فانهم سيقترفون العديد من الأخطاء • وهل هناك ما يبرر تفضيل أى مواطن لأخطاء صاحب العمل الفنى على أخطائه ؟ •

بقيت حجتان لصـالح الرقابة : الأولى حجة ضعيفة ، والثانيـة قوية • وتستند الحجـة الضـعيفة على امكانية تجاهلناها ، وهى الظن ان ما يتأثر ليس اتجاهنا الى الشر والرذيلة ، ولكنـه معرفتنـا به • فاذا وجدت بعض سيئات غامضة نوعا ، ولكنها مريعة ، لن تخطر ببال أية عقلية بعيدة عن الانحراف ، ألا يتمشى مع العقل أن نمنع أى انسان يتعثر فيها من البوح بطبيعتها ؟ • واذا اتبعنا اتجاها أكثر واقعية قلنا أنه لما كان من غير المحتمل وجود أية خطايا جديدة ، وانما ما يظهر هو أشـكال دائمـة الازدهار من المروق ، ألا يكون من الأنسب منع نشر المعتقدات والكشوف الخطرة ، والحقائق الغامضة ، والأخطاء الأريبة ، أى كل ما هو قادر على تقويض دعائم النظـام القائم ؟ • لعـل الأمر كذلك • ولكن اللياقة لا تصح الا فى ظل نظام سلطوى وطيد ، يفترض فيـه أن الحقائق الأخلاقيـة والفكرية قد أصبحت مستقرة وثابتـة ومعصومة • وبغير ذلك ، فقد يقال لعل الخطأ المقنع قد اسـتطاع أن يقنع لأنه ليس خطـأ ، وان ما استطاعت الحقيقة هدمه كان جديـرا بالهدم • ولربما اذا أصبحت الخطيئة أقل خفاء ، ستتضح أنها ليست خطيئة ، ومن ناحية أخرى ، ففى نطاق مثل هذا النظام الوطيد ، فان

الرقيب الأخلاقى يتمتع بالفعـل ـ بحـكم القانون ـ بقدر أعظـم من الحصافة ، وليس بحاجة الى مبررات اضافية لممارسة وظيفته .

والحجة القوية التى بقيت لتبرير وجود الرقابة ، هى عدم وجوب استناد الرقابة فى وجودها على اللا شرعية أو اللا أخلاقية ، وانمـا على ناحية « عدم اللياقة » ، أى أن ما يستبعد لن يكون ما يحـدث ضررا . وانمـا مايبعث على النفور والاسـتهجان . وكثيرا ما يحدث خلط بين المعنيين . فالمدعون العامون عندما يطلب منهم بيـان ما يحدثه كتـاب ما من خطة ، فانهم يحاجون بالقول بأنه مقزز ، غير أن الاختلاف بين الحالتين هام . فالأخلاق تحتاج الى ما يبررها . أما الليـاقة فليست بحاجة لذلك ، والمفروض أن الأخلاق تعتمد على مبادىء غير متغيرة . أما اللياقة فتختلف من آن لآخر ، ومن مكان لآخر . وما يحددها فقط هو ما يعتقد أنه مناسب فى مقام ما . فلقد أعتيد الحكم بعدم الليـاقة للطبع ، ما يتداوله جميع الناس ، أما الآن ، فقد أصبح من غير اللائق ترديد ما بمقدور أى انسان أن ينشره فى كتاب مطبوع ، وما يبدو لائقا للنشر فى مجلة Partisan Review ، ربمـا بدا ، بعيدا عن اللياقة فى جريدة Saturday Evening Post .

علينـا اذن أن نتسـاءل : هل يحق للنـاس أن لا يشعروا بالاشمئناط ؟ وربما كان مثل هذا الشىء لايلحق بهم أى ضرر ، ولكن اذا شعروا نحوه بالمقت ، فما الذى يدفعهم الى تحمله ؟ . واذا كانت هناك معايير لما يفعل وما لا يفعل ، فلماذا لاتفرض مثل هذه المعايير ؟ . هنا لاتنطبق ــ على أى حال ــ مشكلة « الدليـل » ، التى حدت بشدة من تبرير وجود الرقابة المستندة الى اللا شرعيـة واللا أخـلاق . فمن يدعى أنه صدم يشعر أن من حقه ــ يقينا ــ أن يصدق . فهل هنـاك سلطة أفضل يمكن أن توجد ؟ .

وليس لأحـد حق مطلق فى أن لا يصـدم . فأولا ــ ان أى انسان عرضة للصدمة أو للشعور بالقرف من أى شىء . وثانيا ــ فان الشعور بالصدمة هو أمر اختيار ــ جزئيا . فمن يقول : « لقد صدمت ، أو لقد أشعرتنى بالتقزز ، فان ما يقوم به ليس مجرد وصف لما حدث له ، ولكنه يعبر عن اتجاه (٥) عن موقف اجتمـاعى اتخذه ، قد يـكون اتصـاله

(٥) ان هذا هو ما يبرز ــ ان صح وجود أى شىء من هذا القبيل ــ الادعاء المضحك الذى يرد على لسان بعض المحامين ، الذين بلغوا منتصف العمر ، بأن الكتب التى يتهمون ناشريها ، قد أثارت اشمئزازهم .

بمشاعره تافها (سبارشوت ١٩٦٠ b) واذا وجد أى حق على الاطلاق ، سيكون هذا الحق هو حق مراعاة المعايير العامة • وكما قلت ، فلسوء الحظ ان هذه المسألة تختلف اختلافا بينا من حالة لأخرى ، وليس من السهل اخطار الرقباء اخطارا دقيقا ماهية المعايير السائدة فى أصعدة اجتماعية مختلفة ، ومن السهل تطبيق معايير عدم اللياقة • اذ يكفى فى هذه الحالة أن يرجع المرء الى مشاعر الأشخاص المناسبين للمقام ، وسيكون من الصعب تحديد أى المعايير هى الصحيحة •ومن جهة أخرى ، فان المعايير الأخلاقية — كما رأينا — أصعب فى التطبيق منها فى التحديد•

ولما كانت اللياقة تختلف باختلاف السياق الاجتماعى ، فلذا يتعين على من لايريدون التعرض للصدمة ، أن يبقوا بعيدا عن المقامات التى قد يتعرضون فيها للاضرار • فلا داعى مثلا لأن تتصنت الراهبات على ما يقال فى عنابر الثكنات العسكرية • ولو حدث ذلك ستكون هناك رقابة باسم اللياقة تصدم صدمات مختلفة فى مختلف الفنون • فما يعرض على الأذن العامة أو العين العامة عن طريق الاعلانات العامة أو الاذاعات العامة قد يتوقع أن يتوافق ومعايير أشد صرامة أكثر من الرأى القائل ان من حق الناس أن لايروا أو يسمعوا ما يعرض عليهم فى الكتب والمعارض ، وما أشبه ، مالم تك هذه هى رغبتهم ، والحق أنه ليس بمقدور انسان أن يرى كيف يستطاع اقامة دعوى لادانة مثل هذه الموضوعات باسم اللياقة • فما هو نوع الحساسيات التى سيعمل لها حساب ؟ ان العذراء التى تحمر وجنتها خفرا وحياء ، باستطاعتها أن ترمى الكتاب وتبعده جانبا (٦) • أما أولئك المقصودون بهذه الكتب والمعارض فلن يشعروا بأية صدمة من جراء ذلك ، لأن تقززهم ذاته سيكشف أنهم لم يحسنوا اختيار الكتب أو المعارض التى تناسبهم •

فاذا كان هناك عمل فنى يصدم الجميع ، فانه لن يحظى بأى اقبال من الجماهير • وهذا قد يدفعنا الى الظن بأن الحاجة لا تتطلب اطلاق اقامة رقابة مستندة على اللياقة • ان العقوبات الاجتماعية التى توقع فى حالة الشعور بالأضرار مباشرة ، فاذا أحدث اعلان سينمائى صدمة للرأى العام فان أحدا لن يذهب لمشاهدة الفيلم المعلن عنه • واذا أشعر أحد الكتب الجميع بالتقزز فبوسعنا الاطمئنان الى أن العديد من النسخ التى يصرح علنا بأنها تحتوى على مبتذلات ستباع على نطاق واسع ، لأن معايير

---

(٦) لاحظ Bernard Mandeville (١٩١٤) ص ٦٥ ، ص ٦٦ ، ان هذه العذراء ، لا يحتمل أن تحمر وجنتها الا اذا اكتشفت وهى تقرأ شيئا غير لائق •

اللياقة التي يتبعها الرســـميون لاتسود في شتى أرجـــاء المجتمع ٠ ولا يقتصر الأمر على وجود ميل عند الكثيرين الى الأدب المنحل ، ولكنهم لايرون مبررا يحول بينهم وبين اشباع هذا الميل ٠ ولما كان قد يبـدو غريبا استهجان ما لا يلحق ضررا عنـد أغلب النـاس بدعوى أنه مثير للتقزز ، فلا عجب اذا تخفي هـذا الاستهجان وراء ستار الاعتـــداء على الأخلاقيـــات ٠

في هذه النقطة ، قد يتوقع قيامي بشجب نفـاق العصر ، ولكنى لن أفعل ذلك !٠ ان مفهوم النفاق ينطبق على الأخلاقيات ٠ فقد يكون هناك انسان فاضل ، وان كان هذا الفضل ، لايبدو على وجهه ، وقد يلجأ انسان شرير الى بعض الرتوق تظاهرا بالفضل ٠ غير أن اللياقة من المسائل التى تخص بصفة كاملة مظهريات الأفعال ، ومن ثم فلا ينطبق عليها مفهـــوم النفاق ٠ فاذا بدا أحد الناس فى صورة من لايلحق ضررا بأحد ، فمعنى هذا أنه لا يلحق ضررا بأحد ٠ فلماذا اذن لا يتوافر للمجتمع معايير عامة لليـــاقة تختلف عن تلك المعايير ، التى يطبقها كل مواطن على مسلكه الشخصى ؟ ولن يختلف فى سخفه الاعلان عن الأفلام السينمائية القذرة عندما يعتمد على اعلانات محتشمة ، عن الاعلان عن أفلام سينمائية محتشمة باستعمال اعلانات قذرة ٠ واذا أقدم مجتمع ، عـرف عن أبنـائه الاقبال بشراهة على قراءة الكتب المنحلة ، على منع بيعها للكافة ، فان كل ما يعنيه هذا الاجـــراء هو أن هذا المجتمع يجمع فى ذوقه بين تذوق مثـــل هذه الأعمال وتذوق الاحتشام ٠

وعلى الرغم من أنه قد يبدو من الصعب الدفاع عن الحد العام من الليـــاقات الشخصية ، الا أنه ليس من السخف مطالبـــة الناس كافة بالالتزام بمعايير اللياقة ٠٠ وقد يتبين من الحاجة الى الارغام ، ان هنـاك اختـــلافا بين هذه المعايير العـــامة ، والمعايير التى يتبعها الأفراد بصفتهم الشخصية ٠ ولكن هل هذا التحكم أمـرا مرغـــوبا ؟ لعله من الخير أن يصدم أولئك الذين يقبلون الصدمات ٠ اذ قد يكون استعدادهم للشعور بالتقزز دليلا على تساهلهم الأخـــلاقى الذى يعد فى ذاته أمرا ضـارا ٠ غير أنه بمقدورنا أن نحاجى من الناحية الأخرى ونقول أن أفضل الناس وأكثرهم حساســية هم أولئك الذين يســـهل شعورهم بالتقزز ، وأنه من غير الأخلاقى ، ومن غير اللائق معا أن يحاط هؤلاء الناس بما يعتقدون أنه فظ ومنحط ، ولا يقتصر الأمر على ما يشعرون به من ضيق ، فأنت اذا ضايقت انسانا بلا مبرر كان هذا أمرا غير أخلاقى ٠ ولـــكن ما هو أدهى من درايتهم بذلك هو أن هذه الدراية قد تشعرهم بالاكتئاب ، الذى ربما دفعهم الى الاستسلام للشر ، وهل هناك ضرر لا يلحق بالشخص الذى

يتعرض التهديد مستمر بما اقتنع أنه أمر سيء ومنحط . على أن بمقدورنا أن نحاجى أيضا ونقول أنه من الواجب تقييد انتشـــار المادة غير اللائقة حتى بين من يرحبون بها على أساس أن الاقبال العـــام ليس دليـلا على الذوق العام . فبمقدور معظم الناس التفرقة بين نوازعهم الأسمى ونوازعهم الأحط ، وبينما قد ينغمسون فى هذه الأفعال المنحطة ، الا أنهم سيرحبون عن طيب خاطر اذا منعوا من الانغماس فى هذه الأفعال . ويتشابه موقف الرقيب باسم اللياقة فى علاقته والجمهور ، لا بعلاقة الأب بأبنـــائه ، وانما بوصفه ممثلا للجزء الحقيقى من نفس أى انسان ، فانه يمثل علاقة هذا الجزء بأجزائه المنحطة أو الفطرية ذاتهـــا . وهذه ليست حجـة سخيفة ، وان كانت غير شائعة ، انها الحجة التى تزعم أن معايير اللياقة لا تختلف الا فى كونها قد تتصف بالرخاوة أو الصرامة ، وان كانت القيود الصارمة هى الأفضل ، وهذان الافتراضان أو الزعمان مثار خلاف .

فاذا لم تك معايير اللياقة التى تفرضها الرقابة هى هى بالفعل تلك المعايير التى يقبلها أغلب الناس باسم احترام الآخرين ، وليست ما ثبت أنهـــا المعايير الأخلاقية عند النخبة ، فان ثمة سؤالا قد يثار : ومن هم أولئك النخبة ؟ وما الداعى الى فرض هذه المعايير ؟ وليس من شك أن هذه المعايير هى معايير الناجحين وأصحاب الخبرة والتجربة ، وتفرض هـذه المعايير ، باعتبار هذه الأفعـال فى حاجة الى القمع .. والناجح يمـــكن تعريفه بأنه انسان يميل الى انقاذ الناس من أنفسهم ، بأن ينتزع منهم القدرة على اصدار القرارات الأخلاقية والممثلة للحصافة ، ويجنح أصحاب النجومية الى الاتصاف بالتطفل الأخلاقى ، لأن الأساس الذى ترتكن عليه أفعالهم هو الاخفاق فى احترام الأوضاع الأخلاقية للأشخاص الآخرين . كما أنهم ينزعون الى عدم التفرقة بين اللا أخلاقيات وعدم اللياقة لنفس السبب ، أى أنهم يعتمدون على ميولهم كمعيار أوحد للخير والشر ، وثمة أعداد هائلة من هؤلاء النـــاس النشطين فى المجتمع ، والمغرمين بتأليف الجمعيات وكتابة العرائض للجهات الرسمية . ومن المحتمل أن تـكون بعض الرقابات قد أنشئت ليس لحماية الجمهـــور ، وانمـا لاخراس هؤلاء الثرثارين . ومن حسن الحظ أن هناك بعض أشياء مثل البطاقات البريدية البذيئة ، التى يمكن التعرف عليها بسهولة ، والتى لايحتمل أن

تحظى بالاحترام ، والخالية من أى مظاهر جمالية ، ولا يستبعد أن تنتشر مثل هذه الاشياء فى الخفــاء مثلما تذيع فى العلن · والحق أن القمع السافر قد يثلج صدور الموزعين ، لأنه يساعد على الحفــاظ على ارتفــاع أسعارها · وقد يساعد أى اختيار حسن للرقيب على تحقيق غاية نافعة ، اذا استطاع أن يحول جهـــود هؤلاء الثرثارين ، ضـد هذا الصنف من أكباش الفداء الثقافيين · ومع هذا فقد يعتقد أنه من الخطأ مهاودة هؤلاء الثرثارين ، وأخذهم على قدر عقولهم فى متـــل هذه المســائل الخاصة بالافساد الأخلاقى ·

أمثلة من المشكلات المعاصرة

• الفن والفن المنحل

ما وراء خوازيق النفـــايات : قضـــية الرقابة لوالتر بيرنز
(والتر فرد بيرنز (١٩١٩ ـ) أستاذ علم السياسة فى جامعة تورنتو بأونتاريو بكندا وكتب العديد من المقالات فى مجالات علم القانون والسياسة) ٠

تتماثل الدعوى ضد الرقابة والدعوى المؤيـدة لها فى ارتدادهما الى عهـد بعيد ٠ وخلافا لما يعتقد هذه الأيام ، فان الرقابة كانت من المهـام التى يعهد بهـــا الى رعاية الحكومة الديموقراطية الحكيمة ، ونهض بها رجال أذكياء ٠ على أنه بمقدار معرفتنا لها فى العصر الحالى ، فانها تبدو فى نظرنا ضارة ، أو منقطعة الصلة بأحوال التنور فى القرن العشرين ، فى أفضل الأحوال ، وتستند الرقابة على مبدأ يرى أن القوانين لايجب أن تقف مكتوفة اليدين أمام الطريقة الى يرفه بها الناس عن أنفسهم ، أو أمام ألوان الترفيه التى تقدم لهم ٠ فالغاية من الفن ، كما طرحهـــا الأديب المفكر الألمانى لسنج (من القرن الثامن عشر هى « المتعة » ٠ غير أن المتعة ليست بالشيء الذى لا غنى عنه ٠ أما نوع المتعة ، ومقدار ما يسمح به منها ، فأمران يعتمدان على ما يراه المشرع (١) » ٠ وتبـــدو مثل هذه النظرة ، وبخاصة فى مثل هذه الصورة الجازمة ، مفرطة فى روحهـــا الاسبرطية ، ومتعارضة فى نظرنا والحرية ٠ غير أن لسنج كان واحدا من أعظم عشاق الفن الذين تشبعوا به وكتبوا عنه ٠

(★) نقلا عن كتاب Censor and Freedom of Expression
مجموعة مقالات عن القانون والمبتذلات Walter Fred Berns

(١) Laocooen ـ تاليف Lessing الفصل الأول ص ١٠ ٠

ونحن نرجع الى الفنون (كالأدب والأفلام والمسرح والفنون والجرافيك) ــ وكانت هذه الفنون الأخيرة موضع عناية خاصة من لسنج ــ من أجل المتعة المستمدة منها . وللمتعة القدرة على تكوين أذواقنـــا ، وعلى التأثير فى حياتنا ، وحياة نوع الناس ، الذين سنصبح على شاكلتهم ، وعلى حياة أولئك الذين سنحيا بينهم بالتبعية ، فهل ينظر الى طريقـــة استمداد الناس متعهم من اداء واجبهم كمواطنين وآباء وأزواج ، أو مشاهدتهـــم لشرائعهم وعاداتهم وأنظمتهم عندما يسخر منها على المسرح كمسألة لاتثير الاهتمـــام سياسيا ؟ . أو اذا استغلت المعـــانى السامية فى استثـــارة المشاعر بعد الحط من شأنها ؟ . أو اذا صـــورت العلاقة بين الرجـــال والنساء تصويرا شهوانيا خاليا تماما من الحب ، بعد أن احتسبت بكل دقة وسائل القضاء على الحب ، وعلى أنظمة مثل نظـــام الأسرة ، الذى يستند الى الحب ؟ . أو اذا استعمل الكاتب الدرامى المتعـــة للربط بين الانســـان والجمـــال ، أو الربط بينـــه وبين القبح ؟ . ربما لا نكون قد اعتـــدنا التفكير فى هذه الجوانب على هذا النحـــو ، ولكن أليس من المستغرب أن يكون للمبتذلات ، التى يســـتمد كثيرون منا متعهتم هذه الأيام غرض سياسى صريح (٢) ، وقد يبدو أن أهل الأدب المنحل يعرفون بحدسهم ما نسيه الليبراليون من أمثال موريس ارنســت ، يعنى وجود علاقة عليه بين الكلمات أو الصور وبين السلوك الآدمى ، وعلى أية حال ، فأظنهم لاينتظرون قيام العلوم السلوكية بالكشف عن هذه الحقيقة .

وأحيانا يكون الغرض سياسيا مباشرا وسافرا ، وفى أحيان أخرى ، قد يكون هذا الغرض سياسيا ، بمعنى أن له عواقب سياسية مقصـــودة أو غير مقصودة . ويقصد بهذه العواقب غير المقصودة ، الآثار التى تدفعنا إلى الشعور بعدم الاستحياء . والظاهر أن هذه الغاية قد نجحت بسرعة مذهلة . فالأفعـــال التى كانت تقتصر فيما مضى على العـــالم الشخصى . Scene أو على عالم ما هو خـــارج المسرح العام Ob-Scene (كما يفهم من المعنى الفقهى لهذه الكلمة) قد أصبحت تعرض لنـــا لكى نتلذذ بها ونقلدها على مسرح الحياة أو المسرح العام . فلم يعـــد هنـــاك ادراك لأن ما يليق بمكان محدد ، قد يكون بعيدا عن اللياقة فى مكان آخر ، ومن هنا نستخلص أنه لم تعد هناك أفعال تثير الخجـــل . وحتى مشرعينا فانهم أصبحوا يجهرون بذلك الآن . فقد سئل القاضى دوجلاس بطريقة بعيدة عن الاخلاص نوعا فى قضية جينزبورج فقال : « مهما اتصف

---

(٢) فمثلا تعد مسرحية Che ! والمسرحية الغنائية Hair من المسرحيات السياسية. انظر أيضا الى الملحوظة الثالثة من هذا الفصل .

ذوقى بالعاميسة ، فمن أكون ، لكى أقرر ما يتعين أن يتصف به ذوق الآخرين ، أو أصفه بالقصور ، أو أذاكر أن ذوق الآخرين ليس له أهمية اجتماعية ؟ » • وكما نعرف فليس هناك أى حائل يحول دون استمتاع الكلب بعملية الاتصال الجنسى فى السوق ، ومن ثم فمن غير الطبيعى أن يحرم الانسان من الاستمتاع بنفس المتعة • ان هذه المحرمات لاتتعدى كونها تقاليد اجتماعية وضعها المنافقون لتحريم المتع البدنية ، وعلينا أن نتخلص من الـ "hangups" •

ولكن ما القول عكس ما ذكره فرويد ، وما يزعم بوجه عام ، بأن الخجل أمر طبيعى بالنسبة للانسان : بمعنى أنه من المستلزمات الأصيلة للوجود الانسانى ، أما عدم الشعور بالخجل فحالة غير طبيعية ، بمعنى أنها شىء مكتسب ؟ وما القول فى أن الجمال الذى بمقدورنا أن نعرفه ونحققه فى حياتنا ، وفى علاقة كل منا بالآخر ، مستمد من اتصاف الانسان بأنه كائن يشعر بالحياء ، وأنه الكائن الأوحد القادر على الاستحياء ؟ • تأمل حالة البصاص و « البصاصة » Voyeurism. وهى حالة سرعان ما تتوارد للخاطر فى هذه المناسبة • فبعضنا يشعر بعدم الارتياح عندما يشاهد آخرين على المسرح أو فى السينما ، وهم يمارسون أفعالا جنسية ، أو حتى أفعالا تمهد للعملية الجنسية ، مثل منظر امرأة تخلع ثيابها ، أو رجل يتهيأ للمضاجعة ، بل لقد عرفت بعض الطلبة ، الذين اعترفوا بذلك ، ان ما أحدث هذا الشعور بعدم الارتياح هو الحياء ، أو شىء قريب من الحياء ، حقا قد يكون هذا الشعور راجعا الى خشية اكتشاف فلان بأنه يستمتع بما لايزال المجتمع يراه غشنا ومحرما • ان « البصاص » الذى يشعر بالحياء بهذا المعنى يصدر حكما على نفسه بالرجوع الى تقاليد مجتمعه • وتبعا لما اعتاد المعلقون المحدثون قوله : كلما اتسعت الشقة التى تفصل بينه (البصاص) وبين مجتمعه فى المكان والزمان ، قل شعوره بهذا النوع من الحياء • ان هذا الحياء الذى يمكن أن يوصف بأنه اخفاء للحياء قد جاء من الخشية من اكتشاف الجماعة التى ينتمى اليها الفرد لما يفعله ، وقد تكون للجماعة مبرراتها لتحريم فعلته بالذات • ومن ثم فانها تدفع أولئك الذين يقترفون هذه الفعلة الى اخفائها ـ أو الشعور بالخجل من فعلها ـ غير أن لهذه المبررات ليس لها أدنى علاقة بطبيعة الانسان • « فالبصاصة » ، تبعا لهذه المنظورة ، لم تعتبر انحرافا ، الا لأن المجتمع يراها كذلك ، ومن يسترشد بالطبيعة وحدها لن يرى فى ذلك أى سبب يدعو الى الخجل •

وتمشيا مع ما تقول نظرة أخـــرى ، فان عدم الشعور بالخجل ـ كالبصاصة دون خجل ـ من المحتمل أن تتطلب تفسيرا · لأن البصاصة انحراف ، وهذا أمر طبيعي :

« ان كل من يحصـــل على الاشباع الجنسي عن طريق البحلقة في آخر ، يعيش دائما منفصلا عن الآخرين بفاصل ما · فلو كان من الطبيعي أن يقترب الانسان من قرينه ويتصل به ويتحد معه ، لذا سيصبح القول بأن البصاص سيتميز دائما بأنه سيظل دائما وحيـــدا بلا رفيق ، ومن الخوارج الذين يعملون خلسة في الخفاء · اذ يعد الابتعاد عندما تتطلب الضرورة الاقتراب ، من المفارقات المترتبـــة على انحراف هذه النوعية من الناس ، ونظرة البصاص هي ـ بطبيعة الحال ـ نظرة من طرف واحد الى شيء آخر · وبذلك تختلف عن النظرات المتبـــادلة بين المحبين ، مثلما يختلف الكشف الطبي على ضربات القلب عن الخفقان المصاحب للمسات ملاطفة المحبين (٣) » ·

وتبعـا لمثل هـذه النظـرة ، فان « البصـاصة » تعـد انحرافا ، لا باعتبارها متعارضة والتقاليد فحسب ، وانما لأنها متعارضة والطبيعة أيضا · ففي هذه الحالة ، تتبع التقاليد الطبيعة · فبينما يؤدي التجاذب الجنسي الى التقاء الرجل والمرأة سعيا وراء الاتحاد ، الذي يبلغ ذروته في الكائن الحي الذي يشتركان في خلقه ، فاننا نرى البصاص يحرص على حالة الانفصال · ولما كان الانفصال هو ما يحرص عليه ، لذا فانه لا يجري اتصالا · ولما كان ينظر ويتغزل فيما « موضعه » ، فان هذا يعني أنه قد صنع موضوعا منفصلا من شيء كان من الطبيعي أن يرتبط به ، وأدت هذه « الموضعة » الى عجزه عن الاتحاد به ، وعن الحب بالتبعية · وتعد الحاجة الى اخفاء البصاصة ـ أي اخفاء الشعور بالخجل ـ نتيجة للخجل الوقائي ، أي الخجل الذي يرغم المحبين على البحث عن الخصوصية ، وعن تجربة تتوفر لها الحمـاية من عيون الغرباء والفضـوليين · والغرباء يختلفون

(٣) Erwin W. Straus في كتاب Phenomenological Psychology (نيويورك ١٩٦٦) ص ٢١٩ ـ لست اشك اله بالاستطاعة وجود رغبة لمشاهدة الافعـال الجنسية ، وان لا يكون هناك ارتباط بين هذه الرغبة وبين ظاهرة البصاصة · فمثلما يحدث شغف لدى الطبيب بأجزاء الجسم ، ويوجد شغف عند الفلاسفة بالروحانيات ومكوناتها ، وبتنوعات الاشياء الانسانية ، التي تعد مظاهر للجسم والروح ، غير ان مثل هذه الجوانب لا تندرج تحت اسم « البصاصة » ، ولا تقترن بالشعور بالحياء ، اذ قد تتطلب الرغبة في الفهم ، من الباحث عندما ينظر او يشاهد ان يتغلب على الحياء » (الجمهورية لافلاطون) ، وعلى أية حال ، فان دور الفيلسوف بعيد الصلة سياسيا بما نتحدث عنه ، وبعيد الصلة استاطيقيا أيضا ·

اختلافا بعيدا عن حالة الوحدة التي يشترك في انشائها العاشقان المتحدان، عندما يتصلان جنسيا (٤) . وعندما يحدث شعور بالخجل ، فانه يساعد على تحقيق عملية الاخفاء والحماية . ويحمي العاشقين بالتبعية . وترادف الدولة التي تخلو من الحب ، أي التي تفتقر الى الحنان والمشاعر الأخاذة والشاعرية والجمال والمعاني الانسانية الفذة التي تعتمد على الحب وتستمد منه ، ترادف مثـل هذه الدولة التي تخلو من الحب حالة الوحشية غير الطبيعية (٥) .

واذا تحدثنا بلغة أقرب الى لغة السياسة قلنا أن مثل هذه الدولة ربما كانت مستحيلة ، الا في صورة غير مقبولة للأفراد ، فثمة ارتباط بين كبح الجماح والشعور بالخجل ، وهناك ارتباط أيضا بين الشعور بالخجل والحكم الذاتي ، والديموقراطية بالتبعية . ومن ثم يشتد الخطر اذا تفاقمت الصفاقة ، والاسراف في الانغماس في الشهوات ، والتعبير الأناني عن الذات . فالحياة المشتركة تتطلب أحكاما وتحكمات في المشاعر . وأولئك الذين يفتقرون الى الحياء ، من العسير حكمهم ، لأنهم يتحولون الى اناس غير قابلين للحكم . فبعد أن يفقدوا القدرة على كبح جماح أنفسهم اعتمادا على طاعة القوانين والقواعد التي وضعوها جماعيا لأنفسهم ، فانهم سيضطرون الى الخضوع لحكم الآخرين . والطغيان هو صورة الحكم عندما يتولاه أحـد الضعفاء المفتونين بأنفسهم من أولئك الذين اندفعوا في تيار الحرية بلا جامح طبيعي أو تقليدي .

كانت هذه هي الحجة التي كانت تساق قبـل القرن العشرين ، عندما فهم بوجه عام أن الديموقراطية تحتاج أكثر من أي شكل آخر من أشكال الحكم الى القدرة الذاتية على كبح الجماح ، التي تغرسها التربيـة السلوكية في نفوس الأشخاص ، والتي تفرضها الدولة بوساطة القوانين، بما في ذلك القوانين التي تتحكم في وسائل الترفيه العام . والطاغية هو

---

(٤) Strauss — ص ٢٢١ .

(٥) ليس من الصعب اثبات أن الحياء لا يعتبر وحده المبدأ الوحيد الذي يتحكم في مسألة ما يليق عرضه على المسرح ، فالحياء غير قادر — على سبيل المثال — على التحكم في حالة كالمشهد الذي يعرض جماعا بين زوجين متحابين ، يحب كل منهمـا الآخر ، حقـا ان هذه حالة بعيدة عن الشين في ذاتها ، وان كان لا يصح أن تعرض على المتفرجين . والمبدأ هنا كما أرى مبدأ استاطيقي ، لأن هذا المشهد ضعيف دراميا ، لأن استجابة المشاهدين له ، ستكون من باب النزوة ، وليس من قبيل التعاطف على ما يقصد المشهد تصويره ، أي حالة حب جميلة . وبالاستطاعة اختبار هذا الحكم ، اذا حضرنا عرضا سينمائيا في احدى المدن الجامعية . ولقد أيد ذلك دوز قصد أحد المشاهدين عن مشاهد العرى على المسرح — انظر ملحوظة ١٢ .

الذي يسمح عادة للشعب بالانغماس في الملذات ، والانغماس من النوع الذي لا نشهده لا يهدد حكمه ، لأن حكمه لا يعتمد على المواطنة الحميدة السلوك • وبالمقدور حكم الطاغية لأي انسان • وكلما زادت حطة رعاياه ازداد أمن حكمه (٦) ، وبالإستطاعة تقدير حالة الحرية الكاملة للفنون عند مثل هذه الشعوب ، التي تستمد متعها من أفعال منفصلة عن أعمالهم وواجباتهم المرتبطة بمواطنتهم • ومن بين هذه الفنون ، المسرح – مثلا – الذي يمكن أن يوجه نحو البحث عن المتعة بصرف أنظار المواطنين عما يراه الطاغية اتجاها أخطر أو أشد اضرارا •

لم تك مثل هذه الحجة غير معروفة بين أهل الفكر في الوقت الذي أنشئت فيه الأنظمة الديموقراطية الحديثة • فبالمقدور مصادفتها في كتاب جان جاك روسو : « رسالة الى المسيو دالمبير عن المسرح » ، وقد عرف ما ورد فيها من مبادىء واشنطن وجيفرسون • ولا ننسى المناهضين للفيدرالية ، ولينكولن في آخر المطاف • فلقد أصروا جميعا على القول بأن الديموقراطية لن تعمل بغير مواطنين ذوي سلوك حميـد ، وحتى العهد الحديث ، لم يتشكك أي قاض من قضاة المحكمة العليا أو أي انسان في الحياة العامة من ضرورة القيام بجهد متواضع من أجل القانون للنهوض بهذا السلوك الحميد حتى لو اقتصر ذلك على حماية جهود الهيئات الأخرى مثل الكنيسة والأسرة ، عن طريق الارتقاء بها وصونها • ولقد أقيم نظام الرقابة بقصد تحقيق الخير السياسي ، وكان أهم أسسه هو الاعتقاد بأن ما يحقق خيرا للفنون والعلوم ، لا يلزم أن يفيد الدولة •

ولم يك هناك أي توهم بأن قوانين الرقابة ستكون سهلة التنفيذ - كما كان هناك اعتراف بالخطر الذي تمثله ، وأحد الأخطار الواضحة هو مبالغة المشرعين في مطـالبهم ، وأن أمثـــال المصلح الأمريكي أنطوني

---

(٦) لا يشجع الطاغية في العصر الحديث السلبية عند رعاياه ، وعلى عكس ذلك فهو يتوقع إن يكونوا مشبعين بروح الخدمة العامة ، اي يعملوا ، وان يتفوقوا في الانتاج ، وأن يعملوا كمواطنين في الجندية ، في جيوش ضخمة ، وان يحبوا الأخ الأكبر • وكانوا في ألمانيا النازية والاتحاد السوفيتي لا يشجعون الحياة الخاصة ، وكذلك الحب الجنسي ، وما يترتب عليه من تعلقات شخصية • والرقابة في الدولة المستبدة الحديثة مصممة ، بحيث تلغى الحياة الشخصية بقدر الامكان ، ولقد أدرك جورج أورويل هذه الحقيقة على خير وجه • والرقابة التي تميزت بها الأنظمة الطغيانية الحديثة ، وفرقت بينها وبين الانظمـــة الطغيانية التي سبقت العصر الحديث تفرقة حادة مستمدة من أسس الحكم الطغياني الحديث ، وللنازية والشيوعية جذور عميقة تمتد في عالم النظريات ، أو نوع النظريات اليوتوبية – لو توخينا الدقة • والطاغية الحديث يرى نفسه فيلسوفا سياسيا وخليفة لنيتشه او ماركس ، ويتصور أن له رسالة تاريخية يؤديها • انه لا يستطيع ترك رعاياه في حالهم •

كونيستوك ، والموجودين على الدوام ، سيكونون من زبائن هذا القانون ، ولن يكتفوا بالاحتشام ، وانما سيطالبون بالقداسة والقدسية ٠٠ ولقد سبق أن طرح المؤرخ الانجليزى ماكولى المشكلة فى مقال عن كوميديا عهد الاستعادة (*) (التى تعد معتدلة نسبيا بالمقارنة بما يعرض بانتظام هذه الأيام) ، وفى الحق يجب الاعتراف ، انصافا للكتاب الذين تحدثنا عنهم بقسوة على هذا الوجه أنهم كانوا الى حد كبير أبناء لعصورهم ، لو سئلنا لماذا شجع هذا العصر اللا أخلاق التى ما كان ليحتملها أى عصر آخر ، فاننا لن نتردد فى الاجابة عن ذلك بأن الحرمان من الذوق القومى كان من آثار شيوع البيورتانية فى الدولة ٠

وليس من شك أن عقوبة الاعتداءات العامة على الأخلاق والدين مسألة تقع فى نطاق سلطة الحاكم ٠ ولكن عندما تطالب أية حكومة غير قانعة بالاحتشام بالقداسة ، فانها تكون قد تجاوزت الحدود التى تحدد مهامها الحقة ٠ ومن المقدور طرح القاعدة القائلة بأن الحكومة التى تحاول القيام بما هو أكثر من واجبها ، لا تنجز الا الأقل ، كقاعدة كلية ٠٠ ومن ثم فان أية حكومة لا تقنع بقمع المبالغات الفاضحة ، فانها تطالب رعاياها بالتقوى والجدية والحماسة ، ولكنها سرعان ما تكتشف أنها قد حاولت تقديم خدمة مستحيلة لقضية الفضيلة ، ويكون كل ما حققته فى الحق هو زيادة الرذيلة ٠

وقد ثبتت هذه الحقيقة ثبوتا كافيا فى الولايات المتحدة فى عصر التحريم (فى أواخر العشرينات) عندما حدثت محاولة للارغام على الزهد ، وليس الى التعفف ، كما أوحى عكس ذلك ٠ وبعبارة أخرى ، يجب أن لا يسعى المبدأ لمحاولة محو الرذيلة ــ اذ أن الوسائل القادرة على تحقيق ذلك من الصعب تصور توافقها وأية حكومة حرة ــ وانما لتصعيبها ، بعد ادراك أنها ستستمر فى الازدهار فى صورة مستترة ، دون أن تظهر سافرة ، ولقد ساد الاعتقاد أن هذا الحل سيكون هاما ٠

ويتوجب أن يكون واضحا أن هذه الحالة القديمة ، والتى نسيت الى حد كبير ــ عن الرقابة قد أنشأها نفر لم يكونوا منعدمى الاحساس بجمال الفنون ، والدور الفعلى الذى بمقدورها أن تقوم به فى حياة البشر ، ولقد اعترف روسو بأنه لم يتخلف ــ راضيا ــ عن أى حفل عرضت فيه روايات موليير ٠ وكان يفعل ذلك ، وهو يدعو فى نفس الوقت الى وجوب

(*) عهد الاستعادة Restoration تطلق هذا الاسم على العهد الذى عاد فيه الملك شارل الثانى لحكم انجلترا ١٦٦٠ بعد فترة الجمهورية القصيرة التى شهدتها انجلترا فى عهد كرومويل ٠

الخلاص من جميع العروض المسرحية في أية دولة تحكم نفسها ، وتشبه روسو بأفلاطون فطالب باقصاء الشعراء ، وان كان هو نفسه من الشعراء ، كما كان موسيقيا ومؤلفا للأوبرا وقصاصا ، وكشف عن عشقه ومعرفته للشعر ، أو للفنون — كما نقول — في أعماله وحياته ، على أن روسو كان مفكرا من أسمى مقام ، ومن ثم فلقد عرف أن المقدمة المنطقية الأساسية الليبرالية التي أتت فيما بعد زائفة • وبعد ذلك بقرن من الزمان ، عجز جون ستيوارت ميل عن تصور الصراع بين المطالب الجوهرية ، والمشروعة بالتبعية ، للدولة • واعترض روسو على ما يقال عن نزوع حركة الاستعادة في الفنون والعلوم الى تطهير الأخلاق ، ولكنه رأى أن هذه الاستعادة ، وما يتبعها من ترويج فني قد تؤدي الى القضاء على امكانية ظهور المجتمع الأهلي الخير • وغضب معاصروه وصدموا من هـذه التعاليم ، واستبعدوا روسو من مجتمعهم • ولو أنهم هم الذين قاموا بتعليمنا ، واشترك معهم في ذلك بطريقة مباشرة ، « ميل » وأتباعه (من أمثال القاضي دوجلاس) لما كان من المستبعد أن تستبعد هذه التعاليم ، باعتبارها تعاليم مجاذيب أو معتوهين • ومع هذا ، فهل نحن ما زلنا على استعداد للوقوف الى جانب ميل وأسلافه ضـد روسو ، وأن نقول أن ما هو خـير للعلم ، سيكون بالضرورة خيرا للمجتمع الأهلي ؟ ، أم أن هناك أحداثا وأحوالا فظيعة قد جعلتنا مهيئين لاعادة النظـر في هذه القضية ؟ ولو كان ذلك كذلك — خصوصا وعلى ضوء أحداث أدبية ومسرحيـة بالذات — فاننا قد نكون مستعدين لاعادة النظر في هل ما يعد خـيرا للفنون ، سيكون بالضرورة خيرا للمجتمع الأهلي •

ومن الناحية العملية ، لقد تصرف الرقباء بدافع الاهتمام غير المتحذلق من أجل الأخلاق العامة ، دون اهتمام بالفنون ، ودون تقدير لـما يتعين التضحية به ، لو أريد اتباع سياستهم ، ولقد قاومهم خصومهم مدفوعين باهتمام مزيف بحرية التعبير ، ولكن بغير عناية بأثر ذلك على الأخلاق العامة، ولربما بدا أن العناية بالأخلاق العامة تتطلب الرقابة ، بينما يحتاج الاهتمام بالفنون الى الخلاص من الرقابة • ويصح اعتبار القانون الذي وضعته محاكمنا محاولة لتجنب الوقوع في هذا المأزق ، عندما أنكرت وجود الرقابة • ولكن ما هي النتائج التي نجمت عن ذلك ؟ لقد تنبأ روسو بأن الأمر لن يقتصر على حدوث فساد في الأخلاق العامة ، وانما سيحدث أيضا تدهور في الفنون • وقد تبدو الدعوى التي أقامها ضد الرقابة — للوهلة الأولى فقط — قد اعتمدت اعتمادا كليا على نظرة تحرص على حماية النظام السياسي بسلاطته ووقاره من الفساد ، الذي قد يحدثه الأدب والمسرح • والحق، أنها كانت أيضا دعوى تهدف الى منع فساد الفنـــون ذاتها ، لأن

رواجها الشعبى سيؤدى الى تدهورها · وربما عنى انكار التوتر القائم بين السياسة والفنون افتراض عدم حاجة الرعية الى الحكم ، وأنه بالاستطاعة تجاهل القانون ، لما ينتجه الكتاب والمسرحيون ، على نحو مماثل لما حدث عندما قيل يوما ما عن أن انتاج السلع الاقتصادية والخدمات الاقتصادية ، ليس من المهام التى تخص المشرعين واهل القانون ، وسيسمح للسوق الحر بالعمل ، وسيترتب على ذلك ترك الحكم على ما ينشر من كتب وما يمثل على المسرح للأذواق العاملة فى هذا السوق ، الذى سيتخذ فى النظام الديموقراطى شكل سوق الجملة · وسيتوقف القانون عن محاولة التأثير على هذا السوق · وبعد انكار وجود فوارق بين ما هو ليس مبتذل وبين ما هو مبتذل ، سينتهى الأمر الى انكار وجود اختلاف بين الفن والهراء ، وكان هذا هو ما حدث · فلقد رأينا القاضى دوجلاس يقول : « ان المثل الأعلى للمجتمع الحر ، كما ورد فى دستورنا ··· هو اعتبار الناس على قدر كاف من النضج ، بحيث يكون باستطاعتهم التعرف على الهراء عندما يرونه » · كما أخبرنا أيضا أن أى انسان يتصف بالنضج أو بعدم النضج بوسعه تحديد الاختلاف بين الفن والهراء ، وثمة بعض يفضلون شوبان وآخرون يؤثرون « الروك والرول » · البعض يتميزون بأنهم أسوياء ، وبعض آخر ماسوخيون ، وبعض ثالث منحرفون فى نواح أخرى ·· ولكن هل هناك ما يبرر حرمان هؤلاء الناس من حرية الرأى والتعبير والكتابة ؟ وعندما تتحدث المحكمة العليا الآن عن « القيم الاجتماعية » ، فهل هى تعنى بذلك القيم الخاصة بالأغلبية ؟ فاذا (كان النشر يعترف بالأمزجة الشخصية للأقليات ، وبزودها بالمطبوعات التى تروقها ، فما الذى حال دون تمتعها بأية أهمية اجتماعية » (٧) · ويجاب عن سؤال هل هناك « أهمية اجتماعية » لما ينشر ، بالقول وهل يوجد أحد يرغب فى قراءة مثل هذه الكتب المنشورة ، وهو ما يعنى أن أية كتب قد يكون لها « أهمية اجتماعية » ان جميع الأشياء تخضع للأمزجة الشخصية · فبعض يحب شوبان ، وبعض ما يحب « روك ورول ، وبعض من الأسوياء وبعض آخر من الماسوخيين أو المنحرفين · وليس من شك أن هذه الأقوال قد جعلت مهمة الارتقاء من طبقة الى طبقة أسمى ، حتى نصل فى النهاية الى « عالم المثل الخالدة » هراء ، لأنه اذا صبح أن كل شىء يتمتع بالقيمة ، واذا لم يك هناك معيار للحكم على الأشياء تبعا لذلك ، فى هذه الحالة ، لن يوجد أعلى وأوطى ، ولن توجد طبقة أسمى من الأخرى ، ولن يوجد فارق بين الفن

---

(٧) Ginzburg يواجه الولايات المتحدة ، فى كتاب بعنوان Dissenting Opinion (١٩٦٦) ص ٤٦٣ ـ و ٤٨٩ ـ ٩٥٠ ·

والهراء ، ولن توجد مشكلة ، بطبيعة الحال ، ولقد أصبح الفن يعرف الآن تبعاً لمثل هذه المعايير « بأنه شيء فهم اجتماعيا » وقام القاضى دوجلاس بدوره بتعريفه بأنه كل شيء يقبل التذوق .

حقا ان دوجلاس ينفرد برأيه الدارج . من بين أعضـــاء المحكمة العليا . غير ان اقرانه لم يتخلفوا عنه كثيرا فى رايهم فى هذه القضية الحيوية . فمن حيث المبدأ ، انهم يعترفون بمقولة المنشورات والمنتجات الهامة » . اجتماعيا . غير أنهم لا يعتمدون على أية أحكام متعالمة لتعريفها . انهم يكتفون بقبول الحكم الذى يصدره أى متهته يرغب فى الشهادة .. وهو ما يساوى تحويل سوق الجملة الى احدى قاعات المحكمة . ولقـد وصفت رواية فانى هيل فى شهادة لأحـد الوقورين بأنهـا ذات أهميـة اجتماعية . ثم نقح هذا القول فذكر ان لها « ميزة أدبية » و « قيمـة تاريخية » ، على غرار ما يدرس فى الفصول الدراسية ومنابر الكنائس . كما جاء فى كلام دوجلاس . وتحدث عنها شاهد آخر من أصحاب الخبرة فوصفها « بأنها عمل فنى يدعو الى التجاوب الأدبى الجديرة به » . وقيل عن اسلوبها أنه ادبى ، كما وصفت شخصيتها المحورية بأنها الى جانب كونها مومسا فانها من « صاحبات الثقافة الرفيعة » ، ويحتمل أن يفهم من ذلك أن هذا كان أعظم ثناء كان فى جعبة هؤلاء الخبراء . وقيل للمحكمة فيما بعد أن المثقف هو انسان شديد التلهف للتعرف الى الحياة ، ويسعى ... لتسجيل تفاصيل الحياة الخارجية بكل دقة . وفى حالة فانى ، تعد كلمة التفاصيل الخارجية مرادفة لأحاسيسها الشهوانية .

وعنـدما توضع الرقابة بحكم الضرورة العـامة ، حفاظا على ضرورة التفرقة بين ما يخلو من الابتذال والمبتذل ، فانها تحقق أثرا ثانويا هـو تقديم بعض العون للتفرقة بين الفن والهراء ، وكحد أدنى ، فانها تتطلب حكما يفرق بين المناسب وغير المناسب ، ويفرق بين اللائق وغير اللائق ، يعنى حكما يحدد ما هو جدير بالاستمتاع به ، وما هو غير جدير بذلك . وسيكون لهذه الغاية — على أقل تقدير — أثر على تدعيم ما يقال عن وجود تفرقة يجب أن يلتفت اليها ، وأن هـذه التفرقة هامة . وينكر القـانون هذا الاتجاه ، كما بدا فى قرار قضاة محكمتنا العليا فى صورة سافرة عند القاضى دوجلاس ، وفى صورة مستترة فى حالة زمـلائه الذين يمثلـون أغلبية المحكمة .. وهكذا يكون القانون بمعناه الصحيح قد تنحى وترك الأمر « لسوق الجملة » باسم التحرر . ولم يكن الدافع وراء ذلك هـو الاعتقاد بأن السـوق الحر له آليات تدفعـه الى تحقيق نتيجة معينة (كالرخاء المادى الذى ينشده نظام Laissez-faire الاقتصادى) وانما

لأنه لا ينسب أية أهميـة للقرارات التي يتخذها السوق · ولأن تحويل الفنون الى فنـون جمـاهيرية لن يؤدى الى انحطاطها ، فليس هنـاك شيء يسمى الانحطاط يعترف به ·

ولم تتفق جريدة النيويورك تايمس مع مثل هذه النظرة عندمـا طالبت « بأحكام نقدية بعيدة عن البساطة » لانقاذنا من خازوق القاذورات والنفايات التي تحتسب ضمن الفن هذه الأيام ، على أن من طالبوا بالأحكام النقديه البعيدة عن البساطة ، قد أثنوا فى الصفحات المخصصة للدرامـا والكتب في هذه الصحف على نفس الكتب التي استنكروا ما جاء بها في المقالات الأخرى · بالاضافة الى أن الكثير مما فى السوق لا يعبر عن معنى « الاحكام النقدية البعيدة ، عن البساطه » · ويؤيد ذلك ما جاء بجريدة النيويورك تايمس نفسها بعد ذلك بشهور قليلة في الصفحة الأولى من القسم المخصص للدراما فى عدد يوم الأحد : « مازال لا أحد يعـرف حتى الآن كيفية التحكم في مشاهد العرى ، وهل لها ضرورة عند اخراج المسرحيات ، وان كان المخرجون يشجعون على ذلك ، على أى نحو كان · واذا تساءلت عن السبب كان تفسير ذلك ــ كما أعتقد ــ واضحا : الجنس دائما يحقق نتائج طيبة لصالح شباك التذاكر (٨) » · تمام والله تمام · اذ كان القانون ــ لا النقاد ــ هو الذى استبقى عروض (الاستربتيز) وال Skin Flick في المسارح غير المشروعة · ومن الحمق أن يعتقد ــ أو يخطر بالبال ــ أن النقاد وحدهم قادرون على اقتصار مثل هذه العروض على تلك المسارح غير المشروعة ، ومنع امتدادها الى المسرح الشرعى أيضا · لقـد أمكن اصطياد هذا الغول ، كما كان لينكولن سيقول · أما ما بقى دون اجابة فهو هل بمقدور « الأحكام النقدية البعيدة عن البساطة » أن تحافظ على الأذواق الفنية في جزء آخر من نفس المسرح ، وهل سيبقى أى حكم نقدى بعيد عن البساطة ، والتساؤل في هذا الشأن يعني الارتياب فى امكان تهذيب الذوق العام ــ أو جزء منه على أقل تقدير ــ وامكان تهذيبه دون عون من القانون · وهذه مسألة قديمة يدفعنا التساؤل بشأنها الى الرجوع الى المشادة التى نشبت بين روسو وفولتير وعصر التنوير ، والى توكفيل وجون ستوارت ميـل ، أو باختصـار ، الى بداية الديموقراطية

---

(٨) جريدة نيويورك تايمس عدد ١٨ يناير ١٩٧٠ ــ المفروض أن مارتين جوتفريد من أتباع فكرة الحكم النقدى البعيد عن البساطة ، وقد كتب مقالا فى التايمس يدافع فيه عن المسرحيه الغنائية ! che ومسرحيات أخرى من هذا القبيل ، وأنهى كلامه بدفاع بعيد عن البساطة عن الشذوذ الجنسى ، ولم يترك أى شيء ــ على ما يبدو ــ للخيال ، والمبدأ الذى يتبعه هو عدم ترك أى مشهد يمثل ذروة أحداث الرواية يدور خارج المسرح ·· » ·

الحديثة ، عندما تناولت الفلسفة السياسية المسألة بطريقة منهجية ، علمية وموضوعية ٠

ومبدأ الديموقراطية الحديثة هو المساواة الطبيعية لجميع البشر ، وتستند المشكلة على البحث عن طريق للحيلولة دون تحول هذا المبدأ الى مبدأ يسود كل شيء ، وللحيلولة دون سيطرته على العلوم والفنون ذاتها ، واذا عبرنا عن ذلك على نحو آخر قلنا أن المشكلة هي البحث عن بديل للطبقة الأرستقراطية التي قامت فيما مضى برعاية الفنون والعلوم ، من الرأى العام ٠ وفي أغلب الظن ، فان المبدأ الدستورى الذى ينص على حرية الرأى والصحافة قادر على حماية هذه الفنون والعلوم من الأهواء السياسية المعادية ٠ غير أنه ليس باستطاعة مثل هذه الوسيلة الدستورية حمايتها من الخطر الأفدح من ذلك ، يعنى من فساد الرأى العام ، عندما يدفع الى الاسهام فى الذوق العام ، والنهوض بالمسائل العامة تبعا للمعايير الجماهيرية ٠ ووضع نفر من الناس آمالهم فى حل وحيد هو الجامعة الحديثة ، باعتبارها كما كتب آلان بلوم حديثا « ستصبح مركزا للتأمل والتعليم مستقلا عن النظام العام ، والتأثير النفاذ لمبادئه ، ومتحررا من التأثير الكاسح للرأى العام فى مظاهره الفجة ، والشديدة التأثير ، على أن يكرس نفسه للبحث المنزه عن الهوى عن الحقائق الهامة والشاملة (٩) » ٠ وباستطاعة حقوق الملكية والحرية الأكاديمية أن تحمى أساتذة الفنون والعلوم ، وسيتسنى للطلبة أن يتعلموا مبادىء الفنون والعلوم ، على النحو الذى يساعد على ارتقاء اذواقهم ٠ ويتعين تربية الذوق العام والقدرة على تذوق الفنون فى الجامعات ، ولولا ذلك ، لتردت الفنون وخضعت للأذواق الدارجة وانتهى الأمر بتدهورها ٠

على أن الخبراء المزعومين الذين شهدوا فى قضايا الابتذال قد وفدوا من الجامعة ٠ اذ كان المدافعون عن رواية فانى هيل من أساتذة الجامعة ، وليسوا بأى حال من خريجى أية معاهد متواضعة ٠ ويعنى الاعتماد على الأساتذة فى التزويد بأحكام نقدية مزيفة ، أو فى تهذيب « سوق الجملة » ، أو أى جانب منه ، تجاهل ما يجرى فى الجامعات ٠ ومنذ سنوات مضت ، دفعت جامعة كورنيل ثمانمائة دولارا لشخص نظير توليه قيادة الأوركسترا ، أو ربما لوضع التوزيع الأوركسترالى ، أو لعلهم قد عهدوا اليه بتأليف مقطوعة موسيقية ــ لست أدرى ــ لحفل أقيم فى الحرم الجامعى كجانب

(٩) The Democratization of the University. ضمن مجموعة مقالات بعنوان How Democratic is America ? (شيكاجو ١٩٧١) ٠

من مهرجان للفن المعاصر ، واشتمل هذا الحدث على ما يأتي : الايعاز الى جماعة من الطلبة بالتوجه الى سوق الكانتو بالمدينة لانتقاء بعض الخيش المقطرن المتخلف من السيارات القديمة . ثم قام الطلبة بوضع مئات من الكيلو جرامات من مربى الفراولة ، ودهنوا بها الخيش المقطرن ، ثم خلع الفتيان أقمصتهم وخلعت الفتيات بلوزاتهن ، ورقص الجميع حول أكداس الخيش ، وكانوا يتوقفون بين الفينة والأخرى للعق المربى ، ووفقا لمعايير ١٩٧٠ فان هذا العمل لا يعد أمرا مستهجنا ، ولكنه في الحق يدل على قدر كبير من الحماقة يذكرنا بما كان يفعله كثيرون من تلامذة المدارس الثانوية في سالف العصر والأوان ، عندما كانوا يرتكبون أعمالا بلهاء . وما يفرق بين هذه الفعلة وبين عملية ابتلاع الأسماك وال (Pany) هو أنها تتم تحت رعاية المسئولين في الجامعة بمعاونة الأساتذة ومشاركتهم .

ولا تزيد الدعوة الى « الحكم النقدى البعيد عن البساطة » عن نوع الدعوى العامة للتربية التي اعتاد دعاة الحرية عرضها كبديل لسياسة تحريم الكلام ، أو توقيع عقوبه على من يجاهرون برايهم ، انه بديل جذاب ، وترجع جاذبيته الى توافقه والمبادىء الليبرالية ، وأيضا لتفاديه الصعوبات التي تصحب صعوبات تطبيق سياسة الرقابة . ولسوء الحظ ، فانه في المناخ الثقافي الراهن ، يكاد يكون التعليم والتهذيب في هذا المجال مستحيلا . تأمل مثلا حالة الأب الذي يرغب في اقناع أطفاله بعدم لياقة استعمال الفعل الإنجليزى المؤلف من أربعة حروف بمعنى « يجامع » . وفي الوقت الحالي ، فان المهمة التي ستواجهه أقل فظاعة من مهمة الأب الذى يرغب في تعليم أبنائه أن الأرض مسطحة وليست كروية . فكى يضطر الأب الثاني الى البحث عن عدد كبير من الأدلة العلمية التي تثبت العكس ، فان الأب يتعين عليه أن يتغلب على الاستعمالات الشائعة ، للكلمة ، وما تحدثه من تعارض وأصول اللياقة . فحتى عهد قريب كانت اللياقة تقتضى استعمال « عبارة سيجرى الحب للتعبير عن الجماع » (١٠) . وكان هذا التعبير الرقيق لا يخلو من هدف جليل ، اذ قصد بذلك تذكرتنا — أو تعليمنا بمعنى أصح — أن عملية الجماع الآدمي تتميز بمشاعر تعجز عن التعبير عنها باقى الحيوانات . أما الآن فقد أصبح الفعل المؤلف من أربعة حروف fuck يستعمل على المكشوف ، وبطريقة ، صفيقة ، وبغير شعور بعدم لياقته . في هذه الحالة سيخفق أى أب في محاولته التعليمية ،

---

(١٠) وأما أن هذا الاجراء ليس وفقا على النزعات التطهيرية الانجليزية أو الأمريكية متأثرين من وجود تعبيرات في اللغات الاوربية الاخرى ، فمثلا يقال في اللغة الفرنسية : Faire l'amour ، ويقال فى الايطالية Fare all'amore . وكذلك يقال في اللغة الالمانية رغم تعنتها mit einem liebln

لانه سيكتفي بجهوده الخاصة ، ولأنه يحاول أن يعلم دروسا لم يعد المجتمع يرغب فى تعلمه عن أى طريق ، سواء أكان هذا الطريق هو القــانون أو اللغة أو المدارس ، خصوصا المدارس ، وعندما لم تعثر جامعة كاليفورنيا فى بركلى عن أى سبب للوم الطلبة الذين كانت حرية القول فى نظرهم تعنى التهديد بنشر هذا الفعل المؤلف من أربعة حروف فى منشوراتهم ، فان الأمر لم يقتصر على اعترافها شرعا بما هو غير مشروع ، ولكنها أعلنت أنه من الآن فصاعدا ، فانها لن تحــاول تعليم طلبتها أى شيء يتعــارض وأهوائهم ، (جنسية أو سياسية) أو تتعلق بادمان المخدرات ، أو تمس النواحى الفسيولوجية ، وما أصبح حقيقة واقعة اذن فى مدينة بركلى قد أصبح حقيقــة واقعة بوجه عام • فلم يعــد لدى الأساتذة أى شيء يدرسونه لطلبتهم • وانضم الصغار الى الطلبة ، وأصــبحوا يشاركونهم فى ذوقهم وفى أهــوائهم الســياسية (١١) • ويلتزم العــواجيز بالصمت • وباختصار لقــد اشترك الجميع فى عملية التنازل للطلبة عن سلطتهم فى ادارة الكلية ، وفى التدخل فيما يكتبون على الجدران ، واقتراح مناهج الدراسة ، بل وحتى فى حقهم فى تعليمهم • وحل محل الحكم النقدى « الحق فى فعل ما بدا لهم » ، الذى كان القاضى دوجلاس يتحدث عنه ، ولمــا كانت الأمور قد وصلت الى هذا الحد ، لذا فمن المشكوك فيه أن نقول أى شيء عن هل بمقدور الجامعات أن تعلم أو تهذب أذواق الكافة • واذا لم يتحقق ذلك فى الجامعة ، فأين يا ترى سيتم ذلك ، أين يمكن العثور على مأوى للفنون وسط هذا الابتذال وهذا الصخب الذى لا ينقطع ، والذى ينادى بحق كل شــخص فى القيــام بما بدا له • وليس بالاســتطاعة الاهتداء الى أى حكم نقدى بعيد عن البساطة بغير ذلك •

ان من يتصدى للدفاع عن الرقابة باسم الفنون مضطر الى الاعتراف بأنه بعد أن أكمل دفاعه ، قد تبين عــدم استيعابه للموضــوع • والشيء الناقص هو الدفاع عن الابتذال • نعم ان ما ينقص هو الدفاع عن الابتذال

---

(١١) فى عدد من الجامعات ، يسمح للطلبة بالحصول على مكافآت تدريس نظير اعطائهم دروسا تعليمية لأنفسهم • فلا عجب اذا رأينا نزوع جامعة كورنيل الى تطبيق هذه القاعدة ، والمغالاة فى ذلك الى حد السخف ، ففى مايو ١٩٧٠ ، اقترعت لجنة السياسة التعليمية فى كلية الفنون والعلوم بنسبة ٥ : ٢ لمنح « ثلاث مكافآت لعشرة طلاب لأنهم قاموا بتعليم أنفسهم دروسا فى أدب الأطفال ، ولم تتضمن هذه الدروس Alice in Wonderland فقط ، ولكنها تضمنت أيضا Now, Where the wild things are, Pinocchio we are six وزعم الطلبة أنهم لم يقرأوا الكتب قبل اعطائهم هذه الدروس • والعبرة الكامنة فى هذا الكلام هو أن من بين واجبات الجامعة علاج أوجه النقص فى التعليم فى دور الحضانة • وكما جاء فى تقرير واحد من الاثنين من المعارضين الى مجلس الكلية • « أما مسألة هل قرئت الكتب للطلبة ؟ أم أنها لم تقرأ فانها غير واضحة » ، مجلة أخبار جامعة كورنيل فى ٤ يونيو ١٩٧١ •

الذى لجأ اليه عظماء شعرائنا من أمثال اريسطوفان وشوسر وشكسبير وسويفت • اذ يستحيل الاعتقاد . ومن غير المعقول أن يعتقد أن ما قاموا به كان أمرا لا يقبل الدفاع عنه • وما قاموا به — من بين أشياء أخرى — هو كتابة قدر لا بأس به من المبتذلات ، وللأسف ان الاتيان ببيان كامل فى هذا الشأن يتطلب موهبة أفتقر اليها •

وقد لجأوا الى ذلك بصفة أساسية ، فى الكوميديا ، كما أظن • غير أن غايتهم لم تقتصر على اضحاكنا على ما يثير ضحكنا • فتمشيا مع ما ذكره أرسطو (١٢) : ان الكوميديا تدفعنا الى الضحك مما يثير السخرية فى القبح ، وغايتها هى تعليمنا ، تماما مثلما تفعل المأساة ، التى تدفعنا الى البكاء عندما نرى مظاهر الدمار من خلال النبل والسمو • وتحاكى المأساة ما هو أسمى ، أما الكوميديا فتحاكى الادنى • غير أن النوعين يشتركان فى اتصافهما بالجدية • ولقد تحدث أرسطو عنهما على السواء • كما جمع شكسبير — مثلا — بين قدرته على تأليف الكوميديا وتأليف التراجيديا •

وتحتاج الى الحياة السياسية ، تلك الجوانب من روح الانسان التى تجعله يتصف بالانسانية بمعناها الحقيقى ، والتى تفرق بينه وبين سائر الكائنات ، أسماها وأدناها فى النظام الطبيعى للأشياء ، ولم ينكر عظماء الشعراء ذلك ، اذ تتطلب فضائل الانسان نفسها ، وكذلك ما يقابلها ، يعنى رذائله ، أن يكون محكوما وحاكما • فهذه الفضائل والرذائل تخلق مطالب لن يستطيع أى شىء غير الحياة السياسية مواجهتها • غير أن الشاعر يعرف — مثلما عرف روسو — أن مطالب الحياة الفاضلة لا يمكن أن تواجه مواجهة كاملة فى الحياة السياسية ، لأنها تتجاوز هذه الحياة السياسية • ويدرك الشاعر نظام الجمال الذى يتجاوز حدود الدولة ، ويذكرنا بوجود نظام خارج ما هو تقليدى ، وأننا جزء من هذا النظام الطبيعى ، ومن النظام المتعارف عليه أيضا • وعرف شكسبير — مثلما فعل روسو — أن هناك توترا بين هذا النظام الطبيعى وبين النظام المتعارف عليه ، أو القانونى ، وكان يهدف الى حل هذا التوتر ، بالنسبة لبعض الأفراد — فى أقل تقدير — فى أعلى مستوى مستطاع . ورأى أن عليه أن يبين لهم أولا أن العالم المتعارف عليه ليس بالعالم الوحيد ، وأن وراء « فينسيا » هناك «بلمونت (١٣) » • وهناك قد يلعب الأدب المبتذل دورا من الأدوار • اذ بالمقدور استعماله

---

(١٢) Poetics ١٤٤٩ — ٣٥ •

(١٣) انظر الى الفصل الخامس من The Merchant of Venice فى كتاب Shakespeare's Politics تاليف Harry von Jaffo, Allan Bloom (نيويورك ١٩٦٤) •

للسخرية مما هو متعارف عليه · غير أنه يؤدى دوره باسم النظام الطبيعى أى النظام الخارج عما هو متعارف عليه · وتمشيا مع ذلك قد ينتقد ما هو متعارف عليه ، وقد يتم اصلاحه نوعا · وعندما يلجأ أمثال هؤلاء الشعراء الى الأدب المبتـذل فانهم يستطيعون المسـاعدة على تحقيق السـمو والعلو للبشر ، والارتفاع بهم ــ أو بقلة منهم ــ فوق النظام المتعارف عليه الذى نرغم جميعا على العيش فى ظلاله فى حياتنا الدنيوية · ان غايته هى تعليم ما هو جميل حقا ــ وليس ما تعتقد التقـاليد أنه جميل ــ ويتحقق ذلك بالاستعانة بالامتاع لأن الأدب المبتذل قادر على الاقناع حقا ·

وعبر شكسبير عن هذا الصراع بين الطبيعة والقـانون فى مناجاة ادموند فى استهـلال الفصـل الأول ــ المشهـد الثـانى من تمثيلية « الملك لير » ·

أيتها الطبيعة ، أنت الهتى ، غير أن جهدى
مقيد بالقانون · فاين ياترى سيكون موضع قدمى
فى عالم الأعراف ومصائبه ، وكيف أسمح
لتطلعات الأمم بحرمانى ·
فانا أبعد عن ذلك بجملة ليال قمرية
فتمهل يا أخى ، فلماذا أوصف بابن الزنا ، وبالدناءة ؟
وأنا الذى أملك قدرات وحنكة
فعقلى خصيب ومظهرى يعبر عن الصدق
كابن سيدة كريمة ، فلماذا نوصم
بالدناءة والسفالة ونوصف بالأوغاد ؟ لماذا لماذا لماذا ؟!
منذا الذى فى خضم الطبيعة الفاجرة المتخفية
يتحلى بتكوين أفضل ، وصفات أشرس
أكثر مما يكون عندما يظهر منهكا فى مخدع عفن كئيب
ويشرع فى خلق عشيرة من المشبوهين
وهو يترنح بين الغفلة واليقظة ، فعليك أن
تعى أيها الابن الشرعى ادجار : يجب أن أحصل على أرضك
أن أبى مولع بادموند ابن الزنا
أما أنت أيتها الكلمة الجميلة : الشرعية ! الشرعية !
ولو قدر لهذه الرسالة أن تسرع فى خطاها

وتفلح مخترعاتي ، فان ادموند الوغد سيعلو
شانه على الابن الشرعي ، وأنال ما أتمناه
فعليك أيتها الالهة أن تقفي بجوار أولاد الزنا !

ان هذا المثل يصلح لتصوير احدى الأفكار التى عنى بها عظماء الشعراء : ما هو الشيء الذى يتصف بأحقيته بحكم القانون ، وما هو الشيء الذى يتصف بأحقيته بحكم الطبيعة • وعندما ظهرت المبتذلات في الكوميديا فانها قامت بدور مشروع ، بل بدور فائق السمو في التمثيلية ، واذا استعملت على هذا الوجه ، سيكون لها ما يبررها تبريرا كاملا . وبخاصة لأن الشعر العظيم ، حتى عندما اتصف بمبتذلاته ، فانه لم يكشف عن أهميته الا في نظر قلائل ، انهم أولئك الذين يقرأون الشعر بصفة أساسية لما فيه من معان تتجاوز الابتذال ، انها المعانى التى يشير اليها الابتذال ، أما اذا استعمل الابتذال ، كما يحدث الآن ، لمجرد كونه محاولة لأسر انتباه المشاهدين ، أو كى يثير بغير أن يحقق أى علو ، أو كمحاولة تساعد النفوس الشاذة على انفلات عيارها ، والتصريح لها بفعل ما يشاء ، أو لاسقاط النظام القائم ، فانه سيغدو بلا مبرر ، لأنه سيفتقر الى الأساس الذى يستند اليه في مطالبته بحق الاعفاء من اتباع القانون • والظاهر أن المدافعين المحدثين عن الابتذال لا يدرون مغبة دفاعهم • فلقد أزالوا الفاصل بين الفن والهراء ، وعندما فعلوا ذلك ، فانهم حرموا أنفسهم من الأساس الذى يمكن أن يستندوا اليه في حماية القانون • فأية حجة كان بالاستطاعة الاستعانة بها ضد الشرطة ، لو أنها قررت القبض على المشتركين في حادث كورنل بتهمة الاستعراض ضد الاحتشام ، أو ضد القانون الذى يحرم هذه المهرجانات الخاصة « بالفن » المعاصر • ففى هذا العالم الكريم ، يتعين أن تمنح الشرطة الحق في أن تفعل ما بدا لها أيضا ! • ومن المحتمل أن ينجحوا في هذا السبيل بفضل معاونة الأغلبية ، والقانون بالتبعية ، ففى عالم يفعل فيه كل شخص ما يروق له ، لن يكون هناك معايير للصحة والخطأ • ولقد رأى القاضى دوجلاس أن واجبه يدعوه الى حماية حق هؤلاء الفنانين المعاصرين ، عندما يفعلون ما يحلو لهم • غير أن أى قاض حصيف ، لا يستبعد أن يتساءل : كيف يستطيع أى حكم أخلاقي يتصف بشذوذه ونزواتيته التامة ، أن يكون قادرا على دعم الاعتراض على القانون • فالاعتراض المتمثل في قول : « هذا هو ما أميل اليه » ، قد يكفى لنقضه أن يكون الرد عليه كالآتى : « غير أننا لا نميل الى ذلك » •

فكيف يستطاع التعبير بالاعتماد على احدى قواعد القانون عن هذه التفرقة بين الاستعمال الصائب ، وغير الصائب للابتذال ، انها مسألة

بعيدة عن البساطة ، ولقد بينت وجهة نظرى وحاجيت ، وها أنا أتنازل برضائى · ولقد بينت أيضا أنه ليس بالمقدور تحقيق ذلك على الاطلاق استنادا الى المقدمات التى ارتكن اليها قانوننا ، وأخيرا فلقد حاولت أن أبين عواقب الفشل فى تحديد الفروق فى القانون ، فلن يقتصر الأمر على توقفنا عن القدرة على تعليم الفـــارق بين ما يليق وما لا يليق ، ولكنا سنتوقف عن القدرة على التعميم ، وسننزع بالتبعية الى نسيان الفارق بين الفن والهراء ، واذا طرح الموضوع على نحو آخر ، سيقال أنه لما كانت الرقابة تحرم الانغماس فى الشهوات ، وتؤازر مبـــدأ الليـــاقة ، وعدم اللياقة ، وتحمى الديموقراطية السياسية ، فمن المفارقات أنها عندما تواجه مشكلة الاستعمال المحق وغير المحق للابتذال ، فان الرقابة تساعد أيضا على الحفاظ على الفارق بين الفن والهراء ، ومن ثم فانها تحمى الفن وتعمل بالتبعية على النهوض بمستوى هذه الديموقراطية · على أننا ننسى هـــذه الحقيقة · فلقد بدأنا بعدم وثوقنا فى قدرات المحلفين والقضاء على اصدار أحكام سليمة فى مجال يقع خارج نطاق قدراتهم الوظيفية · ولكن الكلام عن المحكمة العليا قد ساقنا بطريقة ظالمة ، الى استخلاص وجوب اجراء هذا الحكم ، لأنه من المتعذر تحقق مثل هـــذا الاجراء ، اذ ليس هناك شيء لكى يحكم عليه أى أحد ، وليس من شك أن القانون قد اعتاد الخطأ فى بعض المناسبات · غير أن الديموقراطيـــة قادرة على العيش بدون وجود تمثيلية برناردشو Mrs Warren Professionلو شاءت · كما أنها قادرة على العيش بغير « فانى هيل » · أو اذا توخينا زيادة الدقة فاننا نقول انها قادرة على العيش بعد أن أخطأت ، واحتسبت Mrs Warren ضمن نفس الفئة المتعارضة والعرف ، الى جانب فانى هيـــل ؛ وبقى أن ندرك هل سيرغب الصديق الحق للديمقراطية أن يحيا بغير الفئة المناهضة للعادات ، أى العالم الذى لا يعرف الاختلاف بين « المسز وارين » و « فانى هيل » ·

القضية المعارضة للرقابة بقلم مارشال كوهن

[مارشال ستيفن كوهن (١٩٣٩ ــ) فيلسوف أمريكى ، كتب مقالات للمجلات فى موضوعات تخص فلسفة الاجتماع وفلسفة السياسة . ويرأس كوهن تحرير مجلة الفلسفة والشؤون العامة] .

تحتاج النظرية الدستورية المعاصرة ، وحرية القول والصحافة ، فى السعى لتحقيق الليبرالية الكلاسيكية الى ما هو أكثر من مجرد اختفـــاء

(★) نقلا عن The Public Interest — Concurring and Dissenting Opinions. رقم ٢٢ (شتاء ١٩٧١) ·

الرقابة ، وخلافا لما أشار به والتر بيرنز ، فان مزاعم الليبرالية في القرن الماضي قد ذهبت الى ما هو أبعد مما تصوره بلاكستون • فلقد احتاجت الى التحرر من أية قيود مسبقة ، وأيضا من أية عقوبة لاحقة ، ومن أى تدخل حكومي ، أو ضغوط اجتماعية • ولم يفترض ميل ـ كما تصور بيرنز ـ أن الحقيقة ستسود على نحو محتوم ضد الريح العقائدية • وهذا أحد الأسباب التي تفسر لماذا تجاوزت سبل وسائل الحماية التي حث عليها من أجل حرية القول والصحافة ما هو أبعد من دعوة جون ميلتون الى انهاء منح ترخيص بذلك •

واذا كان ميل لم يعتقد أن انتصار الحق أمر لا مناص منه ، الا أنه اعتقد أن الحقيقة ـ بوجه عام ـ نعمة للبشرية ، وأن من واجب المجتمع أن يتبع تلك المبادىء الأكثر تجانسا ، وأن يكتشفها ، ويقدرها ويعمل على انتشارها • وهكذا يتضح أن ميل قد حث على القول بأن الحضارات الناضجة تؤمن بمبدأ حرية الرأى والنقاش • ولا يخفى أن مثل هذه المبادىء ستكون أشد حسما عندما توضع الأنظمة الديموقراطية في موضع شك وارتياب • فلا شىء في الحجج التي أوردها ميل يوحى بأن ثمة أمثلة بالذات من الكلام قد لا تكون ضارة (أو أن التعابير الفنية ستفيد المجتمع فائدة محتومة) ، ولكنه فيما يتعلق بالكلام ، فان أفضل ما يخدم صالح المجتمع هو عدم التدخل في حريته • فالمعاناة من الأضرار التي تسمح بها هـذه السياسة أخف وطأة من القضاء على المبدأ ، وتحريم أنواع من الكلام غالبا ما تكون محـددة تحديدا غامضا ، وهذا بالضبط هو ما جال بخاطر القـاضي بلاك عندما قال ان الدستور (الأمـريكي) قد راعى جميـع أوجه التوازن الضرورية في التعديل الأول ، ولقد وضحت حكمة هذه النظرة وضوحا كبيرا ، من تاريخ الآراء التي أوردها القاضي بلاك عن التعديل •

وعلى الرغم من هذه الحقيقة ، فان الحجج من النوع الذى ساقه ميل وبلاك ليست مقنعة بالضرورة ، فاذا كانت بعض أمثلة بالذات من الرأى تحدث ضررا في الواقع ، فانه من الميسور ذكر أنواع من الرأى يكون تحريمها ذا نفع • وواقع الأمر ، وبطبيعة الحال ، فان ميل نفسـه قد استبعد الآراء التي تحرض على العنف ، في حالات الفوران الشعورى ، كما أن المحكمة العليا لم تمانع في تحريم الآراء التي تمثل خطرا واضحا وحاضرا ، بالنسبة لأنواع محددة من الشرور ، على أقل تقدير • وليست هذه الأمثلة ، وحدها ــ بأى حال ــ هي الأمثلة الوحيـدة التي بالمقدور ترشيحها للاستبعاد • ويفتقر كلام ميل افتقارا جليا لأى اعتبارات خاصة بالآراء التي تتعرض للحياة الشخصية أو تقحم نفسـها في المحاكمات العادلة • فلم نسمع شيئا عن التحريض على الجريمة أو على الاشـتراك

فيها • ولم يأت ذكر أى شىء عن الحنث بالقسم واساءة التمثيل ، أو الاعلانات الزائفة أو الباطلة ، أو عن نواحى القــذف أو التشهير التى يعتقد قلائل – الى جانب القاضى بلاك – أن التعديل الأول يحمى بعض أشكالها • وفى جميع هذه الحالات ، بالاستطاعة ذكر ضرر كثيرا ما يحدث ، أو لا مفر من حدوثه ، كنتيجة لنوع الآراء المشار اليها ، ومن المعقــول أن نذكر ان بمقدورنا أن نستمتع بالمزايا التى قصد أن تحققها حرية الكلام والرأى ، بغير أن نتعرض لشرورها ، على أنه فى حالة المبتذلات ، فانى لا أعتقد أن هـذا الضرب من الحجج يتصف بتعسفه • فمفهوم الابتــذال غامض الى حد خطير ، ومن هنا ازدادت أهمية تحديد دوره فى التشريعات الجنائية ، ولقد منحت محاولة التحكم فى « التحلليات » و « المبتذلات » ، – بالاضافة الى الاحتياج الى التضحية غير المحددة بمبدأ عام – السلطات الجنائية قدرا غير مرغوب من التروى لم يك موثقا بوجه خاص فى مثـــل هذا المجال الحساس ، ولقد قامت بكل هذه الاجراءات ابتغاء لحمايتنا من الأضرار التى يغالى فيها بوجه عام ، وكثيرا ما تكون مصطنعة وحسب •

فلماذا اذن هذه الأضرار ؟ أعترف بأننى لم أعثر الا على القليل من الميزات فى تلميحات بيرنز • والحق أنها من بين أكثر الأشياء ابتعادا عن الصواب التى صادفتها ، فليس هناك أكثر من مبرر واهن للاعتقاد بأن الأدب المنحل يثير الناس ، ويحدث عندهم مثل هذه الانتشاءات الشهوانية مما يدفعهم الى ازدراء البنية السياسية (فهل ما حدث فى الدانمرك يؤيد ذلك ؟) وبوجه عام ، فاننى قد تأثرت بحجة توكفيل وميل وما ذكراه عن أن الديموقراطيات الحديثة تتميز بالطاعة والرضا والنزوع الى التكيف ، كما أننى أشك فى الحجة الكلاسيكية التى ذكرت أن الديموقراطية بطبيعتها متمردة وغارقة في الملذات . وفيما يختص بما يحدثه الأدب المنحل والاباحية الجنسية من أثر فالظاهر أن هذا الأثر من النــوع الذى اكتشفه ماركوزه – ازدياد فى الجنوح الى التمذهب – أكثر من كونه من النوع الذى يخشاه بيرنز (اغتصاب الأنظمة الجمهورية) • والخطر الذى جال بخاطر بيرنز بعيد للغاية ، وغير مستصوب بحيث لا يصح الارتكان اليه في تقييد حرية الرأى ، ومن الجدير بالذكر أن بيرنز لا يهتم بتقييد المبتذلات فحســب ، ولكنه – متشابها وماركوزه – يرى تقييد الرأى المرذول بوجه عام ، فلا أحد من هذين المفكرين الميالين للمبالغة قد زودنا بنوع الارشاد الذى نحتاج اليه فى النطاق الحساس للحريات التى نص عليها التعديل الأول •

فاذا كانت الحجة التى انتقلت من الاباحية الجنسية الى الفساد السياسى غير مقنعة ، فان الأمر بالمثل فيما يتعلق بالحجة الأكثر استصوابا التى رأت وجود ارتباك بين المتمثلات الخاصة بالفن المنحل وأنواع شتى من السلوك

غير المرغوب ، بما فى ذلك حتى السلوك الاجرامى • ولا يكفى القـــول ـ مثلما يقول بعض ـ انه من حيث المبدأ ـ فان علينـــا أن نقنع بتوقيع العقوبة على الأفعال الاجرامية ، وأن لا نحاول الاهتداء الى الحالات والظروف والأفعال التى أدت الى وقوعها ، وليس هناك ـ من حيث المبدأ ـ أى اعتراض على تحريم قيادة المخمورين للسيارات • غير أن تشبيه قيادة المخمورين للسيارات بقراءة الكتب المنحلة ، أمر ضار بالتأكيد ، فلا يصح مقـارنة «العادة السرية» بالموت على الطرق السريعة (من جراء حوادث السيارات) • ومن المشكوك فيه أن يكون شيوع الجرائم الجنسية قد ازداد زيادة ذات بال من أثر توافر كتب الأدب المنحل (اذ أثبتت التجربة الدانمركية عكس ذلك) • ان هذا لا يعنى القول بعدم امكان اكتشاف بعض الصلة فى حالات بالذات • ولعلنا نعرف ماذا كان باولو وفرانشيـــسكا داريمينى يقرآن عندما صمما على التوقف عن الاســـــترسال فى القراءة فى ذلك اليوم ، غير أنه بالاستطاعة الاعتقاد بأنه فى مثل هذه الحالات ، فان بعض المنبهات الأخرى قد تحدث النتيجة ذاتها ، وربما تشككنا فى جدوى اللجوء الى القيود التى قد يحتاج اليها لتحقيق ذلك ، ولمنع الشرور المشار اليها • وقد يختلف الأمر ، اذا نظرنا الى الأدب المثير ، الذى يجمع بين الاثارة والعنف ، فلقد زعم أن المؤرخ الرومانى سويتونيوس Suetnius والمركيز دى ساد مسئولان عن قتل الأطفال (ولو صحت التقارير الحديثة التى صدرت عن البيت الأبيض ، فبوسعنا أن نضيف أفلام جون وين الى هذا المقام) • واذا كان للأدب دور حاسم فى هذا الشأن ، واذا كانت الصلة الهامة بين انتشار المتمثلات العنيفة والجرائم العنيفـــة أمر يمكن اثباته ، فانه بالاستطاعة أن ذاك تبرير القيود التى تفرض فى هـــذا المجال ، ففوق كل شىء ، ان ما نحتاج اليه هو الاقلال من القتلى ، وليس الاقلال من عمليات الفسوق والعادة السرية والابتذال •

ولقد أشار اللورد دفلين الى وثوق اتصال الأخلاق بالمجتمع ، بحيث يعد أى تهديد لأخلاقيات المجتمع تهديدا لحياة هذا المجتمع • انه تهديد يتعين على المجتمع حماية نفسه من أوصابه ، ومع هذا وحتى اذا لم يعمد المرء الى اتباع زعم متطرف كهذا الزعم ، فانه من المستصوب أن نحاجى ونقول ان من حق المجتمع حماية بنيته الأخلاقية ، والأنظمة التى تجسم مبادئه الأخلاقية ضد ما يهددها • وان من حق المجتمع استخدام تقنيات القانون الجنائى لتحقيق هذه الغاية • وثمة قدر كبير من الحق فى هذه المزاعم التى تتميز بشدة تعقيدها مما يصعب مناقشتها فى هذا المقام ، على أنه من الواجب تقديم بعض تحذيرات ، وبخاصة لأنها شديدة الارتباط بالقضية المباشرة • اذ تعد محاولة تشجيع الطهارة الجنسية عن طريق مـادة (٨) :

التحكم في الأحكام والفانتازيات الجنسية (حتى اذا انتهت بدبلة الخطوبة ثم بشهر العسل) تحكما في الفكر . كما أن محاولة الحفاظ على أنظمة الزواج والأسرة عن طريق التحكم في الكتب التي تحتوي على مادة اثارة قد لا تختلف عن كونها محاولة للتحكم في حرية الرأي والصحافة . وليس واضحا على الاطلاق ما هي الاعتبارات التي يفترض أنها ستعفي هذه الأفكار من الحماية ، وهذه الأنظمة من عدم الاحترام والنقد المتوقع في الحالات اخرى . وتعد محاولة التهرب من عبء تحديد الاعتبارات بالقول بأن الأحاديث المبتذلة وكتب الاثارة الجنسية ليس لهـا قيمة اجتماعية قادرة على تحقيق الخير أمرا غير مقبول ، وربمـا رأى الرئيس أن كلمة smut (*) كافية لأغراضه . غير أن هناك أنواعا عديدة من الكلام والكتابة تندرج تحت مصطلحي « الابتذال » و « التحلل » الأدق في مفهوميهما . فالأدب المنحل يدل من بين أشياء أخرى ، على نوع من كتب الأدب لا يلزم أن يستخدم لغة مبتذلة (اذ كان هـذا الضرب من التعفف أمـرا حاسما للتأثير الفني في حالتي رواية جامياني لألفرد دى موسيه وفانى هيل لكليلند Cleland) . وبمقدور هذا النوع من الكتب الأدبية الزعم أنه استطاع الاتيان بمنجزات فنية أخاذة ، وبالاضـافة الى ذلك ، وكما لاحظ بيرنز نفسه فان الفن المنحل لا يقتصر أمره على الاثارة الجنسية ، فهو يرمى أيضا الى غايات أبعد من الناحية الأخلاقية والناحية السياسية . (فللفن المنحل دور حركي كما يرى ستيفن ديدالوس Dadalus ، الذى تعارض وستيفن والاتجاه بأسره الذى يرتد الى كانط وشوبنهاور ، ومن ثم فلم يعتبر الأدب المنحل غير لائق أو غير فنى) . ومن الملاحظات النيرة ما قيل عن أن الماركيز دى ساد يمكن أن يفسر على أنه قام بالرد على دانتى . كما رئى أن « فانى هيل » قد جاءت كرد على باميلا Pamela وقد نبه هذا النوع الى بعض المسائل الأخلاقية . فكما بين دافيد فوكسون فان هناك أنواعا من هذا الأدب قد كشفت نفاق المجتمع وزيف المظاهر حتى عندما هاجمت الحب الرومانسى ونظام الأسرة ورجال الدين والأخلاقيات القمعية ، والدين ذاته ، وليس من شك أن هذا هو سر رغبة بعضهم في قمعه ، على أنه من بين المبادىء التى يمكن الاهتداء اليها ــ وهو مبدأ سليم ــ القول بأن هـذه الأنظمة بالرغم من امكان حمايتها على أنحاء شتى ، الا أنها ليست معصومة من تأثير النقد الأخلاقى والتفسـير الفنى . فاذا لم يك بمقدور مبادئنـا الأخلاقية ، أو الأنظمة التى تجسمها أن تبقى على قيد الحياة بعد هذا النقد والدراية ، فان هذا يعنى عدم جدارتها بالاستمرار فى البقاء ، لأننا فى هـذه الحالة سنكون ازاء ضرورة تستوجب التغيير ، ولا تكون حيـال اعتداء غير مقبول .

(*) قاذورات .

بطبيعة الحال ، لا تنضوى جميع أعمال الفن المنحل والمبتذل ضمن المنجزات الفنية ، أو ترقى الى مستوى الأعمال « التى تدافع عن فكرة ما » . فقد لا يكون لها « أية أهمية اجتماعية تساعد على تخليصنا من بعض الأوصاب » ولقد رأت المحكمة العليا هذا الرأى عندما لم تقر وصف بعض الأحاديث والكتابات على أنها مبتذلة من الناحية القانونيـــة ، ولم تمنحها أية حماية قانونية ، وتعد محاولة المحكمة العليا وضع معايير صالحة للتداول قانونيا للتفرقة بين ما ينظر اليه عادة على أنه مبتذل ، وبين ما هو مبتذل من الناحية القانونية غير كافية على نحو يثير الأسف ، ولا يقر اعتراف القاضى استيوارت المبجل بأنه على الرغم من معرفته بنفايات الفن المنحل عندما يراها ، الا أنه ليس قادرا على تعريفها ، ورغم أن اعترافه قد حظى بالقبول فانه لا يصلح للاسترشاد به فى الأمور القانونية . فاذا كانت المحكمة قد عجزت عن وضع معايير تفى بالغرض فى هذا المضمار ، وليس هناك احتمال فى امكان توفيقها فى هذا الشأن ، فانى أعتقد أن من واجبها أن تتبع الطريق الليبرالى . وليس من شك ان الحجج الواهية التى تقدمها لتأييد زعمها بأن الآراء المبتذلة لا تعد آراء على الاطلاق فى مفهوم القانون ، لن تعوق بأى حال مثل هذا الحل .

لا يفهم مما ذكرت أنه من غير المستطاع تقديم تنازلات للجانب من الرأى العام الذى يرى العروض المنحلة مقززة وضارة . وهنا أعتقد أن ريتشارد كوه Kuh فى كتابه Foolish Figleaved قد قدم بعض اقتراحات معقولة . وفى اعتقادى أن أى مشروعين من مشروعات قوانينه المقترحة يتجاوبان من ناحية جوهرية والمبادىء الليبرالية . ويتجاوبان أيضاً ورأى المحكمة العليا . فثمة اختلاف بين القول بأن نشر أو بيع المبتذلات يتعين أن يتمتع بالحرية ، والقول بأن هذه المبتذلات قد تفرض على الجماهير . ولقد بينت المحكمة فى احدى القضايا أنها لا تنوى حماية « أى اعتداء على حرمة الفرد عن طريق منشـــورات شـــديدة الاضرار بحيث يتعذر على من لا يرضون من الأفراد عن ذلك تجنب التعرض لها » . ولقد استندت المحكمة فى حجتها على دعامة صحيحة ، وهى الاعتداء على حرمة الفرد ، ووجوب التحكم فى « المضايقات العامة » . اذ فهم من هذه العبارة ، ارتباط هذه المضايقات بالاعتداء على حرمة الفرد . وهـــذه ناحية مقبولة تمـــاما . وستساعد هذه النظرة على الحيلولة دون خلق عروض مؤذية عامة من النوع الذى يسعى « كوه » للسيطرة عليه . وبالمقدور أيضا العثور على أساس دستورى سليم لتحريم بيع الكتب المنحلة والمبتذلة للنشء والصغار . ولقد سبق أن اقترح الرئيس نيكسون فى بيانه الذى رفض فيه تقرير اللجنة التى بحثت مسألة الابتذال والأدب المنحل الرجوع الى المبدأ الذى يعتقد

أن الادب المنحل يجب أن يحرم تداوله حتى لا يقع فى يد البالغين ، لأن تركه حر التداول ستترتب عليه أثار غير مباشرة على الصغار ، غير أن هذه النظرة لها عواقب قانونية مشكوك فيها (بطلر ضد ميتسيجان) وعلى الرغم مما يحيط فكرة المبتذلات من غموض ، فان بوسعنا أن نطبق فى حالة الأدب المنحل نوع التحريمات التى تتبع فى حالة المشروبات الروحية والمسكرات ٠

والظاهر أن « كوه » قد شعر بثقة أقل فى النوع الثالث من القوانين التى نادى بها ، وفى ظنى أن هذا الافتقار الى الثقة جدير بالثناء ٠ فلقد اقترح التحريم الكامل للعرى والابتذال فى العروض « الحية » والأفلام ، أو اجراء أى تجارب من قبل المسرح الراقص فى البلدان الواطئة (هولاندة والدانمرك) وغير ذلك من العروض المشابهة ٠ وفى ظنى أن سيكلوجيته الأخلاقية وفنومنولوجيته للحياة أعظم تأثيرا ورقة مما جاء به بيرنز٠ويلاحظ أن هذه المغالاة فى الحد من الحرية ، التى أصادف تدعيما لها ببيان الأضرار الواضحة التى ستترتب عليها ، وبغير القاعدة القانونية التى استند اليها ، قد كانت متراخية فيما يتعلق بالكتب والنشرات ، التى أركز عليها الآن ٠

فقد اقترح كوه فى حالة الكتب والمقالات ، وجوب النظر الى الاستغلال التجارى ، الذى جاء من اهتمامات مرضية بالجنس ، وغير ذلك من التفاصيل الفظيعة كجرائم مؤذية ٠ فما هو اذن الذى سيتحقق من وراء العقوبة التى ستوقع على حالات مضايقة الناس واستغلال الكتب المنحلة استغلالا تجاريا ؟ ٠ ولما كان هذا الجزء من قانون كوه المقترح لم يفرض أى قيود على الاقتناء الشخصى للمواد الخليعة ، أو على بيع هذه الكتب للبالغين ، عندما لا يكون وراء ذلك « أى استغلال تجارى » ، لذا سيكون الضرر الذى سيراد الخلاص منه هو زيادة التوزيع الذى سيحققه الاستغلال التجارى كشىء مقابل لما قد يتحقق ٠٠٠٠ (ولست أدرى ما الذى يعنيه بالضبط ؟) فهل هو يقصد تقنية البيع فى النظم الرأسمالية التقليدية ؟ فاذا كان الحق القانونى يبيح بيع الكتب المنحلة ، ولا يمنع شراءها ، لذا سيكون من الصعب تصور ما هى المبادىء القانونية التى ستستند اليها الحكومة عندما تحاول المساس بهذا الحق فى حالة وجود استغلال تجارى يكمن وراءه ٠ وبالاضافة الى ذلك ، فللحصول على هذه الميزة ، ستضطر الحكومة الى التورط فى مسائل مثل اقامة فارق بين الاهتمام المرضى والاهتمام السوى ، وكذلك تحديد الاختلاف بين « الاستغلال التجارى » وتقنيات البيع السوية ٠ ان جميع هذه المسائل تثير صعوبات حادة حول هذا الغموض المتعارض والقانون ، وتتطلب أقصى قدر من الحذق والحكمة من السلطات الجنائية ، وعندما سنراجع ونعيد النظر فى هذه المسألة ، سيتضح

لنا أن المزايا ـ والتى ربما كانت أمرا مشكوكا فيه ـ لا تستحق المخاطر ، التى ستصادف فى سبيلها ٠

بطبيعة الحال ، فاننا قد نشعر ـ وأظن أن بيرنز قد شعر بذلك ـ أن المهمة المحورية ـ ولعلها هى الأهم ـ للقانون الجنائى هى التعبير عن حكم المجتمع فى أنواع مختلفة من السلوك ، وأن تدين أولئك الذين يسلكون سلوكا مؤسفا ، لذا قد يكون من المثير للدهشة أن يرتضى أحد لديه مبادىء مماثلة لمبادى بيرنز تأييد اقتراحات كوه فى هذا الصدد ، فهى بعد أن سلمت بانتشار الكتب المنحلة بين البالغين (شريطة أن يتم بيعها على نحو مقبول) وسلمت أيضا بالسماح بامكان حدوث حالات ادمان لاقتناء هذه الكتب ، فانها قد أخفقت فى نبذ الشرور التى اعترض عليها بيرنز وآخرون ، فلقد جاءوا بمحاولة غير مباشرة ـ يحتمل أن لا تكون مثمرة ـ لاحتواء هذا الشر ، ونبذوا ـ ان صح أنهم نبذوا أى شىء على الاطلاق ـ نوعا من التجارة لا يستنكرها المجتمع بوجه عام ٠٠٠ فالأمر بعيد تماما عن ذلك ٠

وانى أرى الاقتصار على تحريم المضايقات العامة عن طريق القانون ، وأتمنى أن تسعى مختلف الهيئات لرفع مستوى الذوق الأدبى ٠ وانى موقن أن بمقدور المجتمع الليبرالى أن يفرق بين الفن والهراء (ولعلى أعتقد أن هذه التفرقة لا تنطبق على الاختلاف بين مهنة السيدة وارين لبرناردشو ورواية فانى هيل) ٠ ولن يقل انتشار الكتب المنحلة ـ حتى وان كانت من النفايات ـ حتى اذا نجح مجتمعنا فى اقامة مثل هـــذه التفرقة ٠ ولا يصح أن يقال نفس الشىء عن تفسير التعديل الأول الذى قام المستر بيرنز بترويجه منذ بضع ســنوات ٠ فلو قبل رأيه على نطـاق واسع ، فانه سيمثل تهديدا أعظم للولايات المتحدة يفوق الكتب المنحلة التى تطبع الآن فى بلادنا وفى الدانمرك على حد سواء ٠

(الغردقة ١٤ ديسمبر ١٩٨٨)

مراجع مقترحة للاستزادة

مختـــارات

Ellmann, Richard and Feidelson, Jr., Charles (eds.). *The Modern Tradition : Backgrounds of Modern Literature.* New York : Oxford U.P., 1965. Although this hefty volume contains numerous selections from philosophers, it is particularly rich in selections from artists revealing the attitudes and ideas so influential in the development of modern art. The relationships of the artist to morality and to society constitute pervasive themes of this anthology.

Girvetz, Harry and Ross, Ralph (eds.). Literature and the *Arts : The Moral Issues.* Belmont, Calif. : Wadsworth, 1971. Selections by aestheticians, artists, and critics on such subsubjects as aestheticism, art and politics, art and sex, and art and alienation.

Hofstadter, Albert and Kuhns, Richard (eds.). *Philosophies of Art and Beauty.* Chicago : University of Chicago Press, 1976. A collection of lengthy selections from comprehensive and systematic philosophies of art and beauty ranging from Plato to Heidegger.

Kennick, W. E. (Ed.). *Art and Philosophy : Readings in Aesthetics,* 2nd ed. New York : St. Martin's. 1979. A new edition of a well-known anthology containing some of the most recent and influential writings in aesthetics.

Rader, Melvin (ed.). A Modern Book of *Esthetics,* with an unusually large and valuable bibliography.

Particular attention is called to the bibliographic sections "Ecology and Environmental Design" and "Art and the Social Order."

Barrett, William. *Time of Need : Forms of Imagination in the Twentieth Century.* New York : Harper, 1972. A lucidly written study of contemporary art and Nihilism by an American philosopher strongly influenced by Martin Heidegger. Although painting and sculpture are discussed, the main emphasis falls on literature.

Beardsley, Monroe C .*Aesthetics*. New York : Harcourt, 1958. A clear, stimulating, and critical discussion of various subjects in the field of aesthetics. Chapter XII. "The Arts in the Life of Man," deals with such topics as art for art's sake and art and obscenity. The close of each chapter is followed by a large and annotated bibliography.

Bell, Clive, *Art*. New York : Capricorn, 1958. A famous and relatively recent statement of a nearly pure Aestheticist view of art as form and only form.

Dickie, George. *Aesthetics: An Introduction. Indianapolis*: Pegasus, 1971 A concise but informative introductory exposition of the history and problems of aesthetics written from the contemporary analytic point of view in philosophy. Particular attention is called to chapter 11: "Art As a Social Institution."

Gotshalk. D. W. *Art and the Social Order,* 2nd ed. New York : Dover, 1962. A lively, easily read book, in which the author develops his own theory of art and emphasizes the relations of art and society. A good example of recent American philosophical thinking on the social context of art.

Holbrook, David (ed.). *The Case Against Pornography.* New York : Library P., 1973. A large collection of recent essays attacking pornography by philosophers, novelists, psychologists, literary critics, sociologists, psychiatrists, journalists, and others.

Hughes, Douglas A. (ed.). *Perspectives on Pornography.* New York : St. Martin's, 1970. A collection of recent pro and con essays on the artistic status of pornography and the desirability of censorship.

Maritain, Jacques. *The Responsibility of the Artist.* New York : Scribner's 1960. A succinct discussion of the interrelations of the contemporary artist with morality and society by one of the outstanding Neo-Scholastic philosophers of the twentieth century. Maritain's reflections were nourished by an extensive knowledge of the various arts and personal acquaintance with individual artists.

Osborne. Harold. *Aesthetics and Art Theory* : *An Historical* Introduction. New York : Dutton Paperback Original, 1970. A philosophically informed account in nontechnical language of theories about the fine arts with particular emphasis on their social functions, purposes, and values from ancient Greece to the present. This richly illustrated book includes a discussion of Chinese and Indian aesthetic thought. The author is the editor of *The British Journal of Aesthetics.*

The Report of the Commission on Obscenity and Pornography. Introduction by Clive Barnes. New York : A New York Times Book, Bantam Books, 1970. (Hardback edition published by Random House.). The highly controversial report of the commission established by President Lyndon Baines Johnson. Also contains separate statements by the Commission members dissenting from the majority report.

Santayana, George. *Reason in Art.* (*The Life of Reason,* Vol. IV.) New York : Scribner's, 1933. A classic work on the role of art in human life and human life as an art by a great American philosopher and poet.

Tolstoy, Leo N. *What Is Art?* Translated by Almyer Maude. Indianapolis : Bobbs. The Library of Liberal Arts. 1960. A great artist's defense of the subordination of art to morality and religion.

Williams, Duncan. *Trousered Apes.* New Rochelle, N.Y. : Arlington, 1972. The author vigorusly argues and copiously illustrates his thesis that modern literature assaults all those characteristics and standards distinguishing man from the animals.

Dictionary of the History of Ideas : *Studies of Selected* Pivotal Ideas. Philip P. Wiener, editor-in-chief. New York :

Scribner's, 1973. Substantial and clearly written essays emphasizing the historical development of topics discussed in this part. Designed to inform the nonspecialist, each essay concludes with a select bibliography.

Encyclopedia of Philosophy. Paul Edwards, editor-in-chief. New York : Macmillan, 1967. The beginning student will find many worthwhile articles on the subjects treated in this part, and excellent bibliographies.

الفهرس

صدر من هذه السلسلة :

	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١	أحلام الأعلام وقصص أخرى	برتراند رسل
٢	الألكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
٣	نقطة مقابل نقطة	الدس هكسلى
٤	الجغرافيا فى مائة عام	ت · و · فريمان
٥	الثقافة والمجتمع	زايموند وليامز
٦	تاريخ العلم والتكنولوجيا · ج ٢ · القرن الثامن عشر والتاسع عشر	ر · ج · فوربس
٧	الأرض الغامضة	ليستر ديل راى
٨	الرواية الانجليزية	والتر آلن
٩	المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
١٠	آلهة مصر	فرانسوا دوماس
١١	الانسان المصرى على الشاشة	د· قدرى حفنى وآخرون
١٢	القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة	أولج فولكف
١٣	الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
١٤	مجموعات النقود صيانتها ·· تصنيفها ·· عرضها	ديفيد وليام ماكدونال
١٥	الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشوان
١٦	عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموسوى
١٧	ديلان توماس مجموعة مقالات نقدية	اشراف س· بى· كوكس
١٨	الانسان ذلك الكائن الفريد	جون لويس
١٩	الرواية الحديثة · الانجليزية ـ والفرنسية جـ ١	بول لويس
٢٠	المسرح المصرى المعاصر · أصله وبدايته	د· عبد المعطى شعراوى
٢١	على محمود طه ·· الشاعر والانسان	أنور المعداوى
٢٢	القوة النفسية للأهرام	بيل شول وأدنبيت
٢٣	فن الترجمة	
٢٤	تولستوى	رالف ئى ماتلو
٢٥	ستندال	فيكتور برومبير
٢٦	رسائل وأحاديث من المنفى	فيرنر هيزنبرج
٢٧	الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيكتور هوجو
٢٨	التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٢٩ ـ فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف · ع · أدنيكوف
٣٠ ـ أدب الأطفال · (فلسفته ـ فنونه ـ وسائطه)	هادى نعمان الهيتى
٣١ ـ أحمد حسن الزيات · كاتبا وناقدا	د· نعمة رحيم العزاوى
٣٢ ـ أعلام العرب فى الكيمياء	د· فاضل أحمد الطائى
٣٣ ـ فكرة المسرح	فرنسيس فرجون
٣٤ ـ الجحيم	هنرى باربوس
٣٥ ـ صنع القرار السياسى فى منظمات الادارة العامة	السيد عليوة
٣٦ ـ التطور الحضارى للانسان (ارتقاء الانسان)	جوكوب براونوفسكى
٣٧ ـ هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د· زوجر ستروجان
٣٨ ـ تربية الدواجن	كاتى ثير
٣٩ ـ الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	
٤٠ ـ النحل والطب	د· ناعوم بيتروفيتش
٤١ ـ سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
٤٢ ـ سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د· لينوار تشامبرز رايت
٤٣ ـ كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د· جون شندلر
٤٤ ـ الصحافة	بيير البير
٤٥ ـ أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
٤٦ ـ الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د· رمسيس عوض
٤٧ ـ حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د· محمد نعمان جلال
٤٨ ـ الفكر الأوربى الحديث جـ ١	فرانكلين ل · باومر
٤٩ ـ الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
٥٠ ـ التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د· محيى الدين أحمد حسين
٥١ ـ نظريات الفيلم الكبرى	تأليف : ج· دادلى أندرو
٥٢ ـ مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
٥٣ ـ الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد ؟	د· جوهان دورشنر

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٥٤ ـ مبادرة الدفاع الاستراتيجي حرب الفضاء (دراسة تحليلية لأسلحة واستراتيجيات حرب الفضاء)	طائفة من العلماء الأمريكيين
٥٥ ـ ادارة الصراعات الدولية (دراسة في سياسات التعاون الدولى)	د. السيد عليوة
٥٦ ـ الميكروكمبيوتر	د. مصطفى عنانى
٥٧ ـ مختارات من الأدب اليابانى (الشعر ـ الدراما ـ الحكاية ـ القصة القصيرة)	مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء والمحدثين
٥٨ ـ الفكر الأوربى الحديث . جـ ٢ (الاتصال والتغير في الأفكار) من ١٦٠٠ ـ ١٩٥٠	فرانكلين ل . باومر
٥٩ ـ تاريخ ملكية الأراضى في مصر الحديثة	جابرييل باير
٦٠ ـ أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	أنطونى دى كرسبنى
٦١ ـ الفكر الأوربى الحديث . جـ ٣	فرانكلين ل . باومر
٦٢ ـ كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
٦٣ ـ الزمن وقياسه	زافيلسكى ف . س
٦٤ ـ أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
٦٥ ـ الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر ر. داى
٦٦ ـ سبعة مؤرخين في العصور الوسطى	جوزيف داهموس
٦٧ ـ التجربة اليونانية	س . م بورا
٦٨ ـ مراكز الصناعة في مصر الاسلامية	د. عاصم محمد رزق
٦٩ ـ العلم والطلاب والمدارس	رونالد د. سمبسون و نورمان د. أندرسون
٧٠ ـ الشارع المصرى والفكر	د. أنور عبد الملك
٧١ ـ حوار حول التنمية	والت روستو
٧٢ ـ تبسيط الكيمياء	فريد هيس
٧٣ ـ العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
٧٤ ـ التذوق السينمائى	آلان كاسبر
٧٥ ـ التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى

العنوان	المؤلف
٧٦ ـ البذور الكونية	فريد هويل شندرا ويكرا ماسيخ
٧٧ ـ دراما الشاشة ج ١	حسين حلمى المهندس
٧٨ ـ الهيروين والايدز	روى روبرتسون
٧٩ ـ الفكر الأوربى الحديث ج ٤	فرانكلين ل ٠ بلومر
٨٠ ـ نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
٨١ ـ صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
٨٢ ـ الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د٠ محمود سرى طه
٨٣ ـ دراما الشاشة ج ٢	حسين حلمى المهندس
٨٤ ـ المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
٨٥ ـ وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
٨٦ ـ الهندسة الوراثية	ويليـــام بينر
٨٧ ـ تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
٨٨ ـ كتب غيرت الفكر الانسانى	أحمد محمد الشنوانى
٨٩ ـ الفلسفة وقضايا العصر ج ١	جمعها : جون ٠ ر ٠ بورو وميلتون جولدينجر
٩٠ ـ الفكر التاريخى عند الاغريق	أرنولد توينبى
٩١ ـ قضايا وملامح الفن التشكيلى	د٠ صالح رضا
٩٢ ـ التغذية فى البلدان النامية	م٠هـ كنج وآخرون
٩٣ ـ الفلسفة وقضايا العصر ج ٢	جمعها : جون ر يورد وميلتون جولدينجر
٩٤ ـ بداية بلا نهاية	جورج جاموف
٩٥ ـ الحـرف والصـــناعات فى مصر الاسلامية	د٠ السيد طه أبو سديرة
٩٦ ـ حـوار حـول النظامين الرئيسيين للكون ج١	جاليليو جاليليه
٩٧ ـ حوار حول النظامين الرئيســيين للكون ج٢	جاليليو جاليليه
٩٨ ـ حوار حول النظـامين الرئيسـيين للكون ج٣	جاليليو جاليليه
٩٩ ـ الارهـــاب	أريك موريس ، آلان هو
١٠٠ـ أخنـــاتون	ســيريل الدريد
١٠١ـ القبيلة الثالثة عشرة	آرثـر كيستلر

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٥١٨ /١٩٩١

ISBN — 977 — 01 — 2766 — 3

يدور الجزء الثالث والاخير من كتاب «الفلسفة وقضايا العصر» حول موضوعين اساسيين :

اولا : المعرفة والعلم ثانيا : الفن والمجتمع .

وكان سقراط اول من نبه إلى بدء الفلسفة بالشك البناء الذى ينتهي بالمعرفة التى تكتسب اما بالاستدلال العقلى او من التجربة ثم تتجسم فى نهاية المطاف فى شكل العلم الذى خطا خطوات ظافرة فى العهد الحديث . ولم تكن نتائجه دائما خيرة ، إذ كانت له سلبيات هددت الحضارة والبيئة مما دعا إلى ظهور علم الايكولوجيا الذى ينقسم إلى تيارين احدهما غيبي يؤمن بقداسة الطبيعة والآخر يرى أن علاج اوصاب العلم هو المزيد من العلم .

والموضوع الثانى الفن والمجتمع ويتركز حول قضية مابرحت تؤرق المفكرين عن دور الرقابة على الفن فى الحفاظ على الأخلاق .

٣٧٥ قرشـــا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب